مركز تحقيق التراث

نهاية الأرب في فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري
٦٧٧ - ٧٣٣هـ

الجزء الثامن والعشرون

حققه ووضع حواشيه

دكتور محمد محمد أمين
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دكتور محمد حلمي محمد أحمد
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة



١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

نهاية الأرب
في
فنون الأدب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وذريته وتابعيه إلى يوم الدين.

وبعد فهذا هو الجزء الثامن والعشرون من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين النويرى، وهو الجزء السادس والعشرون من مخطوطة الكتاب المحفوظة بمكتبة كوبريللى بالأستانة، والتى توجد منها نسخة مصورة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة.

ويختلف منهج التحقيق فى هذا الجزء بالذات عن منهج تحقيق الأجزاء السابقة، فضلا عن الأجزاء اللاحقة، ذلك، أنه توجد عدة نسخ غير متكاملة من مخطوط نهاية الأرب لدرجة أنه توافرت لبعض الأجزاء أربع نسخ، منها نسخة بخط المؤلف فى بعض الأحيان، مما جعل مهمة تحقيق النص أكثر سهولة، ولكن الأمر يختلف بالنسبة لهذا الجزء بالذات، فلا توجد نسخ أخرى كاملة من هذا الجزء بين ما هو معروف من نسخ كتاب نهاية الأرب.

وتزداد صعوبة العمل فى تحقيق هذا الجزء لوجود نقص فى أوله — قد لايزيد عن بضع ورقات — كما يوجد نقص فى آخره — قد يكون ورقة واحدة —، كما أن سياق الكلام والحوادث غير متصل فيما بين اللوحتين ١٢٤، ١٢٥.

فأوراق هذا الجزء تبدأ باللوحة رقم ٧ ، وعلى هامشه إشارة لأحد العاملين بدار الكتب «الأصمعى» فى الثلاثينات من هذا القرن ، تفيد أن الأوراق من ١إلى ٦ موضوعة خطأ . وبالبحث عن هذه الأوراق المفقودة ، وبالرجوع إلى سلبيات تصوير هذا الجزء ، والتى ترجع إلى سنة ١٩٢٣ ، تبين أن هذه الأوراق موجودة بالسلبية ، ولكن بها أخبار حوادث سنوات ٥٩٩ ـــ ٦٠٢هـ ، وهذه الأحداث تقع ضمن الجزء التالى ، وأن الأوراق التى نزعت من بداية الجزء ٢٦ نقلت إلى موضعها فى بدايات الجزء ٢٧ من المخطوطة .

وإزاء هذا الوضع لم نجد بُدًّا من تقديم المتن الموجود من الجزء ٢٦ من المخطوط كما هو ، مع الإشارة إلى مواضع النقص .

وإزاء عدم وجود نسخ أخرى من هذا الجزء كان لزاما الرجوع إلى المصادر التى نقل عنها النويرى للمقابلة عليها فى محاولة لتقديم نص أقرب مايكون لنص المؤلف ، ولم يكن الأمر سهلا ، فرغم أن النويرى يبدأ عباراته بلفظ «قال» ، أو «قال المؤرخ» ، فإنه لايذكر لنا من الذى قال ، أو من هو المؤرخ إلا فى حالات محدودة ذكر فيها صراحة أنه نقل عن «ابن جلب راغب فى تاريخ مصر» ، وهو المعروف بابن ميسر .

وعن طريق متابعة هذه الإشارات ، مع مقارنة النصوص ومقابلتها على المصادر المعاصرة للأحداث أمكن التعرف على أهم مصادر النويرى فى هذا الجزء .

وطبيعة هذا الجزء الذى يتناول فيه النويرى «أخبار ملوك الديار المصرية» من بداية العصر الطولونى حتى دخول الملك العادل الأيوبى القاهرة فى أوائل العصر الأيوبى ، جعلت النويرى ينتقى لكل فترة

مصدرا أو أكثر يأخذ عنه مادته العلمية ، فعلى سبيل المثال ، عندما يتناول أخبار الدولة الفاطمية فى شمال أفريقيا يعتمد على كتاب افتتاح الدعوة للقاضى النعمان ، وعندما تنتقل الدولة إلى مصر يعتمد على كتاب أخبار مصر لابن ميسر ، وعندما يتحدث عن الحملة الصليبية الأولى يعتمد على كتاب الكامل لابن الأثير ،وهكذا .

وبالإضافة إلى هذه المصادر الأساسية كان النويرى ينقل عبارات أو مقتطفات من مصادر أخرى يضمنها كتاباته ، وعلى سبيل المثال أيضا ما كان يأخذه عن كتاب أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر .

لذلك استلزم تحقيق هذا الجزء بالذات مقابلة ما ورد به مع المصادر المعاصرة للأحداث ، فى محاولة لتقديم نص متكامل أقرب مايكون إلى نص المؤلف ، واقتضى الأمر إضافة بعض الكلمات أو العبارات ، أو تصحيح بعضها وفقا لما يرد فى هذه المصادر .

وفى جميع الأحوال أشرنا إلى ذلك فى الهوامش ، فكل ما أضيف إلى المتن وضع بين حاصرتين [ ] ، وكل ما تم تصحيحه تم التنبيه عليه فى الهوامش .

وبالإضافة إلى معالجة النص تم التعريف بالأعلام والأماكن والمصطلحات بقدر الإمكان ، وذلك عند ورودها لأول مرة ، مع ترك المعروف منها والمتواتر حتى لاتثقل الهوامش ويطغى التعليق على النص الأصلى للمؤلف .

ولما كان هذا الجزء يتناول أساسا العصر الفاطمى ، من الورقة ٢١ إلى الورقة ١٠٥ ، فقد كان للنصوص التى نشرت حديثا عن هذا العصر

أهمية خاصة فى تحقيق هذا الجزء ، وعلى سبيل المثال : أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر والذى صدر عام ١٩٧٢ ، والجزء الثالث من اتعاظ الحنفا للمقريزى عام ١٩٧٣ ، وكتاب افتتاح الدعوة للقاضى النعمان عام ١٩٧٥ ، وأخبار مصر للمسبحى عام ١٩٧٨ ، وأخبار مصر لابن ميسر عام ١٩٨١ ، ونصوص من أخبار مصر لابن المأمون عام ١٩٨٣ .

وقبل أن أختتم هذه المقدمة أحب أن أشير إلى أن مؤسسة التأليف والترجمة سبق وأن عهدت إلى المرحوم الدكتور محمد حلمى محمد أحمد الأستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة بتحقيق هذا الجزء من كتاب نهاية الأرب ، وقد قام رحمه الله بإنجاز هذا التحقيق فى حوالى سنة ١٩٦٥ ، ولكن ولأسباب مختلفة تأخر طبع أجزاء كتاب نهاية الأرب .

وعندما شرع مركز تحقيق التراث فى تقديم هذا الجزء إلى المطبعة فى عام ١٩٨٥ رأى أن التحقيق المقدم من المرحوم الدكتور محمد حلمى محمد أحمد منذ عشرين عاما فى حاجة إلى استكمال . ولم يكن فى وسع أحد أن يستكمل ما بدأه الدكتور محمد حلمى محمد أحمد نظرا لاختلاف مناهج التحقيق ، فضلا عن ظهور العديد من المصادر والمراجع التاريخية التى لم تكن متوافرة وقت أن حقق المرحوم الدكتور محمد حلمى محمد أحمد هذا الجزء ، ومن ثمَّ أصبح من الضرورى إعادة قراءة هذا الجزء وتحقيقه فى ضوء المصادر التى ظهرت بعد سنة ١٩٦٥ .

ورغم عدم إمكانية الإفادة من التحقيق الذى قام به الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ــ للأسباب المذكورة ــ فإنى رأيت أن أضع اسم المرحوم الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ــ كمحقق مشارك ــ على غلاف هذا الجزء باعتبار أنه ــ رحمه الله ــ أول من عمل فى تحقيق هذا

الجزء ، وأن ظروف وفاته هى التى حالت دون أن يظهر هذا الجزء بتحقيقه ، وذلك تكريما له ، وإحياءً لذكراه ، رحمه الله .

وفى ختام هذه المقدمة لايسعنى إلا أن أتقدم بالشكر إلى كل من الأستاذ محمد كامل محمد شحاته ، وكيل الوزارة ورئيس قطاع دار الكتب والوثائق القومية ، والأستاذ على عبد المحسن زكى مدير عام مركز تحقيق التراث ، لما قاما به من تذليل للصعاب والمعوقات الإدارية ، وتوفيرهما للمخطوطات والمصورات التى احتجت إليها عند تحقيق هذا الجزء .

كما أوجه الشكر إلى السيد / محمد محمد صقر الباحث الأول بمركز تحقيق التراث لما بذله من جهد فى الإشراف على طبع هذا الجزء وتصحيح تجارب الطباعة ، مما أدى إلى إخراج الكتاب على هذا النحو .

كذلك أوجه الشكر إلى السيدة / حكمت الخضرى لما بذلته من جهد فى إعداد (ماكيت) الكتاب .

وبعد ، فالكمال لله وحده ، ولايسعنى إلا أن أذكر قوله تعالى : ﴿ربَّنا لاتُؤَاخِذنا إنْ نَسِينا أو أخْطَأْنا﴾ ، وأدعوه سبحانه وتعالى أن يوفقنا لخدمة التراث الإسلامى ،

والله ولى التوفيق ..

دكتور محمد محمد أمين

القاهرة فى ١٥ شعبان ١٤٠٦ هـ
٢٤ ابريل ١٩٨٦ م

[الباب الثانى عشر من القسم الخامس
من الفن الخامس
أخبار ملوك الديار المصرية] [١]

[الدولة الطولونية] [٢]

[٧] فتجهز أحمد للمسير إلى الشام[٣] ، وسار فى شوال سنة أربعٍ وستِّين لقَصْده[٤] ، واستخلف على مصر ابْنَهُ العبَّاس ، وعضّده بأحمد بن محمد الواسطى . وكتب إلى عَلِىّ بن أمَاجُور وإلى أصحاب أبِيهِ الَّذين أقامُوه يذكُر أنَّ الخليفة[٥] أقطعه الشام والثُّغور مضافًا إلى ما بيده . فأجابُوه بالسّمع والطَّاعة ، وتلقّاه ابن أمَاجُور بالرّملة ، فأقرَّه عليها . وسار إلى دمشق فملكَها وأقرَّ قوَّاد أماجور على إقطاعاتهم . وسار إلى حمص فتلقَّاه عيسى الكرخِىّ ،

---

(١) [ ] إضافة من خاتمة جـ ٢٥ من مخطوط نهاية الأرب عن نسخة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٢١٤ معارف عامة ، وهى صورة عن نسخة بخط المؤلف محفوظة بمكتبة أمانة خزينة باستنبول تحت رقم ١٣٧١ .

(٢) [ ] إضافة تتفق مع الموضوع التالى ، وهو أخبار الدولة الطولونية .

(٣) هذه بداية ما وجد من الجزء السادس والعشرين من مخطوط نهاية الأرب .
وفى سيرة ابن طولون : « ومن إقبال أحمد بن طولون أيضًا موت ماجور ، وكان أحد من يعرب عليه ، ويسعى فى أذيته فلا تمكنه ، فلما بلغه موته حمد الله عز وجل على ذلك ، واستخلف ابنه العباس على مصر ، وخرج من وقته » ـ ص ٩١ .

(٤) المقصود هنا على بن أماجور ، وورد فى الكامل : « وفى هذه السنة (٢٦٤ هـ) توفى أماجور مقطع دمشق ، وولى ابنه مكانه ، فتجهز ابن طولون ليسير إلى الشام فيملكه » ــ جـ ٧ ص ٣١٦ ، ورد أن خروج أحمد بن طولون كان فى شعبان ــ الولاة والقضاة ص ٢١٩ .

(٥) المقصود هو الخليفة العباسى أبو العباس أحمد المعتمد على الله ، ولى الخلافة فى الفترة من ٢٥٦ـ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

وكان يتقلَّدُها ، فشكاهُ أهلُها فعزله عنهم [وولَّاها يُمن التركى][١] . وملك حَمَاة وحلب .

وأرْسل إلى سيما الطَّويل بأنطاكية يدعُوه إلى طاعته ليُقَرَّ على ولايته ، فامتنع ، فعَاوَدَه ، فلم يُطعه ، فَسَار إليه . ودَلّوه على عَوْرة أنطاكية فنصب عليها المجانيق ، وملك البلد عنوة ، وقاتله سيما الطويل حتى قتل ، فساء أحمد قتله لأنّه كان نصيحه قديمًا[٢] ؛ وكان ذلك فى المحرّم سنة خمس وستين ومائتين .

ورحل عن أنطاكيّة إلى طرسُوس[٣] ، فدخلها فى جَمْعٍ عظيم ، وعزم على المُقام بها ومُلازمة الغَزْو ، فغَلا السّعر وضاقَت بعَسَاكره ، فركب أهلُها إليه بالمخيَّم وقالوا له : لقد ضيَّقت علينا بلَدنا وأغْلَيت أسعارنا ، فإما أقَمْت فى عَدَدٍ يَسير وإمّا رحلت عنا ، وأغلظُوا له فى القول وشغَبُوا عليه ، فقال لأصْحابه أن ينهزموا عن الطرسوسيّين ويرتحلُوا عن البلد ، ليَظْهر للعدُوّ أنّ ابنَ طولون على كثرة عساكره لم يَقْوَ لأهل طرسوس ، وأنّه انْهزَم عنهم ، لِتَقَع مهابتهم فى قلوب العدوّ .

وعاد إلى الشام ، فأتاهُ خبرُ ولدِهِ العبّاس أنّه عصى عليه بمصر وأخذ الأموال وسار إلى برقة ، فلم يكترث أحمد لذلك ، وقضى أشْغَاله ، وحفظ

---

(١) [ ] إضافة من سيرة ابن طولون للتوضيح .

(٢) أمر أحمد بن طولون رجاله ألا يقتلوه وإن أمكن قتله ، وألا يرموه ، وأن يأخذوه سليمًا ، ولكن أهل أنطاكية رموه بالطوب والحجارة من منازلهم لبغضهم له ، فتحير فى الميدان ، ولحقه سهم فصدعه ، فقتل فى المعركة ، ولم يعلم أحد إلا بعد انتهائها ــ سيرة ابن طولون ص ٩٦ ، انظر أيضًا الكامل جـ ٧ ص ٣١٧ .

(٣) طَرَسوس : بفتح أوله وثانيه ، مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم ــ معجم البلدان .

أطرافَ بلادِه . وبعث إلى حَرّان[١] أحمد بن جِيغَوَيْه فى جيشٍ كثيف ، ونزل غلامُه لؤلؤ بالرَّقَّة[٢] فى جيشٍ كثيف ، وكانت حرّان لمحمّد بن أتامش ، فأخرجه أحمد بن جيغويْه عنها ، وهزمه هزيمةً قبيحة ؛ فاتصل خبرُه بأخيه موسى بن أتامش ، وكان شجاعًا بطلا ، فجمع عسكرًا كثيرًا ، وسار بهم إلى نحو حَرّان . فاتَّصل ذلك بابن طولون ، فأهمّه وأقلقه وأزعجه ، فنظر إليه رجلٌ من الأعراب يقال له أبوالأغَرّ ، فقال له : أيها الأمير أراك مفكّرًا منذ أتاك خبرُ ابن أتامش ، وما هذا محلُّه ، فإنه طائش قَلِق ، ولو شاء الأمير أتيته به أسيرًا . فغاظه قولُه[٣] ، وقال : لقد شئت أن تأتينى به أسيرًا [فقال الاعرابى][٤] فاضمُم إلىَّ عشرين أختارُهم . قال : افعل . فانتقاهُم أبو الأغرّ ، وسار بهم .

فلمَّا قاربَ عسكرَ مُوسى ، كَمَّن بعضهم ، وجعل بينَه وبينهُم إشارةً إذا سمعُوها ظهَرُوا .

ثمّ دَخَل العسكر فيمن بقِى معه على زِىّ الأعراب ، وأصحابُ موسى على غرّة ، وقد تفرّق بعضهم فى حوائجهم ، فانْزَعج العسكرُ وركِبُوا ، فركب مُوسى ، فانهزم أبو الأغر بين يَدَيْه ، فاتَّبعه حتى أخْرجَهُ من العسكر ، واستَمرَّ حتّى جاور الكمين ، فنادى أبوالأغرّ بالإشارة التى بيْنَه وبينهم ، فثاروا ،

---

(١) حَرّان : بفتح الحاء وتشديد الراء ، قصبة ديار مضر بالجزيرة ، على الطريق الرئيسية الموصلة إلى الموصل والشام ، وإلى منطقة الثغور ـ معجم البلدان .

(٢) الرقّة : بتشديد الراء والقاف : بلدة على الفرات اتخذها بعض الخلفاء العباسيين مصطافا لهم ـ معجم البلدان .

(٣) يرى البلوى أن الأمير الذى أغاظه هذا القول هو ابن جغويه ، وليس أحمد بن طولون ، كما يذكر النويرى وابن الأثير ـ سيرة ابن طولون ص ١٠٤ ، وانظر الكامل جـ ٧ ص ٣١٨ .

(٤)] إضافة من سيرة ابن طولون ص ١٠٤ .

وعطف أبو الأغرّ على مُوسى فأسره ، وأخذُوه حتّى وصلُوا به إلى ابن جِيغَوَيْه وإلى ابن طولون فاعتقلاه ، ورُفع إلى مصر . وكان وصُولُه إليها فى سنَةِ ستٍّ وستِّين(١) . .

ذكر عصيان العباس بن أحمد بن طولون على أبيه وماكان من أمره

وفى سنة خمسٍ وستّين ومائتين عصى العَبّاس بن أحمد على أبيه ، وسبب ذلك أنّ أباه لمّا استخلَفَه بمصر ، كما ذكرناه ، وخرج إلى الشّام ، حسَّن للعبَّاس جماعةٌ كانوا عنده أخْذَ الأموال والإنْسِرَاح(٢) إلى برقة ، ففعل ذلك ، وحمل معه أحمد بن محمد الواسطى كاتب أبيه ، وأيمن الأسود مقيَّدَيْن .

فلمَّا رجع أحمد إلى مصر وجَدَهُ قد أخَذَ ألفى ألف دينار ، واسْتَلَف من التُّجار ثلاثمائة ألف دينار ، وأمَرَ صاحب الخراج أنْ يضْمَنَها لهم ، ففعل . فراَسَل أحمد ابنه واسْتَعطفه ، فلَم يرجع ، فخاف مَن معه وأشارُوا عليه بقَصْد إفريقية ، فسار إليها ، وكاتَب وُجُوه البربر ، فأتاهُ بعضُهم وامتنع بعضُهم . وكَتَب إلى إبراهيم بن الأغلب(٣) يقولُ : إن أمير المؤمنين قلَّدَنى

(١)« وكان ذلك فى سنة خمس وستين ومائتين » ـ الكامل جـ ٧ ص ٣١٨ .

(٢) « الإنشراح » فى الكامل جـ ٧ ص ٣٢٤ .

(٣) هو إبراهيم (الثانى) بن أحمد بن محمد بن الأغلب ، كان على رأس دولة الأغالبة التى استقلت بتونس عن الدولة العباسية ، وولى إبراهيم الحكم فى الفترة من ٢٦١ ـ ٢٨٩ هـ / ٨٧٥ ـ ٩٠٢ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ٤٦ .

إفريقية وأعمالَها ، ورحل حتَّى أتى حصن لِبْدَة[(١)] ، ففتحه أهله له ، فقابلهم أسوأ مقابلة ، ونهبهم ، فمضى أهلُ الحصن إلى إلياس بن منصور النَّفُوسى ، رئيس الإباضيّة هناك ، فاستغاثُوا به ، فغضب لذلك ، وسار إلى العباس ليقابله .

وكان إبراهيم بن الأغلب قد أرسل إلى عامل طرابلس جيشًا[(٢)] وأمره بقتال العبّاس ، فالتقَوْا واقتتلوا قتالًا شديدًا حتى حجز بينهما اللّيل . فلمّا كان الغد وافَاهُم إلياس ابن منصور الإباضى فى اثنى عشر ألفا من الإباضيّة ، فأجمع هو وعامل طرابلس على قتال العبّاس ، فاقتتلوا ، فقُتِل من أصحابه خلقٌ كثير ، وانهزم أقْبَح هزيمة ، وكاد أن يُؤْسر ، فخلَّصَه مولًى من مواليه ، ونهبُوا سوَادَه ، وأكثر ماحمله من مصر . فعاد إلى برقة أقْبَح عَوْد .

[وشاع بمصر أن العباس قد انهزم][(٣)] [٨] فاغتمّ أبُوه لذلك غمًّا شديدًا ، وسيَّر إليه العساكر ، فقاتَلَهم وقاتلوه ، فانهزم ، وكثُر القتل فى أصحابه ، وأُخِذ أسيرًا ، وحُمِلَ إلى أبيه ، فحبسه فى حجرةٍ فى الدَّار إلى أنْ قدَمِ العسكر ببقيَّة الأسرى من أصحابه . فلمَّا قَدِموا أحضَرهم أحمد عنده ، والعبّاس معهم ، وأمره أن يقطع أيدى أعْيَانِهم وأرْجُلَهم ، ففعل ذلك . فلمّا فرغ منهم وبَّخَه أبُوه وذنَّبَه . وقال له : هكذا يكونُ الرَّئيس والمقدّم ! كان الأحسَن أنّك ألْقَيت نفسك بين يدىَّ وسألت الصَّفح عنك وعنهم ،

(١) لبدة : مدينة فينيقية قديمة ، تقع شرق طرابلس بشمال ليبيا ـ بنحو ١٢٤ كم ـ معجم البلدان الليبية ص ٢٩٥ .

(٢) « وكان الأغلب قد أنفذ إلى محمد بن قرهب عامل طرابلس بخادم له يعرف ببلاغ فى جمع من أهل القيروان كثير » ـ سيرة ابن طولون ص ٢٥٤ .

(٣) [ ] هذه العبارة مشطوبة بالأصل ، وأثبتناها اهتداء بما جاء فى سيرة ابن طولون ص ٢٥٥ ، والكامل جـ ٧ ص ٣٢٥ .

فكان ذلك أعْلَى لَمحلِّك . وكنت قضيت حقوقهم[١] . ثم أمَرَ به فضربَه مائة مِقْرَعة ، ودُمُوع أحمد تجرى على خدِّه رِقَّةً على ولده ، ثم رَدَّه إلى الحجرة واعتقله ، وذلك فى سنة ثمانٍ وستين ومائتين .

ذكر خلاف لؤلؤ على احمد

كان سببُ ذلك أنْ الحُسَين بن مُهَاجِر[٢] غلَب على أحمد بن طولُون، وحسَّن له جَمْع الأموال ومَنَعه من سماحته وجَرْيه على عوائده الجميلة ، فنَفَرت القلوبُ عن أحمد ، وتغيَّرت الخواطرُ عليه ، فتنكَّر له غلامُه لؤلؤ ، وكان عمدته عليه ، وكان فى يده حَلَب وحمص وقِنَّسرين وديار مُضَر . وكان أحمد إذا أنكر على لؤلؤ شيئًا أوْقَع بكاتبه محمّد بن سليمان ، ويقولُ له . هذا منْكَ ليس منه ،فحمل محمّدَ بن سليمان الخوفُ من أحمدعلى أنْ حسَّن [لـ][٣] لؤلؤ حَمْل جُملةٍ من المال إلى الموفّق[٤] ، فحمَل ذلك إليه ، وكتب إليه عن لؤلؤ كتابًا يعرِّفه رغبتَه فى المصير إليه ، والتّصرُّف تحت أمره ونهْيِه ، والدُّخول فى طاعته ، فسُرَّ الموفَّق لذلك واستبشر ، لِمَا فى نَفْسه من أحمد ، ورأى أنَّ ذلك من الفُرص الَّتى يتعيَّنُ انتهازُها ، فأجابه بأحْسَن جواب ، وأنْفَذَ إليه خِلعًا .

---

(١) « وكتب قضية حقوقهم » فى الأصل ، والتصحيح من سيرة ابن طولون ص ٢٧١ ، الكامل جـ ٧ ص ٣٢٥ .

(٢) « الحسن بن مهاجر » فى سيرة ابن طولون ص ٢٧١ .

(٣) [لـ] إضافة من سيرة ابن طولون ص ٢٧٦ تتفق وسياق الكلام .

(٤) هو طلحة ويقال محمد بن المتوكل ، الموفق أبو أحمد ، ولى عهد أخيه الخليفة العباسى المعتمد على الله ، وكان فى خلاف مع أحمد بن طولون ، وتوفى المـوفق سنة ٢٧٨ هـ/٨٩١ م — شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٧٢ .

وكانت مع لؤلؤ طائفةٌ من خواصِّ أحمد ، فلمّا أنْكرُوا حالَه ، واطَّلعوا على ما فعله ، فارقُوه ، والتحقُوا بأحمد ، وأطْلَعوه على ما كان من أمْرِ لؤلؤ . فتألَّم لذلك ، وأخَذَ فى إعمال الحيلة والمخَادَعة لِلُؤلؤ والتلطُّف به ، ومكاتبة محمّد بن سليمان ، فلم يُفِدْ ذلك عنْدَه . فكتب أحمد إلى المعتمد على الله كتابًا يقولَ فيه : إنّى خائفٌ على أمير المؤمنين من سُوءٍ يلحقُه ، وقد اجتمع عندى مائة ألف عِنانٍ أنْجاد ، وأنا أرى لسيِّدى أميرِ المؤمنين الانْجذاب إلى مصر ، فإنّ أمْرَه يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العزّ ، ولا يتهيَّأ لأخيه الموفق شىْءٌ ممّا يخافه عليه . وجهَّز له قرين ذلك ، سفاتج [١] بمائة ألف دينار ، وذلك فى سنة ثمانٍ وستين ومائتين . وأظهر أحمد الخروج لهذا الأمر . فلمّا وصل كتابهُ إلى الخليفة ، تجهَّز لقَصْده مصر ، فكان من خُروجه ورُجُوعه إلى بغداد ما ذكرناه فى أخباره .

وأمّا أحمد فإنَّه تجهّز إلى الشام ، وأخَذَ معه ابْنَه العبّاس مقيّدًا ، واستخلف ابنَه خمارويه على مصر . فسَار ، فوَصل إلى دمشق وهو يُظهِر الانتصارَ للمعتمد ، ويَقْصِد لؤلؤًا غلامَه فعِنْد ذلك الْتَحَق لؤلؤ بالموفَّق ، وكان لحاقُه به فى سنة تسعٍ وستين .

وانتهى إلى أحمد عَوْدُ المعتمد ، وأنّه ضُيِّق عليه ، فأحضر أحمد قضاةَ أعماله وفيهم بَكّارُ بن قُتَيبة [٢] والعُمرى وأبوحازم ، وغيرهم ، وخلع الموفَّق ، فكلُّهم وافقه على ذلك إلّا بكّار . وأسقط أحمدُ دعْوَةَ الموفّق ، وقلع اسمه

(١) سفتجة ــ سفاتج : صك مالى ، أو حوالة مالية ــ القاموس المحيط ، السلوك جـ ٢ ص ٤٢٠ .

(٢) ولى قضاء مصر من قبل الخليفة العباسى المتوكل ، سنة ٢٤٦ هـ/٨٦٠ م ،وتوفى سنة ٢٧٠ هـ/٨٨٣ م ــ الولاة والقضاة ص ٤٧٦ .

من الطُّرُز . فلمّا بلغ الموفَّقَ ذلك أمَرَ بلَعْن أحمد بن طُولُون فى المنابر فى سائر الأمصار . ثم رجع الموفّق عن ذلك ، وأمر كاتبَه صاعدَ بن مخلَّد وجماعةً من خاصَّته بمكاتبة أحمد بن طُولُون وتوبيخه على ما فعله ، فكتبوا إليه واستمالُوه ، فعَلِم أنّ ذلك عنْ رأىِ الموفّق وإذْنِه لهم ، فأجابهُم بأحْسَن جواب . فعرضُوا كُتُبه على الموفّق ، فسرَّهُ ما تضَمَّنتْه ، وعلم أنَّ ابن طولون إنّما فعل ذلك لمغالاته فى المناصحة لهم . وكان الموفَّق كامل العقل ، فسَكَّن ذلك منه ما كان فى نفسه على أحمد ، ومال قلبُه إليه . وكتب الموفَّق إلى أخيه المعتمد يُعْلمه برجوعِه عن أمْرِ أحمد ونَدَمِه على ما كان منه فى حقِّه ، وسأله أنْ يكتب إليه ، فسرَّ المعتمد بذلك ، وكتب إلى أحمد كتابًا بخطّه ، وأمَرَه بالرجوع عمَّا هو عليه من أمْر الموفَّق ، وبعث إليه كتاب الموفّق برجوعه عن لَعْنه ، وأنْفَذ الكتاب مع الحسن بن عطَّاف . فلمَّا بلغ الرَّقَّة بلغه وفاةُ أحمد ابن طولُون(١) ، فرجعَ إلى الحضرة .

وأما لؤلؤ فإنّه بلغهُ أنّ مولاه أحمد باع أولاده وخدمه بسُوق الرَّقيق بمصر ، وقبَض على أملاكه ، فبلغ ذلك منه كلَّ مبلغ ، وتقدَّم إلى الموفَّق وبكى ، وسأله إنْفَاذ الجيوش معه ، وضَمِن له أخْذ البلد من مولاه ، وبَسَط لسانه فى سيرته ، فخلع الموفَّق عليه ، وحَمَله على دابّة ، ووعَدَه ، وأمر بتجريد الجيوش[٩] معه ، كلّ ذلك وهو يسخرُ به ويماطلُه إلى أن يعودَ جوابُ أحمد مع الحسَن ابن عطَّاف ، فقبض حينئذٍ على لؤلؤ وردَّه إلى مولاه ، واستقبح ما فعله لؤلؤ فى حقِّ سيدِهِ ، فلمَّا اتفق وفاةَ أحمد ، أقامَ لؤلؤ فى

---

(١) توفى أحمد بن طولون سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م - الكامل جـ ٧ ص ٤٠٨ ، شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٥٧ ، وانظر ما يلى عن وفاته .

خدْمَةَ الموفَّق إلى سنة ثلاثٍ وسبعين ، فقبض الموفَّق عليه ، وأخذ منه أربعمائة ألف دينار ، وكان لؤلؤ يقول : ليس لى ذنب إلَّا كثرة مالى .

ولم تزل أمور لؤلؤ فى إدْبار إلى أن افتقر ، ولم يبْقَ له شىء ، فعاد إلى مصر فى آخر أيام هارون بن خُمارَويْه[1] بغلام واحد . وهكذا تكون ثمرةُ الغَدر وكفر الإحسان .

ذكر وفاة أحمد بن طولون وشىء من أخباره وسيرته

كانت وفاته فى نصف اللَّيل من ليلة الأحد لعشر ليالٍ خلوْن من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين .

قيل : وكان سببُ وفاته أن نائبَهُ بطرسوس[2] وثب عليه يازمان[3] الخادم وقبض عليه ، وأظهر الخلاف على أحمد . فجمَعَ أحمدُ العساكر ، وسار إليه . فلمَّا وصل إلى أذَنَة[4] كاتَبَه وراسَلَه واستماله ، فلم يلتفت

---

(١) ولى فى الفترة من ٢٨٣ ـــ ٢٩٢ هـ/٨٩٦ ـــ ٩٠٥ م ـــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢٨ .

(٢) كان نائب احمد بن طولون بطرسوس أخوه موسى ، فلما حضرته الوفاة استخلف عليها أحد أعوانه يسمى خليفة طخشى ، وهو الذى ثار عليه يازمان ـــ سيرة ابن طولون ص ٣١٠ .

(٣) ورد فى المخطوط بعدة صور : مازيار ، بازمار ، بازيار ، وورد فى الكامل بازمار ، وورد فى سيرة ابن طولون ، والنجوم الزاهرة يازمان ، فوجدنا الرسم طبقًا للصورة الأخيرة لورودها فى سيرة ابن طولون ، والولاة والقضاة .

(٤) أذنه = أطنه : بفتح أوله وثانيه ، من بلاد الثغور ـــ قرب المصيصة ـــ معجم البلدان .

يا زمان الخادم إلى رسَالته . فسار أحمدُ إليه وحَصَره ، فخرق يا زمان نهر البلد[١] على مَـنْزلة العسكر ، فكاد النَّاس يهلكون . فرحَل أحمد حَنِقا ، وكان الزمان شتَاء ، وكتب إلى يا زمان : إننى لم أرحل إلّا خوفًا أن تنْخرَق حرمةُ هذا الثَّغر ، ويطمع العدو فيه . وعاد إلى أنطاكيَّة ، فأكل من لبن الجواميس وأكْثَرَ منه ، فأصابته هيضة واتّصلت به حتى صار منها ذَرَب[٢] . وكان الأطبّاءُ يعالجونه ، وهو يأكلُ سرًّا غير ما يصفونه ، فلم ينجع الدّواء فيه . فمات رحمه الله .

هكذا ذكر ابنُ الأثير الجزرى فى تاريخه الكامل فى سبب وفاته[٣] .

وأما صاحبُ الدّول المنقطعة[٤] فإنه قال : إنَّه رجع إلى مصر واعتلَّ بزلق للمعدة . واشتدّت به العلّة وطالت ، فعهد إلى ابنه أبى الجيش خُمارَويه ، وأطَـلَقَ ابنَه العباس من قيده ، وذلك فى القَعْدة سنةَ سبعين ومائتين ، وخلع عليه وقلَّده جميع الأعمال الخارجة عن أعمال مصر من الشَّامات والـثُّغور ، وأوصاه بتَـقْوى الله وطاعة أخيه . ثمّ تُوفّى رحمه الله وسِنُّه يومئذٍ خمسون سنَـة وشهرٌ وثمانية وعشرون يومًا ، ومدّة إمرته على مصر ستّ عشرة سنة وشهر واحد وسبعة وعشرون يومًا .[٥]

---

(١) كان يسمى « نهر البردان » ، ويعرف حاليًا بنهر « قره صوره » ، أى النهر الأسود ــ سيرة ابن طولون ص ٣١٠ .

(٢) ذرب : فساد المعدة .

(٣) الكامل جـ ٧ ص ٤٠٩ .

(٤) هو على بن ظافر ، جمال الدين ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠١ م ــ انظر مقدمة الجزء المطبوع من كتابه : أخبار الدول المنقطعة ، نشر أندريه فريد ـ القاهرة ١٩٧٢ .

(٥) انظر أيضًا تفاصيل أمر مرضه ووفاته فى سيرة ابن طولون ص ٣١٢ وما بعدها ، الولاة والقضاة ص ٢٣١ .

وأمّا سيرته ، فإنّه ، رحمه الله ، كان عادلًا شُجاعًا ، كريمًا متواضعًا ، حَسَن السِّيرة ، يُباشر الأمور بنفسه ويتفقّد رعاياه ، ويحبُّ أهل العلم ، ويُدْنى مجالسهم . وكان كثير الصَّدقات . وهو الذى بنى قلعة يافا ، وكانت المدينة بغير قلعة .

اولاده ثلاثة وثلاثون[1] . منهم[2] : أبُو الفَضل العبّاس ، أبو الجيش خُمارَويه ، أبو العشائر مُضَر . أبو الكرم ربيعة ، أبو المقانب شيبان ، أبو ناهض عياض ، أبو معدّ عدنان ، أبو الكراديس خزرج . أبو حبشون عدىّ ، أبو شجاع كندة ، أبو منصور أغلب ، أبو بهجة ميسرة ، أبو البقاء هدى ، أبو المفوض غسّان ، أبو الفرج مبارك ، أبو عبد الله محمد ، أبو الفتح مظفر .

والبنات ستّ عشرة ، وهُنَّ : فاطمة ، ولميس ، وتعلب[3] ، وصفية ، وغالية[4] ، وخديجة ، وميمونة ، ومريم ، وعائشة ، وأم القرى[5] ، ومؤمنة ، وعزيزة ، وزينب ، وسمانة ، وسارة ، وغريرة .

وخلّف من الأموال والعين والورق كثيرًا ، ومن الغلمان أربعةً وعشرين ألف غلام ، ومن الموالى سبعة آلاف رجل ، ومن الخيل سبعة آلاف وثلاثمائة وخمسين رأسًا ، منها : لركابه ثلاثمائة وخمسون ، ومن الجمال ثلاثة آلاف

---

(١) « منهم سبعة عشر ذكرًا ، وست عشرة أنثى » سيرة ابن طولون ص ٣٤٩ .

(٢) هكذا بالأصل ، والواقع أن المؤلف أوردهم جميعًا حسب رواية البلوى .

(٣) هكذا بالأصل ، وفى سيرة ابن طولون ، ولعله محرف عن « تغلب » .

(٤) لم تذكر فى سيرة ابن طولون .

(٥) « أم الهدى » فى سيرة ابن طولون .

جمل ، وألف بغل ، ومن المراكب الحربيّة الكبار مائتى مركب بآلتها ، ومن الأمتعة والفُرُش والآلات والأوانى ما لا يُحصى كثرة ولا يُعدّ اتّساعا ، وأنفق على الجامع مائة ألف وعشرين ألف دينار ، وعلى البيمَارِسْتان ستّين ألف دينار ، وعلى العين الّتى بالمعافِر مائة ألفٍ وأربعين ألفَ دينار ، وعلى حِصْن الجزيرة مائة ألف دينار . وأنفق فى بناء الميدان مائةَ ألفٍ وخمسين ألف دينار ، وعلى مرمّات الثّغور وحِصْن يافا مائتى ألف دينار .

وكانت صدقاتهُ فى كلّ شهر ألف دينار سِوى المرتّبات ، وكانت له وظائفُ من خُبز ولحمٍ تجرى على قومٍ مستورين ، فى كلّ شهر ألفا دينار . وكان يصنع فى كلّ جمعة من أصناف الأطعمة والحلو أشياء كثيرة يحضُرها النّاس من فقير ، ومستُور ، ومتجمِّلٍ ، ومحتاج ، وكان إذا عاين ذلك وهو بمشترَف عالٍ يسجدُ لله تعالى شكرًا تارةً ، ويصلّى تارةً ، ويدْعو تارةً ، ويبكى تارةً . فكانت سيرتُه رحمه الله أجمل سيرة ، وفراسَتُه أعظم فراسة ، بحيث إنّه كان ينظُر إلى الرّجُل فيدرك[١] بفراسته غرضه ، ولمّا مات ملك بعده ولده .

ذكر ولاية أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وهو الثانى من ملوك الطولونية

مَلَك بعد وفاة أبيه فى يَوْم الأحد لعشرٍ خلَوْن من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين ، وهو ابن عشرين سنة وشهور ، فى خلافة المعتمد على الله . وذلك أنّه لمّا تُوفّى والدهُ اجتمع الأجنادُ وقتلوا وَلَده العباس الأكبر وولّوْا خمارويه ، فاستقلّ بالأمر .

ذكر مسير إسحاق بن كنداجق[1]
ومحمد بن أبى الساج إلى الشام

قال المؤرِّخ[2] : لمّا توفى أحمدُ بن طولون كان إسحاق بن كنداجق على المَوْصل والجزيرة ، وابن أبى السَّاج[3] على أرمينية والجبال ، فطمعا فى الشّام ، واستصغَرَا أولاد أحمد بن طولون ، فكاتبا الموفَّق واستمدَّاه ، فأمَرَهُما بقصد الشام ، ووعَدَهما إنْفَاذ الجيوش . فجمَعَا وقصدَا ما يجاورُهما من البلاد ، فاستولَيَا عليها ، وأعانَهُما نائبُ دمشق الّذى كان من قِبَل أحمد بن طولون ووعدَهُما الانْحيَاز إليهما ، وأظْهَر العِصْيان ، واستولى إسحاق على حَلَب وحمص وأنطاكيّه ودمشق .

فلمَّا انتهى الخبر إلى أبى الجيش خُمارويه ندب العساكر المصريَّة إلى الشام ، فملكُوا دمشق ، وهرب نائبها . وسار عسْكَر خُمارويه من دمشق إلى شَيْزَر[4] لقتال إسحاق وابن أبى السّاج ، فطاولهم إسحاق ينتظر المَدَدَ من العراق . وهجم الشّتاء على الطَّائفتين ، وأضرَّ بأصحاب خُمارويه ، فتفرَّقوا فى المنازل بشَيْزَر . ووصَل العسكر العراق إلى ابن كنداجق وعليهم أبو العّباس أحمد بن الموفَّق ، وهو المعتضد بالله . فلمَّا وصلَ سار مجِدًّا إلى عسْكَر

---

(١) « بن كنداجيق » فى الكامل جـ ٧ ص ٤٠٩ ، « بن كنداج » فى الولاة والقضاة ص ٢٣٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٠ .

(٢) المقصود ابن الأثير ، فالمؤلف يكاد ينقل عنه الأحداث التالية ـــ الكامل جـ ٧ ص ٤٠٩ ـــ ٤١٠ .

(٣) هو محمد بن ديوداد أبى الساج ـــ الولاة والقضاة ص ٢٣٥ .

(٤) شيزر : بتقديم الزاى على الراء ، وفتح أوله ، كانت تابعة لحمص ـــ معجم البلدان .

خُمارَويه بشيزر ، فكبسهم فى المساكن ووضع فيهم السَّيف ، فقَتَل منهم مقتلَةً عظيمةً ، وسار مَنْ سَلِم منهم إلى دمشق على أقبح صُورة . فسار المعتضدُ إليهم ، ففارَقُوا دمشق وتوجَّهوا إلى الرّملة ، وأقامُوا بها . ودخَل أبو العبّاس المعتضد إلى دمشق فى شعبان سنةَ إحدى وسبعين ومائتين . وكتَبَ عسكرُ مصر إلى خُمارَويه ، فخرج من مصر بعساكره .

ذكر وقعة الطواحين

وفى سنة إحدى وسَبْعين ومائتين كانت وقعة الطّواحين [١] بين أبي العبّاس أحمد بن الموفَّق ، وهو المعتضد ، وبين أبي الجيش خمارويه بن أحمد .

وكان سببُ هذه الوقعة أنَّ المعتضد لَمَّا ملك دمشق سار بعَسَاكره إلى الرَّملة لقَصْد عسكر خُمارَويه ، فأتاه الخبر بوُصُول خماوريه إلى عسكره وكَثْرَةِ مَنْ معه من الجموع ، فهمَّ المعتضد بالعَوْد ، فلم يُمَكِّنه مَنْ معه من أصحاب ابن طولون الَّذين صارُوا معه . وكان المعتضِدُ قد أوْحَش ابن كنداجق وابن أبي السّاج ونسبها إلى الجبن ، حيث انتظراه حتّى وصل إليهما ولم يناجِزَا عسكر خمارويه الحرب ، ففسَدَتْ نياتُهما .

قال : ورَحَل خُمارويه ونزل على الماء الّذى عليه الطواحين [عند الرملة] [٢] وملكه ، فنسبت الوقعة إليه . ووَصَل المعتضد وقد عبّأ أصحابه ، وفعل خمارويه كذلك ، وجعل كمينًا عليهم سعد الأيسر ، فحملت ميسرةُ المعتضد على ميْمنة خُمارَويه فانهزمت . فلمَّا رأى خُمارَويه ذلك ، ولم يكن

---

(١) الطواحين : موضع قرب الرملة ــ معجم البلدان ، وورد أن هذا الموضع على « نهر أبى فطرس » ــ الولاة والقضاة ص ٢٣٥ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من الكامل جـ ٧ ص ٤١٤ .

رأى مصافًّا قبله ، ولّى منهزمًا فى طائفة من الأحداث الّذين لا عِلْمَ لهم بالحرب ، ولم يقف دون مصر .

ونزل المعتضدُ إلى خيام خُمارَويه وهو لا يَشكُّ فى تمام النَّصر ، فخرج سعد الأيسر بالْكَمين وانضاف إليه مَنْ بقى من الجيش ، ونادَوْا بشعارهم ، وحملُوا على عسكر المعتضد وقد اشتغَلُوا بنَهْب السّواد ، فوضع المصريُّون السَّيف فيهم . فظنَّ المعتضدُ أنّ خُمارويه قد عاد ، فركِبَ وانهزم لا يَلْوى على شىء ، ووصَل إلى دمشق فلم يفتح له أهلها ، فمضى منْهزمًا حتّى وصل طرسوس . واقْتَتَل العسكَران وليس لواحدٍ منهما أمير[١١]، وطلب سعد الأيسر خُمارَويه فلم يجده ، فأقام أخاه أبا العشائر مُقامه . وتمّت الهزيمة على العراقيِّين ، وقتل منهم خلق كثيرٌ ، وأسر خلق كثير .

وجاءت البشائر بالنَّصر إلى مصر ، فسُرّ خمارويه بالظّفر ، وخَجِل من الهزيمة ، وأكثر الصَّدقة ، وفعل مع الأسْرى ما لم يُسْبق إليه ، وقال لأصحابه : هؤلاء أضيافُكم ، فأكرموهم . ثم أحضرهم بعد ذلك وقال : من اختار المُقام عنْدَنا فله الإكرام والمواساة ، ومَنْ أراد الرُّجوع جهَّزْنَاه وسيَّرناه ، فمِنهم من أقام ، ومنهم من عاد مكرَّمًا . وسارَت عساكرُ خُمارَويه إلى الشَّام ففتحه أجمع ، واستقر ملك خُمارَويه (١) .

وفى سنة اثنتين وسبعين ومائتين زُلْزِلت مصر فى جُمادى الآخرة زلزلَةً شديدة أخرَبَت الدُّور والمسجد الجامع ، وأحْصى بها فى يومٍ واحدٍ ألف جنازة .

---

(١) انظر الكامل جـ ٧ ص ٤١٤ ــ ٤١٥ .

ذكر اختلاف محمد بن أبى الساج وإسحاق بن كنداجق والخطبة لخمارويه بالجزيرة

وفى سنة ثلاثٍ وسبعين ومائتين فسَدت الحالُ بين محمد بن أبى الساج وإسحاق بن كنداجق [١] ، وكانا قبل ذلك متّفقين بالجزيرة .

وسببُ ذلك أنّ ابن أبى السّاج نافَسَ إسحاق فى الأعمال وأراد التقدُّم ، فامتنع إسحاق عليه ، فكاتَب محمَّدُ بن أبى الساج خُمارَويه وانضمَّ إليه ، وخطب له بأعماله ، وهى قِنَّسرين ، وسير ولده دِيوَدَاد [٢] إلى خمارويه رهينةً ، فأرسل خُمارَويه إلى الشّام ، واجتمع هو وابن السّاج ببالس [٣] . وعبر ابنُ أبى السّاج الفرات إلى الرَّقَّة فلقيه إسحاق ، وكان بينهما حرب انجلت عن انهزام إسحاق ، واستولى ابنُ أبى الساج على ماكان معه . وعبر خُمارَويه الفرات ونزل الرَّافِقَة [٤] ، وانهزم إسحاق إلى قلعة مَارِدِين [٥] ، فحصره ابنُ أبى السّاج بها ، وسار عنها إلى سنجار [٦] ، وأوْقَع بطائفةٍ من

(١) أحمد بن إسحاق بن كنداجق » فى الأصل ، والتصحيح مما سبق ، ومن الكامل جـ ٧ ص ٤٢٢ .

(٢) « ديوداد » فى الكامل جـ ٧ ص ٤٢٢ .

(٣) بالس : بين حلب والرقة ، كانت على الضفة الغربية للفرات ، ثم انحرف عنها الفرات شرقًا حتى صار منها على مسافة أربعة أميال ــ معجم البلدان .

(٤) الرافقة : بلدة متصلة البناء بالرقة على الفرات ــ معجم البلدان .

(٥) ماردين : قلعة على قمة جبل بإقليم الجزيرة ، ومنازلها متدرجة على سفح الجبل ــ معجم البلدان .

(٦) سنجار : بلدة فى لحف جبل عال ، قرب الموصل ــ معجم البلدان .

لأعراب . وسار إسحاق إلى الموصل فلَقِيَه ابنُ أبى الساج ببَرْقَعِيد[١] ، وكَمَّن له ، واقتتلُوا ، فخرج الكمينُ على إسحاق ، فانهزَم وعاد إلى مَارِدِين . فقَوِى ابنُ أبى السّاج وظهر أمره ، واستولى على الجزيرة والموْصِل ، وخطب لخمارويه فيها ، ثمّ لنفسه بعده .

وفيها أيضًا ثار السُّودان بمصر ، وحصَرُوا صاحبَ الشّرطة[٢] ، فركِب خُمارَويه بنفسه ، وبيده سيفٌ مسلول ، وقصد دَارَ صاحبِ الشُّرطة ، فقَتَل مَنْ لقِيَه من السُّودان ، فهُزِموا ، وكثر القتل فيهم ، وسكنت مصر .

ذكر الاختلاف بين خمارويه ومحمد بن أبى السّاج والحرب بينهما

وفى سنة أربع وسبعين ومائتين خالف محمّد بن أبى الساج على خُمارَويه ، فسار خمارويه إلى الشّام ، فقَدِمَها فى آخر السّنة ، وسار ابن أبى السّاج إليه ، فالتقَوْا عند ثِنيّة العقاب[٣] ، على مرحلةٍ من دمشق إلى جهة حمص . واقتتلوا فى المحرّم سنة خمسٍ وسبعين ، فانهزمت ميمنَةُ خُمارَويه ، وأحاط عسكَرُ خُمارويه بابن أبى السّاج ، فانهزم ، واستُبِيحَ عسكرُه .

وكان قد خلّف بحمص أموالاً كثيرة ، فندب خُمارَويه إليها قائدًا من قوّاده فى جيشٍ جريدةً[٤] ، فسبقوا ابنَ أبى السّاج إليها ومنعُوه من الدّخول

(١) برقعيد : بلدة من أعمال الموصل ــ معجم البلدان .

(٢) هو موسى بن طونيق ، الذى صرف فى مستهل المحرم سنة ٢٧٤ هـ/٨٨٧ م ــ الولاة والقضاة ص ٢٣٦ ، ٢٣٨ .

(٣) ثنية العقاب : بالضم ، تشرف على غوطة دمشق ، فى الطريق من دمشق فى اتجاه حمص ــ معجم البلدان .

وورد فى الكامل « فالتقيا فى البثنية من أعمال دمشق » ــ جـ ٧ ص ٤٢٨ .

(٤) الجريدة : الفرقة من العسكر الفرسان ، والفرقة من الجند إذا خرجت مسرعة من غير أثقال لمهمة تستدعى الإسراع فى الخروج ــ لسان العرب .

والاعتصام بها ، واستولوا على أمواله الّتى بها . فمضى إلى حلب ، ومنها إلى الرَّقَّة ، فتبعه خُمارَويه ، ففارقَها . وعبر خمارويه الفرات وسار فى أثرِه ، فوصل إلى مدينة بَلَد[١] ، وسبقه ابنُ أبى السّاج إلى الموصل ، ثمّ فارقها إلى الحديثة[٢] ، وأقام خمارويه ببَلَد ، وعُمِلَ له سريرًا طويلَ الأرجُل ، وكان يجلس عليه فى دجلة .

ذكر الدعاء لخمارويه بطرسوس

وفى سنة سبعٍ ومائتين دعا يازمان بطرسوس لخُمارَويه . وسببُ ذلك أنَّ خمارويه أنْفَذ إليه ثلاثين ألف دينار ، وخمسمائة ثوب ، وخمسمائة مطرف ، وسلاحًا كثيرًا ، فلمَّا وصل ذلك إليه ، دَعَا له ، ثمّ وجَّه إليه خمسين ألف دينار .

ثم توفى يازمان فى جُمادى الآخرة سنةَ ثمانٍ وسبعين ، فخلفه ابنُ عجيف ، وكتب إلى خُمارَويه بوفاة يازمان ، فأقَرَّه على ولاية طرسوس ، وأمدَّه بالخيل[١٢]والسّلاح والذّخائر ، ثمّ عزله ، واستعمل عليها ابنَ عمِّه محمَّد ابن موسى بن طولون .

ذكر الفتنة بطرسوس

وفى سنة ثمانٍ وسبعين ومائتين ثار النَّاسُ بطرسوس بالأمير محَمد بن موسى ، فقبضوا عليه . وسببُ ذلك أنَّ الموفق كان له خادم من خواصه يقال

(١) بلد : اسم لمواضع كثيرة ، والمقصود هنا بليدة من نواحى دجيل قرب الحظيرة وحربى ، من أعمال بغداد ـــ معجم البلدان .

(٢) الحديثة : هى حديثة الموصل : كانت على دجلة بالجانب الشرقى قرب الزاب الأعلى ـــ معجم البلدان .

له رَاغِب ؛ فلمَّا مات الموفَّق اختارَ راغب الجهاد ، فسار إلى طرسوس على عَزْم المقام بها ، فلمَّا وصل إلى الشّام سيّر ما مَعه من دوَابٍّ وآلات وخيام وغير ذلك إلى طرسوس ، وسار هو جريدة إلى خُمارَويه ليَزُورَه ويعرِّفَه ما عزم عليه ، فلَقِيَ خُمارَويه بدمشق ، فأكرمه خمارويه وأنِس به وأحبَّه ، فاستحْيَا راغب أن يَطْلُب منه المسير إلى طرسوس ، فطال مُقامُه عنده . فظنَّ أصحابه أنَّه قَبَض عليه ، وأذاعوا ذلك ، فاستعْظَمه النّاس ، وقالوا : يَعْمَد إلى رجلٍ قصد الجهاد فى سبيل الله فيقبض عليه ، فشغَبُوا على أميرهم ، وقبضوا عليه ، وقالوا : لا تزالُ فى الحبس حتى يُطْلِق ابنُ عمِّك خمارويه راغبًا ، ونهبوا دارَه ، وهتكُوا حرمه .

وبلغ الخبر خُمارَويه فأطْلَع راغبًا عليه ، وأذِن له فى المسير إلى طرسوس . فلمَّا دخلها أطلق أهلُها اميرَهم محَمد بن موسى ، فسار عنها إلى البيت المقدّس . ولمَّا سار عنها وَلِيَها أحمد العجيفى ، وكان يليها قبل ذلك [1] .

ذكر زواج المعتضد بالله بابنة خمارويه

ابن أحمد بن طولون

قال : ولمَّا توفى المعتمد على الله [2] وتولَّى المعتضد بالله [3] بادَرَ خُمارَويه

---

(١) انظر الكامل جـ ٧ ص ٤٥٠ .

(٢) توفى فى ١٩ رجب ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م ـ الكامل جـ ٧ ص ٤٥٥ ، شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٧٣

(٣) هو أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل ، المعتضد بالله ، ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة ٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ/٨٩٢ ـ ٩٠٢ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

إليه بالهدايا الجليلة على يد الحسَن[١] بن عبدالله بن منصور بن الجَصَّاص الجوهرى ، فأقرَّه المعتضد بالله على ما بيده من الأعمال . وسأل خُمارَويه المعتضد أنْ يزوّج ابنته قطر الندى[٢] للمكتفى بالله ولىّ العهد ، فقال المعتضد بل أنا أتزوجها . [وكان ذلك][٣] فى سنة ثمانين ، وحُمِلَت إليه فى سنة إحدى وثمانين ومائتين ، وأَصْدَقها ألف ألف درهم .

وقيل : إنّ المعتضد بالله إنَّما قَصَد بزواجها إفقارَ الطُّولُونيَّة ، وكذلك كان ، فإنَّ خمارويه جهَّزَها بجهاز لم يسمع بمثله[٤] ، حتى قيل إنَّه كان لها ألف هاون من ذهب ، وشرط المعتضد على خُمارَويه أنْ يحمل فى كلّ سنة مائتى ألف دينار ، بعد القيام بجميع وظائف مصر وارزاق الجند ، فأجاب إلى ذلك .

ذكر مقتل أبى الجيش خمارويه

كان مقتلُه فى ليلة الأحد لثلاثٍ بَقِينَ من ذى القَعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، وقيل[٥] فى ذى الحجة منها بدمشق .

---

(١) « الحسن » فى الأصل ، وهو الحسين بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن الجصاص ، التاجر الجوهرى ، ت سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م - وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٧٧ .

(٢) قطر الندى ، واسمها اسماء ، توفيت سنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠م ، ودفنت داخل قصر الرصافة ببغداد ــ وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٥٠ .

(٣) [ ] إضافة تتفق وسياق الكلام .

(٤) عن جهاز قطر الندى انظر المواعظ والاعتبار جـ١ ص ٣١٩ ، وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٠٥ ، جـ ٢ ص ٢٤٩ ــ ٢٥٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٦١ وما بعدها .

(٥) الكامل جـ ٧ ص ٤٧٤

وكان سببُ قتله أنّه قيل له إن جوارى داره قد اتّخذَت كلٌّ واحدةٍ منهنّ خَصِيًّا وجعلته لها كالزّوج ، وقال له النّاقل إنْ شئت [أن](١) تعلم صحّة ذلك فقرِّرْ بعضَ الجوارى بالضّرب ، فكتب من وَقْتِه إلى نائبه بمصر يأمُره أنْ يسيِّر إليه الجوارى ، فاجتمع جماعةٌ من خَدَم الخاصّة وتواعدوا على قتله ، فذبحوه على فراشه ليلاً . فلما قُتِل قُتِل من خَدَمه الّذين اتُّهِموا بقَتله نيّفٌ وعشرون نفسا .

وحُمل خُمارَويه إلى مصر فدفن بجبل المقطّم . وكانت مدّة ملكه ثنتى عشرة سنة وأياما .

ذكر ولاية أبى العشائر جيش
ابن أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون
وهو الثالث من الملوك الطولونية

ملك بعد وفاة أبيه فى يوم الأحد لثلاثٍ بقين من ذى القَعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين . وذلك أنّ خُمارَويه لّما قُتل اجتمع القوّادُ على ابنه أبى العشائر[١٣]وبايعوه ، وكان مع أبيه بدمشق ، وهو أكبر ولده ، ففرّق فيهم الأموال ، ورجع إلى مصر ، وكان صبيًّا غِرًّا .

---

(١) [ ] إضافة يقتضيها سياق الكلام من الكامل جـ ٧ ص ٤٧٥ .

ذكر عصيان دمشق على جيش
وخلاف جنده وقتله

وفى سنة ثلاثٍ وثمانين ومائتين خرج جماعةٌ من قوّاد جيش بن خمارويه وجاهرُوه بالخلاف ، وقالوا : لا نرضى بك أميرًا ، فاعتزلْنا حتى نولّى الإمارة [1] عمّك .

وكان سببُ ذلك أنه لمّا وَلِى قَرَّبَ الأحداث والسَّفل ، وأخلد إلى سماع أقوالهم ، فغيّروا نيّته على قواده وأصحابه ، فصار يقَعُ فيهم ويذمُّهم ، ويُظهر العزمَ عَلى الاستبْدَالِ بهم ، وأخْذِ نعمهم وأموالهم ، فاتّفقوا على قَتْله وإقامة عَمّه . فبلَغَهُ ذلك فلم يَتَّقِ ، وأطلق لسانه فيهم ، ففارقه بعضُهم ، وخلعه طُغْج بن جُفّ [2] أمير دمشق .

وسار القوّادُ الذين فارقوه إلى بغداد ، وهم : محمّد بن إسحاق بن كنداجق ، وخاقان المفلحى ، وبدر بن جُفّ أخو طغج ، وغيرهم من قوّاد مضر [3] . فسلكوا البرِّيَّة وتركوا أموالَهم وأهليهم ، فتاهوا أيّامًا ، ومات جماعةُ منهم من العطش ، وخرجوا فوق الكوفة بمرحلتين ، وقَدِمُوا على المعتضد ، فخَلَعَ عليهم ، وأحسن إليهم . وبقى سائرُ الجند بمصر على خلافِهم ، فسألهم كاتبُه على بن أحمد الماذرائى أن ينصرفوا يومهم ذلك ،

---

(١) « فتنح عنا حتى نولى عمك نصر بن أحمد بن طولون » فى النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩٣ .

(٢) ولى حكم دمشق وطبرية من قبل خمارويه ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٥٧ .

(٣) عن هؤلاء القواد انظر النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٩ ــ ٩٠ .

فرجعوا ، فقتل جيش عمّيْن من عمومته (١) ، فثار الجند إليه ، فرمَى لهم بالرَّأسَيْن ، فهجم الجند عليه وَقتلُوه ، ونهبوا داره ، ونهبُوا مصر وأحرقوها (٢). وكانت ولايتُه تسعة أشهر ، وقيل ثمانية ، والله أعلم .

ذكر ولاية أبى موسى هارون
ابن أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون
وهو الرابع من ملوك الدولة الطولونية

ملك بعد مقتل أخيه فى سنة ثلاثٍ وثمانين ومائتين ، وهو ابن عشر سنين ، فاختلّت الأحوال ، واختلف القوّاد وطمعوا ، فانحلّ النظام ، وتفرّقت الكلمة ، ثم اتّفقوا على أن جعلوا أبا جعفر بن أبّى التُّركى مدبّر الدولة ، وكان مقدَّمًا عند أبيه وجدّه ، فأصلح الأحوال جَهْد طاقَتِه . وجَهز جيشًا إلى دمشق عليه بدر الحمامى والحسَن بن أحمد الماذرائى ، فأصلحا حالَهَا ، وقرَّرَا أمور الشّام ، واستعملا على دمشق طُغج بن جُفّ الفَرْغانى ، وهو والدُ الإخشيد ، ورجَعَا إلى مصر ، وفى الأمور اختلالٌ ، والقوّاد قد تغلَّبُوا ، وضمّ كلٌّ منهم إلى نفسه طائفةً من الجند . ولم يزل الأمر على ذلك إلى سنة إحدى وتسعين ومائتين .

---

(١) أحدهما نصر بن أحمد بن طولون ـــ النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩٣ .

(٢) تعددت الروايات فى قتله انظر تاريخ الطبرى جـ ١٠ ص ٤٥ ، الولاة والقضاة ص ٢٤٢ ، والروايات المختلفة التى وردت فى النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٩ وما بعدها .

ذكر انقراض الدولة الطولونة

كان انقراضها فى يوم الخميس لِلَيْلَتين بقيتا من صفر ، سنةَ اثنَتَيْن وتسعينَ ومائتين

وسببُ ذلك أن الخليفة المكتفى بالله[١] ندب محمّد بن سُليمان كاتب الجيش فى سنة إحدى وتسعين ومائتين ، وخلع عليه وعلى جماعةٍ من القوّاد ، وأمرَهُم بالمسير إلى الشّام ومصر وانتزاعها من هارون بن خُمارويه ، لِمَا ظهر من عَجْزه واختلاف أصحابه عليه .

فسار عن بغداد فى شهر رجب ، هو وعشرة آلاف ، ووصل إلى حُدود مصر فى المحرَّم سنة اثنتين وتِسْعين ومائتين ، ووجَّه المكتفى أيضًا دميانة الرّومى غلام يَازمان بالمراكب ، فوصل إلى تنّيس[٢] ودخل نهر النّيل ، فوجه إليه هارون جماعةً من القوّاد ، فالتَقَوْا ، فهزمهُم دميانة ، وزحف محمّد بن سلمان بالجيوش فى البرّ حتى دَنَا من مصر ، وكاتب مَنْ بها من القوّاد ، فكان أوّل مَنْ خرج إليه والتحق به بدر الحمامى ، وهو رئيس القوّاد ففَتّ ذلك فى أعضاد المصريّين . وتَتَابَع القوّاد إليه . فلمّا رأى هارون ذلك خرج بِمَن بقى معهُ من القوّاد لقتال محمّد بن سلمان ، فكانت بينهم حُروبٌ ، ثمّ وقع بين

(١) هو على بن أحمد بن طلحة ، أبو محمد ، المكتفى بالله ، ولى الخلافة العباسية ببغداد فى الفترة من ٢٨٩ ــ ٢٩٥ هـ/٩٠٢ ــ ٩٠٨ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

(٢) تنيس : من المدن المصرية القديمة ، ما بين الفرما ودمياط ، وهى جزيرة ببحيرة المنزلة ــ القاموس الجغرافى ــ القسم الأول ص ١٩٧ ــ ١٩٨ .

أصحاب هارون فى بعض الأيّام ، فاقتتلُوا ، فخرج هارون ليسكِّنَهم ، فرماهُ بعضُ المغاربة بمِزْرَاقٍ[1] فقتله ، وقيل بل فَعَل ذلك عمُّه شيبان ، وذلك لاثنتى عشرة ليلةً بقيت من صفر ، سنةَ اثنتين وتسْعِين ومائتين .

وكانت مدّة ولايته نحوًا من تسع سنين تقريبًا .

فبايع الأجناد عمّه [١٤] أبا المقانب شيبان بن أحمد بن طولون ، وهو الخامس من ملوك الدَّولة الطُّولُونية ، وعليه انقرضت .

قال : ولمّا بويع بذل الأموال للجند فأطاعوه[2] ، وقاتلوا معه قتالاً شديدًا ، ثم لم يلبثوا أن وافتهم كُتُب بدر الحمامى يدعوهم إلى الأمان فأجابوه إلى ذلك . وسار محمّد بن سليمان إلى مصر ، فدخلها فى يوم الخميس لِلَيْلتين بقيَتَا من صفر ، سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، فأرسل إليه شيْبَانُ يطلب منه الأمان ، فأمّنه ، فخرج إليه ولم يعلم به أحدٌ من جنده ، فلمّا أصبحوا قصدُوا دَار الإمارة[3] فلم يجدوه ، فبقُوا حَيَارى .

واستولى محمّد بن سليمان على مصر ، وعلى منازل آل طولون وأموالهم ، وقبض عليهم كلِّهم ، وهم عشرون رجلاً ، فقيدهم وحبسهم ، واستصفى أموالهم . وكتب بالفتح إلى الخليفة ، فأمره بإشخاص ال طولون وأشياءهم[4] من مصر والشام إلى بغداد ، فحملهم وأتباعهم وأنْقَاض

(١) مزراق : ما زرق به ، وهو نوع من الرماح ، صغير ، ويرمى به من اليد ــ خزانة السلاح ص ٣٨ .

(٢) « فأطلقوه » فى الكامل جـ ٧ ص ٥٣٦ .

(٣) « قصدوا داره » فى الكامل جـ ٧ ص ٥٣٦ .

(٤) « وأسباهم » فى الأصل ، و « وأسبابهم » فى الكامل جـ ٧ ص ٥٣٦ ، تاريخ الطبرى جـ ١٠ ص ١١٩ .

قصورهم ، وعاد إلى بغداد ، وولّى معونة[١] مصر عيسى النوشرى[٢].

وانقرضت الدّولة الطُّولونيّة ، وكانت مدّتُها من لَدُنْ ولاية أحمد بن طولون وإلى آخر أيام أبى المقانب سبعا وثلاثين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام ، وملك منهم خمسة نفر .

(١) « معاوية » فى الأصل ، والتصحيح مما يلى ، ومن الكامل جـ ٧ ص ٥٣٦ .
(٢) انظر الولاة والقضاة ص ٢٥٨ ،
وهو عيسى بن محمد النو شرى ، الأمير أبو موسى ــ النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٥ .

ذكر أخبار من ولى مصر بعد انقراض الدّولة الطولونية وإلى قيام الدّولة الإخشيديّة من الأعمال وملخّص ما وقع فى أيامهم من الحوادث

لمّا انقرضت الدولة الطولونية كما ذكرنا، كان أول من ولى مصر عيسى النوشرى، رتّبه فى ولاية معونتها محمّد بن سليمان الكاتب، فلما سار محمد إلى العراق ظهر بمصر رجل يسمى إبراهيم الخليجى وتغلب عليها.

ذكر إبراهيم الخليجى[1] وما كان من أمره

كان ابراهيم هذا من القوّاد الطُّولونيّة، وكان قد تخلّف عن محمّد بن سليمان (٢)، فاستمال جماعة وخالف على السّلطان وكثر جمعه. وعجز النوشرىّ عنه، فسار إلى الإسكندرية، ودخل الخليجى مصر. وكتب النوشرىّ إلى المكتفى بالخبر، فندب إليه الجنود مع فاتك مولى المعتضد، وبدر الحمامى، فساروا فى شوّال سنة اثنتين وتسعين ومائتين، ووصلوا إلى نواحى مصر فى سنة

---

(١) ورد اسمة فى الصادر بصور مختلفة فهو «ابن الخليج» فى الولاة والقضاة ص ٢٥٩، و«إبراهيم الخليجى» فى تاريخ الطبرى جـ ١٠ ص ١١٩، و«محمد بن على الخليج» فى المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣٢٧، و«ومحمد بن على الخلنجى» فى النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٧، و«الخلنجى» فى الكامل جـ ٧ ص ٥٣٦.

(٢) «كان تخلفه فى دمشق ومعه شفيع الخادم الطولونى» ـــ النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٧.

ثلاث ، فتقدم أحمد بن كيغلغ[١] فى جماعة من القوّاد ، فلقيهم الخليجى بالقرب من العريش ، فهزمهم أقبح هزيمة ، فندب من بغداد جماعة من القوّاد فيهم إبراهيم بن كيغلغ[٢] فخرجوا فى شهر ربيع الأول . واتّصلت الأخبار بقوة الخليجى حتى برز المكتفى بالله إلى باب الشماسيّة على عَزْم المسير إلى مصر ، ثم التقى القوّاد بالخليجى ، واقتتلوا قتالاً شديدًا عدة دفعات ، كان آخرها أن انهزم الخليجى ودخل فسطاط مصر ، واستتر عند رجل من أهلها ، ودخل عسكر الخليفة فظفروا به وأخذوه هو والذى استتر عنده[٣] وحبسوهما ، وكتبوا بذلك إلى الخليفة ، ووجه فاتك إبراهيم الخليجى إلى بغداد ، فدخلها هو ومن معه فى شهر رمضان ، فحبسهم المكتفى .

واستقر عيسى النوشرى بمصر إلى سنة سبع وتسعين ومائتين ، فتوفى فى شعبان منها ، وحمل إلى البيت المقدس فدفن به .

واستعمل المقتدر[٤] على مصر تكين الخاصّة[٥] فى منتصف شهر رمضان من السّنة .

---

(١) ولى حكم مصر مرتين سنة ٣١١ هـ/٩٢٣ م ، ٣٢١ هـ/٩٣٣ م ــ الولاة والقضاة ص ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٦٢ ــ ٦٣ ، وانظر ما يلى .

(٢) توفى سنة ٣٠٣ هـ/٩١٥ م ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٦٣ .

(٣) وذلك فى رجب سنة ٢٩٣ هـ/٩٠٥ م ــ الولاة والقضاة ص ٢٦٢ .

(٤) هو جعفر بن أحمد بن طلحة ، أبو الفضل ، المقتدر بالله ، ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة من ٢٩٥ ــ ٣٢٠ هـ/٩٠٨ ــ ٩٣٢ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

(٥) ولى حكم مصر ثلاث مرات ، وتوفى بها فى المرة الثالثة سنة ٣٢١ هـ/٩٣٣ م ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٦٢ ، وانظر ما يلى .

وفى سنة ثلاثمائة ندب تكين عسكرًا وجعل مقدمه أبا النمر[1] أحمد بن صالح ، فمضى إلى برقة والتقى مع عسكر حُباسَة قائد المهْدى ، وأبلى بلاء حسنا ، ثم صرفه تكين وولى حر المنصورى فمضى إلى برقة فوجد أبا النمر موافقا لحباسة ، فلمّا علم أبو النمر بعزله تخاذل حنقا[2] على تكين ، فاغتنم حباسة الفرصة وحاربهما ، فكسرهما ، وعادًا إلى مصر .

ذكر استيلاء حُباسَة على الإسكندريّة

[١٥] وفى المحرم سنة اثنتين وثلاثمائة سار حباسة قائد المهدى من برقة ودخل الإسكندرية وملكها ، فوصل من بغداد أحمد بن كيغلغ ، وأبو قابوس محمود بن حمد ، والقاسم بن سيما ، فى جمع من القواد والعساكر ، وكان وصولهم فى العشرين من صفر ، فخرج بهم تكين إلى الجيزة فى يوم الاثنين لسبعٍ خلَوْن من جمادى الأولى فعسكر بها ، وسار حباسة من الإسكندرية بعسكر مستوفى ، ونودى فى فسطاط مصر بالنّفير فى العشرين من الشهر ، فخرج الناس إلى الجيزة ، ولم يتخلف أحد من الخاصّة والعامّة ، وتقدم حباسة فى جيوشه والتقى الفريقان وكثرت القتلى بينهم ، فقُتل أكثرُ رجال حباسة ، وانهزم بمن بقى معه .

ثم قدم مؤنس الخادم من العراق فى منتصف شهر رمضان من السّنة ، ومعه جمع من الأمراء ، وأمر أحمد بن كيغلغ بالمسير إلى الشام ، وصرف

(١) هكذا بالأصل ، والولاة والقضاة ص ٢٦٨ ، و « أبو اليمن » فى المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣٢٧ ، و « أبو اليمنى » فى النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٧٢ .

(٢) « حمقا » فى الأصل والتصحيح يتفق وسياق الكلام .

تكين الخاصّة عن ولاية مصر لأربع عشرة ليلة خلت من ذى القعدة . فكانت مدة ولايته خمس سنين وشهرين .

وفى سنة ثلاث وثلاثمائة قدم أبوالحسن ذكا [1] الأعور الرومى أميرًا على مصر ، وذلك لاثنتى عشرة ليلة خلت من صفر ، وخرج مؤنس بجيوشه إلى العراق لثمان خلون من شهر ربيع الأول ، وخرج ذكا إلى الإسكندرية لإصلاحها ، وجعل فيها ولده مظفرًا وتتبّع من كان يُذكر بمكاتبة المهدى ، فحبس جماعةً منهم ، وقطع أيدىَ جماعةٍ وأرجلَهم .

ذكر وصول أبى القاسم بن المهدى إلى الدّيار المصريّه واستيلائه على الإسكندرية والفيّوم والأشمونين

وفى سنة سبع وثلاثمائة ، فى الثانى من صفر ، وصل أبوالقاسم بن المهدى بجيوش المغرب إلى الإسكندريّة وملكها . وهى الدّفعة الثّانية ، فإنه كان قد قدم فى سنة إحدى وثلاثمائة وملكها أيضًا ، ثم عاد إلى أفريقية .

ووافق وصوله الآن والجند مخالفون لِذكَا أمير مصر ، فتقاعدوا عن الخروج معه للقاء عسكر المهدى ، فخرج إلى الجيزة فى عسكر قليل فى النّصف من صفر ، وابتنى حصنًا بالجيزة ، واحتفر خندقًا على عسكره ، ثم صُرِف ذُكا ، وتوُفّى للَيلةٍ خلت من شهر ربيع الأول من السنة ، وكانت مدة إمارته أربع سنين وأياما .

---

(١) « دعا » فى الأصل ، كما ورد فى الأصل بعد ذلك « وكا » ، والتصحيح هنا وفيما يلى من الولاة والقضاة ص ٢٧٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٨٦ .

وقدم أبوقابوس محمود بن حمد أمير الشام بعساكره نُصْرةً لعساكر مصر ، فكان قدومُه لثمان خلون من شهر ربيع الأول ، ونزل الجيزة ، ثمّ قدم إبراهيم بن كيغلغ لسبع بقين من شهر ربيع الآخر . ودخل تكين الخاصّة متولّيًا لإحدى عشْرَةَ ليلةً خلت من شعبان سنة سبع وثلاثمائة ، ونزل الجيزة ، وحفر خندقًا ثانيًا ، وأقبلت مراكب المهدى صاحب إفريقيّة ، وهى مائة مركب حربيّة [(١)] ، وعليها سليمان الحاكم [(٢)] ، فبعث تكين إلى بَمَال الخادم أمير طَرَسُوس أن ينجده ، فحضر إليه فى مراكبه [(٣)] ، وانتهى إلى ثغر رشيد ، والتقت مراكبه بمركب المهدىّ لعشرٍ بقين من شوال من السنة ، وكان بينهم حرب شديدة ، وهبّت ريح على مراكب المهدىّ فألقتها إلى البر ، وتكسّر أكثرُها ، وأُسر مَن فيها ، وقتل منهم خلق كثير ، ودخل من بقى منهم إلى الفسطاط ، وهم سبعمائة نفر ، فقُتلوا عن آخرهم .

وقدم مؤنس الخادم من بغداد فى الخامس من المحرم سنة ثمان وثلاثمائة [(٤)] ، وتولّى إمرة مصر من بغداد هلال بن بدر ، ودخلها فى السّادس من ربيع الآخر سنة تسع وثلاثمائة ، وأقام إلى سنة [(٥)] عشرة ،

---

(١) « ثمانون مركبًا » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧١ .

(٢) هكذا بالأصل ، و « عليها سليمان الخادم ويعقوب الكنافى » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧١ ، وانظر أيضًا الولاة والقضاة ص ٢٧٦ .

(٣) فى اتعاظ الحنفا أن الخليفة المقتدر هو الذى أمر بإرسال مراكب طرسوس جـ ١ ص ٧١ .

(٤) « وصرف تكين عن مصر يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة تسع وثلاثمائة وولى مؤنس عليها أبا قابوس محمود بن حمك فأقام عليها أيامًا ، ثم رد تكين عليها يوم الجمعة لخمس بقين من ربيع الأول فأقام أربعة أيام » ــ الولاة والقضاة ص ٢٧٨ .

(٥) « وأقام إلى ست عشرة » فى الأصل ، والتصحيح من الولاة والقضاة ص ٢٧٩ .

فشغب[1] عليه الجند ، وكثر النهب والقتل والفساد بمصر فصُرف هلال عن مصر فى شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وثلاثمائة . فكانت مدة ولايته نحو سنتين .

وتولى مصر أحمد بن كيغلغ فقدمها فى شهر رجب من السنة ، فأقام بمنية الأصبغ [2] ، وأحضر الجند ، ووضع العطاء فيهم ، وأسقط كثيرًا من الرِّجاله ، فسعت الرجال عليه ، وخرجوا لقتاله ، فانتقل إلى فاقوس وأقام بها إلى أن قدم رسول تكين الخاصّة بولاية مصر ، وذلك فى ذى القعدة من السّنة .

وقدم تكين من العراق لعشر مضين من المحرم سنة ثنتى عشرة وثلاثمائة ، فكان بها إلى أن توفى فى السادس من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وحمل إلى بيت المقدس فدفن هناك ، فكانت مدة ولايته هذه تسع سنين وأربعة أشهر إلا أربعة أيام ، واستخلف ابنه محمد ، وكان الوزير بمصر والمتولّى لخراجها يومئذ محمد بن على الماذرائى [3] فوقع بينه وبين محمد

---

(١) « فشعت » فى الأصل ، والتصحيح من الولاة والقضاة ص ٢٧٩ .

(٢) منية الأصبغ : قرية تنسب إلى أبى ريان أصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، أنشأها على الخليج المصرى عرفت باسمه ، وعرفت فى العصر الفاطمى بقرية الخندق ، وهى فى شرق القاهرة حاليا بوسط منطقة دير الملاك . القاموس الجغرافى ـ القسم الأول ص ٤٢٨٠ .

(٣) اختلفت المصادر ـ فى رسم هذا الاسم ، ففى الأصل ، وعقد الجمان ، « الماردانى » ، وفى المواعظ والاعتبار « المادرانى » ، و « الماذرائى » فى الولاة والقضاة ص ٢٤٤ .

ونسبت هذه الأسرة إلى ماذاريا : من أعمال البصرة ، ويقول ياقوت : ينسب إليها الماذرائيون ، كتاب الطولونية بمصر ـ معجم البلدان .

ولذلك تم تصحيح الاسم هنا وفى المواضع التالية .

ابن تكين فتنة لأربع بقين من الشهر ، وانتشرت حتى قامت الحرب بينهما ، وقتل فيها جماعة من الفريقين وأحرق دور الماذرائى الوزير وجماعة من أصحابه .

[١٦] وخرج محمد بن تكين هاربًا من مصر ، ودُعى بمصر لمحمَّد ابن طُغج بن جُفّ الإخشيدى فى يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان من السّنة ، ثم دُعِى لأحمد بن كيغلغ[١] فى شوال من السنة ، ثم رجع محمد بن تكين إلى مصر فى يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من صفر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، وأقام بالجيزة أياما ، ودخل دار الإمارة بمصر ، واستقر بها لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول ، ودُعِى له بالأمارة ثمّ وقع بينه وبين عرب المغاربة حرب انجلت[٢] عن انهزامهم إلى الصَّعيد ، وأقام محمد بن تكين ثلاثة أشهر واثنتين وعشرين يومًا ، ثم هرب مع جماعة من أصحابه لخمس خلون من شهر رجب . ودخل أحمد بن كيغلغ فى يوم السّبت السّادس من الشهر ، ثم رجع محمد بن تكين لقتاله لثلاث بقين منه ، وكان بينهما حرب انجلت[٣] عن انهزام محمد بن تكين ، ثم نفى بعد ذلك إلى الصعيد ، فلم يزل هناك إلى أن جاء محمّد بن طُغج .

---

(١) « لمحمد بن كيغلغ » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من الولاة والقضاة ص ٢٨٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٤٢ ، وما يلى .

(٢) ، (٣) « أجلت » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسياق الكلام ، وما جاء فى الولاة والقضاة ص ٢٨٢ .

ذكر أخبار الدولة الإخشيدية وابتداء أمر من قام بها وكيف كان سبب ملكه وقيامه ومن ملك بعده إلى أن انقرضت أيامهم

كانت هذه الدّولة بمصر والشام ، وهى من الدُّول المشهورة . وأول من ولى من ملوكها الإخشيد أبو بكر محمد بن طغج . واسم طُغج عبد الرحمن ابن جُفّ بن يَلْتكين بن فُورى[1] بْن خاقان الملك ، وهو من فرغانة ، وكان طغج من القواد الطّولونيّة ، وتولّى لخمارويه بن أحمد [بن طولون][2] دمشق والشام . ولما مات طُغج ترك من الأولاد أبا بكر محمدًا الإخشيد ، وأبا القاسم عليًا ، وأبا المظفر الحسين ، وأبا الحسن عبيد الله ، وكان أبو بكر أكبرهم فتولّى الولايات وتنقل فى المراتب إلى أن ملك مصر والشام .

وكان ابتداء ولايته الدّيار المصريه والدعاء له بها فى يوم الجمعة الاثنى عشر ليلةً خلت من شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، كما قدمناه ، ولم تثبت ولايته هذه . ثم دُعى لأحمد بن كيغلغ ، وكان ما ذكرناه ، ثم وَلِىَ مصر فى سنة ثلاثٍ وعشرين وثلاثمائة فى خلافة الرّاضى بالله[3]

---

(١) « بن قروى » فى الأصل ، والتصحيح من وفيات الأعيان ــ انظر ترجمة أبو بكر محمد بن أبى محمد طغج جـ ٥ ص ٥٦ رقم ٦٨٩ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح .

(٣) هو أحمد بن جعفر المقتدر بالله ، أبو العباس الراضى بالله ، ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة من ٣٢٢ ــ ٣٢٩ هـ/٩٣٤ ــ ٩٤٠ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

وكانت هذه الولاية مفتعلة فى ابتدائها ، وذلك أن التقليد من دار الخلافة ببغداد خرج باسم محمد بن تكين الخاصّة ، وكان بن طغْج بالسّاحل فقبض على الرّسول الواصل من دار الخلافة وأخذ منه التّقليد وكشط « تكين » وكتب « طغج » وأنفذ التقليد إلى مصر فورد فى يوم السبت لثلاث عشرة ليلةً خلت من شعبان ، فاعتزل أحمد بن كيغلغ النّظر ، وامتنع محمد ابن على الماذرائى الوزير من التسليم له ، وكان غالبًا على أمر أحمد [بن كيغلغ][1] ، وعزم على قتال محمد بن طغج ، فبلغه ذلك ، فبعث صاعد بن كلملم بمراكب كثيرة من ساحل الشام ، وسار هو فى البرّ ، فقدمت عساكره مصرَ برًّا وبحرًا ، ووصل صاعد إلى الجيزة فى يوم الخميس لخمس بقين من شعبان ، وأقام خمسة أيام ، وأحرق الجسر ، ووصل الإخشيد إلى مصر فلقيه محمد بن على الماذرائى الوزير وأحمد بن كيغلغ ومحمد بن عيسى النوشرى وبرزوا لقتاله . فلما تصافُّوا للقتال انحاز أحمد بن كيغلغ وانضم إلى الإخشيد ، وقاتل الماذرائى وابنُ النوشرى قتالاً شديدًا ، ثم انهزما إلى الفيوم .

ودخل الإخشيد مصر بعد القتال فى يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان من السنة ، فندب صاعدًا لقتال الماذرائى وابن النوشرى ، فوقع بينهما حرب انجلت[2] عن قتل صاعد وهرب النوشرى إلى برقة ، وراسل القائم[3]

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٢) « أجلت » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسياق الكلام ، وما ورد فى الولاة والقضاة ص ٢٨٧ .

(٣) هو الخليفة الفاطمى الثانى بالمغرب ، وهو القائم بالله أبو القاسم محمد ، ولى الخلافة بالمغرب فى الفترة من ٣٢٢ ــ ٣٣٤ هـ/٩٣٤ ــ ٩٤٥ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٣٣ .

صاحب إفريقية يطلب نجدة ، فسير إليه عسكرًا عليه أبوتازرت[1] فدخلوا الإسكندرية وملكوها ، فخرج إليهم أبوالمظفر الحسين بن طغج ومعه صالح ابن نافع ، ووقع بينهم القتال ، فانهزم النوشرى وعسكر المغاربة ، وقتلوا أبو تازرت ، وأسر عامر المجنون ، وجماعة منهم . وأما محمد بن على الماذرائى الوزير فإنه استتر ، ودام استتاره إلى أن دخل الوزير أبو الفضل جعفز بن الفرات المعروف بابن حنزابة وتلقاه الإخشيد ، وزينت له مصر ، فأخرجه . ثم وصل التقليد من دار الخلافة لمحمد بن طغج فى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة .

وفى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة نعت الخليفة الراضى بالله محمَّد بنَ طُغج بالإخشيد بسؤالٍ منه فى ذلك . ومعنى الإخشيد ملك الملوك .

وفى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة خرج الإخشيد إلى الشام واجتمع بالخليفة المتقى[2] بالله بالرَّقة ، وخدمه ، ومشى بين يديه ، وسأله المسير معه إلى مصر [١٧] وخوَّفه من توزون التّركى ، فلم يقبل منه . فضمَّ إليه الإخشيد عسكرًا وقائدًا من قُوّاده ورجع الإخشيد إلى الشام ، ثم إلى مصر . وولّاه المتقى مصر والشام والحرمين ، وعقد لولديه من بعده ،

---

(١) « أبو بارزت » فى الأصل ، والتصحيح من الولاة والقضاة ص ٢٨٨ .

(٢) « الملتقى بالله » فى الأصل ، وهو تحريف .
وهو أبو إسحاق إبراهيم المتقى بالله ، ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة من ٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ/٩٤٠ ـ ٩٤٤ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

أَنُوجُور وعلى ، على أن يكفلها[1] كافور الخصىّ . وكان عوْدُ الإخشيد إلى مصر فى يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الأولى ، وأخذ البيعة على الناس لولده أبى القاسم أنوجور لليلتين بقيتا من ذى القعدة منها .

(١) « اونجور وعلى ، وعلى أن يكلفهما » فى الأصل ، وهو تحريف ، وسيجرى تصحيح اسم أنوجور فيما يلى طبقًا لضبطه فى عقد الجمان وهو « بفتح الهمزة وضم النون والجيم بعدها وقبلها واو ساكنة »

ذكر مسير الإخشيد إلى الشام ووفاته وشيء من أخباره وسيرته

وفى خامس شعبان سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة خرج الإخشيد إلى الشام والتقى بأصحاب ابن حمدان[١] ، عَلَى لدّ[٢] ، وهزَمَهم . ثم سار إلى حمص وقاتل سيف الدولة بن حمدان ، ومضى إلى حلب . ثمّ وقع الصلح بينهما ، وتسلم الإخشيد من سيف الدوّلة حلب وحمص وأنطاكية[٣] ، وتزوج سيف الدولة بنت عبيدالله بن طغج أخى الإخشيد . ثم عاد الإخشيد إلى دمشق فتوفّى[٤] بها فى يوم الجمعة لثمان بقين من ذى الحجّة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، وكان عمره ستًا وستين سنة وخمسة أشهُر وسبعة أيّام ، وكانت مدة ولايته الثانية[٥] من لدُن دخوله إلى مصر وإلى حين وفاته إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر إلّا يومًا واحدًا .

قال التنوخى[٦] : وكان الإخشيد حازمًا شديدًا ، يتيقّظ فى حروبه ،

---

(١) هو على بن عبدالله بن حمدان ، سيف الدولة ، أبو الحسن حكم حلب فى الفترة ٣٣٣ ـ ٣٥٦ هـ/٩٤٤ ـ ٩٦٧ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٤٤ .

(٢) لُدّ : بالضم والتشديد : هى مدينة اللد ، من فلسطين ــ معجم البلدان .

(٣) عن تفاصيل الصراع بين الإخشيد وسيف الدولة انظر الكامل جـ ٨ ص ٤٤٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦ ، الولاة والقضاة ص ٢٩٢ ، مصر فى عصر الإخشيديين ص ٣٦٧ ـ ٣٧٢ .

(٤) « فتولى بها » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من الولاة والقضاة ص ٢٩٣ .

(٥) « الأولى » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسير الأحداث ــ انظر ما سبق .

(٦) هو المحسن بن أبى القاسم على بن محمد، القاضى أبو على التنوخى ، صاحب كتابى الفرج بعد الشدة ، وجامع التواريخ المسمى بكتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، والمتوفى سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م ـ وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٥٩ رقم ٥٥٧ .

حسَن التَّدبير ، مكرماً للأجْناد ، أيِّداً[1] فى نفسه ، لا يكاد يجرّ قوسه الأفذاذ من النّاس لقوته ، حسن السيرة فى رعيّته ، وكان جيشه يحتوى على أربعة آلاف رجل ، وله ثمانية آلاف مملوك ، يحرسه فى كل ليلة منهم[2] ألفا مملوك . وكان إذا سافر يتنقّل فى الخيام عند النّوم حتى كان ينام فى خيمة الفرّاشين . قال وترك الإخشيد سبع بيوت مال ، فى كل بيت مال منها ألف ألف دينار من سكَّةٍ واحدة .

أولاده : أبو القاسم أُنُوجُور،أبو الحسن على .

كُتَّابه : أبو جعفر بن المنفق ، وابن قوماقس ، وابن الرودبارى .

ولما مات ملك بعده ابنه أنوجور .

ذكر ولاية أبى القاسم أُنُوجُور

ومعنى أنوجور محمود ؛ ابن أبى بكر محمد بن طغُج ، وهو الثانى من ملوك الدّولة الإخشيديّة .

كانت ولايته بالشام بعد وفاة أبيه لثمان بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، وبويع له بمصر عند ورود الخبر بوفاة الإخشيد فى اليوم الثانى من المحرّم سنة خمس وثلاثين ، وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة . وقام ببيعته الوزير أبوبكر محمد بن على بن مقاتل[3] . وكان أبوالمظفّر الحسن بن

---

(١) د ، يئيد ، أيدا : اشتد وقوى وصلب ــ القاموس .

(٢) « منها » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق ، فالضمير عائد على ثمانية آلاف مملوك .

(٣) هو صاحب خراج مصر يومئذ ــ الولاة والقضاة ص ٢٩٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٩١ .

طغج بمصر فقبض على الوزير محمد بن على المذكور فى ثالث المحرّم ، وعزله ، وولّى الوزارة[١] محمد بن على الماذرائى ، وحبس ابن مقاتل ، فلم يزل فى الاعتقال إلى أن قدم كافور بالعسكر من الشام فأفرج عنه . وكان قدوم كافور بالعسكر فى يوم الثلاثاء لثمان مضين من صفر سنة خمس وثلاثين .

ثم خرج كافور بالعسكر إلى الشّام ومُقَدّمه أبوالمظفّر بن طغج ، أخو الإخشيد ، وذلك لسبعٍ بقين من شهر ربيع الأوّل . وكان سبب خروجه أن سيف الدّولة بن حمدان طمع فى ملك الشام لمّا تُوُفى الإخشيد ، فسار إلى دمشق وملكها ، ثم سار إلى الرّملة فلقيه كافور بها وقاتله ، وكانت الهزيمة على ابن حمدان . واستعاد الإخشيديّة ما كان سيفُ الدولة استولى عليه ، وأقام كافور بالشّام .

ذكر قيام أبى نصر عَلْبُون بن سعيد المغربى وما كان من أمره

كان قيامه فى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة ، وكان يتولى ع.ل اسيوط وأخميم من صعيد مصر ، فعزله [١٨] كافور عنهما وهو بالشّام ، فامتنع ، وطمع لخلُوّ البلاد من الأستاذ كافور ، فندب إليه عسكرًا فهزمهم عَلْبُون ، وهزم عسكرًا ثانيًا ، وتقوّى بما أخذه منهم . ثم سار إلى الشّرقيّة فى أواخر السّنة ثم سار منها ونزل على بركة الحبش[٢] فخرج إليه جماعةُ من الإخشيديّة

(١) « وولى مكانه على الخراج » فى النجوم الزاهرة ، « وجعل مكانه » فى الولاة والقضاة .

(٢) بركة الحبش : من أجل متنزهات مدينة الفسطاط ، وكانت تعرف ببركة المغافر وحمير ، وتعرف باصطبل قامش ، وكانت فى ملك أبى بكر محمد بن على الماذرائى ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٥٢ .

فهزمهم . فرحل عند ذلك أبوالقاسم أنوجور وأخوه وأهلها[1] ، والوزير إلى الشام ، وأخليت دارُ الإمارة ، فدخل غلْبُون مصر وسيَّر عسكرًا إلى أبى القاسم فتبعه إلى مسجد تبر[2] . ومُسِك الوزير محمّد بن الماذرائى وجىء به إلى غلبون ، فلما رآه أطلقه .

وسار أبوالقاسم نحو الشّام ، فلقيه مرتاح الشّرابى فى أثناء الطَّريق ، وقدْ قدم مِنْ قِبَل كافور فى جماعة من الإخشيديّة ، فردّه . وعاد أبوالقاسم إلى مصر بالعسكر فوجدُوا غلْبون وقد تفرّق عنه أصحابُه فى البلد ، فحاربهم فى نفرٍ يسير ، فانهزم . ودخلوا دار الإمارة ، فوجدوا الوزير ابن الماذرائى ، فهمُّوا بقتله ، فأخذه القائد منجح وخبأه عنده ، ونُهبت دُورُه وأحرق بعضُها .

ووصل الخبر إلى كافور بالشّام فقبض على ولده ، واستوزر عوضًا عنه أبا الفضل جعفرَ[3] بن الفرات المعروف بابن حنزابة ، ثم قدِم الأستاذ كافور من الشّام فى شهر رمضان ، سنة ست وثلاثين ، فأطلق الوزير ابن الماذرائى وأكرمه ، وردَّ عليه ضِياعَه وأملاكه ، واستوزر محمد بن على بن مقاتل .

وفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة لِستٍّ خلون من صَفر زُلْزِلت مصر ، وتتابعت الزّلازلُ بها ، فتهدَّم أكثرُ دُورها ، وسقط من الجامع العتيق بمصر

---

(١)« وأهليهم » فى الأصل والتصحيح يتفق وسياق الكلام .

(٢) مسجد تبر : خارج القاهرة ، وعرف قديمًا بالبئر والجميزة ، وتسميه العامة مسجد التبن وهو خطأ ، وموضعه خارج القاهرة من المطرية ــ وتبر أحد الأمراء الأكابر فى أيام كافور ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤١٣ .

(٣) هو جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات ، المعروف بابن حنزابة ، توفى سنة ٣٩١ هـ/١٠٠٠ م ــ وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٤٦ رقم ١٣٣ .

قطعة ، وتوالت الزّلازل فى سنة أربعين أيضًا ثلاثة أيام متوالية ، وخُسفَ بعضُ القرى وهلك من كان بها .

فقال محمد بن عاصم من قصيدة مدح بها كافور جاء منها :

ما زُلْزِلَت مِصرُ منْ سُوءٍ يُرادُ بها وإنَّما رقَصَت مِنْ عدْلِه فَرَحَا

وفى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة انْقضَّت نارٌ من السَّمَاء فأحرقت أكثرَ دُور مصر .

ذكر وفاة الوزير أبى بكر محمد بن الماذرائى وشىء من أخباره ومآثره

وفى شوال من سنة خمس وأربعين وثلاثمائة مات الوزير أبوبكر محمد بن على بن أحمد بن إبراهيم الماذرائى ، وزر لخمارويه[1] بن أحمد ولغيره من أمراء مصر ، ومولدُه بالعراق سنة سبع وخمسين ومائتين ، وكان له ضِياعٌ وأملاكٌ ، قيل إن مقدار ارتفاعها[2] فى كل سنة أربعمائة ألف دينار . وواصل الحجَّ من سنة إحدى وثلاثمائة إلى سنة اثنتين وعشرين ،وكان ينفق فى كل حجة مائة ألف وخمسين ألف دينار ، وكان يحمل معه أحواضًا من الخشب على الجمال ، مزروعٌ فيها الخضروات ، وكان لا ينصرف عن الحجاز إلا وقد استغنَى فقراؤه . ثم واصل الحج من سنة نيّفٍ وعشرين إلى سنة أربعين . وقام أربعين سنةً يصوم .

---

(١) « وزير » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسياق الكلام .

(٢) ارتفاعها : إيرادها .

وقال المسبّحى فى تاريخه[1] : حبّس هذا الوزير على مكة والمدينة ضياعًا ارتفاعها نحو مائة ألف دينار فى كل سنة ، منها كورة سيوط ، ومنها نوير ، ومنها بركة الحبش . وحبس أيضًا عليهما بالشام . وقال فى كُتُب وقفه : منْ بدلها فرسُولُ الله صلى الله عليه وسلم خصمه . رحمه الله تعالى .

وفى سنة ثمانٍ وأربعين وثلاثمائة خالف شبيب العقيلى ، وكان واليًا على الرّملة والساحل ، وسار إلى دمشق وفتحها ، ودخل إليها من باب الجابية ، فوقع عن فرسه ميتًا ، واختُلِف فى موته ، فقيل إن امرأةً أرْخَتْ عليه حجرَ طاحون ، وقيل بل مات حتْف أنفه ، واتّصل الخبرُ بالأُستاذ كافور فسكن بعد قلق عظيم . واللّه أعلم .

ذكر وفاة أبى القاسم أنوجور ولاية أخيه أبى الحسن على بن الإخشيد

كانت وفاتُه لِسبعٍ[2] خلَوْن من ذى القعدة سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ، وكانت مدّة وقوع اسم الملك عليه أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وأيّامًا . وكان كافور هو الغالب على أمره والحاكم [١٩] فى دولته ، وليس لأبى القاسم معه إلا مجرّد الاسم .

---

(١) هو محمد بن عبيد الله بن أحمد ، الأمير المختار عز الملك المسبحى ، المتوفى سنة ٤٢٠ هـ/١٠٢٩ م ، صاحب كتاب أخبار مصر ، ولم يصل إلينا منه سوى الجزء الأربعين ويتناول أحداث سنتى ٤١٤ ، ٤١٥ هـ ، ونشره أيمن فؤاد سيد ، وتيارى بيانكى — المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٧٨ .

(٢) « لثمان » فى الولاة والقضاة ص ٢٩٦ ، « سابع أو ثامن » فى النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٩٣ .

ولما مات عُقِدت البيعة بعده لأخيه أبى الحسن علىّ فى يوم الأحد لثمانٍ خلَوْن من ذى القعدة ، فجرى الأستاذ كافور معه على قاعدته مع أخيه ، وزاد على ذلك بأنْ حجبَه ومنَعَهُ من الظُّهور إلى النّاس إلّا معه .

ولم يزل الأمر على ذلك إلى أنّ تُوُفِّى لإحْدَى عشْرةَ ليلةً خلت من المحرّم سنةَ خمسٍ وخمسين[1] وثلاثمائة ، وكان مدة ملكه خمس سنين وشهرين وأيّامًا ، وقيل : إنّ وفاته كانت فى هذا التاريخ من سنة أربع وخمسين ،

وكان مولده لأربع بقين من صفر سنة ستّ وعشرين وثلاثمائة ، وخلّف ولدًا واحدًا وهو أبو الفوارس أحمد .

ذكر ولاية أبى المسك كافور الخصىّ الإخشيدى واستقلاله بملك مصر دون شريك ولا منازع

كانت ولايته بعد وفاة أبى الحسن على، ابن سَيده، لإحدى عشرة ليلةً خلَتْ من المحرّم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة . وقيل فى هذا التاريخ من سنة أربعٍ وخمسين .

قال الفرغانى المؤرخ : لمّا توفى علىّ بن الإخشيد استدعانى كافور وقال لى : ما ترى أن أصنع ؟ فقلت له : أيها الأُستاذ إنّ للمرحوم عندك صنائعَ وآثارًا تقتضى أن يُنْظَر لعقبه ؛ والرأىُ عندى أن تنصب أحمد بن الأمير علىّ مكان[2] أبيه ، وتدبر أنت الدولة كما كنت . فاعتذر بصغره ، فقلت : قد

(١) اتفق على هذا التاريخ الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٦ ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٢٦ .

(٢) « ما كان » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

عُقد لأبيه ولم يبلغ سِنَّهُ ، وأجاز ذلك ثلاثة أئمة : المتقى والمستكفى[١] والمطيع[٢] . فقال ننظر فى ذلك . وانصرفت . فبلغنى أنه قال بعدى : أبو محمد لا يُشَكّ فى ولائه[٣] لكنه يميل إلى الْفَرْغَانيَّة ، ثم لم يقبل ما أشار به الفرغانى ، بل وثب على الأمر وأنزل اسم مواليه عن المنابر ، وأقام كذلك إلى أن تُوفِّى فى يوم الثلاثاء لعشرين بَقِينَ من جُمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة .

وكان سبب وفاته أنه سُمَّ فى لوزينج[٤] قدمته له إحدى جواريه وقد أتى من الميدان وهو جائع ، فأكله ومات ، وقُتِلت الجارية بعده ، وكانت قد وُضعت لذلك . ومات وله من العمر خمس وستون سنة على التقدير ، فإنه جُلِب فى سنة ثنتى عشرة وثلاثمائة وعمره أربع عشرة سنة ، وبيع باثْنَىْ عشر دينارًا[٥] .

قال المؤرخ : وكان لكافور معروف فى كل سنة للحاج أكثر ما[٦] يُنْفِذُ معهم مالاً وكُسوة وطعامًا ، ويبعث معهم صندوقين من كُسوة بَدَنِهِ تُفرّق على الأشراف . وكان له من الغلمان الأتراك ألف وسبعون غلامًا يغلق عليهم باب داره ، وتمام الألفى غلام روم ، سِوَى الْمُوَلَّدين والسُّودان،يكون عدّةُ

---

(١) هو أبو القاسم عبد الله المستكفى بالله ، الخليفة العباسى ببغداد ، ولى فى الفترة من ٣٣٣ - ٣٣٤ هـ/٩٤٤ - ٩٤٦ م - تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

(٢) هو أبو القاسم الفضل المطيع لله ، الخليفة العباسى ببغداد ، ولى فى الفترة من ٣٣٤ - ٣٦٣ هـ/٩٤٦ - ٩٧٤ م - تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

(٣) « فى ولايته » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٤) لوزينج : نوع من الحلوى .

(٥) « اشتراه سيده أبو بكر محمد الإخشيد بثمانية عشر دينارًا من الزياتين » - النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١ .

(٦) « فى كل سنة لحاج أكثر » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

غلمانه أربعة آلاف غلام . وكان راتبه فى مطبخه فى كل يوم ألف وسبعمائة رطل لحمًا سوى الدّجاج والفراريج والخراف المشويّة والحلوى وغير ذلك . وخُطب له بالحرمين الشريفين ، ونَفَذ حكمه فى الشّام والحجاز وطَرَسُوس . وكانت له خزانة شراب يُفَرَّق منها فى كل يوم خمسون قرابة [١] من سائر الأشربة فى الحاشية . ولما مات كافور خلّف فى خزائنه عينًا وجوهرًا وثيابًا وسلاحًا بمبلغ ألف ألف دينار .

وحكى عنه أنه كان فى ابتداء أمره قبل اتصاله بالإخشيد لحقه جرب حتّى كان لا يقابَل فطرده سيِّدُه ، وكان يمشى فى سوق بنى جاسة ، وفيه طبّاخ يبيع الطبيخ ، فطلب كافور منه أن يطعمه ، فضربه بالمغرفة على يده ، وهى حارَّة ، فسقط مغشيًّا عليه ؛ فأخذه رجل من المصريّين وداواه حتى وجد العافية فأتى إلى سيّده فقال له سيِّدهُ : خُذ أجرة ما فعلت . فأبى ؛ وقال : أجْرِى على الله . وكان كافور كلما عزَّتْ نفسُه يذكّرها بضرب الطّباخ بالمغرفة ، وربما يركب ويأتى ذلك الخُطّ وينزل ويسجد شكرا لله عز وجل .

وحكى أيضًا أنه اجتاز يومًا بالنحَّاسين وهو فى موكبه فوقف على حانوت هرَّاس [٢] ، وكان إلى جانبه الوزير ابن الفرات فبكى كافور بكاءًا شديدًا وكان يقول فى بكائه : فاز الجمال فاز الجمّال ، وساق وهو على تلك الحال ، فلمّا استقرّ بمكانه وسكن ، سأله الوزير عن سبب بكائه ، فقال : لمّا طلعتُ من المركب من بحر الحجاز ، وكان يومئذ سيدى الذى جلبنى إبراهيم البلوقى ،

---

(١) قرابة : من الآنية : ما قارب الامتلاء — والمقصود راوية الماء التى تصنع من جلد الحيوان ، وتستخدم فى نقل الماء .

(٢) هراس : أى بائع الهريسة ، وهى نوع من الحلوى .

فركب الجمل وقصدنا قُوص ونزلنا فى بعض الأيام وجلستُ مع الجمّال ورجلٍ آخر كان معنا قد وصل من الحجّ ، فقال الرجل : أشتهى على الله قِدْر هريسةٍ قدّامى . فقلتُ : أنا أشتهى على الله ملك مصر ، فقال الجمّال اشتهيتُ على الله الجنّة . وغاب عنى هذا الحديث . فاتّفق أنّ سيّدى إبراهيم باعنى لمحمد بن هاشم ، ثمّ باعنى لأبى أحمد بن عيّاش ، فوهبنى الجاريةٍ له ، ثمّ وهب [٢٠] أبو أحمد الجاريةَ بعد مدّةٍ الإخشيدَ ، فطلبنى تكين الخاصّة من الإخشيد فأهدانى إليه .فلم أزل إلى أن ملكت مصر . وصاحبُ الحانوت الذى وقفتُ عنده هو الذى اشتهى القِدْر الهريسَة ؛ فعرفت أنّ ذلك الوقت وهب الله لكلٍّ منّا ما اشتهى ، ففاز الجمّال بالجنة .

وحكى أبو جعفر المنطق قال : دعانى كافور يومًا وقال لى : أتعرف مُنَجِّمًا ، كان يجلس عند دار فلان؟ فقلت : نعم . قال : ما صنع ؟ قلت : مات منذ سنين كثيرة . فقال : مررتُ عليه يومًا فدعانى وقال : أَنْظُر لك ؟ قلت : افعل . فنظر ، ثمّ قال : ستَمْلك هذه المدينة وتأمر فيها وتنهى . وكان معى درهمين فدفعتُهما إليه . وقلت : ما معى غيرهما . وقال : وأزيدُك ؛ ستَمْلك هذه المدينة وغيرَها وتبلغ مبلغًا عظيمًا ، فاذكرنى . فانصرفت . فلمّا نمتُ البارحَة رأيتُه فى منامى وهو يقول لى : ما على هذا فارقتنى . وأريد أن تمضى وتسأل عن حاله ، وهل له ورثة ؟ فسألتُ عنه فقيل : له ابنتان إحداهُما بكر والأُخرى متزوّجة ، وأعلمته ؛ فاشترى لهما دارًا بأربعمائة دينار ، ودفع للبكر مائتى دينار تتجهز بها .

وقال الحسن بن زولاق المصرى المؤرخ : كان الشريف عبد الله بن أحمد

الحسينى ، وهو ابن طباطبا ، يرسل إلى كافور فى كل يوم جامين (١) حلوى (٢) ورغيفًا فى منديل مختوم ، فخُوطِب كافور فى الرّغيف وقيل له الحلوى حَسَنٌ فما تصنع بالرغيف ؟ فأرسل إليه وقال : يُجْرِينى الشريفُ فى الحلوى على العادة ، ويعفينى من الرغيف ، فركب الشّريف إليه وقال : أيّدك الله ، أنا ما أُنفذ الرغيف تطاوُلاً ولا تعاظُمًا وإنّما هى صبيّة حَسَنِيّة تعجنُه بيدها وتخبزه ، فأرسله[٣] على سبيل التبرّك ؛ فإذا كرهتَه قطعناه . فقال : لا والله ، ولا يكون قُوتِى سِواه .

وقيل أنه ركب يومًا فى موكبه والشّريف أبوجعفر[٤] نقيب الطالبين يسايره ، فوقعت مقرعته ، فنزل الشريف فناوله إياها ؛ فتذممّ كافور من ذلك وتأوّه وبلغ منه مبلغًا عظيمًا . فلمّا نزل إلى داره أرسل إلى الشّريف جميع ما كان يملكهُ فى موكبه من مماليك ودوابّ وآلة واعتذر منه . قال التنوخى فى نشوار المحاضرة : وكان قيمة ما سيّره إليه خمسة عشر ألف دينار[٥] .

وفى سنة سِتّ وأربعين وثلاثمائة قدم عليه أبو الطيب المتنبى[٦] فأكرمه وخلع عليه ، وأنزله بدار ، وحمل إليه ألوفًا من المال ، فقال أبو الطيب

---

(١) الجام : إناء من فضة ــ القاموس المحيط .
(٢) « حلوا » فى الأصل .
(٣) « فيرسله » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .
(٤) هو مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوى النسابة ، أبو جعفر ــ النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣ .
(٥) انظر تفصيل ذلك فى النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣ ـ ٤ .
(٦) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندى الكوفى ، أبو الطيب المتنبى ، الشاعر المشهور ، توفى سنة ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م ، وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٠ رقم ٥٠ .

قصيدته التى أولها :

كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافيا وحسب[١] المنايا أن تكون أمانيًا
تَمَنَّيْتُهــا لمــا تمنّيتُ أن أرى صديقا ، فأعيا أو عـدوًّا مداجيَـا

وجاء منها فى مدح كافور :

فجاءتْ[٢] به إنسانَ عينِ زمانـه وخلَّت بيـاضًـا خَلْفَهـا ومـآقِيَـا

فَحسُن موقعُه عند كافور ، ثمّ هرب منه وهَجَاهُ بما هو مسْطورٌ فى ديوانه[٣] .

ولما مات كافور قام بالأمر بعده أبـو الفوارس أحمـد بن على بن الإخشيد محمد بن طغج بن جُفّ ، كانت ولايته بعد الأستاذ كافور لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة . وذلـك أن القواد والغلمان الإخشيديّة اجتمعوا وتحالفوا ألاّ يختلفوا ، وعقدوا الرئاسة له ،

---

(١) « وحب » فى الأصل ، والتصحيح من ديوان المتنبى .

(٢) « فجاءت بنا » فى النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧ .

(٣) للمتنبى فى كافور أهاج كثيرة ، أشهرها قصيدته الدالية ، التى قالها فى يوم عرفة قبل مفارقته مصر بيوم واحد والتى مطلعها :

عيـد بأيـة حال عـدت يـاعيـد بمـا مضى أم لأمـر فيـك تجديـدُ

ومنها :

من علَّم الأسود المخصى مكرمة أقـومـه البيض أم آبـاؤه الصيـد
أم أذنـه فى يـد النخـاس داميـة أم قـدره وهـو بـالفلسين مـردود

انظر ديوان المتنبى ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٨ .

وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وجعلوا الخليفة عنه الحسن[١] بن عبد الله ابن طغج ، وهو ابن عم أبيه ؛ وردُّوا تدبير العساكر والرجال إلى شمول[٢] الإخشيدى ، وتدبير الأموال إلى جعفر بن حنزابة[٣] الوزير ؛ وذلك كلُّه قبل دفن كافور . ؟

وأقام الأمرُ على ذلك ثلاثة أشهر وثمانية عشر يومًا ، واشترك معه ابنُ عمّ أبيه الحسن بن عبيدالله بن طغج ، وكان يخطب لهما جميعًا بمصر والشّام والحرمين ، يُبْدأ فى الخطبة بأبى الفوارس ويُثنّى بأبى محمد الحسن .

ثم سار الحسن إلى الشام لقتال القرامطة ، وصادر الوزير جماعةً من المصريين ، وقبض على يعقوب بن كلّس وصادره على أربعة آلاف وخمسمائة دينار ؛ وقبض على إبراهيم بن مروان النّصرانى ، كاتب أنوجور وعلى ابنى الإخشيد وصادره على عشرة آلاف دينار . ولم يقدر الوزير على رضا الإخشيديّة والكافورية لتباين أغراضهم ؛ فاضطرب التدبير على الوزير ، واسْتَتَر مرّتين ، ونُهبت داره ودُورُ أصحابه ، فكتب جماعة من وُجوه البلد إلى المعز[٤] بإفريقية يستدعون منه إنفاذ العساكر .

وكان بمصر فى هذه السّنة غلاء شديد وفناء عظيم ، فإن النيل انتهت زيادته فى سنة ست وخمسين وثلاثمائة إلى اثنى عشر ذراعًا وتسعة عشر

---

(١) « حسين » فى الأصل ، والتصحيح من بعض المواضع التالية فقد ذكر حسين وأحيانا الحسن ، ومن النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٩ .

(٢) « سمول » فى النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢١ .

(٣) هو جعفر بن الفرات ، أبو الفضل ، انظر ما سبق ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٠ .

(٤) هو معد بن إسماعيل ، أبو تميم ، المعز لدين الله ، أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، توفى بالقاهرة سنة ٣٦٥ هـ/٩٧٥ م ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٢٤ رقم ٧٢٧ .

أصبعًا ، ولم يوف فى السنة التى قبلها ، فاشتد الغلاء ، وكثر الوباء .

نقل بعضُ المؤرخين أنه أحصى من كُفِّن ودُفن خارجًا ، عدا من رُمِى فى البحر ، ستمائة ألف إنسان .

وفى سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة قدم الحسن بن عُبيدالله من الشّام [٢١] منهزمًا من القرامطة ، ودخل مصر ، وقبض على جعفر بن الفرات الوزير ، واستوزر الحسن بن جابر الرياحى ، ثم أطْلق الوزير بن الفرات ، بوسَاطة أبى جعفر مسلم الحسينى الشريف ، وفوّض إليه الوزارة ، ثم سار الحسن بن عُبيدالله إلى الشّام فى مستهل شهر ربيع الآخر ؛ وخرج جماعة من الأولياء والكتاب والأشراف إلى الشام ، وخرج يعقوب[1] بن كلّس إلى الغرب مستترًا ، ثمّ صار منه ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ثمّ تواترت الأخبار فى جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة أن المعزّ صاحب إفريقية قد جهّز عساكره مع غلامه جوهر إلى مصر ، فجمع الوزيرُ القوّاد ووقع رأيهم على تقديم نحرير سويران فاستدعوه من الأشْمُونين[2] ، وعقدُوا له الرئاسة عليهم .

ووصل الخبر بوصول جوهر إلى برقة ، فاجتمع رأى الجماعة على أن بعثوا الشريف أبا جعفر مسلمًا الحسَنى وأبا إسماعيل بن أحمد الزينبى وأبا الطيب

---

(١) هو يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلس ، أبو الفرج ، استوزره العزيز بالله الخليفة الفاطمى ، وتوفى ابن كلس سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م ــ وفيات الأعيان جـ ٧ ص ٢٧ رقم ٨٣١ ، ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢ ، الإشارة إلى من نال الوزارة ص ١٩ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٢٢٦ وما بعدها ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٥٨ ، وانظر ما يلى فى خلافة العزيز بالله .

(٢) الأشمونين : من المدن المصرية القديمة ، وهى حاليًّا قرية من قرى مركز ملوى ، محافظة أسيوط ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٤ ص ٥٩ - ٦٠ .

العباس بن أحمد العباسي والقاضي أبا طاهر ، وغيرهم ، لتقرير الصلح بينهم وبين جوهر على تسليم البلاد له ، فساروا في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة فلقوه على تَرُوجَة [١] ، فأكرمهم وأجابهم إلى ما طلبوه ثم بعد انفصالهم اجتمع القواد على إبطال المصالحة وتجهّزوا للحرب ، ورجع أولئك النّفر بكتاب الأمان ، فلم يقبل القواد ذلك ، وخرجوا إلى الجيزة بأجمعهم .

ووصل جوهر وابتدأ القتال يوم الخميس الحادى عشر من شعبان من السّنة ، ثمّ سار جوهر بعد ذلك إلى منية شَلَقَان [٢] وملك المخايض ، فبعث المصريون مزاحِم بن أرتق لحفظها فلم يحفظها ، وخامر عليهم ، وعدى [٣] جوهر ، وانهزم الإخشيديون ، ودخل جوهر مصر بعد العصر من يوم الثلاثاء لثلاثَ عشرةَ ليلةً بقيت من شعبان منها ، وندب القائد جوهر المعزّىُّ بعد ذلك جعفرَ بن فلاح إلى الشام ، والتقى هو والحسن بن عبيد الله على الرملة في شهر رجب سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، واقتتلا [٤] فانهزم الحسن وأُسر ، وملك جعفر الشّام أجمع .

وانقرضت الدّولة الإخشيدية ، وكانت مدتُها خمسًا وثلاثين سنة ، وتسعة أشهر ، وأيّامًا .

---

(١) تروجة : من القرى المصرية القديمة ، من أعمال البحيرة ، مكانها اليوم كوم تروجة بمركز أبو المطامير بمحافظة البحيرة ــ القاموس الجغرافى ق ١ جـ ١ ص ١٩٠ .

(٢) منية شلقان : من القرى المصرية القديمة ، من أعمال القليوبية ، وحاليًا تبع مركز قليوب ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ١ ص ٥٦ .

(٣) « عدا » فى الأصل .

(٤) « واقتتلوا » فى الأصل .

ذكر أخبار الدولة الْعُبَيديّة
التى انتسب ملوكها إلى الشرف
وألحقوا نسبهم بالحسين بن على بن أبى طالب
رضى الله عنهما

هذه الدّولة من الدُّول التى امتدَّت أيامُها واتّسعَت ممالكُها ، واستولت مُلوكُها على كثيرٍ من الممالك المشهورة شرقًا وغربًا ، ببلاد المغرب ، والدّيار المصرية ، والبلاد الشاميّة ، والثّغور والعَواصم ، وغير ذلك .

وكان ابتداءُ ظهور هذه الدّولة ببلاد المغرب ، وإنّما أوردناها فى أخبار ملوك الدّيار المصرية ، وألحقنا ملوكها بملوك هذا الوادى لأن الدّيار المصرية قاعدةُ ملكهم وبها قام أكثر ملوكهم .

ولنبدأ بذكر أخبار ملوك هذه الدّولة وابتداء أمرهم ، وما قيل فى نسبهم وإلى مَن ينسبون ، وكيف تنقَّلَتْ[1] بهم الحال إلى أن ملكوا البلاد ، واستولوا على الأقاليم . ولهذه الدّولة أسبابٌ ولوازمُ وشيعة ، هم الذين مهّدوا لهم البلاد ، ووطّنوا الممالك ، وهزموا الجيوش ، وفتحوا الأقاليم ، وأبادُوا الأبطال ، حتى استقر الملك لملوك هذه الدّولة وتسلّمُوه عفْوًا صفْوًا .

---

(١) « تنقلب » فى الأصل .

لابُـدّ لنا أن نبتدئ بذكر أخبارهم ، وما فتحُوه واستولوا عليه قبل ظهُور المهْدىّ الّذى هو أوّل ملوك هذه الدّولة ، ثم نذكر عاقبة أمر مَنْ قرر لهم الملكَ معهم ، ونذكر مَنْ ملك مِنْ ملوك هذه الدولة واحدًا بعد واحد إلى أن انقرضت دولتهم وبادت أيّامُهم .

فنقول وبالله التوفيق :

أوّلُ من ملك منهم عُبَيْدالله المنعوت بالمهدىّ ، ونسَب نفسَهُ أنه : عبيدالله بن الحسن بن علىّ بن محمد بن علىّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب ، وأهل العلم بالأنساب من المحقّقين يُنكرون ذلك وينْفُونه عن[1] الشّرف ، ويقولون : اسم عبيدالله سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبدالله القدّاح[2] بن أبى شاكر ميمون بن ديصان بن سعيد الغضبان ، صاحب كتاب « الميدان فى نصر الزّندقة » ، وهو من أهل رَامَهُرْمُز[3] ، كورة من كور الأهواز ، وكان من خُرَّمِيَّة المجوس[4] ، ومن المؤرخين من زعم أن الحسين بن أحمد زوج أم سعيد وأن أبا سعيد يهودى .

وقال القاضى أبوبكر بن الطيّب[5] فى كتابه المسمّى بكشف الأسرار

---

(١) للدراسة التفصيلية انظر : ذكر ما قيل فى أنساب خلفاء الفاطميين ــ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٢ وما بعدها .

(٢) « القراح » فى الأصل .

(٣) رامهرمز : وتسميها العامة : رامز تكاسلا ، وهى من نواحى خوزستان ــ معجم البلدان .

(٤) الخرمية : حركة دينية ترجع إلى أصول مجوسية ، يعتقدون فى تناسخ الأرواح ، ويتحللون من القيم الدينية ــ الكامل جـ ٦ ص ٣٢٨ .

(٥) هو محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم ، القاضى أبو بكر ، البصرى ، البغدادى ، المالكى ، الأشعرى ، المعروف بالباقلانى ، توفى فى بغداد سنة ٤٠٣ هـ/ ٩٨٨ م ــ العبر جـ ٣ ص ٨٦ .

وهتك الأستار : إنّ سعيدًا هذا كان قد رباه عمّه محمد بن أحمد المكنى بأبى الشلغلغ [٢٢] وكانُوا دُعاةً لمحمّد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق ، يأكلون البلاد باسمه ويدَّعون أنَّه حيٌّ يُرزق إلى زمانهم ، وفيه عمل ابن المنجم قصيدته التى يقول فيها :

فـإنّـك فى دعــواك أنّـك منهم كمن يَدَّعى أنّ النُّحاس من الذّهب
متى كان مولى البـاهلِيّين ملحَقًا بِآل رسُول الله يـومًا إذا انْتُسب

ولما ملك بهاءُ الدّولة أبو نصْر [بن] [1] عضد الدّولة فناخسرو،ابن بُويه ، بغْدادَ جمع الطالبيّين من آفاق العراق ، وسألهم عنهُم ، فكلُّهم أنكرهُم ونفاهم ، وتبرّأ منهم ؛ فأخذ خُطُوطَهم بذلك . وكان ممن شهد الشّريفان الرّضِىّ [2] والمرتضى [3] وأبو حامد الأسفرايني [4] ، وأبو الحسين

---

(١) [بن] إضافة يقتضيها السياق فهو بهاء الدولة أبو النصر فيروز بن عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٩٠ ، وانظر ترجمة عضد الدولة فى وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٥٠ رقم ٥٣٢ .

وقد ولى أبو نصر بهاء الدولة حكم العراق فى ظل الخلافة العباسية فى الفترة من ٣٧٩ ــ ٤٠٤ هـ/ ٩٨٩ ـ ١٠١٣ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٩٠ .

(٢) هو محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم ، الشريف الرضى أبو الحسن ، توفى ببغداد سنة ٤٠٦ هـ/١٠١٥ م ــ وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٤١٤ رقم ٦٦٧ .

(٣) هو على بن الحسين بن موسى ، أخو السابق ، توفى ببغداد سنة ٤٣٦ هـ/١٠٤٤ م ــ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣١٣ رقم ٤٤٣ .

(٤) هو أحمد بن محمد بن أحمد الإسفراينى الشيخ أبو حامد ، الفقيه الشافعى ، توفى ببغداد سنة ٤٠٦ هـ/١٠١٥ م ــ وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٧٢ رقم ٢٦ .

القُدُورى[١] ، وغيرهم[٢] ، وذلك فى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة[٣] بأمر القادر بالله[٤] العباسىّ .

هذا مع ما ينسب إلى بنى بويه من التشيُّع . فلنذكر ابتداء أمرهم وأول من قام منهم .

ذكر ابتداء أمرهم وأول من قام منهم

قال أبومحمد عبدالعزيز بن شدّاد بن الأمير تميم بن المعزّ بن باديس فى كتابه المترجم بالجمع والبيان فى أخبار المغرب والقيروان : أوّل من قام منهم أبوشاكر ميمون بن ديصان بن سعيد الغضبان ، وكان مِمّن صحبَ أبا الخطّاب محمّد بن أبى زينب[٥] مولى بنى أسد ، فألقَوْا إلى كلّ من اختصُّوا به أنّ لكل شىء من العبادات باطنًا ، وأنّ الله تعالى ما أوجب على أوليائه صلاةً ولا زكاةً ولا صوْمًا ولا حجًا ؛ ولا حرّم عليهم شيئًا من المحرمات ؛ وأباح لهم نكاح البنات والأخوات . وإنما هذه العباداتُ عذابٌ على الأمّة وأهل الظّاهر ، وهى ساقطةٌ عن الخاصّة . يقولون ذلك لِمَنْ يثقون به ويسْكُنون

(١) هو أحمد بن محمد بن احمد ، أبو الحسين القدورى ، الفقيه الحنفى ، توفى ببغداد سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦م - وفيات الأعيان جـ ١ ص ٧٨ رقم ٣٠ .

(٢) عن أسماء الموقعين على هذا المحضر انظر الكامل جـ ٩ ص ٢٣٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٤٨ - ٤٩ .

(٣) « فى سنة ٤٠٢ هـ » فى كل من الكامل واتعاظ الحنفا .

(٤) هو أبو العباس أحمد القادر بالله ، ولى الخلافة العباسية ببغداد فى الفترة من ٣٨١ - ٤٢٢ هـ/٩٩١ - ١٠٣١ م - تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

(٥) هو محمد بن أبى زينب الأسدى الأجدع ، مولى بنى أسد ، ويعرف أصحابه بالخطابية ، وهم من غلاة الشيعة - الملل والنحل جـ ١ ص ١٧٩ .

إليه . ويقولُون فى آدمَ وجميع الأنبياء : كذّابُونَ محتالُونَ طلابٌ للرّئاسة .

فاشتدّت شوكَةُ هؤلاء فى الدّولة العبّاسيّة ، وتفرقوا فى البلاد شرقًا وغربًا ، يُظهرون التقشُّف ، والزّهد ، والتصَوّف ، وكثرةَ الصّلاة والصِّيام ، يُعرِّفون الناس بذلك وهم على خلافه ، ويذكرون أبا الخطاب إلى أنْ قامت البيِّنة بالكوفة أنّ أبا الخطاب أسْقَطَ العبادات وأحلّ المحارم ، فأخذه عيسى[1] بن موسى الهاشمى ، مع سبعين من أصحابه ، فضَربَ أعناقَهم ، فتفرّق بقيّةُ أصحابه فى البلاد ، فصار قومٌ مِمَّن كان على مذهبه إلى نواحى خراسان ، وقومٌ إلى الهند ، وصار أبو شاكر ميمون بن سعيد إلى بيت المقدس مع جماعةٍ من أصحابه ، وأخذوا فى تعلم الشعبذة[2] والنارنجيات[3] والْحِيَل ومعرفة الزّرق من صنعة النّجوم والكيمياء ، ويحتالون على كلّ قوم بما يتّفق عندهم ، وعلى العامّة بإظهار الزُّهد والورع ، ونشأ لأبى شاكر ابنٌ يقال له عبدالله القدّاح ، علّمه الحِيَل وأطْلعه على أسرار هذه النِّحلة ، فتحذَّق وتقدّم ، وكانوا يظهرون التشيع والبكاء على أهل البيت ويزيدون أكاذيب اخترعوها يخدعون بها ضعفاء العقول .

وكان من كبار الشعوبيّة[4] رجل يسمى محمد بن الحسين بن جهار نجار

---

(١) هو عيسى بن موسى بن محمد بن على العباسى ، ولى عهد السفاح بعد أخيه المنصور ، خلعه المهدى ، توفى سنة ١٦٨ هـ/٧٨٤ م ــ العبر جـ١ ص ٢٥٣ .

(٢) يقال : شعوذ وشعبذ ، والشعوذة والشعبذة : خفة فى اليد ، وأخذ كالسحر ، القاموس المحيط .

(٣) النارنجيات : هى الرقى أو الطلاسم أو السحر ، وعن أخبار أصحاب النارنجيات والحيل انظر الفهرست لابن النديم ص ٤٢٩ ـ ٤٣٥ .

(٤) « الشعتية » فى الأصل .

الملقب دندان[١] وهو بنواحى الْكَرَج[٢] وأصفهان له حالٌ واسعة وضِياع عظيمة ، وهو المتولّى على تلك المواضع ، وكان يبغض العرب ويذمُّهم ، ويجمع معايبهم ، وكان كلٌّ من طَمِع فى نوالِه تقرَّب إليه بذمِّ العرب ، فسمع به عبدُالله بن ميمون القدّاح وما ينتحله من بُغْض العرب وصَنْعة النّجوم ، فسار إليه ، وكان عبدالله يتعاطى الطّب وعلاج العين ، ويقدَحُ الماء النّازل فيها ، ويُظهر أنه إنما يفعل ذلك حِسْبةً وتقربًا إلى الله عز وجلّ ، فطار له هذا الاسمُ بنواحى أصفهان والجبل ، فأحضره دندان وفاتحه الحديث ، فوجده كما يحبّ ويَهْوَى ، وأظهر له عبدالله من مساوئ العرب والطعن عليهم أكثر مما عنده ، فاشتدّ إعجابُه به ، وقال له : مثلُك لا ينبغى أن يطبّ ، وإنّ قدرَك يرتفع ويجلّ عن ذلك ، فقال : إنّما جعلت هذا ذريعةً لما وراءه ممّا أُلقيه إلى الناس وإلى من أسكن إليه على رفقٍ ومَهَل ، من الطّعن على الإسلام ، وأنا أشير عليك ألّا تُظهر ما فى نفسك إلى العرب ، ومَن يتعصّبُ لهذا الدّين ، فإنَّ هذا الدّين قد غلب على الأديان كلِّها فما يطيقهُ ملوك الرّوم ، ولا الترك ، والفرس ، والهند ، مع بأسهم ونجدتهم ، وقد علمت شدَّة بابَك صاحب الْخُرَّمية[٣] وكسرةَ عساكره ، وأنّه لما أظهر ما فى نفسه من بُغْض الإسلام وتَرك التستُّر بالتشيّع[٤] [٢٣] كما يقول أوّلاً قُلِع أصله ،

---

(١) اختلفت المصادر فى رسم هذا الاسم فهو زيدان ، وزندان ، وذيذان .. إلخ كما اختلفت فى التعريف به المصادر السنية عن المصادر الشيعية ـ للتفصيل انظر اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٣٩ هامش ٥ .

(٢) الكرج : مدينة بين أصفهان وهمذان ـ معجم البلدان .

(٣) بابك الخرمى : قائد حركة خارجة عن الدولة العباسية ، بدأت فى سنة ٢٠١ هـ/٨١٦ م ، واستمرت هذه الحركة حتى سنة ٢٢٣ هـ/٨٣٧ م ـ الكامل جـ ٦ ص ٣٢٨ ، ص ٤٧٧ .

(٤) « ترك السير بالتشيع » فى الأصل ، والصحيح يتفق والسياق .

فاللهَ اللهَ أن تُظهرْ ما فى نفسك ، والزم التشيُّع والبكاء على أهل البيت ، فإنّك تجدُ مَنْ يساعدُك على ذلك من المسلمين ، ويقول : هذا هو الإسلام [وسُبَّ أبا بكر وعمر] (١) وادَّعِ عليهما عداوَةَ الرّسول وتغييرَ القرآن وتبديلَ الأحكام ، فإنك إذا سَبَبْتهما سَبَبْتَ صاحبهما (٢) ؛ فإذا استوى لكَ الطّعنُ عليهما فقد اشتفيتَ من محمّد ، ثم تُعْمِلُ الحيلة بعد ذلك فى استئصال دينه . ومَنْ ساعدَك على هذا فقد خرج من الإسلام من حيث لا يشعر ، ويتم لك [الأمر] (٣) كما تريد ، فقال دنْدان (٤) : هذا هو الرأى .

ثم قال له عبدالله القدّاح : إن لىَ أصْحابًا وأتباعًا أبثُّهم فى البلاد فيُظهرونَ التقشُّف والتصوّف والتشيع ، ويدعُون إلى ما تريدِه بَعْد إحكّامِ الأمر . فاستصْوبَ دنْدان ذلك وسُرَّ بِه ، وبذل لعبدالله القدّاح ألفى ألف دينار . فقبل المال وفرّقه فى كُور الأَهواز والبصرة وسواد الكوفة ، وبطالقان ، وخراسان (٥) ، وسَلَمْيَة من أرض حمص .

ثم مات دنْدان فخرج عبدالله القدّاح إلى البصرة وسواد الكوفة ، وبثّ الدعاة ، وتقوى بالمال ، ودبّر الأمر .

---

(١) [ ] إضافة تتفق وسياق الكلام .
(٢) يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام .
(٣) [ ] إضافة تتفق والسياق .
(٤) « ديدان » فى الأصل ، والتصحيح مما سبق .
(٥) « بطالقان خراسان » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٤٠ .
وطالقان : مدينة بخراسان بين مرو الروز وبلخ — معجم البلدان .

وحكى الشّريف أبو الحسين محمّدُ بن على الحسَين المعروف بأخى محسن[١] فى كتابه أن عبدالله بن ميمونٍ هذا كان قد نزل عسكر مُكْرَم[٢] فسكن بساباط أبى نوح ، وكان يتستَّر بالتشيُّع والعلم ، فلمّا ظهر عنه ما كان يضمرُه ويُسِرُّه من التّعطيل والإباحة ، والمكر والخديعة ، ثار النّاس عليه ، فأول من جاءه[٣] الشيعة ، ثم المعتزلة وسائر الناس ، وكبسوا دارَه ، فهرب إلى البصرة ومعه رجل من أصحابه يعرف بالحسين الأهوازى ، فنزل بِبَاهلة على موالٍ لآل عقيل بن أبى طالب ، وقال لهم : أنا من ولد عقيل ، وداع[٤] إلى محمّد بن إسماعيل بن جعفر[٥] . فلمّا أقام وانتشر خبرُه طلبه العسكريُّون فهرب وأخذ طريق الشام ومعه الحسين الأهوازى ، فلما توسطا الشام عدَلَا إلى سَلَمْيَة[٦] ليَخْفَى أمرهُما فأقام بها عبدالله وخفى أمره .

نرجع إلى قول ابن شداد . قال : ثم مات عَبدالله ، وكان له جماعة من الولد فخلفه منهم ابنه[٧] أحمد ، فقام مُقام أبيه ، وجرى على قاعدته ،

---

(١) علوى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وله مجلد يشتمل على بضع وعشرين كراسة فى الطعن على أنساب الخلفاء الفاطميين ــ انظر اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٢ .

(٢) مكرم : من نواحى خوزستان ــ معجم البلدان .

(٣) « فأول من ثار عليه » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ١٩ .

(٤) « داعى » فى الأصل ، والتصحيح من كنز الدرر جـ ٦ ص ١٩ .

(٥) « فادعى أنه من ولد عقيل بن أبى طالب ، وأنه يدعو إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق » ــ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٦) سلمية : بفتح أوله وثانيه ، وسكون الميم ، وياء مثناه من تحت خفيفة ــ بليدة من جهة البرية من أعمال حماة ، وكانت من أعمال حمص ــ معجم البلدان .

(٧) « أبيه » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦ .

وبثّ الدُّعاة ، واستدعى رجلا من أهل الكوفة يقال له أبوالحسين رستم بن الكرخيين بن حوشب بن زادان النجار ؛ وكان هذا الرّجل من الإماميّة الذين يقولون بإمامة موسى(١) بن جعفر ، فنقله إلى القول بإمامة إسماعيل (٢) بن جعفر . وكانوا يرْصُدون مَن يردُ من المشاهد وينظرون إليهم ، فمن كان فيه مطْمَعٌ وجهالة استدعَوْه ، ولا يستدعُون إلا الجُهّال ومَنْ له بأسٌ وجلَد ، وعشيرة ومال ، وعزّ ومنعة ، ويتجنّبون الفقهاء والعُلماء ، والأدباء والعقلاء .

وكانوا يطلبون أطراف البلاد ، فقال لهم بعض من ورد عليهم : إن بجَيْشَان (٣) والمذحرة والْجَنَد (٤) من أرض اليمن رجلاً جلْدًا كثير المال والعشيرة ، يتشيّع ، وبهذه الناحية شاعرٌ يقال له ابن خيران يسبُّ فى شعره أبا بكر وعمر ، المهاجرين والأنصار ، على مثل سبيل الحميرى الشاعر ، فورَدَ ذلك الرّجل المذكور ، وهو أبوالخير محمد بن الفضل من أهل جَيْشَان من اليمن ، ودخل إلى الحيرة ، فرأوه يَبْكى على الْحُسَيْن بن على ، فلما فرغ من زيارته أخذ الدّاعى يدَه وقال له : إنّى رأيت ما كان منك من البكاء والقلق

---

(١) هو موسى بن جعفر الصادق ، أبو الحسن ، موسى الكاظم ، توفى سنة ١٨٣ هـ/٧٩٩ م ــ وتنسب إليه الفرقة الموسوية ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣٠٨ رقم ٧٤٦ ، الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٨ .

(٢) هو إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتنسب إليه الفرقة الإسماعيلية الواقفة الذين قالوا إن الإمام بعد جعفر إسماعيل نصًّا عليه باتفاق أولاده ، ومن ثم الإمامة بعده فى أولاده ــ الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٧ .

(٣) جيشان : بالفتح ثم السكون ، مخلاف باليمن ــ معجم البلدان .

(٤) جَنْد : بالفتح ثم السكون ، أحد أقسام اليمن الثلاثة فى العصر الإسلامى الأول وهو أعظمها ــ معجم البلدان .

على صاحب هذا القبر ، فلو أدركته ماكنتَ تصنع قال : كنت أجاهد بين يديه ، وأجعل خدّى أرضًا يطأ عليها ، وأبذل مالى ودمى دونه . فقال له : أتظنّ أنْ ما بقى لله حجّة بعد صاحب هذا القبر ؟ قال : بلى ، ولكن لا أعرفُه بعينه ، قال : فتريده ؟ قال : إى والله . فسكت عنه الدّاعى . فقال له محمد ابن الفضل : ما قلتَ لى هذا القول إلا وأنت عارفٌ به . فسكت الداعى ، فقوِىَ ظنّ ابن الفضل أن هذا الرجل يعرف الإمام والحجّة ، فألحّ عليه وقال له : اللهَ اللهَ فى أمرى ، اِجمْع بينى وبينه ، فإنى خرجت إلى الحجّ وجئت إلى هذه الزيارة أريدُ الله تعالى ، فسكت الدّاعى ، وازدادت رغبةُ ابن الفضل ، فصار يتضرع إليه ، ويسأله ، ويُقبّل يده . فقال له الدّاعى : اصبر ، ولا تَعْجَل ، وأقِمْ ، فهذا الأمر لا يتمُّ بسرعة ، ولابدّ له من صبر ومهلة . فقال ابن الفضل لأصحابه ومَنْ كان معه من جيْشان : انصرفوا فلِى بالكوفة شغل ، فانصرفوا ، وأقام هو واجتمع بالدّاعى ، فقال له : ما عملْتَ فى حاجتى ؟ فقال انتظرنى حتى أعود إليك ، فانصرف عنه ومضى إلى أحمد بن القدّاح وعرّفه حال ابن الفضل وحرْصَه على لقاء الحجّة وإمام الزمان ، وبقى الدّاعى يَرْقُبُه ويراه لا يكاد يبرح من المسجد من غير أن يعلم ابن الفضل به ، فلمّا كان بعد أربعين يومًا أتاه إلى المسجد وهو جالس ، فقال له : أنت بَعْدُها هنا ؟ فقال : نعمْ ؛ ولولا تحثّنى لأقمت فى هذا المسجد إلى أن أموت . فعلم الدّاعى أنه قد قصده ، فأخذه وجمع بينه وبين أحمد بن عبدالله ابن ميمون [٢٤] .

وحكى الشريف أبوالحسين محمد بن على الحسينى فى كتابه الّذى صرّح فيه فنفى هؤلاء عن النّسب إلى الحسين بن علىّ ، رضى الله عنهما ، واستدلّ

على ذلك بأدلة يطول شرحها ـ أنّ أحمد بْنَ عبد الله بن ميمون لمّا قام بالأمر بعد أبيه عبد الله بعث الحسين الأهوازى[1] من سلَمْيّة داعيةً إلى العراق ، فلمّا انتهى إلى سواد الكوفة لقى حَمْدَانَ بن الأشعث ، وهو قَرْمَط الذى يُنْسب إليه القرامطة ، فصحبه ، وأتبعه قرمط ، وتابعه كثير من النّاس . فلما مات الأهوازى أسند الأمر من بعده إلى حمدان بن الأشعث ، قرمط ، وقد ذكرنا هذه القصّة فى أخبار القرامطة .

نرجع إلى قول ابن شداد . قال : وكان أحمد يقول للحسن ابن حَوْشب الكوفى النّجار : يا أبا القاسم هل لك فى غُرْبةٍ فى الله ؟ فيقول : الأمر إليك يا مولاى ، فلمّا اجتمع بابن الفضل قال له : قد جاء ماكنتَ تريدُ يا أبا القاسم ، هذا رجلٌ من أهل اليمن ، وهو عظيم الشأن ، كثير المال ، ومن الشيعة ، قد أمكنك ما تريد ، وثَمَّ خَلْقٌ من الشيعة ، فاخرج وعَرِّفهم أنك رسُول المهدىّ ، وأنه فى هذا الزّمان يظهر فى اليمن . واجمعْ المال والرّجال ، والزَم الصوم والصّلاة والتقشف ، واعمل بالظاهر ولا تظهر الباطن ، وقل لِكلِّ شىء باطنٌ ، وإنْ ورد عليك شىء لا تعلمهُ فقل لهذا مَنْ يعلمه ، وليس هذا وقت ذكره . وجَمَع بينه وبين ابن الفضل ، وخرجا جميعًا إلى أرض اليمن .

ونزل ابن حَوشب بعدن ، وكان فيها قومٌ من الشيعة يعرفون ببنى موسى ، وخبّرُهُم عند ابن ميمون ، فنزل ابن حَوشب بالقُربِ منهم ، وأخذ فى بيع ما معه من القماش ، ولزم الزّهد والتقشف . فقصده بنو موسى وقالوا له : فيم جئت ؟ قال : للتجارة . قالوا : لستَ بتاجر ، وإنّما أنت رسول المهدىّ ،

---

(١) « إلى هوارى » فى الأصل ، والتصحيح مما يلى ، ومن اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦ .

وقد بلغنا خبرك . وعرّفوه بأنفسهم ، فأظهر أمره عليهم ، وسار إلى عدن لَاعَة [١] . وسار ابن الفضل إلى بلده . ولما وصل ابن حَوشب إلى عدن لَاعَة قوّى عزائمهم وقرّب أمَر المهدىّ عليهم ، وأنه من عندهم يخرج ، وأمرهم بالاستكثار من الخيل والسلاح

ولم يزل أمرُ ابن حَوشب يقْوَى وأخبارُه ترد على مَنْ بالكوفة من الإمامية وطبقات الشيعة ، فيُبادرون إليه ، ويقول بعضهم لبعض : دارَ الهجرة ، فكبر عددُهم واشتدَّ بأسُهم ، وأغار على من جاوره ونهب وسبى ، وجبى الأموال ، وأنفذ إلى مَنْ بالكوفة من ولد عبدالله القدّاح أموالاً عظيمة ، وهدايا وطُرَفًا ، وكذلك لابن الفضل .

وكانوا نفذوا إلى المغرب رجلين ، أحدهما يعرف بالحلوانى والآخر بأبى سفيان [٢] ، وتقدّموا إليهما بالوصول إلى أقاصى المغرب ، والبعد عن المدن والمنابر ، وقالوا لهما ينْزِلُ كلٌّ واحدٍ منكما بعيدًا من الآخر ، وقُولَا : لكلِّ شىءٍ باطن ، ونحن فقد قيل لنا اذهبا فالمغرب أرض بُور فاحْرُثاها واكْرُباها حتى يأتىَ صاحب البذر ، فنزل أحدهما بأرض كتامة [٣] بمدينة مرمجنه [٤] والآخر سوق [٥] حمار ، فمالت قلوب أهل تلك النّواحى إليهما ، وصارا يحملان

---

(١) عدن لاعة : قرية بجوار مدينة لاعة فى جبل صبر باليمن ـ معجم البلدان .

(٢) « هما أبوعبد الله الحسين بن أحمد بن محمد ، وأخوه أبو العباس محمد بن أحمد بن محمد » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦ .

(٣) « كنانة » فى الأصل ، والتصحيح مما يلى .

(٤) مَرْمجنة = مرماجنّة : بالفتح ثم السكون ، قرية بأفريقية (تونس) لقبيلة هوارة من البربر ـ معجم البلدان .

(٥) كذا فى الأصل والكامل ، و« سوق حماد » فى اتعاظ الحنفا ، « سوجمار » فى افتتاح الدعوة ص ٢٩ .

التّحف التي تُحمل إليهما إلى ابن القدّاح ، ثم ماتا على قُرْبٍ بينهما بعد أن أقاما سنين كثيرة .

فقال ابن حَوشب لأبي عبدالله الحسين بن أحمد بن زكريا الشيعي ، وكان قد هاجر إليه ، يا أبا عبدالله أرض كتامة من المغرب قَدْ حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا ، وليس لها غيرُك ، فبادر إليها فإنها موطأة ممهدة لك ، فخرج أبو عبدالله وأخرج ابنُ حَوشب معه عبدَالله بن أبي ملاحف ، وأمدّه بمال ، وأوصاه بما يعمل وكيف يحتال . وكان أبو[1] عبدالله قد شاهد أفعال ابن حَوشب وعرف تدبيره ، فسار إلى مكة ، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وأما أحمد بنُ عبدالله بن ميمون فإنه لما قوى أمره ، وكثرت أمواله ، ادّعى أنه من ولد عقيل ابن أبي طالب ، وهم مع هذا يستُرون أمرهم ، ويُخفون أشخاصهم ، ويُغيّرون أسماءهم وأسماء دُعاتهم ، ويتنقلون فى الأماكن . ثم مات أحمد فخلفه محمّد . وكان لمحمد ولدَان ، أحمد والحسين ، فمات أحمد وصار الحسين إلى سلمية وله بها أموال من ودائع جدّه عبدالله القدّاح ، ووكلاء ، وأتباع ، وغلمان . وبقى ببغداد من أولاد القدّاح أبوالشلغلغ[2] ، وهو محمد بن أحمد بن عبدالله بن ميمون بن ديصان ، وهو مؤدب بآداب الملوك .

وكان الذى بسلمية يدّعى أنه الوصىّ وصاحب الأمر دون بنى القدّاح ،

---

(١) « بن عبد الله » فى الأصل ، وهو تحريف ــ انظر ما سبق .

(٢) « الشلعلع » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦ ،
وفيه أيضًا اختلاف عما ورد هنا فيمن خلف أحمد بن عبد الله بن ميمون .

ويكاتب الدّعاة ، ويراسلونه من اليمن ، والمغرب ، والكوفة . واتفق أنه جرى بحضرته بسلمية حديث النّساء فوصفوا امرأةَ رجلٍ يهودى حداد مات عنها زوجها ، وأنها فى غاية الجمال ، فقال لبعض وكلائه : زوِّجنى بها ، فقال إنها فقيرة ولها ولد ، فقال : ما علينا من الفقر ، زوّجنى بها فأُرْغِبْها وأبذل لها ما شاءت . فتزوَّجها وأحبّها ، وحَسُن موقعُها عنده ، وكان ابنُها يماثلها فى الجمال ، فأحبّه وأدبه ، [٢٥] وعلّمه ، وأقام له الخدم والأصحاب فتعلّم الغلام ، وصارت له نفس كبيرة وهمّة عظيمة .

فمن العلماء من أهل هذه الدّعوة من يقول : إن الإمام الذى كان بسلمية من ولد القدّاح مات ولم يكن له وَلَد ، فعَهِد إلى ابن اليهودى الحدّاد ، وهو عبيدالله الذى نُعِت بالمهدىّ ، وأنه عرَّفه أسرار الدّعوة من قولٍ وفعلٍ ، وأعطاه الأموال ، وتقدّم إلى أصحابه ووكلائه بطاعته ، وخدمته ومعونته ، وعرّفهم أنه الإمام والوصىّ ، وزوجه ابنة عمّه أبى الشلغلغ .

هذا قول ابن القاسم الأبيض العلوى وغيره من العلماء بهذه الدعوة .

وبعضُ الناس ، وهم قليل ، يقولون إن عبيدالله هذا ، المنعوت بالمهدىّ ، من وَلَد القدّاح .

ومنهم من يقول فيه قولاً آخر ، نذكر إن شاء الله عزّ وجَلّ .

فهذا ما حكى فى ابتداء أمرهم ، فلنذكر أخبار الشيعىّ ببلاد المغرب ، والله أعلم .

ذكر أخبار أبى عبدالله الشّيعى[١]
داعى المغرب وما كان من أمره
وكيف ظهر وما فتحه من بلاد المغرب

قال أبوإسحاق إبراهيم[٢] بن القاسم الكاتب المعروف بابن الرّقيق ، فى تاريخ إفريقية ، وغيرُ ابن الرّقيق ممّن ذكر أخبار هذه الدّولة[٣] : كان أبو عبدالله الشيعى من أهل الكوفة ، وقيل من أهل صنعاء ، واسمه الحسين ابن أحمد بن محمّد بن زكريّا ، فاتصل بالذى يدّعى أنه الإمام ، وهو ابن القداح الّذى ذكرناه المختلف فى نسبه ، فأرسله إلى أبى القاسم الحسن بن حَوشب[٤] الكوفى النجار ، وهو المعروف بالصَّنَاديق ، داعيتهم باليمن وكتب إليه أن ينصره ويرشده ، وقال لأبى عبدالله : امتثل سيرته ، وانظر[٥] إلى

---

(١) « الشعبى » فى الأصل ، والتصحيح مما يلى .

(٢) هو إبراهيم بن القاسم القروى الكاتب القيروانى ، أبو إسحاق ، المعروف بابن الرقيق ، توفى سنة ٣٨٣ هـ/٩٩٢ م ، ومن مؤلفاته تاريخ القيروان ــ هدية العارفين جـ ١ ص ٧ .

(٣) يعتمد النويرى ابتداء من هذا الجزء من الكتاب على كتاب افتتاح الدعوة ، للقاضى النعمان ، فنقل منه صفحات متتالية ، وأحيانًا لجأ إلى الاختصار أو حذف بعض الفقرات ، وسوف نشير إلى نقاط الاختلاف الجوهرية بين الكتابين ، كما يتضح من الهوامش التالية .

وكتاب افتتاح الدعوة نشر فى بيروت سنة ١٩٧٠ بتحقيق وداد القاضى وبعنوان « رسالة افتتاح الدعوة » ، ثم نشر فى تونس سنة ١٩٧٥ . بتحقيق فرحات الدشراوى ، وبعنوان « كتاب افتتاح الدعوة » .

وسنعتمد على هذه النشرة الأخيرة فى مقابلة ما جاء بنهاية الأرب .

(٤) « إلى أبى القاسم رستم بن الحسن » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٥ .

(٥) « وانتظر » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٣٠ .

مخارج أفعاله فاعمل بها ، ثم اذهب إلى المغرب . فخرج حتى انتهى إلى أبى القاسم ، فأنزله وأكرمه ، وأقام عنده من وقت انصراف الحاجّ من مكة إلى اليمن إلى وقت خروجهم فى العام المقبل . فخرج أبو عبدالله مع الحاجّ إلى مكة .

فلما قضى الناس حجّهم واستقرُّوا بمِنًى جعل الشّيعى يمشى بمِنًى وينظر إلى الناس ، فمرّ بجماعة من كتامة وهم فى رحالهم ، وكانوا من الشّيعة الّذين تشيّعوا بسبب الحلوانى وفيهم حُرَيْث الجيمْلى وموسى بن وجاد[1] فسمعها الشيعىّ يذكَرانِ لأصحابهما فضائل على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فجلس إليهما وذكر من ذلك شيئًا ، وأقبل على القوم وحدَّثهم طويلاً ، ثم نهض ليقوم فقاموا معه ، ومشَوْا بمشيه ، وعرفوا مكانه . ثم أتَوْا من الغد فأوسَعَ لهم فى الحديث ، فزادهم ذلك فيه رغبةً ، وعليه إقبالاً . ثم صحبهم فى طُول الطريق بعد انصرافهم من الحج إلى أنْ وصلوا إلى مصر ، وهم يُبالغون فى خدمته ، ويرحلون برحيله ، وينزلون بنُزوله ، وهو يسألُهُم عن بلادهم فى خلال ذلك ، وعن طاعتهم لملوكهم ، فيقولون ما علينا طاعةٌ لهم ، وهو لا يُعرّض لهم بقَصْده ولا رغبته فى بلادهم . فلما أتَوْا مصر أظهر أنه يُريد الإقامة بها ، فتألّموا لفراقه ، وقالوا ما الذى تقصد بمُقامك مصر ؟ قال : التعليم . فسألوه أن يصحبهم إلى بلادهم وأنهم يوجِبُون له على أنفسهم أجرةً فى كلّ سنة ، وما أوْجَب . ولم يُجبهم إجابةً كلّيّة ، ورغبتُهم كلّ يوم تزيد فيه ، فأجابهم إلى الخروج معهم ، ففرحوا بذلك واستبشروا ، وجعلوا يزيدون فى برِّه ، ويقولون له : عندنا كثيرٌ من إخوانك ومَنْ يذهبُ إلى

(١) « وموسى بن مكارم » فى افتتاح الدعوة ص ٣٤ .

مذهبك ، ولو رأوْكَ ما رضُوك إلّا إلى شيوخهم ، فضلاً عن صبيانهم ؛ ولسنا نخلِّيك للتعليم بل نُعدُّك لما هو أعظم منه .

فلما عزم على المسير معهم جمعُوا له دنانير وأتوْه بها . فامتنع مِنْ قبولها ، وقال لم يكن منى ما يوجب ذلك ؛ فعظُم فى أنفسهم ، وزادت هيبته فى صدورهم . وخرجُوا به من مصر ، وساروا حتى إذا كان بسوجمار(١) من أرض سماتة ، تلقاهم رجالٌ من الشيعة ، فأخبروهم بخبر الشّيعى ، ونظروا إلى تعظيم الكتاميين له ؛ فرغب كلٌّ واحدٍ منهم أن يكون نزولهُ عنده ، حتى رَمْوا عليه السهام ، فخرج سهم أبي عبد الله الأندلسىّ فنزل عنده ، ونزل كل واحد على صاحبه . وأصاب أبو عبدِالله عندهم من علم الشيعة أصلاً قويًّا ، فزادَ فى الكلام معهم ، فأجلُّوه .

ثم سار القوم فدخلوا حد كتامة يوم الخميس النّصف من شهر ربيع الأول سنة ثمانين ومائتين ، ومعهم أبو عبد الله الأندلسى وأبو القاسم الوَرْفَجُومى ، فأراد كلٌّ واحد من الكتاميين نزول الشيعِيّ عنده ، وتنازعوا فى ذلك حتى خيّروه فى النزول ، فقال أىّ موضع عندكم [٢٦] فجّ الأخيار ؟ فقالوا : عند بنى سكتان فقال : فإيّاهُ نقصد ، ثُم نأتى كلَّ قومٍ منكم فى موضعهم ، ونزورهم فى بيوتهم ، ولا نجعل لأَحدٍ منكم حظًّا من نفسى دون أحد إن شاء الله تعالى ، فأرضاهم كلَّهم بذلك ، وسار كلٌّ قوم إلى جهتهم ، وسار الشّيعى مع موسى بن حريث وأبي القاسم الورفجومى وأبي عبد الله الأندلسى إلى

(١) « بشرب حمار » فى الأصل ، والتى ذكرت من قبل على أنها « سوق حمار » ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٤٠ .

إيكجان[١] موضع موسى من بنى سكتان . قال ولما نزل عبد الله بإيكجان ومضى كل معه من الحجيج إلى مرافقهم أخبروا من قدموا عليه من أصحابهم بخبرٍ ، ووصفوه لهم مع النّاس . فتسامع النّاس به ، وأقبلوا إليه من كل ناحية ؛ فكان يجلس لهم ويحدثهم [بظاهر][٢] فضائل على رضى الله عنه .

قال : فاتصل خبر الشيعى بابراهيم[٣] بن أحمد صاحب إفريقية ، فكتب إلى مُوسى بن عَيّاش[٤] يسأل عن خبره فضعَّف موسى أمره. فكتب إليه ثانيًا وأرسل ابن المعتصم المنجم ؛ وأمر إبراهيم بنُ أحمد موسى بْن عيّاش أن يتلطَّف فى اتصاله إلى أبى عبد الله ، وأن يختبر أحواله ، ويأتيَه بصحيح خبره ، وأوصاه بوصايَا أمره أن يذكرها له .

فلمّا وصل إلى موسى أرسل إلى بنى سكتان يخبرهم أن إبراهيم قد بعث برجل إلى أبى عبد الله ليجتمع به . فرُفع ذلك إلى أبى عبد الله ، فأذن له . فلمّا انتهى إليه قرّبه وأقبل عليه ، فقال له ابن المعتصم : إن الأمير إبراهيم ابن أحمد وجّهنى إليك برسالة ، فإن أذِنت لى أدَّيتُها . فقال له : أدِّ رسالتك قال : وأنا آمن ؟ قال : نعم . فقال : يقول لك الأمير : ما حَمَلك على التعُّرض لسخطى ، والوثوب فى ملكى ، وإفساد رعيّتى ، والخروج علَىَّ ؛ فإن كنت تبتغى عَرَضا من أعراض الدنيا فإنك تجدُه عندى ، وإن أنت

---

(١) إيكجان ــ إنكجان : بالياء أو النون : من بلاد كتامة بالمغرب ، سماها أبو عبد الله الشيعى دار الهجرة ــ معجم البلدان .

(٢) [ ] إضافة من افتتاح الدعوة ص ٤٩ تتفق وسياق الكلام .

(٣) هو إبراهيم (الثانى) بن أحمد بن محمد الأغلب ، كان على رأس دولة الأغالبة فى الفترة ٢٦١ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٧٥ ـ ٩٠٢ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٤٦ .

(٤) « موسى بن العباس » فى افتتاح الدعوة ص ٥٤ .

تلافَيْت أمرك ، ورجعت عن غيّك ، فَصِرْ إلىَّ وأنت آمن ؛ فإن أردتَ المقام ببلدنا أقمت ، وإن أحببت الانْصرافَ انصرفت . وإن كان قصدُك قصْدَ من سَوّلت له نفسُه الخلاف على الأئمة ، واستفْسَادَ جَهَلة الأمة ، فلقد عرفتَ عواقب من تُمنِّيه نفسُه أُمنيتك ، وسوّلت له ما سوّلت لك ، من الهلاكِ العاجل ، قبل سوء المصير فى الآجل . ولا يَغُرَّنَّك ما رأيتَ من إقبال هؤلاء الأوباشِ عليك ، واتّباعهم إياك ، فإنى لو صرفت وجهى إليك لَأَسْلَمُوك ، وتبرّءُوا منك . واعلم أنى إنّما أردت الإعذار إليك ، لاستظهار الحجّة عليك . وهذا أوّل كلامى[1] وآخره ، لا أقبل لك بعد هذا توبة ، ولا أقيلُك عثرة ، ولا أجعل جواب ما يمكن منك إلا النُّهوض إليك بنفسى ، وجميع أبطالِ رجالى ، وأنصار دولتى ، وجملة أهل[2] مملكتى فعند [ذلك][3] تندم حين لا ينفعُك النّدم ، ولا تقبلُ منك التّوبة . فانظر فى يومك لغدك ، وقد أعذر إليك من[4] أنذر .

فقال له أبو عبد الله الشيعى : قد قُلت فاسْمَعْ ، وبلّغْت فابْلَغ : ما أنا ممّن يُروَّع بالإيعاد ، ولا ممّن يَهُوله الإبراق والإرعاد . فأما تخويفُك إياىّ برجال مملكتك ، وأنصار دولتك ، أبناء حطامِ الدّنيا ، الّذين يقتادون لكل سائق ، ويجيبون كلّ داع وناعق ، فإنى فى أنصار الدّين ، وحُماة المؤمنين ، الذين لا تروعهم كثرة أنصار الباطل[5] ، مع قول الله تعالى ، وهو أصدق

---

(١) « كلامك » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٥٧ ، ويتفق مع السياق .

(٢) « أهل على » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٥٧ .

(٣) [ ] إضافة من افتتاح الدعوة ص ٥٧ .

(٤) يوجد هذا النص مع اختلاف محدود فى الألفاظ فى افتتاح الدعوة ص ٥٦ ــ ٥٧ .

(٥) « أنصار الظالمين » فى افتتاح الدعوة ص ٥٧ .

القائلين : ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِين ﴾(١) فأمَّا ما أُطْمَعَ به من دُنياه وعَرَضَه من زَبَدِها وحُطامها ، فلستُ من أهلِ الطّمع فأميل إليه ، ولا ممن يرغب فيما عنده فيأتيه . وإنما بعثت(٢) رسولاً لأمرٍ قد حمّ وقرب ، فإن سوّلت له نفسه ما وعد به ، ودعته(٣) إليه ، فسوف يعلم أنّ الله عز وجل من ورائه ولن تغنى عنه فئةٌ شيئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِين(٤) فهذا جوابُ ما جئت به،فبلّغْه إن شاء الله .

قال(٥) : ولما اشتهر أمرُ الشّيعى ببلد كتامة ، ونظر رؤساء القبائل وولاة البلدان فلم يَرَوْا فى إبراهيم بن أحمد نهضةً فى أمر ، وخافوا على زوال الرئاسة من أيديهم ، وتقديم مَنْ يُسارع إلى أمره عليهم ، ممَّن كانوا يَرَوْنه دُونهم ، كتب بعضُهم إلى بعض فى ذلك ، فاجتمعوا وتعاقدوا . وكان ممن سعى فى ذلك موسى بن عياش صاحب مِيلَة(٦) ، وعلى بن عسلوجة صاحب سَطِيف(٧) وحى بن تميم صاحب بلزمة(٨) وكلُّ هؤلاء أمراء هذه المدن ، وعندهم العِدّة والعُدّة والأموال الكثيرة والنّجدة ، والقوّة ، ومن مُقَدَّمى

---

(١) سورة البقرة رقم ٢ جزء من الآية رقم ٢٤٩ .

(٢) « يبعث » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٥٨ .

(٣) « وعدته » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٥٨ .

(٤) الجملة مقتبسة من الآية ١٩ من سورة الأنفال : ﴿ ... وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(٥) المقصود هو القاضى النعمان صاحب كتاب افتتاح الدعوة الذى يأخذ عنه النويرى .

(٦) ميلة : مدينة صغيرة بأقصى إقليم أفريقية (تونس) بالقرب من قسنطينة ــ معجم البلدان .

(٧) سطيف : مدينة صغيرة فى جبال كتامة ، بين تاهرت والقيروان ــ معجم البلدان .

(٨) بلزمة : مدينة صغيرة قرب بحيرة بادغوس فى الطريق من بجاية إلى بطنة ــ المغرب ص ٥٠ .

كتامة وكبارِهم ووُلَاةِ أمورهم : فتح بن يحيى المشالى [١]، وكان يقال له الأمير ، ومهدى بن كناره [٢] ، رئيس لهيصة ، وفرح بن خيران [٣] رئيس أجَّاته ، وثميل بن فحل [٤] رئيس لطاية ، واستعملوا آراءهم فى أخذ الشّيعى فعلموا ، أنهم لا يقدرون عليه عنوةً من أيدى بنى سكتان لأنّهم يمنعونه ، ويجتمع عليهم جيملة وغيرها من قبائل كتامة ، فتفرّق ذات البين ، ويكون ذلك داعيةً إلى أن يجعلوا له أنصارًا ، وتصير كتامة فريقين ، ولم يأمنوا سوء العواقب ، فقصدوا بنان [٥] بن صقلان ، وهو من وُجوه بنى سكتان ، ولم يكُن له يومئذٍ دخْلٌ فى أمر الشيعىّ ، وأرسلوا جماعةً منهم إليه ، وبعثوا له أربعة أفراسٍ وأغْنُمًا وهديّه ، وقالوا له : إن هذا الرجل قد بدّل الدّين ، وفرّق الجماعة ، وشتّتَ الكلمة ، وأدخل الاختلاف بين الأقارب[٢٧] وقد قصدناك فى أمْرِه ، وأمْلكْناك فى قطع هذا المكرُوه بأنْ تقبضَ على الشيعىّ وتخرجه من بلدنا ، وتنفيَه عنّا إنْ كرهت قتله ، ونجعل لك بعد ذلك التَّقْدمة على جميع كتامة والعرب ، فيكون لك شرف الدنيا وفخرها ، وثواب الآخرة وأجرها ، وتزيل عن أهل بيتك مكروهًا ، وتقطع عنهم شرًا . وأخذوا معه فى ذلك وحذّروه عواقب السلطنة .

فقال لهم بنان : هذا رجلٌ صار بين أظْهُرنا ، وهو ضيفٌ عندنا ، كيف ينبغى أن نفعل فيه مثل هذا الفعل . فتنازعُوا فى ذلك طويلاً ، وكان آخر خطاب بنان لهم أنْ قال : الرأى أن نَجمع العلماء إليه فيناظرَهم ، فإن كان

---

(١) « المسالتى » فى افتتاح الدعوة ص ٨٠ .
(٢) « كناوة » فى افتتاح الدعوة ص ٨٠ .
(٣) « بن جيران » فى افتتاح الدعوة ص ٨٠ .
(٤) « وتميم بن فحل » فى افتتاح الدعوة ص ٨٠ .
(٥) « بيان بن صقلان » فى افتتاح الدعوه .

على حقٍّ فما أولانا وإيّاكم بنُصرته واتّباعه ، وإن كان على باطلٍ عرّفْنا من اتّبعه أنْ يرجعوا عنه .

فانصرفوا إلى أصحابهم وأخبروهم بما كان من بنان ، فخافوا أن تقوم حُجّته ، ويستحكم أمره ، فتزول رئاستُهم بسببه . فأجمعوا على أن يَمضوا فى جماعة ويُظهروا أنهم أَتَوْا بالعلماء ، فإذا خرج إليهم قتلوه ، وانصرفوا على حميّة .

فاحتمعوا فى عددٍ عظيمٍ من الخيل والرَّجْل ؛ فلمّا رآهم بنو سكتان ركبوا خيولهم ؛ والتقى الجمعان . فقالوا لبنان إنما أتَيْناك لِمَا كان بيْننا وبينك . فقال : إنّما كان بيننا أنْ تأتُوا بالعلماء ، وقد أتيتم بالزّحف والعُدَّة ، وعَلاَ الكلامُ بينهْم ، فالتحم القتال ، وتداعت جِيمْلَة من كلّ مكان ، فانهزم القوم ، وانصرف عنهم بنو سكتان . وكان الشيعىّ قدْ سُيِّر فى مبادئ هذا الأمر ، وخاف عليه أصحابه .

ثم راسل الجماعة بنانًا مرّةً ثانية ، وقالوا : قدكُنّا أخطأنا فيما أتَيْنا به من الجمع ، ولم يكن ذلك عن قصد ، ولكن تسامَعَ النّاسُ بنا فتبِعونا . وقد رجَوْناك لإصلاح جماعتنا ، وقدّمناك ، واخترناك لأنفسنا ، لتحْقِنَ دِماءَنا ، وتجمع ما تبدّد من شملنا . فقد عَادَى من أجل هذا الرّجُلِ الأخُ أخاه ، والابنُ أباه ، والقريبُ قريبه ؛ وهذه فتنةٌ قد بَدَتْ ، ورِدَّةٌ قد ظهرت . وهذا الرجل من أهل المشرق ، وهُمْ كما علمت شياطين ، وعلماؤُنا بَرْبر ، وقومٌ ليست لهم تلك الأذهان ؛ فإنهم[إنْ](١)ناظرُوه يظهر عليهم ولم يجدُوا حجّة . يحتجون بها عليه . وقالوا له : أتُرى نحن وآباؤُنا والنّاسُ كلُّهم فى

(١) [ ] إضافة يقتضيها السياق ، « وإن ناظروه ظهر عليهم » فى افتتاح الدعوة .

ضَلَالة ، وهذا وحدَه على الحقّ والهُدَى . وكرَّرُوا عليه ما وعدُوه به من التَّقْدِمة عليهم ؛ فأصغى إليهم ووَعَدَهم أن يتلطَّف فى إخراجه . فجعل يتكلم فى ذلك ويحتجّ على أهل بيته ، ويخوّفهم العواقب ؛ فاتصل كلام بنان بالشيعىّ فانتقل عنهم .

ذكر انتقال أبى عبدالله الشّيعى عنْ بنى سكتان إلى بنى عصمة بتازرارت [١]

قال : واتّصل هذا الخبرُ بالحسن بن هارون العصمى [٢] ، وكان قد دخل فى هذا الأمر ، وهو معروفٌ بالأدب وكثرة النّعمة ، وهو مطاع فى قومه . فأتى الشّيعى ورغب إليه فى الانتقال إلى مكانه ، ووَعَده بالذّبِّ عنه ، والمدافعة بنفسه وأهله وماله ؛ وذكر ذلك لأصحابه فأشاروا عليه به . وعظم ذلك على بنى سكتان وكرهوه ، وقالوا له : نحن ندافع عنك بأنفسنا حتى نُقتَل كلُّنا دونك . فشكر قولهم ، وانتقل إلى الحسن بن هارون إلى تازرارت فتلقاه مَنْ بها من أصحابه وغيرهم . وقام [٣] العصميُّون [٤] بما احتاج إليه الشيعىُّ وأصحابُه . وقاسموه أموالهم . وأقبل أصحابُ الشيعى من كلّ ناحيةٍ ، وكلٌّ

---

(١) « تازررت » فى الأصل ، والتصحيح من المغرب فى ذكر بلاد أفريقية ص ١٦١ ، وتازرارت : تقع على مسافة يوم من جبل درن الذى يعترض الصحراء متصلاً بجبل نفوسة وجبل أوراس ــ المغرب ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

وهى « تازروت » فى افتتاح الدعوة ص ٨٧ .

(٢) « العشمى » فى افتتاح الدعوة ص ٨٧ ، وما يلى ذلك .

(٣) « وأقام » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٤) « وقام الغشمانيون » فى افتتاح الدعوة ص ٨٨ . وما يلى ذلك .

منهم يأتى بما يملكه ، ويبذُلُه بين يديه . فاجتمع أمره، وامتنع جانبُه ، واجتمعت عصمان على نُصْرته ، وخلقٌ كثيرٌ من قبائل كتامة ، وندم بنان بن صقلان على ما كان منه فى حقه ، وعَظُم شأنُ الحسن بن هارون بفعله .

وكان للحسن أخ هو أسَنُّ منه ، اسمه محمود ، فَوَجِد فى نفسه من ذلك ، وكان قبلَ ذلك مُقْدِمًا على أخيه لسِنّه ، وكان أيضًا مُطاعًا فى أهل بيته ، فنَكَل بذلك ، وفشا(١) عنه هذا والحسن يُدَاريه ويستَعطِفْه ، خوفًا من أن يفترق جماعةُ عصمان .

فلمّا صار أمر الشيعيّ . بتازرارت إلى ما صار إليه وانتهى ذلك إلى القوم الّذين كانوا تعاقدوا عليه أولا ، فسقط فى أيديهم ، وعظم أمره عليهم ، فرجوا أن يصلوا من محمود بن هارون إلى ما يريدونه من أمر الشّيعى . فاجتمعوا إلى مهدى بن أبى كتامة اللهيصى(٢)، فذكروا له ما بلغهم عن محمود ، وقالوا له : هذا جارُك وصديقُكُ ، فلعلّك أن تستميلَه فتُفَرِّقَ به جماعةَ عصمان ، فيمكننا ما تريد .

فركب مهدى إلى محمود ، وذكر له اجتماع وُجوه كتامةَ وأنهم أرسلوه إليه وقالوا إنّه قد أجحف أخوك بنفسه وأهلِ بيته وجاء إلى عصمان ببَلِيَّة قد تَعَافَى منها بنو سكتان ، وتخَلَّصُوا من شرِّها [٢٨] . وجعل يخوفه من سوء العواقب ، ووعده عنهم(٣) بالتَّقْدِمة على أنفسهم . فاستمَالَهُ بذلك مع ما

(١) « فشق ذلك عليه ، وتكلم به ، وفشا عنه » فى افتتاح الدعوة ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٢) « مهدى بن كناوة اللهيصى » فى افتتاح الدعوة . ص ٩٠ .

(٣) « ووعدهم عنه » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق ، وما جاء فى افتتاح الدعوة ص ٩١ « ويعده عنهم » .

داخله[١] من الحسد لأخيه والغَيْرَة منه .

فقال : القولُ فى ذلك ما قُلتَ ، ولكنَّه قد تمكَّن وقَوِى وَكَثُرت أتباعُه ، وليس هو الآن كما كان فى بنى سكتان ، وقد أجابته عصمان وكثيرٌ من عامَّة كتامة ، فهم يقاتلُون دونه ؛ فمتى دعوتُ من يطيعنى من عصمان إلى أخْذِه صرنا فريقين ، وأهلَكَ بعضُنا بعضًا . وما أرى فى أمره إلَّا ما رأى لى بنان[٢] : أنْ يأتى بالعلماء إليه فيناظروه ، فإن قامت حجَّتُهم عليه وجدنا السَّبيل إليه ، وإن كانت الأخرى دبَّرنا رأيًا آخر إن شاء الله تعالى .

وانصرف مهدى إلى القوم فأخبرهم . فقالوا : من الذى يُناظرهُ من عُلمائنا وأنتَ ترى الواحدَ من جُهَّالنا إذا دخل فى أمره ناظرهم فقطعهم ، فكَيْفَ به فقال : قد رأيتُ من محمود شهوةً فى قتله ومال إلى ما وعدناهُ به من التَّقدِمة ، مع ما داخَله من الحسد لأخيه ؛ ولم أجد عنده غيرَ ما فارقتُه عليه . وما علينا أن نَأْتِىَ بالعلماء فإذَا هُم أخرجُوه وقعنا[٣] عليه أسْيَافنا فقتلناه ، ويكون بعدُ ما عساه أن يكون . فأرسَلُوا فى طلب العلماء من كلِّ ناحيةٍ ، وقالوا لا نأتيه فى احتفال كما فعلنا ببنى سكتان .

واتصل الخبر بالحسن بن هارون ، وبالشِّيعىّ ، فقال لهم لِيَجْتمِعْ جماعةُ عصمان إلى محمود فيلاطفوه ويذكرُوا له ما اتصل بهم ، ويُحذِّروه العَارَ ، والنَّقص ، وسُوءَ العواقب ، ويقدِّمُوه على أنفسهم ، ويعظِّموه ، ويرفعُوا من شأنه . ففعلوا ذلك ؛ ووافاه أخوه الحسن وجماعةُ عصمان ، وقالوا : نحن

---

(١) « ما دخله » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٩١ .

(٢) « إلا ما رآه بيان » فى افتتاح الدعوة ص ٩١ .

(٣) «وضعنا» فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٩٢ .

أهلُ بيتك وعشيرتك وأنت أميرُنا ومقدَّمنا ، وهذا الرّجلُ ضيفُك وضيفُنا ، وقد رأيتَ ما لحق ببنى سكتان من النَّقْص فى إخراجه ، وأنّهم نَدِمُوا عليه ، وأن بنانا حاول رَدَّهُ إليه ليصلح ما أفسده على نفسه فلم يجبه إلى ذلك . فلا تجعَلْ علينا عارًا ولا نقصًا . وحلَفُوا له وقدَّموه على أنفسهم فمال إليهم .

فلما علِم محمود ان أولئك القوم قَرُبوا من تازرارت ركب فى جماعةٍ وأركب الشِّيعىُّ أصحابَه معه وقال لهم : إن قَدَرْتم أن تلحموا الحرب[1] فافعلوا . فلمّا التقَوا قالوا لمحمود : هؤلاء العلماءُ قد جئنا بهم ؛ وعزلوهم ناحية : فقال لَهُم محمود : انصرفُوا ودعُوهُم عندنا حتى نجمعَ بينهم وبين الرّجل ، مع عشرة رجالٍ مِن وُجُوهَكم وخِيارِكم ، فى مجلسٍ ، فننظر ما يكون بينهم . فانحَلَّ ما عقَدُوه . فقالوا : وما عليكم أن تُخرِجُوه إلى ها هنا ونشهد ما يكونُ منه ومن العلماء ، فيكونَ ذلك أشهرَ وأقْطعَ للأمر : فقال لهم محمود : قد بلَغَنا عنكم أنّكُم عقدتُم أمرًا وطمِعتم أن تنزعوا ضيفَنا مِنْ أيدينا بالتَّغلُّب .

فردُّوا عليهم . فحمَل عليهم هو وأصحابه ، والتحم القتال ، وقاتل محمود قتالاً شديدًا فجرح ، ثم افترقوا ، فمات محمود من جِرَاحه ، فسُرّ أخُوه والشِّيعىُّ بموته ، وأظهرُوا الطَّلب بِدَمِه . واجتمعت عصمان أُلْباً واحدًا وصَحَّت الرئاسةُ للحسن بن هارون وولّاه الشِّيعى أعنّة الخيل ، وقَوَدَه وعَوَّدَه على جميع أصحابه .

واشتعلت الحرب بين عصمان ولهيصة بسبب قتل محمود . واجتمع أمراء بلزمه وأكثر القبائل للشِّيعىّ وأظهر نفسه ، وكان يشهدُ الحرب ويباشرها .

(١) « أن تلقحوا الحرب » فى افتتاح الدعوة ص ٩٣ .

وطالت الحرب بينهم ، ثمّ اصطلَحت لهيصة وعصان بعد أن قتل مهدى ، وانضمُّوا كلهم إلى الشّيعى ، واشتدَّ أمرُه ، وحاربوا مَنْ بينهم من القبائل ، وشنُّوا الغارات على مَن بَعُدَ منهم . وبعث الشيعىّ خيلاً مُغيرةً إلى مزاتة ورئيس مزاتة(١) يومئذ يوسف القنطاسى ، وكان قدم على إبراهيم بن أحمد فوصله وحيّاه ، وكساه ، وأعطاه جاريةً ؛ فكبستْهُ خيل الشّيعى ، وأخذوا جميعَ ما كان له ، وسبَوْا الجارية ، وقتلُوا مَنْ قدروا عليه من أصحابه ، واختفى هو فنجا ، ووصلوا إلى الشّيعىّ بالغنيمة فاصطفى الجارِيَةَ لنفسه وهى أمّ ولده .

فلما رأت القبائل ظُهور الشّيعى واجتماع لهيصة له ، وقتل مهدى ، مشى بعضهم إلى بعض ، وأرسلوا إلى مزاته ، فاجتمع رأيهم على أن يدخلوا إليه بعِيالاتِهم ويُحيطوا به من كلّ جانب ، فتُسْلِمَه عصان ولهيصة ومَنْ مَعَهُم ويستأصلوهم . فانتهى الأمر إلى الشّيعى ، فجمع أصحابه كلَّهم بتازرارت ، وجاءت كتامة من أطرافها وأحاطوا به . فخندق على نفسه ، وأشار عليه وُجُوه أصحابه أن يعتزل الحرب وهم يقاتلون . فشكرهم على ذلك ، وأبى أن يقبَلَه ، ووعدهم النّصر ، وحثّهم على القتال ؛ فأخرج كلٌّ واحدٍ ما عنده من مالٍ وسلاحٍ وكراعٍ ، وتشاوروا فيه ، وكمَّلوا عِدّتهم وعُدّتهم ، فبلغوا سبعمائة فارس ، لا يزيدون ولا ينقصون ، وألْفَى راجل . والتَقَوْا بعد مراسلةٍ لم تُجْدِ شيئًا واقْتتَلُوا قتالاً شديدًا . ودامَ القتال بينهم ثلاثةَ أيّام ، ودام فى اليوم الثّالث إلى العصر ، وكان الظّفَرُ لأصحاب الشيعى . وانهزم أولئك ، وتبعوهم وقد امتلأت أيدى أصحابه من الغنائم والأموال ؛ وتفرّق ذلك الجمع . قال : فبيع الجِمَالُ كُلٌّ عشرة بدينارٍ [٢٩] والحمارُ بعشر

---

(١) تسكن هذه القبيلة فى الطريق إلى قفصة وقسطيلية — المغرب ص ١٤ .

بصلات ، وغنموا من الخيل مَا لَا يُحصى .(١)

وانصرف الشيعيّ إلى تازرارت وابتنى بها قصرًا يسكنه ، واتخذها دار مُقامه ؛ وأقطَع أصحابَه دُورًا حوْل قصره . وارتحل إليه أصحابُه من كلّ ناحية ، وابتَنَوْا وسكنُوا ، وقَوِى أمرُهم . واستأمن إليه كثيرٌ من القبائل ؛ وشنّ الغارات ، وداوم الحرب ، فأقبل النّاس إليه من كل جهة .

ولحق فتح بن يحيى بإفريقية(٢) فقدم على أبى العبّاس [بن](٣) إبراهيم ابن أحمد ، وهو يومئذ بتونس بعد خروج أبيه إبراهيم إلى صقلّية ، فوصله وأدناه ، وأكرمه ، وسأله عن الشّيعىّ ، فَضعّف أمره ، فقال : أليس قد اجتمعتُم عليه فى عساكر عظيمةٍ فلم تَقدرُوا عليه ؛ فقال : ليس أمرُنا من أمرِك فى شىء ، إنّما نحنُ مُقاتلةٌ بغير رأس ، ونقاتل مَنْ يعرفنا من أهل بلدنا ، ولو جاءه عسكرٌ من قِبَلِك لكانت هيْبتُه فى صدور النّاس . فأطمعه أبوالعباس ، ثم أمسك عنه .

قال : واستولى الشيعى على جميع بلد كتامة ، وظهرت دُعاتُه فى كلّ ناحية منها ، وغلب عليها ؛ وكانت وقائع كثيرة ببلد كتامة .

وأقام بعد انهزام الجمع نحو سنتين وهو يشنّ الغارات ، ويَغْنم الأموال ، حتّى أجابُوه ، وسلّموا الأمر إليه . ولم يبق إلّا المدينة الحصينة ومَنْ فيها من

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى افتتاح الدعوة ص ١٠٣ ـ ١٠٩ .

(٢) وذلك بعد هزيمته من الشيعى ـــ انظر تفصيل ذلك فى افتتاح الدعوة ص ١١١ ـ ١١٤ .

(٣) [ ] إضافة من افتتاح الدعوة ص ١١٤ .

وهو أبو العباس عبد الله (الثانى) بن إبراهيم (الثانى) ، الذى كان على رأس دولة الأغالبة فى الفترة من ٢٨٩ ـ ٢٩٠ هـ/٩٠٢ ـ ٩٠٣ م ـــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٤٦ .

أمَرائها ومَنْ انضَمّ إليها من القبائل .

ذكر تغلُّبِ أبى عبدالله الشيعى على مدينة مِيلَة

قال ابن الرقيق : كان سبب ذلك أن قيس بن أبى جرير[١] من وُجوه أهل مِيلَة ، وهم [من][٢] ربيعة وكان رئيسُهم يومئذ حسن بن أحمد ، فوصل إلى الشيعىّ سرًا وأطْلعه على أمْر المدينة ، فتقدَّم الشيعىّ إليها وقاتل مَنْ بها ، وغَلَب على جميع أرضها ، فدخل جميعُ مَنْ كان بها إلى الحصن ، ثم سألوا الأمان ، فأمّنهم مَا لَم يُحدثوا حدثًا . ففتحوا أبواب المدينة ودخلها أصحابُ الشيعى ، وخرج إبراهيم بن موسى بن عيّاش مع جماعةٍ منهم فى الليل ، فهرَبُوا إلى إفريقية ، إلى أبى العبّاس بن إبراهيم ، فأخبرُوه بالخبر ، وضعَّفوا عنده أمر الشيعىّ ، وسألوه فى إخراج عسكر إليه ، وضَمِنوا أمره . فأمر بالحشد ، وجَمَع وجوه رجاله ، وأمّر عليهم ابنه محمَّدًا المعروف بأبى حوال[٣] فاجتمع لهُ عساكر عظيمة انتق منْها اثنى عَشر ألف فارس . واتّصل الخبر بالشّيعىّ فاستعدَّ للِّقاء .

---

(١) هكذا فى الأصل ، « وكان بنو أبى خنزير من وجوه أهل ميلة » فى افتتاح الدعوة ص ١٣٥ .

(٢) [ ] إضافة من افتتاح الدعوة ص ١٣٥ للتوضيح .

(٣) « أبى جوال » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ، فى هذا الموضع والمواضع التالية . وورد فى الكامل « وبلغ الخبر أمير أفريقية ، وهو حينئذ إبراهيم بن أحمد ، فنفذ ولده الأحول » جـ ٨ ص ٣٤ ، وفيه تحريف ، فالقائد أبو حوال (أو الأحول) حفيد إبراهيم بن أحمد وليس ابنه، وانظر أيضا نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٤٥ .

ذكر الحرب بين أبى عبدالله الشيعىّ وبين أبى حوال محمد بن أبى العباس

قال[١] : وخرج أبوحوال بالعَسكر الّذى اختاره مِن مَدينة تونس ، فى سَنَة تسع وثمانين ومائتين ، وكلّ مَنْ مرّ عليه من القبائل ، بدأهمْ بالعَطاء وخلع على وجُوههم ، وقصد إلى سَطيف ، فلم يصلْ إليها حتّى زاد فى عسكره مثله . وتلقّاهُم بنو عُسْلوجة أصحابُ سطيف[٢] ، وبنو تميم أصحابُ بلزمه ، ومنْ حولَهم ممّن لم يدْخل فى طاعة الشيعىّ ، فقتل من وجوههم قتلاً ذريعًا ، وانتهب أموالهم ، وسَبَى نساءهم وذراريهم ، وقصَد الشيعى بتازرارت ، واتصل به الخبر ، فبرز إليه بِمَن معه ، والتقَوْا ببلد بلزمة ، واقتتلُوا قتالاً شديدًا ، فانهزم الشّيعىّ وأصحابه ، واتّبعهم أبو حوال إلى الليل ، ثم أصبح فلقُوه واقتتلوا قتالاً شديدًا ، فانهزم الشيعىّ ثانيةً إلى تازرارت وجاءهُم ثلجٌ عظيم ، فحال بينهم .

ولم ير الشيعىّ أن تازرارت تحصّنهم ، فأخذوا ما قدَرُوا عليه ، وانضموا إلى إيكجان . فلمّا ارتفع الثّلج تقدّم أبو حوال إلى تازرارت فأخْرَبَها وهدَم قصر الشيعى وسار إلى ميلَة ، ثم التقى هو والشيعىّ واقتتلوا إلى الليل ، فانهزم أبو حوال إلى تونس ، ورجع الكتاميّون إلى ميلَة ، واعتلَّ الحسنُ بن هارون فمات بإيكجان ، وسكنها الشيعىّ وابْتَنى بها قَصْرًا .

---

(١) مازال النويرى يأخذ عن القاضى النعمان فى كتابه افتتاح الدعوة .

(٢) انظر ما يلى عن فتح مدينة سطيف ، وأصحابها .

وجاء الخبر إلى الشيعيّ بوفاة إبراهيم بن أحمد وأنّ ابنَه أبا العباس وليَ الأمرَ بعْدَه[١] ، وجلَس فى المسجد وردَّ على الناس ظُلاماتِهم ، وأنّه يجلسُ على حصيرٍ وبين يديه الدِّرَّة ، فاغتمَّ لذلك لأن العوامَّ مالت إليه . ثمّ أتاهُ الخبرُ بقتل أبى العبّاس ، وأنّ ابنَه زيادَة الله[٢] قتله ووَليَ مكانه ، وأنّه شرب الخمور وارْتكب المحارم ، وعكف عَلى الملاهى ، فسرَّه ذلك ، وقال لهم : قَدْ زال عنكُمْ ماكنتم تخافونه ، وهذا آخرُ ما تُحاربون ، وسيصير الأمر إليكم .

قال : ثم خرج أبو حوال بالعساكر ثانيةً قبل وفاة أبيه ، فهزمه الشيعيّ واستولى على مِيلَه ، وعاد أبوحوال إلى بلاده وقد ملَكَ زيادةُ الله ، فقتله زيادة الله [٣٠] وقتل إخوته ، والله أعلم .

ذكرُ تَغلُّب أبى عبدالله الشيعىّ على مدينة سَطِيف

كانت مدينة سَطيف لعليّ بن حفْص ، المعرُوف بابن عسلوجة ، وكان قد زحف مع أبى حوال لقتال الشّيعىّ . فلمّا استقام أمْرُ الشيعىّ وأخذ مِيلَة ذهب بجمُوعه إلى سَطيف وأقام عليها أربعين يومًا وهو يقاتله ، ثمّ انصرف إلى

(١) توفى إبراهيم بن أحمد فى ١٦ ذى القعدة ٢٨٩ هـ/٢٢ أكتوبر ٩٠٢ م ، وولى بعده ابنه أبو العباس عبد الله ، والذى قتل فى ٢٩ شعبان ٢٩٠ هـ/٢٨ يولية ٩٠٣ م ـ انظر نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٤٣ وما بعدها .

(٢) هو عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ، أبو مضر ، زيادة الله (الثالث) ، ولى دولة الأغالبة فى الفترة من ٢٩٠ ـ ٢٩٦ هـ/٩٠٣ ـ ٩٠٩ م ـ نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٤٥ وما بعدها .

إيكجان فأقام بها شهرًا ، وجَمَع [١] مَنْ قَدر عليه ، وعَاد إلى مدينَة سَطيف فأحاط بها ، وقاتلهُ علىّ بن عسلوجة ، فهزمهُ الشيعىّ فتحصَّنَ بالمدينَة . وأقام أيَّامًا يُحاصرُه ، فمات على بن عسلوجة ، هو وأخوه أبوحبيب . فى أيَّامٍ قلائل فاستَوْلى الشيعىّ عليها [٢] .

ذكر خروج إبراهيم بن حنبش إلى بلد كتامة

قال [٣] : لمَّا اتصل بالأمير زيادة الله أخبارُ الشيعىّ ، وظهورُه على بلد كتامة ، وافتتاحُه مِيلَة ، ووصل إلى زيادة الله مِنْ كتامَة من خاف على نفسه ، وعرّفوه أنّه إنْ لم يُعاجِل الشيعىّ زاد أمرُهُ ، أخذ زيادة الله عند ذلك فى الاحتشاد وَزَاد فى العطاء . فاجتمعت له عسَاكر عظيمة ، فقدَّم عليها إبراهيم بن حنبش [٤] ، فبلغت عدّة مَنْ خرج معه أربعينَ ألفًا ، مِنْ فارسٍ وراجلٍ . وأخْرَج معه أموالاً جليلة وسلاحًا كثيرًا ، وعُدَدًا عظيمة ، وأمر ببَذل الأموال ، وأخرج معه وُجُوه رجاله ومَنْ وصل إليهم من كتامة .

---

(١) « وجميع » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .
(٢) انظر تفصيل هذه الأحداث فى افتتاح الدعوة ص ١٦٥ ما بعدها .
(٣) ما زال النويرى ينقل عن افتتاح الدعوة ص ١٦٨ ومابعدها .
(٤) هكذا فى الأصل ، ولم تتفق المصادر على رسم واحد لاسمه ، فهو « خنيش » فى الكامل جـ ٨ ص ٤٠ ، « حبشى » فى افتتاح الدعوة ص ١٦٨ ، و« حنيش » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٢ ... إلخ .

فسار إبراهيم بن حنبش حتى أتى قسطنطينية [١]، وبينها وبين إيكجان الّتى بها الشيعىّ نحو مرْحلتين ، وأردفه زيادة الله بسديد بن أبى شدّاد [٢]، فاجتمع معه نحو مائة ألف . وأقام بقسطنطينية ستّةَ أشهر لا يتقدّم إليه الشيعى ، فلمّا رأى ذلك زحف بعساكره كلّها ، فندب الشيعىّ خيلاً اختارها من كتامة ليختبرُوا بُرُوزَ حنبش ، فأتوه . فلمّا رأى الخَيْلَ قصدها بنفسه . هذا والأثقال على الدوابّ ؛ فانتشبَت الحرب ، واقتتلوا قتالاً شديداً . واتّصلَ الخبر بأبى عبْدالله الشيعىّ ، فزحَفَ بِمَن معه ، فوقَعَت الهزيمَة على ابن حنبش وأصحابه ، وأسْلموا الأثْقال ، وتبعهم أصحابُ الشيعىّ يومَهُم ذلك إلى الليل ، ومن الغدَ ، يقتلُون ويغنَمُون . فقتَلُوا منهم كثيرًا وغنمُوا من الأمْوال والأمتَعة والسّلاح والكراع ما لَا يُحصى كثرة .

ووصل ابن حنبش إلى باغاية [٣] وكتب كتابًا بخطّه إلى زيادة الله يخبرُه بالخبر . ثم قدِم إلى إفريقية ، فاضطربت وماجت بأهلها ، وعظُم أمْرُ الشيعىّ ثم غلب على مدينة طُبْنَة [٤] ثم على مدينة بلزمة ، ثم مدينة تيْجَس [٥] ، ثم

---

(١) هكذا بالأصل ، والكامل ، وافتتاح الدعوة ، و« قسنطينية » فى اتعاظ الحنفا ، وفى العبر وديوان المبتدأ جـ ٤ ص ٣٥ « قسنطينة » ومازالت تعرف بالاسم الأخير حتى الآن .

وهى مدينة مبنية على هضبة صخرية مرتفعة يحيط بها الوادى من جميع الجهات — انظر معجم البلدان .

(٢) هكذا بالأصل ، و« شيب بن أبى الشداد » فى افتتاح الدعوة ص ١٧٠ .

(٣) « بالاية » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ١٧٢ ، وممايلى هنا فى نفس الورقة — انظر ما يلى .

(٤) طُبْنَة : بضم أوله ثم السكون ونون مفتوحة — من أكبر مدن نهر الزاب ، وقد اندثرت الآن — معجم البلدان — دائرة المعارف الإسلامية .

(٥) تيجس : مدينة على الطريق من القيروان إلى قسنطينة ، كان عليها سور صخر رومى - المغرب ص ٦٣ .

مدينة بَاغَاية[١] ، ثم قَفْصَة[٢] ، وقَصْطِيلِيَة[٣] ، ثم مدينة الأُرْبُس[٤] .
وكان له فى خلال هذه الفتوحات وقائعُ كثيرة كان آخرُها مع إبراهيم بن أبى الأغلب لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة ، سنة ستّ وتسْعين ومائتين ، فانهزم إبراهيم إلى جِهَة القيْروان واتّبعهُم أصحابُ الشيعىّ يقتُلُون ويغنَمون ويأسرون[٥] .

ذكر هرب زيادة الله إلى المشرق

قال[٦] : ولمّا وصَل خبر هذه الهزيمَة إلى زيادة الله وهو برَقّادَة[٧] ، وكان قد علم أنّه لا يقومُ له أمر إذَا انْهزم إبراهيم ، لأنّه آخر ما جمع من الجيوش واستنْفذَ فيه الـوُسْع والطّاقة ، فلمّا جاءهخبر الهزيمة أظهر أنّه جاءه الفتحُ ، وأرسل إلى السُّجون فأحضَر رجالاً منها فضرب أعناقهم ، وأمر أن

---

(١) باغاية : مدينة كبيرة بين مجانة وقسنطينة، وعلى مقربة منها جبل أوراس ـــ معجم البلدان، المغرب ص ٥٠.

(٢) قَفْصة : بالفتح ثم السكون ، وصاد مهملة ، بلدة صغيرة ، من عمل الزاب الكبير ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام من جهة المغرب ـــ معجم البلدان .

(٣) قَصْطِيلية= قسطيلية : بالفتح ثم السكون وكسر الطاء ، مدينة كبيرة من أرض الزاب الكبير ـــ معجم البلدان .

(٤) الأُرْبُس : بالضم ثم السكون والباء الموحدة مضمومة ، مدينة كبيرة ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام من جهة المغرب ـــ معجم البلدان .

(٥) عن تفاصيل فتح هذه المدن ـــ انظر افتتاح الدعوة من ص ١٧٣ إلى ص ٢٤٠ .

(٦) المقصود هو القاضى النعمان ، فمازال النويرى ينقل عن افتتاح الدعوة ص ٢٤٣ .

(٧) رقادة : مدينة بأفريقية بناها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ، وظلت دار ملك الأغالبة حتى هرب منها زيادة الله وتركها لأبى عبد الله الشيعى ـــ معجم البلدان .

يُطاف برءوسهم فى القيروان ، وأخذ فى تجهيز أثقاله ، وحَملها وحَمل أمواله ، وأنْذر خاصّته وأهلَ بيته بالخُروج معه ، وعرَّفهُمْ بالخبر ، فأشارَ عليه ابنُ الصّائغ [1] بالمُقام ، فأبى ذلك ، وخرج إلى مصر ، كما ذكرنَاه [2] وأقبل النَّاس فى صبيحة يومِ هربِ زيادة الله وانتَهبُوا رقَّادَة . والله أعلم .

[٣١] ذكر رجوع أبى عبدالله الشِّيعىّ إلى إفريقية

قال : ولمّا وافاهُ الخبر بهرب زيادَة الله أمير إفريقية ، وهو بناحية سَبِيبة [3] رَحَل لِوَقته ، وخرج إليه شُيوخ القَيْروان ، وتلقَّوْه ، فأكرمهم ، ودخل أبو عبدالله الشيعىّ رَقّادة فى يوم السَّبت غرّة شهر رجب ، سنة ستّ وتسعينَ ومائتين ، ونزل ببعض قُصورها ، وفرَّق دُورَها على كتامة ، ولم يكن قد بقى بها أحدٌ من أهلها ، وأمر مُنَاديه فنَادى فى القَيْروان بالأمان ، فرجع

---

(١) هو عبد الله بن الصائغ ، الذى ولى الوزارة والبريد لزيادة الله ـ نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٤٥ .

(٢) يشير المؤلف إلى ما سبق أن ذكره عند حديثه عن دولة الأغالبة ــ انظر نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٤٧ وما بعدها .

(٣) « سبتة » فى الأصل ، فهو تحريف ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٢٤٣ ، الكامل جـ ٨ ص ٤٦ .

سَبِيبة : بفتح أوله وكسر ثانيه ، ناحية من أعمال القيروان ــ معجم البلدان .

أما سبتة : فهى فى أقصى بلاد المغرب فى مواجهة جزيرة الأندلس ، على طرف مضيق جبل طارق ــ معجم البلدان ــ وهى بالتالى بعيدة عن مسرح الأحداث الواردة بالمتن .

النّاس إلى أوطانهم . وغيَّر المنكَرات ، ووَلَّى قضاءَ القيروان محمّد (١) بن عمر المرْوَزىّ ، وأمره ، ورتّب الخطباء وأمرهم أن يصلُّوا على : رسول الله ﷺ ، وعلىّ ، والحسن والحسَيْن وفاطمة ، وأمر بضَرب السّكَّة ، وأنْ يُنْقش على الوجه الواحد « بلغت (٢) حجّة الله » . وعلى الوجه الآخر « تفرّق أعداءُ الله » ، ونقش على السلاح « عُدَّة لسَبيل (٣) الله » ، ونقش على خاتمه الّذى يَطْبع به الكتب (وتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً) (٤) ورسم فى جلال الخيل (٥) « الملْك لله » .

ذكر خروج أبي عبْدالله الشّيعىّ إلى سجلماسة (٦)

قال (٧) : ولمّا استقرّ أبو عبدالله الشيعى برَقّادة ، أتاهِ أخوه أبو العبّاس محمد ابن أحمد ، فَسُرّ بمقدَمه ، وكان أسَنَّ من أبي عبدالله وَأحَدَّ ذِهنًا ،

---

(١) هو محمد بن عمر بن يحيى بن عبد الأعلى المروزى (المروذى) أصله من خراسان ، وتوفى سنة ٣٠٣ هـ/٩١٥ م ــ افتتاح الدعوة ص ٢٤٧ ، طبقات علماء أفريقية ص ٢٣٩ ، وانظر ما يلى فى أخبار وفاة المهدى .

(٢) « بلقب » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٢٥٠ ، الكامل جـ ٨ ص ٤٧ .

(٣) « عدة فى سبيل الله » فى افتتاح الدعوة ، والكامل .

(٤) سورة الأنعام آية ١١٥ .

(٥) الجلّ للدابة : كالثوب للإنسان ، يلبس ليقى من البرد ، والجمع جلال أو إجلال . القاموس . « ووسم الخيل الملك لله » فى افتتاح الدعوة ص ٢٥١ ، و« ووسم الخيل على أفخاذها » فى الكامل جـ ٨ ص ٤٧ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٤ .

(٦) سِجِلْماسة : بكسر أوله وثانيه وسكون اللام ، وبعد الألف سين مهملة : مدينة عظيمة على حدود المغرب الجنوبية الشرقية ، على بعد نحو ٢٠٠ ميل جنوب شرق فاس ، أسسها المدرار ابن عبد الله سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م . وقد درست اليوم ــ معجم البلدان ــ دائرة المعارف الإسلامية .

(٧) مازال النويرى يأخذ عنه ــ افتتاح الدعوة ص ٢٦٩ .

وكان الشيعيّ يعظّمه ، فإذا دخل قام إليه . وإذا دخل هُو على أبى العبّاس قبّل يده ووقف حتى يأمرَهُ بالجلوس فيجلس .

ولما وصل أبو العباس أراد أنْ يَنْفِيَ من القيْروان من خالف مذهبه ، فقال له أبو عبد الله إن دَوْلتنا دولَةُ حجّة وبيانٍ ، وليْسَت دولَة قهرٍ واستطالة ، فاترك النّاس على مذَاهبهم ، فَتَرَكهُم .

وأخذ أبو عبد الله فى الخروج إلى سِجِلْمَاسَةَ ، فرحل إليها فى النّصف من شهْر رمضانَ من السّنة ، فى جيوشٍ عظيمة ، واستخلف على إفريقية ابا زاكى تمام ابن معارك وأخاه[1] أبا العباس .

قال : ولمّا خرج اهْتَزّ الغربُ لخروجه وزَالَتْ زنَاتَة[2] والقبائلُ عن طريقه ، وأوْقَع بقبائلَ عرضتْ له فى الطّريق حتّى إذا قرُب من سِجِلْماسة رَاسَل أميرها الْيَسَع بن مدْرار[3] ، وكان مِنْ أمره مَعَهُ ما نذكره بعْدُ فى أخبار المهْدىّ عُبيد الله إن شَاء الله .

فهذه أسبَابُ ظهورِ هذه الدّولة وقيامها وخبرُ شيعتها . فلنذكُر أخبارَ المهدىّ وما كانَ مِنْ أمره ، وخروجَه من بلاد الشام ، وما اتفق لهُ فى مَسيره إلى أن تسلم المُلك من أبي عبيد الله الشيعىّ ، بعْد أن مهّدَ له القواعد وفتح

---

(١) هكذا فى الأصل ، وفى افتتاح الدعوة ص ٢٧٥ ، أما فى اتعاظ الحنفا فلم يرد ذكر لأبى زاكى تمام ، فورد « واستخلف أخاه أبا العباس على أفريقية » ص ٦٥ .

(٢) زناتة : قبيلة كبيرة من البربر ، ينتسبون إلى زنا بن يحيى بن ضرى بن زجيك بن مادغس — العبر وديوان المبتدأ جـ ٦ ص ٩١ .

(٣) ولى سجلماسة فى صفر سنة ٢٧٠ هـ/أغسطس ٨٨٣ م ، وهو آخر أئمة سجلماسة من المدراريين ، إذ ظل فى الحكم حتى قتل على يد عبيد الله المهدى سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م — انظر ما يلى .

البلاد . ثم نذكر فى أخبار عبيْدالله ، المنعوت بالمهدىّ ، تتّمةَ أخبار أبى عبدالله الشيعىّ إلى أن قُتِل هو وأخُوه أبوالعبّاس محمد بن أحمد .
فنقول وبالله التوفيق .

ذكر ابتداء الدّولة العُبيْديّة وأخبار المهدى عبيْدالله وماكان من أمره منذ خرجَ من الشّام إلى أن ملك البلاد وَتسلم الأمر منْ أبى عَبدالله الشيعىّ

كان ابتداء ظهور هذه الدولة وقيامها ببلاَد المغرب فى سنة ستّ وتسعينَ ومائتين ، عند ظُهور عبيْدالله بن الحسَن المنعُوت بالمهدىّ ، وخلاَصِه من سِجْنِ سِجِلْمَاسَة وقتْله الحسن بن مِدْرَار . ومنهم من يَجعل ابتدَاءها عند وُصول عبيْدالله إلى رَقَّادة فى يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبْع وتسعينَ ومائتين ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ولنبدأ بأخبار المهْدىّ فى رحْلته إلى المغرب .

ذكر رحيل عبيْدالله من الشام [٣٢] ووصوله إلى سجلماسة

وكان سببُ ذلك أن المعتضدَ بالله أبا العبّاس العباسىّ طلب عبيْدالله هذا طلبًا شديدًا ، فخافَ على نفْسه إنْ هو أقام بالموضع الذى هُو فيه مِنْ أرْض الشام ، فخرج بِنَفْسهِ وبوَلده أبى القاسم محمّد ، وهو يَوْمئذٍ غلام حَدَث وعُبيدُالله شابّ ، وخرج معه خاصّته ومَوَاليه ، يريدُون المغرب ، وذلكَ فى خلافة المكتفى بالله العباسى ، وأمير إفريقية يومئذٍ زيادةُ الله بن أبى العبّاس بن إبراهيم بن أحمد .

فلما انتهى عبيد الله إلى مصر أرادَ أن يقصد اليمن ، وكان بها أبو القاسم الحسن بن حوشب الكُوفى الدّاعى كما ذكرْنا ، وقد استْقام له الأمْر ومَلك أكثر البلاد ، ثم بعث بعْدَه علىّ بن الفضل فاستحلّ المحارِمَ ودعا النّاس إلى الإباحات . فلما اتّصل ذلك به كَرِه دُخول اليمن على هذه الحال ، وبلغَهُ ما فعل الشيعىّ بالمغرب ، وما فُتح على يدَيْه فأقام بمصرَ مستتِرًا فى زىّ التُّجار ، وعامل مِصرَ يومئذٍ عيسى النَوْشَرى بعد انقراض الدَّولة الطُّولُونيّة ، فأتَتْه الكتُب بصفته ، وأُمِر بالقَبْض عليه .

وكان بعض خاصّة النُّوشَرى يتشيع ، قيل إنّه ابْن المدبّر ، فبادَرَ إلى عبيْد الله وأخبره ، وأشار عليه بالمسير ، فخرَج منْ مِصْر بِمن صحبَه . ففرّق النُّوشَرى الرّسُل وذكر لهُمْ صفتَه ، ثم خرج بنفسه فأدركه وقدْ رحل من تَروجة ، وهى على مَرحلةٍ من الإسكندرية ، فمشَى النَّوْشَرىّ فى القافِلَة التى عُبيد الله فيها ، وجعَل ينظر إلى وُجُوه القوْم ، حتّى رأى عبيْدَالله على هيئته التى وُصفت له ، فقبض عليه وعلى منْ كانَ معَهُ ، وأطلق الرِّفقة وعاد به إلى بُسْتَانٍ فنزل به ، وأنزل عبيْدالله ومَنْ معه بمُفْرَدِهم ووَكل بهم . ثم خَلاَ بِهِ وقال له أصْدقنى عن أمْرك فأنى ألطف فى خلاصك ، فقد جاءت صفتُك مِن قِبَل أمير المؤمنين وأمر بطلبك ، وذكر أنّك تَرومُ الخلافة . فقال عبيد الله[1] إنما أنا رجُلٌ تاجر ، ولست أعلم شيئًا ممّا تقول ، وأنت غنىٌّ عن تقلُّد إثمى . فما زال يلاطِفُه يَوْمَه وليْلَته حتّى أطلقه وقال : اِمْضِ إلى سبيلك وأنا أبعثُ معَكَ خيلاً تشيِّعك . فشكره وقال : أنا أستغنى بنفْسى وبمن مَعِى ، وانصرف . فرجع أصحابُ النُّوشَرى عليه بالملامَة ، وقالوا له : مَاذَا صنعته

(١) « أبو عبد الله » فى الأصل ، والتصحيح من السياق .

بنفسك ! عمدت إلى بُغْيَة أمير المؤمنين وطلبته فأطلقته . فندِمَ على إطلاقه وهمّ أنْ يبْعَث إليه خيلاً تردُّه .

فلمَّا سار عبْيدُ الله أميالاً افتقد أبو القاسم ابنُه كلبةَ صيدٍ كانت له ، فبكى عليها فعرفّهْ عبيده[1] أنهُم تركُوها بالبُسْتان ؛ فرجع عبيدُ الله فى طلبها ، فرآهم النُّوشَرى ، فقال : مَنْ هؤلاء ؟ فقال بعْض أصحابه : الرّجل قَدْ رجع . فبعَث غِلمَانه فسألوا أصحاب عبيْد الله عن سَبَب رجوعه ، فقالوا : افْتقد وَلَدُ سيدنا كلبةً ، وهو عزيز على أبيه ، فعادَ معه فى طلَبها بعد أن قطع أمْيالاً كثيرة . فقال النُّوشَرى لأصحابه : قبّحكم الله ! أردْتم أن تحملونى على رجلٍ حالُه مثلُ هذه الحال أعتقِلُه بشُبْهةٍ . لو كان مرتابًا لَطَوى المراحل وما عادَ إلينا مِنْ مسافةٍ بعيدةٍ فى طلب كلبةِ صيْدٍ .

ورجع النُّوشَرى مِنْ وقته إلى مِصر ، وعاد المهدىّ ولحق برفقته . فلمّا انتهى إلى مدينة طرابلس ، فارق مَنْ كان معَهُ من التُّجار ، وقدَّم أبا العبَّاس محمّدَ بن أحمد بن محمّد بن زكريا ، أخا أبى عبْدالله الشيعىّ إلى القَيْروان ببعض ماكان معه ، وأمره أن يلحق بكتامة . فلما وصل أبو العبّاس إلى القَيْروان وجدَ الكتُب قدْ سبقت إلى زيادة الله فى أمر عبيْد الله فأحضر الرّفقة وسألهم عنه ، فأخبروه أنه تَخلّف بطرابلس وذكرُوا أنّ أبا العبّاس من أصحابه ؛ فأُخذ وقُرِّرَ ، فأنكر ، فحُبس .

واتصل الخبر بعبيْد الله بطرابلس فصادف رِفْقَةً خارجةً إلى قَصْطِيلِيَة ، فخرج معهم ، وأتى كتابُ زيادةَ الله إلى طرابلس بصفته وطَلَبه،فكتب إليه عاملُها أنه خرج مِنْ عَمله ، وسار عُبيد الله حتىَ وصل إلى قصْطِيلِيَة ، ثم منها

---

(١) « أبوه » فى الأصل ، والتصحيح من الكامل جـ ٨ ص ٣٨ ، وهو يتفق مع السياق .

إلى سِجِلْماسة ، وصاحب سجلماسة يومئذٍ اليَسَعُ بن مدرار ، فهَادَاه عبيْدالله ، فأكرمه الْيسَع وعظّمه . فلم يزل كذلك إلى أن أتاه كتاب زيادَة الله يخبرهُ أنه هو الّذى يدعُو إليه الشيعىّ ، فتغير الْيسَع عند ذلك عليه إلَّا أنه لم يكن منْه فى حقه ما يكره .

ثم كان من تغلُّب الشيعىّ ما قدّمناه ، وعَلِمَ بمكان عبيْدالله ، وكان يُكاتبه فى السِّرّ . فلمّا هَزَم الشيعىُّ جيشَ إبراهيم بن حنبش كتب إلى عبيدالله يخبُره بالفتح ، فأرسل إليه مالاً مع رجالٍ من قِبَلِه من كتامة ، وكان ذلك أول فتح ورد على عبيْد الله ، فسُرّ به . ثم استولى الشيعىّ على ما ذكرناه ، وهرب منهُ زيادة الله ، وملك رقّادَة والقيروان ، وسار إلى سجلماسة فلما انتهى خبرهُ إلى الْيسَع بن مدرار وقرب من سجلماسة سأله فحلف أنه ما اجتمع بالشيعىّ ولا رآه قطّ ولا عرفه ، وقال : إنما أنا رجل تاجر فأغلظ له فى القول فلم [يغير][(١)] كلامَه الأوّل ولم يخرج عنه ، فجعله فى دارٍ وجعل عليه حرسًا ، وجعل ابنه أبا القَاسم فى دارٍ أخرى ، وفرَّق بينهما . واختبر كلَّ واحدٍ منهما [٣٣] فلم يجد بينهما خلافًا ، وامتحَنَ رجالاً كانوا معهُما بالعذاب ليُقرُّوا فلم يعترفوا بشىء .

واتصل الخبر بالشّيعىّ فعظُم عليه ، وأرسل إلى الْيَسَع بن مدرار يؤمِّنُه جانبَه ويذكر أنّه إنّما قصد سِجِلْماسَة لحاجَةٍ ويعِدُه الجميلَ والبرَّ والإكْرام ، وأكد ذلك وبالغ فيه فلما وصلت رسل اليسع رَمَى بالكتب وقتل الرُّسل ، واتّصل ذلك بالشيعىّ فعاوَدَه ولَاطَفَه ؛ كُلُّ ذلك خوفًا منه أن يكون منه فى حقِّ عبيدالله ما يكرهه ؛ فقتل الرُّسُل أيضًا فلمّا رأى الشيعىّ إصرارَه عبّأ

(١) [ ] إضافة تتفق وسياق الكلام .

عساكرهُ ودنا منَ المدينة فخرج إليه اليسعُ بمن مَعه ، فناوشهم القتال ، فقُتل من أصحابه جماعة وكانَ ذلك فى آخر النّهار ، فحجز بينهما الّليل .

فلما جَنّ الّليل هرب اليسعُ بنُ مدرار مع أهل بَيْته وبات الشيعىّ ومَنْ معه فى غمٍّ عظيمٍ تلك الليلة ، لا يعلم ما صُنع بعبيدالله وابنه،ولم يُمكِنْه دخولُ المدينة،وما علم بهرب اليسع حتى أصبح ، فخرج إلى الشيعى وُجُوه أهلِ المدينة وأعلموه بهرب الْيسَع ، فدخل إلى المكان الذى فيه عُبيدالله فأخرجه وأخرج ولده أبا القاسم ، وقرَّب لهما فرسين وحَفّت بهما العساكر ، وسار الشّيعىُّ والدُّعاة بين يدَىْ عبيْدالله وهُو يقول : هذا مَولاى ومَوْلاكُم ، حتى انتهى عُبيدالله إلى فُسطاطٍ ضُرب لهُ،فدخله ، وهو إذ ذاك شابٌّ لم ينبذه الشّيب ، وابنه حرطَرّ شَارِبُهُ .

هذا ما حكاهُ إبراهيم بن الرّقيق فى تاريخه .

وقال غيره إن اليسع بن مدرار لمّا أراد الخروجَ من سجِلْماسَة أحضر الشخص الذى اعتقله وقتله قبل هروبه ، وأن الشيعى لمّا دخل وعَلِم بقتل عُبيدالله خاف من كتامَة لأنه كان يَعِدُهم بخُروج المهدىّ وملكِهِ الأرض على زعمه ، وخَشِى أن يفتضح فيهلِك ويزُول ما حصَل فى يده ، فأخرج لهم رجلاً يهوديًّا كان يخدم الشّخصَ المقتول ، وقال هذا إمَامُكم وإمامُ الاسماعيلية،وأركبه ومشىٰ فى رِكابه وانْسلَخ له من الأمر . وهذا فيه بُعْدٌ ، وأرَاهُ مِن التّغالى فى نَفْيهم عن النّسبَ ؛ والذى حكاهُ ابنُ الرّقيق أشبه . فلنرجع إلى ما حكاه إبراهيمُ بن الرّقيق .

قال : ولما استْقرّ عبيدُالله بالفسطاط أمر بطلب الْيَسع بن مِدْرَار حيث كان ، فخرجَت الخيلُ فى طلبه ، فأدركوه ومن معهُ مِن أهل بيته ،

فأخَذُوهم وأتَوْا بهم إلى عبيد الله ، فأمرَ بضَرْب الْيَسع بالسياط ، فضرب وطيف به فى بلاد سجلْمَاسة ، ثم أمر بقَتْلِه فقُتل هو وكلٌّ من هرب معه من أهل بيته وغيرهم . وأمَّن الناسَ بعد ذلك وسكّنهم ، واسْتعملَ عليهم عاملاً ، وأتَتْه القبائل من كلِّ ناحية فأكرمهم ، ووعدهم بكل جميل .

وأقام بسجلْمَاسَة أربعين يومًا ، ثم سارَ يُريد إفريقية . فلما حازى بلاد كتامَة مال إليها ، ووصل إلى إيكجان ، وأمر بإحضار الأموال التى كانت مع الشيعىّ والشيوخ ، فأحضرها وشدّها أحمالاً وقدِم بها . وكان وُصُوله إلى رَقَّادَة فى يوم الخميس لعشرٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين .

وفى هذه السنة زال ملْكُ بنى الأغلب وكان له بإفريقية مائة سنة واثنتا عشرة سنة . وزال بزواله ملْكُ بنى مِدْرار وكان له بسِجلْمَاسَة وما حَوْلها مائةُ سنة وستون سنة . وزال ملكُ بنى رُسْتَم من تاهرت [١] وما حَولها ، وله مائة سنة وثلاثون سنة [٢] .

قال : ولما قارب عبيْدالله القيروان تلقَّاه شيُوخها ومشَوْا بين يديه ، فجزاهم خيرًا ونزل عبيْدالله بقصْرٍ من القصُور برَقَّادَة ، وأنزل العساكر بدُورِها ودُعِى له بالخلافة فى يَوم الجمعة لِتسْعٍ بقينَ من شهْر رَبيع الآخرِ من السّنة برَقَّادَة والقَيْروان والقصر القديم[٣] وأنفَذ رسُله ردُعاتِه وأتَتْه وفود البلدان .

---

(١) « تهرت » فى الأصل ، والتصحيح من معجم البلدان .

(٢) عن هذه الدول ومدة حكمها انظر نهاية الأرب جـ ٢٤ ،

(٣) القصر القديم = قصر قيروان : مدينة عظيمة قبلى القيروان بنحو أربعة أميال ، أسسها إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م ــ واتخذها عاصمة لدولته ــ معجم البلدان .

قال ثمّ عرض عليه الشيعىّ جَوَارِىَ زيادة الله فاصطفى منْهنّ لنفسه وأعطى ولدَه ، وفرّق أكثرهُنّ على وُجُوه كتامةَ ؛ وقسّم عليهم أعمال إفريقية ، واستعْملَ وُجُوهَهم على مُدنها ، وأمرهم بالتجمُّل وحُسْن الّلباس ، فلبِسوا الثّياب الفاخرة وركبوا بالسُّروج المحلّاة . ورتّب الدّواوين وأنعم على النّاس ، فرفع إليه صاحبُ بيت المال ما أخرجه من الصّلاتِ فى شهر رمضان ، فبلغ مائة الف دينار واستكْثَره صاحبُ بيْت المال فقال عبيْد الله : لو بلغتُ ما أؤمِّله ما رضيتُ بمثلِ هذا المال لرجلٍ واحد [من أوليائى] [١] .

ذكر أخبار أبى عبيدالله الشيعىّ وأخيه أبى العبّاس وما كان من أمرهما بعْدَ قيامِ عُبيْدالله المهْدىّ إلى أن قتلهما

قال : لمّا استقامت الأمور لعبيْدالله المهدىّ داخل أبا العبّاس محمدًا أخا الشّيعىّ فساد دينه [٢]

وسببِ ذلك أنّ أخاه أبا عبْدالله كان يعظّمه ويقومُ له عَنْ مجلسه ويقبّل يده [٣٤] كما قدمْناه ، وكان لأبى عبْدالله من الرئاسَة ونُفُوذ الكلمة والغَلَبة على الأمر كلّه ما ذكرناه [٣] . فلمّا صار الأمر لعبيْدالله المهدىّ زالتْ تلك الرئاسةُ عن أبى عبدالله وأخيه ، فداخَلَه الحسَد ، فجعل يُزْرى على عُبيدالله عند

(١) [ ] إضافة للتوضيح من افتتاح الدعوة ص ٣٠٤ .
(٢) « داخل أبا العباس الحسد » فى الكامل جـ ٨ ص ٥٠ ، واتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٧ .
(٣) كما ذكرناه فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

أخيه وأبو عبدالله ينكر ذلك على أخيه ، وأبوالعبّاس لا يَرْعَوى ، ويؤكّد أسبابَ النّفاق . ثم قال أبوالعبّاس لأخيه : لقد ملكت أمرًا عظيمًا وانْطاع لك النّاس ، فجئتَ بمَن أزَالَك عنْه وأخرجَك مِنْه ، وكان الواجبُ عليه ألّا يهتَضِمَك هذا الاهْتِضَام . ولم يَزَل يُغْريه بمثل ذلك إلى أنْ أثّر ذلك فيه ، وَحَمله على مُشَافَهة عُبيدالله المهدىّ ببُغضه ، وأشارَ علَيْه بتفويض الأمُور إليه والانْقطاع فى قصْره والاحتِجاب عَن الناس ، وقال هذا أهيَبُ لك وأشدُّ لامرك . فردَّ عليه فى ذلك ردًّا لطيفًا . وكان قد بلغ المهدىّ ما هُو عليه ، فحقّقه ولم يُره أنّه اطّلع على شىء من ذلك . وعَمَد أبوالعبّاس إلى الدُّعاة ، وكانوا يعظّمونه لِـما يَرَوْن من تَعظيم أخيه أبى عبيدالله له ، فجعل يرمزلهم ، ثمّ صرَّح ، وطعن فى عبيْد الله ، وأدخل فيه الشُّبهة . وكلُّ ذلك يبلُغ عبيدَ الله فيُعْرِض عنه ويُغضى عليه ، هذا والشيعىُّ فى ذلك مُدَارٍ لم يبلُغ حد النّفاق إلى أن فشا أنّ حال أبى العبّاس قد أنْهيت إلى عُبيد الله .

ومازال أبوالعبّاس يتخيّل إلى أنْ قال للدُّعاة إنّ الإمام هو الّذى يأتى بالآيات والمعجزات ويُختم بخاتمه فى البلاط ، فأمّا هذا فقد شككْنَا فيه . فعند ذلك أرْسَل هارونُ بن يونس[1] أحد المشايخ إلى عبيْد الله يقولُ : قد شككنا فى أمرك فأْتِنا بآيةٍ إن كنتَ المهدىّ كما قلت . فتعاظَم ذلك وقال : ويْحَكُم إنكم كنتُم قد أيقَنْتُم والشكُّ لا يُزيل اليقين ، فأبيتـم إلّا الإصْرار ! ثمّ أمر مَنْ قتله . فلمّا علم أبوالعبّاس والقومُ الذين اسْتزلّهم[2] بقتله جعلوا ذلك سبباً لمبَايَنة عبيد الله وأجمعوا على النّقض والإبْرَام فى دَار ابى زاكى ابن مُعارك ، وعزموا على الفتْك بعُبيد الله . واجتمع كتامَة إلّا قليلاً منهم ؛

(١) « بن يوسف » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ١١١ و ص ٣١٠ .
(٢) استزلهم : أى جعلهم يزلون ، أى الذين أغواهم .

وكان عزوية (١) بنُ يوسف يأتى بأخبارهمْ لعُبيد الله ، فجمع عبيْد الله إليه مَنْ سَلِم من النِّفاق والعَبيد واستعدَّ لَهُم ، على كثرتهم وقلَّة المبايعين له . فجمعوا له الجُموع وأحاطوا بقصْره ليُوقعُوا به ، وهو فى ذلك جالسٌ منتصبٌ غير مكترث ؛ فقذف الله فى قلوبهم الرُّعبَ على كثرتهم وقلَّة مَنْ معه ، حتّى كانوا يَعبرُون وقد عزمُوا على الفَتْك به ، فإذا قابَلُوه ملأت الهيبَةُ قلوبَهم فإذا انصَرفوا ندِموا على تَركه ﴿لِيَقْضِىَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ (٢) .

فنظر عُبيْد الله فى بعض الأيّام إلى أبى عُبيد الله الشيعىّ وقد لَبس ثوبَه مقلُوبًا ، ودخل علَيه ثلاثةَ أيّام وهُو على تلك الحال ، فقال له فى اليَوم الثّالث : يا أبا عبْد الله ، ما هذَا الأمرُ الّذى شغَلَك وأذْهَلَك عن أمر نفسك ؟ فقال : وما هُو يا مولاى ؟ قال : إنّ ثوبك مقلوبٌ عليك منذ ثلاثة أيّام ما اهتَديْت له ، وما أحْسبُك نزَعْته . فنظر إليه وقال : والله يا مَوْلاىَ ما علمتُ به . فقالَ : إنّ هذا لَشُغُل عظيم ، فأين تَبيت مُنْذ كذَا من اللّيالى ؟ فسكَت . فقال : أَلَستَ تبيتُ فى دَار أبى زاكى قال له : بلى . قال : وماأخرجَك مِنْ دَارك التى أنزَلتُك بها ؟ قالَ : يا مولاىَ خفت . قال : وما يخافُ المرءُ إلّا من عدُوِّه ، والمؤْمن لا يخافُ وليَّه (٣) . فسكت أبو عبْد الله وأيقن أنّ عورتَه قد بَدَت لعبيْد الله ، ووجَبت حُجّتُه عليه ، وحلَّ له قتلُه . فانصرف وأعْلَم القومَ بما جَرى بينهُما ، فأمسكُوا عن الدّخول إلى عبيْد الله وخافُوا على أنْفُسهم مِنه . ثمّ جاءُوه بعدَ ذلك وأظهرُوا البراءةَ مما قِيل فيهم ،

---

(١) « عروبة » فى الأصل ، والكامل جـ ٨ ص ٥٢ ، وأخبار الدول المنقطعة ص ٩ ، والتصحيح هنا والمواضع التالية من افتتاح الدعوة ص ٣١٢ .

(٢) سورة الأنفال آية ٤٤ .

(٣) « عدوه » فى الأصل ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٣١٤ .

واعتذَرُوا ، فردَّ عليهم ردًّا جميلاً . وأخرج جماعةً منهم إلى البُلدان ، فتفرَّقت جماعتُهم . وأخرج فيمس أخرج أبا زاكى بنَ مُعَارِك[1] إلى طرابلس ، وكان غزوية بن يوسف واليًا عليها[2] ، فلمّا وصل إليه كتب إليه عبيدالله ، فقتَلَه وبعث برأسه إليه . وقُتل جماعةٌ منهم كذلك فى البلدان بصنوفٍ من القتل .

وخرج أبو عبْدالله فى بَعْض الأيام هو وأخوه أبوالعبّاس يُرِيدان قصْر عبيْدالله على العَادة ، فحمل غزوية بن يوسُف[3] على أبى عبيْدالله ، وحمل حبر بن ماشيت[4] على أبى العبّاس . فقال أبو عبدالله لابن غزوية : يا بُنىّ لا تفعلْ . فقال : الّذى أمَرْتنا بطاعته أمَرنا بقتلك . وقَتَلاهما فيما بين القَصْرين ، وذلك فى يوم الاثنين ، النّصف من جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين ، وأمر عبيْدالله بدَفْنهما .

قال : وهذَا اليَوْم هو الْيومُ الّذى قُتل فيه أبو زاكى بطرابلس .

قال : ولما قتل أبو عبْدالله وأبوالعبّاس ثار جماعةٌ من بنى الْأَغلَب وأصرُّوا على النِّفاق ، وكانوا بالقصر القديم ، فأخرجُوا منه الكتاميّين وقتلُوا جماعةً منهُم ، فأحاط به مَنْ حوله من كتامة ، فقاتلهم بنُو الأغلب ، وقُتل من

---

(١) « بن معادل » فى الأصل ، والتصحيح مما سبق .

(٢) « وكان عمه أبو يوسف عاملاً عليها » فى افتتاح الدعوة ، ص ٣١٥ ، وأخبار الدول المنقطعة ص ١٠ ، وهو الأرجح ــ انظر ما يلى .

(٣) فحمل ابن غزويه بن أبى يوسف » فى الأصل ، والتصحيح مما سبق ، وافتتاح الدعوة ص ٣١٦ .

(٤) « حبر بن تماشِت » فى افتتاح الدعوة ص ٣١٦ ، « حبر بن القسم » فى أخبار الدول المنقطعة ص ١٠ .

الطَّائفتين قتلى كثير . فبلغ ذلك عبيْدالله فردَّ كتامة وأنكر عليهم ، فتفرَّق بنو الأغلَب وانصرفوا إلى دورهم ، فتركهم عبيْدالله ثم قبض عليهم فقُتلوا على باب رقَّادَة ، ثم تتبّع مَنْ بقى منهم فقتلهم . ولمّا استقامت الأمور لعُبيْدالله [٣٥] عَهِد إلى ولده أبى القاسم ، وخرجَتْ كتبهُ : مِنْ وَلِىِّ عهد المسلمين محمد بن عبيدالله .

ذكر أخبار مَن خالف على عُبيْد الله وماكان من أمرهم

قال : وبقيت[1] بقيّة من المنافقين علَيه ، فساروا[2] إلى بلد كتامة ، فأقامُوا غلامًا حَدَثًا من جبل أُورَاس من جهة أورسَّه[3] . وزعموا أنّه المهدىّ ، ثمّ نحلُوه النُّبوَّة ، وزعموا أنّ الوحى يأتيه ، وقالوا : أبو عبدالله حىٌّ لم يمت ؛ وأباحُوا الزّناء ، وأحلُّوا المحارم . وزحفوا إلى مِيلَة فأخذوها . فبلغ ذَلك عبيدَ الله[4] فأخرج إليهم ولىَّ العهد فى عسكر فحاصَرها مدَّة ، ثم قاتلوه فهزمَهُم حتى انْتهى بهم إلى البحر ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وأخذ الغُلامَ الّذى نصَبُوه فأَتَى به إلى أبيه ، فأمرَ بقتله ، فقُتل .

وخَالَف علَيه أهلُ طرابلس ، فأخرج إليهم عسكرًا مع أبى يوسف ، فحاصرها ، ثمّ انْصرف عنها ولم يفتحها ، فخرج إليها بعْد ذلك أبُو القاسم ، وقد قدّموا على أنفسهم ابنَ إسحاق القُرشى ، فكان خُروجُه يومَ الأحد

---

(١) « وتغيب » فى افتتاح الدعوة ص ٣٢٤ .
(٢) « فصاروا » فى افتتاح الدعوة ص ٣٢٤ .
(٣) « أو سنة » والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ١٠٧ ، ص ٣٢٤ .
(٤) « أبو عبيد الله » فى الأصل ، وهو تحريف .

لِلَيْلَتَيْن خلتَا من جُمادى الأولى سنة ثلاثمائة . فحاصَرها وَضيَّق على مَنْ بها حتى أكلوا الجِيَف ، ففتحُوا فى آخر شهر رجب من السَّنة ، فعفا عنهم ، لكنّه غرّمهم جميع ما أنفَق من مالٍ وغيرِه ، وكانت جملته ثلاثمائة ألف وأربعين ألف دينار ، وحمل وُجُوه رجالِهم معه إلى رَقَّادَة رهائن ، واستَخْلَف عليها ، وانصرف .

ذكر بناء مدينة المهديّة

وفى سنة ثلاثمائة (١) خرج عبيْدالله إلى تونس وقرطاجنة وغيرها ، يرتاد لنفسه موضعا على ساحل البحر يبتنى به مدينة ، فاختْار مَوْضِع المهديّة ، فأمَرَ ببنائها وتَحصينها بالسُّور وأبواب الحديد المحْكم ، فجُعل فى كلِّ مصراعٍ من الحديد مائةُ قنطار . وكان ابتداءُ الشُّروع فى بنائها فى يوم السّبت لخَمسٍ خلَوْن من ذى القَعدة (٢) من السنة . وانتقل إليها فى سنة ثمانٍ وثلاثمائة . قال : ولمّا عزم على الانتقال إليها ثَقُل ذلك على جنده ، فقال : نحن نَنْتَقِل إليها ونَدعُكُم بمكَانِكم ، وعمّا قليلٍ ستنتقلون . ففعَلُوا ذلك ، فماكان إلّا أنْ أرسل الله عليهم أمطارًا غزيرة ، فهدَمَت مساكنهم ، فسألوه النُّقلة إليها فأذن لهم .

وفى سنة ثلاث وثلاثمائة خرج ولىّ العهد أبوالقاسم إلى الدّيار المصريّة .

---

(١) هكذا فى الأصل ، وفى أخبار الدول المنقطعة ص ١١ ، ولكن ورد أن اختيار موقع المهدية والبدء فى بنائها كان سنة ٣٠٣ هـ فى كل من : الكامل جـ ٨ ص ٩٤ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧٠ .

(٢) « فى يوم الخميس لخمس خلون من ذى القعدة » فى أخبار الدول المنقطعة ص ١١ .

وكان خروجُه من رَقَّادة لستٍّ بَقِينَ من جُمادى الآخرة منها[1] ؛ وكان من أمره وأمر حباسة بن يوسف ووصولهما إلى الإسكندرية ما قدّمناه فى الحوادث فيما كان بين الدّولة الطُّولُونيّة والدّولة الإخشيدية .

ولما وصل حباسة إلى عبيدالله أمر بقَتله على ما كان من انهزامه .

ثم خرج أبوالقاسم بابنه إلى الديار المصرية . وكان خروجُه يوم الاثنين غُرّة ذى القَعدة ، سنة ستٍّ وثلاثمائة ، وَوصَل إلى الإسكنْدَرية فى شهر ربيع الآخر سنة سبعٍ وثلاثمائة ، فخرجَ عنها عامل المقتدر ، وملكها أبوالقاسم . ثمّ ملَك الفَيّوم والأشمونين ، وغير ذلك . وأقام نحو سنتين . ثمّ وقع الفَنَاء فى عسكره ، وماتت خيلُهم ؛ وجاء مُؤنس من بَغداد واجتمعت عليه العساكر كما ذكرنا ، فعجز عن قتالهم ، فرجع إلى أفريقية . وكان وصولُه إلى المهديّة لعشر ليالٍ مضيْنَ من شهر رمضان سنة تسع وثلاثمائة .

ذكر خروج أبى القاسم إلى بلاد المغرب [٣٦] وبنائه مدينة المسيلة

قال : وفى سنَة خمْس عشرة وثلاثمائة خرج أبوالقاسم ، ولىّ العَهد ، إلى بلاد المغرب فى عسكرٍ عظيم وكان خروجه من المهديّة فى يوم الخميس لسَبعٍ مضَيْن من صَفر منها ، ففتح مزاته ، وهوارة ، ومطاطة ، ولماية ،

(١) ورد هذا الحدث فى أحـداث سنة ٣٠١ هـ فى كل من الكامل جـ ٨ ص ٨٤ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٨ . وانظر ما سبق عن ذكر هذه الحوادث بعد انتهاء الدولة الطولونية .

وكل من خالطهم من الصُّفْرِيّة (١) والإبَاضيّة (٢) وبلغ إلى ما وَرَاء تاهرت (٣) . ولمّا انصرف من سفرته اختط مدينة المَسِيلة (٤) برمحه ، وأمر علىّ بن حمدُون الأويسى ببنَائها ، واستْعمله عَلَى المحمدية فبناها وحصَّنها ، وكانت خطّةً لبنى كملان فأخرجهم منها ، وأمرهم أن يرتفعوا إلى فَحْص (٥) القيروان ، وانتقل الناس إليها وعظم أمرها .

ذكر وفاة عُبَيْد الله المهْدىّ وشىء من أخبَاره

كانت وفاتُه ليلة الثّلاثاء ، النّصف من شهْر ربيع الأول (٦) ، سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ؛ وهو ابنُ ثلاثٍ وستّينَ سنة . وكانت إمارتُه منذُ وصل

---

(١) الصفرية : أصحاب زياد بن الأصفر ــ الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٧ .
(٢) الأباضية : أصحاب عبد الله بن إباض ــ الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٤ .
(٣) « تهرت » فى الأصل .
(٤) المسيلة : بالفتح ثم الكسر ، والياء ساكنة ولام ، مدينة بالمغرب تسمى أيضًا « المحمدية » ــ معجم البلدان .
ورود فى أخبار الدول المنقطعة « بنى عبد الرحمن المتسمى بالمغرب بمحمد المدينة المعروفة بالمحمدية » ص ١١ .
(٥) فَحْص ــ فحوص : كل موضع يُسكن ــ القاموس .
(٦) « فنعى صبيحة يوم الثلاثاء لعشر ليال خلون من جمادى الآخر » فى افتتاح الدعوة ص ٣٢٩ ، وفى طبعة أخرى « ربيع الآخر » ــ والافتتاح هو المصدر الوحيد الذى ضبط الوفاة فى شهر جمادى الآخر لا فى ربيع الأول ــ وقد يرجع السبب فى الاختلاف على تاريخ الوفاة إخفاء خبر موته لمدة سنة حتى يدبر ابنه أمره ــ انظر الكامل جـ ٨ ص ٢٨٤ .

إلى رَقَّادة إلى يوم وفاته أربعًا وعشرين سَنة وعشرة أشهر[١] وعشرين يومًا .

قال : ولمّا مات كَتَمَ ابنُه أبوالقاسم موتَه سَنَةً حتى دبَّر أمره .

أولاده : أبوالقاسم عبدالرحمن ، وليُّ عهده وتسمَّى بالمغرب محمدًا .

أبوعليّ أحمد ، مات بمصر للنِّصف من ذى القَعدة سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ودفن بالقصر .

أبوطالب موسى ، مات بمصر فى ذى القعدة سنة ثلاثٍ وستين وثلاثمائة ودفن بالقصر .

أبوالحسين عيسى ، تُوفِّى برَقَّادَة فى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة .

أبو عبدالله الحسين ، تُوفِّى بالمغرب فى أيّام القائم .

أبوسليمان داود ، تُوفِّى بالمغرب فى أيام القائم .

وكان له سبعُ بنات ، ومن السَّرارى أمّهات الأولاد ستّة .

قضاته : أبوجعْفر محمّد بن عمر[٢] المروروزى ، مات بعد أن عُزل فى سنة ثلاثٍ وثلاثمائة ، ثم إسحاق بن المنهال ؛ ثمّ محمّد بن محفوظ المصمودى ، مات فى المحرم سنة سبعٍ وثلاثمائة ؛ ثم محمّد بن عمران النفطى ، مات فى سنة عشرٍ وثلاثمائة ، ثم إسحاق بن المنهال ثانيًا .

---

(١) « وشهرا واحدا » فى افتتاح الدعوة ص ٣٣٠ ، و« شهرًا » فى الكامل جـ ٨ ص ٢٨٤ .
وما أورده النويرى يتفق مع ما سبق ذكره من أن المهدى دخل إلى رقادة « لعشر بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين » ـــ انظر ما سبق ، وانظر أيضًا اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧٣ .

(٢) « عمار » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع ما سبق .

حاجبه : جعفر بن على .

حامل مظلّته : [مسعود الصقلبى ، ثم غرس الصقلبى][(١)]

ذكرُ بيْعة القائم بأمْر الله

هو أبوالقاسم محمّد ، وقيل أبوالعبّاس ، ويدعى نزارًا ، وكان اسمُه بالمشرق عبدالرحمَن فتَسمى محمّد بن عبيدالله المهدىّ ، وهو الثّانى من مُلوك الدّولة العُبَيْدِيّة ؛ بايعَ لَهُ أبوه بولاية العهد كما تقدّم ، ثم جُدِّدت لهُ البَيْعةُ بعدَ وفاة أبيه بِسنة ، فإنّه كتَم وفاتَه سنةً كاملةً ، حتّى مَهَّد قواعدَ دَولته ، ثم أظهَرها . واستقلَّ بالأمر وهو ابنُ سبعٍ وأربعين سنة ، فقام مقَام أبيه ، واقتفى آثارَه ، وأظْهرَ عليه من الحزن ما لم يُسْمَع بمثله ووَاصَل الْحُزْنَ لفَقْده ، ولم يَرْقَ[(٢)] سريرًا ، ولا ركب دابةً منذ أفْضى إليه الأمر إلى أن مَات إلّا مَرّتين ، مرَّةً صلّى على جنازة ، ومرَّةً صلّى بالنّاس العيد . وافتُتِحت فى أيّامه مدائنُ كثيرةٌ من مُدُن الروم ؛ وثارَ عليه عدَّة ثُوَّار فتمكّن منهُم ؛ فكان مِمّن ثار عليه ابنُ طالوت القُرَشىّ ، فسارَ إلى ناحية طرابلس وزَعَم للبربر أنّه المهدىُّ فقامُوا معَه واتبعُوه ، فزحَفَ بهم على مدينة طرابلس فى عددٍ عظيم ، ثم تبيَّن للبربر أمره فقتلُوه ، وأتَوْا برأسه إلى أبى القاسم .

قال : وأوّلُ ما بدأ به أنه أمر باتّخاذ أنواع السّلاح فى سائر البلاد ،

---

(١) [ ] إضافة من أخبار الدول المنقطعة ص ١٣ لاستكمال النص ، والمظلة هى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، على أعلاها طائر من فضة ، مطلية بالذهب ، تحمل على رأس السلطان فى العيدين ، وهى من بقايا الدولة الفاطمية — صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٩ ، جـ ٤ ص ٧ ، ٨ .

(٢) «لم يرقد سريرا» فى افتتاح الدعوة ص ٣٣١ .

وأخرج ميسور(١) الصقلبى فى عددٍ عظيمٍ إلى المغْرب ، فانّتهى إلى مدينةِ فَاس ، وهزَم ابن أبى العافية ، وأخذ ابْنَه الثورى أسيرًا ، وأخرج بعدَ ذلك يعْقُوب بن إسحَاق على أُسْطولٍ عظيمٍ إلى بلد الرُّوم ، فافتتح بلد جنوة .

وكان مِمّن خرج عليه أبُو زيد مُخَلَّد بن كَيْداد(٢) ، فى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وهو رَجُلٌ إباضىّ ، يُظهر الزُّهد ، وأنَّه إنما قام عليهم غضَبًا لله . وكان لَا يَركَب غير حِمار ، ولا يلْبَس إلَّا الصُّوف . وكان بَيْنَهُما وقائعُ كثيرة ، فملك أبوزيد جميع مُدُن الْقَيْروان ، ولم يَبْق للقائم غير المهديّة ، فحاصرها أبوزيد إلى أن هلك القائم . وكان بيْنَه وبين ابنه المنصور ما نذكرُه إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة القائم بأمر الله [٣٧] وشىء من أخباره

كانت وفاته بالمهديّة فى يوم الأحد الثّالث عشرَ من شوّال سنة أرْبعٍ وثلاثين وثلاثمائة . ومولده بسَلمْية التى بالقُرب من مدينة حماة من الشّام فى المحرّم سنةَ ثمانين ومائتين(٣) . وكان عُمره أربعًا وخمسين سنة وتسعة أشهر ، ومدة ملكه ثنتى عشرة سنةً وستّة شهور وأيّامًا .

أولادُه : كان لهُ من الأولاد الذّكور سبعة ، وهم : أبوالطاهر إسماعيل قام بالأمر بعده ؛ وأبوعبدالله جعفر ، تُوفّى فى أيّام المعزّ ؛ وحمزة ،

---

(١) « منشورًا الصقلبى » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من افتتاح الدعوة ص ٣٣٢ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧٦ .

(٢) من قبيلة زناته من مدينة توزر — اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٧٥ ، وفيه « أبو يزيد مخلد » .

(٣) « ولد بسلمية سنة سبع وسبعين ومائتين ، وقيل ولد فى المحرم سنة ثمان وسبعين » — كنز الدرر جـ ٦ ص ١١٠

وعدنان . وأبو كتامة قَضَوْا بالمغرب ؛ ويوسف ، مات ببَرقة سنة اثنتين وستّين وستّمائة ؛ وأبو القَرَان عبدالجبار ، تُوفّى بمصر فى سنة سبعٍ وستّين وثلاثمائة ، وأربعُ بنات وسبْع سَرَارٍ .

قضاته : إسحاق بن أبى المنهال إلى أن تُوفّى ؛ ثم أحمد بن بحر إلى أنْ قتله أبو زيد (١) لمّا فتح إفريقية فى صفر سنة ثلاثين ؛ ثم أحمد بن الوليد ، ولَّتْه الرَّعيّةُ فأقره .

حاجبُه : جعفر بن على حاجب أبيه .

ذكر بيعة المنصور بنصرالله

هو أبوالطّاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله بن عبيْدالله المهدىّ ، وهو الثالث من ملوكهم . بايع له أبُوه القائم بأمْر الله فى حياته ، وولّاهُ حرْبَ أبى(٢) زيد ؛ وهَلك أبُوه القائم بأمر الله ، فأخْفى إسمَاعيل موته ، وناصب أبَا زيد حتّى رجَع إلى المهْديّة ، وتوجَّه أبوزَيد إلى سُوسَة فحاصرَها ، فأدركه المنصُور إسماعيل فطرده عنها ؛ ووَالَى عليه الهزائم إلى أن أسَرَه فى يوم الأحد لخمسٍ بَقِين من المحرَّم سنة ستٍّ وثلاثين وثلاثمائة ؛ فمات بَعْد أسره بأربعة أيّام من جراحةٍ كانت به ، فأمَرَ المنصُور بسَلْخهِ ، وحَشَى جِلْدَه قُطنًا، وصَلبَه . وبنى مدينتَه المسمَّاة بالمنصُوريّة فى موضع الْوقْعةِ ، واستوطنها فى سنة سبعٍ وثلاثين وثلاثمائة .

---

(١) « أبو يزيد » فى أخبار الدول المنقطعة ص ١٧ .

(٢) « ابن » فى الأصل . والتصحيح يتفق مع ما سبق .

وكان المنصُور شجاعًا بليغًا يرتجلُ الخطب . حكى المَرْوَرُوذِىّ قال : خرجت مع المنصُور يومَ هُزم أبو زيد ، فسايَرتُه وبيده رمحان[١] فسقط أحدهما مرارًا وأنا أمسحُه وأناوِلُه إيّاه وتفاءلْت له بذلك . فأنشدت :

فألْقَت عصاها واستَقرَّ بها النَّوى كما قرَّ عينًا بالإيـاب المسَافِـر

فقال : ألَا قلتَ ما هُو خيرٌ من هذا وأصدق ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾[٢] .

ذكر وفاة المنصُور بنصْرالله وشىء من أخباره

كانت وفاتُه فى يوم الجمُعة آخرَ شوّال سنةَ إحدى وأربَعين وثلاثمائة . وكان سببُ وفاتِه أنّه خرج فى شهْر رمضانَ من السَّنة إلى جَلُولاء[٣] ومعه جاريتُه قضيب ، وكان يحبُّها ، فجاءَ مطرٌ عظيم وَريحٌ شَديدةٌ بجلولاء واشْتدّ البردُ بها ؛ فخرجَ منها على فرسٍ وقَضِيبُ فى عَمازيه وهو يريد المنصُوريّة ، ودَامَ عليه المطَر والبرْد .

قال أبو الرَّقيق : أخبرنى مَنْ كان معَهُ ، قال : كنَّا ننظُر إلى العبيد السُّودَان على الطريق قُعودًا فنتأمّلُهم فنجدُهم موتَى ، وقد جَفُّوا من البرد . ووصل المنصور إلى قَصره آخرَ النّهار ، فدخل الحمّام ، فاعتَلَّ لِوَقته . وصلّى العيدَ

---

(١) « ريحان » فى الأصل ، والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة ص ١٩ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٨٨ .

(٢) سورة الأعراف الآيات ١١٧ ــ ١١٩ .

(٣) جلولاء : مدينة بأفريقية ، بينها وبين القيروان ٢٤ ميلاً ــ معجم البلدان .

بالنّاس فى مَبَادِئ عَلّته ، ثم اشْتدّت به ، فمات فى التّاريخ [المذكور] [١] ، وأوصى ابنه أنْ يمنع من النَّوْح عليه .

وكان مولدُه بالقَيْروان ، فى سنة اثنتَين وثلاثمائة ، وكان عمُره أربعين سنة .

وقال ابنُ الرّقيق : إنّه وُلد برَقَّادَة فى سنة إحْدَى وثلاثمائة ، وكان عمُره أربعين سنة تقريبًا . ومدَّة ملكه سَبْعُ سِنين وأيّام [٢] .

أولاده الذكور خمسة ، وهم : أبو تميم معدّ ، وهاشم ، وحيدرة ، ماتَ بمصر سنة اثنتَين وثمانين وثلاثمائة ، وأبو عبدالله الحسين ، وأبو جعفر طاهر . وكان له خمسُ بنات ، وثلاثُ أمّهات أولاد .

قضاته : أحمد بن محمد بن الوليد ، ثم محمد بن أبى المسطور ، ثم عبدالله بن هاشم ، ثم على بن أبى شعيب ، عَلَى المنصُوريّة . ثُم أبو محمد زُرارة بن أحمد ، ثم أبوحَنيفةَ النّعمان [٣] بن محمّد التّيْمى .

حاجبه : جعفر بن على ، حاجب أبيه وجدّه .

[٣٨] ذكر بيعة المعزّ لدين الله

هو أبو تميم معدّ بن المنصُور بن القائم بن المهدىّ ، وهو الرّابع من مُلُوك الدّولة العُبَيْديّة . وأول من مَلَك مصر والشّام منهم .

---

(١) [ ] إضافة تتفق مع السياق .

(٢)« وستة أيام » فى أخبار الدول المنقطعة ص ١٩ .

(٣)هو صاحب كتاب افتتاح الدعوة .

صار الأمرُ إليه ببلاد المغرب بعد وفاة أبيه المنصور ، فى آخر شوال سنة إحدَى وأربعين وثلاثمائة ، فدبَّر الأمُور وأحكَمها إلى يوم الأحد السّابع مِنْ ذى الحجة من السنة ، فجلَس على سرير الملك ، ودل عليه الخاصّة وكثيرٌ من العامَّة فسلّموا عليه بالخلافة ، وتلقَّب بالمعزّ لدين الله . ولم يُظْهر على أبيهِ حُزنًا ؛ وكان عمرُه يوم وَلِىَ أرْبعًا وعشرين سنة . وأرسل إلى جميع مَنْ بالمهديَّة من عُمُومته وعُمُومة أبيه ، فأتَوْه وسلَّموا عليه بالإمارة ، فأخذ عليهم البيعة ، ومشَوْا بين يديه رجَّالَةً ، وأرضاهم بالمصلّاة . واستقام له الأمر . وصلّى بالنّاس عيد الأضحى ، ثم صرفَهُم إلى المهديّة .

ودخل فى طاعته مِنَ العُصاة مَنْ عَصى على غيره ممّن كان بجبل أوراس من بنى كملان ومليلة ، وهما من قبائل هَوّارة .

ثمّ بعث القائدَ جوهرًا فى يوم الخميس لِسبعٍ خلَوْن من صَفر ، سنة سبعٍ وأربعين وثلاثمائة ، فى جيشٍ عظيم إلى المغرب ، فسار حتّى بَلَغ البحر المحيط ، فأمر أن يُصَاد من سَمَكِه ، وجعلَهُ فى قُلَّةٍ وجعل فيها الَماء ، وحملَها إلى المعزّ صُحْبة البريد ؛ وجعل فى باطن كتابه من ضريع البحر . وعاد وفتَح فاس يوم الخميس لعشرٍ بَقِينَ من شهر رمضان سنة ثمانٍ وأربعين وثلاثمائة ؛ واستَخلَف عليها وعلى سجِلْمَاسة وتاهرت وعاد جوهرٌ من المغرب إلى رَقَّادَة يوم الجمعة لاثنتَىْ عشرة [ليلة][1] بقيت من شعبان .

وفى سنة خمسين[2] وثلاثمائة ، فى النّصف من المحرّم ، غلبت الرّوم على

---

(١) « ليلة » إضافة يقتضيها السياق .
وانظر تفصيلات فتوحات جوهر بالمغرب فى : أخبار الدول المنقطعة ص ٢١ ـ ٢٣ ، الكامل جـ ٨ صفحات ٤٩٨ ـ ٤٩٩ ، ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥ .
(٢) « خمس » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسير الأحداث .

جزيرة إقريطش[١] ، ففتحوا المدينة وقتلوا مِنْ أهلها مائتى ألف رجل وسَبَوْا مِن النساء والصِّبيان مثل ذلك ، وحرَّقوا المصَاحف والمساجد ؛ وكانُوا قد أتَوْا فى سبعمائة مركب .

وفى سنة إحدى وخَمْسين وثلاثمائة بعثَ المعزّ لدين الله عُمّاله من بَرْقة إلى سجِلْماسَة ، إلى جزيرة صقلّية ، وأمرهم أن يكتُبوا جميعَ الأطفال الّذين فى أعمالِهْم من الخاصَّة والعامَّة ليُختَنوا مع أوْلاده ، فبلغُوا عدَّةً لا تُحصى . فلمّا كان فى أول يَوم منْ شهر ربيع الأول من هذه السنة ابتدأ بطُهور أولاده وأهْل بيته وأولاد خاصَّته من الكُتّاب ورجال الدّولة وغيرهم ، وأعطاهم الصِّلات والكساوى . قال : وازْدَحم النّاس فى يوم الاثْنَين لإحدَى عشرةَ [ليلةً][٢] خلت من شهْر ربيع الأول فمات من الرّجال مائة وخمسون نفسًا .

وفى سنة خمسٍ وثلاثمائة أمر المعزّ لدين الله بحَفْر الآبار فى طريق مِصْر وأن يُبنى لَهُ فى كلّ موضعٍ يُقيم به قُصور ، فأخذُوا فى عمل ذَلك ، حتّى تمّ ، وفى يوم الجمُعة لِلَيْلةٍ بقِيَت من جُمادى الآخرة ، سنةَ سبعٍ وخمسين ، وردت النُّجُبُ من مِصْر بوفاة كافور الإخشيدى ، وكانت وفاتُه لعشرٍ بقينَ من جُمادى الأولى . كما تقدم .

---

(١) أقريطش : بفتح الهمزة وتكسر ، جزيرة فى بحر المغرب ، يقابلها من أفريقية لوبيا ــ معجم البلدان ، وهى حاليًا جزيرة كريت بالبحر المتوسط .
ونجح البيزنطيون فى استرداد جزيرة كريت والاستيلاء على عاصمتها سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١م ــ بعد حصار دام ثمانية أشهر ، وذلك فى عهد الإمبراطور البيزنطى رومانوس الثانى وتحت قيادة نقفور فوقاس ــ المسلمون والبيزنطيون ص ١٢٤ .

(٢)] إضافة تتفق والسياق .

ذكر خبر إرسال القائد جوهر الكاتب بالعساكر إلى الدّيار المصريّة

وفى سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة قَدِم القائدُ جوهر من المغرب بعَسْكرٍ عظيم من كتامَة والجند والبربر ؛ فأمرهُ المعزُّ بالاسْتعداد والخُروج إلى مصر. فأقام بقصر الماء بالقُرب من المنصُوريّة ليجتمع إليه الحشود ؛ وفتح المعز بيْتَ المال وَوضَع العطاء .وحَشَد من إفريقية من الكتاميين والزويليين والجند والبربر ، وأعطى من مائة دينار إلى عشرين دينارًا حتى عمَّهم بالعطاء ، وتصرفوا فى القيروان وصبره فى ابتياع ما يحتاجُون إليه ، ثم أمر المعزُّ بالرَّحيل ، فرحل فى يوم السّبت لأرْبَعَ عشرةَ ليلةً خلت من شهر ربيع الأول منها . وفارقه خمسمائة فارس من البربر ، فجرَّد خلفَهُم عدّةً من الوُجوه فلم يَرْجعوا ؛ فقال المعز : الله أكرَمُ أن ينصرَنا بالبَرْبَر ، ثم سار جوهر بجميع مَنْ معه من العساكر ، ومعه ألف حمل من المال ، ومن السلاح والعُدَد والكراع ما لايوصف ، وأَغَذَّ السير حتى أقبل على الدّيار المصرية .

[٣٩] ذِكر خبر وصُول جَوْهر القائد بالعسَاكر إلى الدّيار المصرية

وما كان بينه وبين الإخشيدية والكافورية من المراسلة فى طلب الأمان وتقريره الصّلح

ونكثهم وقتاله إياهم إلى أن ملك الدّيار المصرية واختط القاهرة .

قال ابن جلب[١] راغب فى تاريخ مصر : وفى جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة وردَت الأخبار إلى مصر بقدوم القائد جوهر ، فاضطرب المصريون لذلك اضطرابًا شديدًا ، ووقع اتّفاقُ أرباب الدّولة بحَضْرة الوزير جعفر بن الفَضل على مُراسَلته فى الصُّلح وطلب الأمان ، وإقْرارِ ضِيَاعهم وعمالهِم فى إيديهم . فراسَلُوه فى ذلك.واشْتَرط نحرير سويران[٢] ألّا يجتمع مع القائدِ جَوْهر ، وأن يكون له الأشْمونين إقطاعًا ، وتَقلُّدَ مكّة والمدينة ، ويَتَوجّهُ فيقيم بالحجاز ، وسألوا الشّريف أبا جعفر مُسلم الْحسَنى فى المسيرِ برِسَالتهم إلى جَوْهر ، فأجابهم ، وشَرَط أن يكون معَهُ جماعةٌ من الأعْيَان ، فجهَّزوا معه أبا إسماعيل إبْراهيمَ بن أحمد الزّينبى ، وأبَا الطيّب العباس بن أحمد العبّاسى والقاضى أبا طَاهر ، وغيرهم . وكتَب الوزير كتابًا بما يُريد .

وسار أبوجعفر بمَنْ معهُ فى يوم الاثْنَين لاثْنَتَىْ عشرة ليلةً بَقِيَتْ مِن شهْر رجب من السَّنة ، وقيل لِلَيْلةٍ بقيت منه ، فلَقِى القائدَ جوهرًا قد نزل بتَرُوجَه فاجتمعُوا به فبالغ القائدُ فى إكرام الشّريف ، وأدى الشّريف إلَيْه الرسَالة وأعطاه كتُب الجماعة ، وعرَّفَه ما التمسوه ، فأجابَهُم إلى ذلك ، وكتب كتابًا بالأمان نُسخَتَهُ .

« بِسْمِ الله الرَّحْمٰنِ الرَّحيم . هذا كتابٌ من جوهر الكاتب ، عبد أمير

---

(١) هو محمد بن على بن يوسف بن جلب راغب ، المعروف بابن ميسر ، والمتوفى سنة ٦٦٧ هـ/١٢٦٨ م ــ المنهل الصافى .
وكتابه : أخبار مصر ، نشر حديثا بالقاهرة بتحقيق أيمن فؤاد سيد ، وصدر عن المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٨١ بعنوان : المنتقى من أخبار مصر » .
وسوف نشير إلى ما يوجد فى هذه الطبعة فى هذا الجزء من نهاية الأرب .

(٢) « نحرير الشوبزانى » فى وفيات الأعيان ــ فى ترجمة جوهر ــ جـ ١ ص ٣٧٨ ، « ابن الشويزانى » فى النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣٠ .

لمْ يكُنْ إخراجُه هذه العَساكر [١] المنصُورة ، والجيوش المظفّرة ، إلا لِمَا فيه إعزازُكم وحِمايتُكم ، والجهادُ عنكم ؛ إذْ قد تخطفتكم [٢] الأيدى ، واستطال عليكم الْمُشرِك [٣] ، وأطمعَتْه نفسُه بالاقتدار على بلادكم [٤] [فى هذه السنة ، والتغلب عليه ، وأسر من فيه] [٥] والاحتواء [٦] على نَعَمِكم وأمْوالِكُم ، حسب ما فعله فى غيْركم مِنْ أهل بلدان المشْرق ، وتأكّدَ عزمُه واشتدّ كلبه ، فعاجَله مَوْلانا وسيّدُنا أمير المؤمنين ، صلواتُ الله عليه ، بإخراج العساكر المنصورة وبادَرَه بإنفاذ الجيوش المظفَّرة لتقاتله [٧] دُونكم ، وتجاهدَهُ [٨] عَنكم وعن كافّة المسّلمين ببَلَد المشرق ، الّذين عمَّهم الخزْى ، وعلَتْهم [٩] الذِّلّة ، واكْتَنَفَتْهم المصائب ، وتتابعت لَدَيْهم [١٠] الرّزايا ، واتَّصلَ عندهُم الخوف ، وكثُرت استْغاثتهم ، وعظم ضجيجهم ، وعَلَا صياحهم [١١] ، ولم يُغِثْهم [١٢] إلّا مَنْ أرْمَضَهُ [١٣] حالُهم ، وأبكى عنَه ما نَالُهم ، وأسْهَرَه [١٤] ما حلّ بهم ، وهو مولانا وسيِّدُنا [فرَجَا بفضل الله ،

---

(١) « للعساكر » فى اتعاظ الحنفا ص ١٠٤ .

(٢) « تخطفكم » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا .

(٣) « المستذل » فى اتعاظ الحنفا .

(٤) « بلدكم » فى اتعاظ الحنفا .

(٥) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا .

(٦) « والاحتبا » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا .

(٧) « لتقاتله » ساقط من اتعاظ الحنفا .

(٨) « ومجاهدته » فى اتعاظ الحنفا .

(٩) وشملتهم » فى اتعاظ الحنفا .

(١٠) « لديهم » ساقط من اتعاظ الحنفا .

(١١) « صراخهم » فى اتعاظ الحنفا .

(١٢) « فلم يغثهم » فى اتعاظ الحنفا .

(١٣) « إلا من أرمضه أمرهم ، ومضه حالهم » فى اتعاظ الحنفا .

(١٤) « وأسهرها » فى اتعاظ الحنفا .

المؤمنين المعزّ لِدِين الله صَلَوات الله عليه ، لجماعة أهل مصرَ منَ السّاكنين بها وبغَيْرها [١] .

إنّه قد وَرَد منْ سألتمُوه الترسُّل إلىَّ والاجتماع مَعى ، وهم [٢] : أبوجعفر الشّريف أطال الله بقاءه ، وأبوطاهر إسماعيل الرئيس [٣] ، أيّده الله ، وأبوالطيب الهاشمىّ ، أيّده الله . والقاضى أبو طاهر [٤] أعزه الله ، وأبوجعفر أحمد بن نصر أعزه الله .

فذكرُوا عنكم أنّكم التمستُم كتابًا يشتملُ على أمانِكمْ فى أنفُسِكم وأموالكم ، وبِلادِكم ونَعَمِكُم [٥] وجميع أحوالكم ؛ فعرَّفتهُم ما تقدَّم به أمرُ مولانا وسيدّنا أمير المؤمنين ، صلواتُ الله عليه ، مِن نَصْرِه لكم [٦] .

لتَحْمَدوا الله [٧] تعالى على ما أوْلاَكم وتحمدُوهُ على ما حباكم [٨] ، ولْتَدْأَبُوا [٩] فيما يلزمكم ، وتُسَارِعُوا للطَّاعة [١٠] العَاصِمة لكم ، العائدة بالسَّعادة عليكم ، المقْضِيَة بالسلامة لكم [١١] ، وهو أنّه صلواتُ الله عليه ،

---

(١) « أهل مصر الساكنين بها ، من أهلها ، ومن غيرهم » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٠٣ .

(٢) « وهو » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا ، ويتفق مع السياق .

(٣) « الرسى » فى اتعاظ الحنفا .

(٤) « أبو طاهر » ساقط من اتعاظ الحنفا .

(٥) « ونعمكم » ساقط من اتعاظ الحنفا .

(٦) « وحسن نظره لكم » فى اتعاظ الحنفا .

(٧) « فلتحمدوا الله » فى اتعاظ الحنفا .

(٨) « وتشكروه على ما حماكم » فى اتعاظ الحنفا .

(٩) « وقد أبوا » فى اتعاظ الحنفا .

(١٠) « إلى طاعته » فى اتعاظ الحنفا .

(١١) « العائدة بالسلامة لكم ، وبالسعادة عليكم » فى اتعاظ الحنفا .

وإحسانه لديه ، وما عوّده وأرجاه عليه ، استنقاذَ من أصْبَح منهم فى ذلٍّ مقيم ، وعذاب أليم][1] أميرُ المؤمنين ، صلوات الله عليه ، وأن يُؤمِّن من استولى عليه المهل [2] ويفرخ روع مَنْ لم يزل فى خَوفٍ ووَجل . وآثر إقامَة الحجّ الذى تعطَّل ، وأهمَل العبادُ فروضَه وحقوقه ، لِلْخوفِ [3] المستولى عليهم ، و[إذ] [4] لا يأمنون على أنفسِهم ولا على أموالهم ، [و] [5] إذ قَدْ وقعَ [6] بهم مرّةً بعد أخرى ، فسُفكت دماؤُهم .

وأطال جوهر فى كتابه[7] ، وحضّهم على الطّاعة ، وأشْهد عليه الشُّهُود فيه ، وخَلعَ على الجماعة ،وحملهم .

قال : ولما توجّه الشريف وَمَنْ معه إلى القائد جوهر ، اضطرب بعْدَه البلدُ اضطرابًا شديدًا ، وأخذت الإحشديّة والكافوريّة فى إخراج مضاربِهم ، وقام رجل من أهل بَغْداد،يعرف بابن شعبان ، يومَ الجمعة فى المسجد قبْل الصّلاة فقال : أيها النّاس قد أظلّكُم من أخْربَ فَارس وسَبَى أهلها ، وذكر ما حلّ بأهل بلاد المغرب منه ، وقال : القوا الرّجل القليلَ المعرفة،يعنى الوزيرَ جعفر ابن حنزابة ، فإنّه قد شرَع فى إتلاف بَلدِكم وسَفْك دمائكم بمراسلة هذا الرّجل،يعنى القائدَ جوهرًا ، فسمع النّاس كلامَه ،

---

(١) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا .

(٢) هكذا فى الأصل ، وفى اتعاظ الحنفا ، ورجح محقق اتعاظ الحنفا أن تكون « الوهل » بمعنى الفزع .

(٣) « لخوف » فى اتعاظ الحنفا .

(٤) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا .

(٥) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا .

(٦) « أوقع » فى اتعاظ الحنفا .

(٧) انظر بقية الكتاب فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٠٤ ـ ١٠٧ .

ورجعوا عما سألوه من الأمان . وبلغ الشّريفَ ومَنْ معه انتقاضُ الإخشيديّة والكافوريّة ، وعزمهُم على القتال ، فكتموه عن القائد جوهر خوفًا أن يعتقلهم ، وبادَرُوا [٤٠] بالعَوْد وساروا . فبلغَ القائدَ ذلك بعد رحيلهم ، فردَّهم ، وقال : قد بلغنى أنّ القوْم قد نقضُوا ورجعوا ، فردُّوا علىَّ خطّى فرفقوا به ودارَوْه ، وقالوا : إذًا يُظْفِرُك الله وينصرُك . فقالَ لِلقَاضى : ما تقولُ فيمن أراد [أن](١) يشقّ مدينةَ مصر فيجعلها طريقًا لجهاد المشركين والحجِّ إلى بيت الله الحرام ؟ فمنعوُه ، من الجوازِ له أن يقابلهم . فقال : نعم ، اكتب خطّك بذلك(٢) .

ثم سار الشريف ومَنْ معَه إلى مِصر فوصلوها لسبعٍ خلَوْن من شعبان ، فركب الوزيرُ والنّاس إليهم ، واجتمع الإخشيديّة والكافوريّة وغيرهم ، فقرأ عليهم السّجل الذى كتبه القائد ، وأوصل إلى كلِّ واحدٍ جوابَ كتابه بما أرادَ من الأمان والولاية والإقطاع . فلما قرءُوا الكتب خاطبوا الشّريف بخطابٍ طويل ؛ فقال نحرير ما بيننا وبينه إلّا السيف فقدَّمُوا عليهم نحرير سويرَان ، وعبأوا عساكرهم ، وعدّوا إلى الجيزة والجزيرة ، وحفِظُوا الجسور .

ووصل جَوْهَر ، وابتدأ القتال بيْنَهم فى حادى عشر شعبانَ . ثمّ مضى القائدُ جوهر بعدَ ذَلك إلى مُنْيَة الصّيادين(٣) ، وأخذ المخاضة بمُنْيَة شلقان واستّأمن إليه جماعةٌ من أهل مصر وغلمانهم فى مراكب ، ووَقَعَ القتال ،

---

(١) [ ] إضافة تتفق وسياق الكلام .

(٢) « فقال : ما تقول فيمن أراد العبور إلى مصر ليمضى إلى الجهاد لقتال الروم فمنع ، أليس له قتالهم ؟ ، فقال له القاضى : نعم ، فقال : وحلال قتالهم ؟ ، قال : نعم » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٠٨ .

(٣) منية الصيادين : من القرى القديمة ، وهى حاليًا جزء من وراق الحضر ، التابعة لمركز إمبابة بمحافظة الجيزة ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ٣ ص ٦٥ .

وزحف جَعْفر بن فَلاح ، بالرجال ، وقاتل عساكِرَ مصر ، ووقَعَ القتلُ فى الإخشيديّة والكافوريّة فانهزَمُوا ليلاً ودخلوا مِصْر وأخذوا مَا فى دُورِهم ، وسارُوا إلى الشّام .

قال : ولما انْهزمَ رَكِبَ الناس إلى دار الشّريف أبى (١) جعفر مسلم وسألوه كِتابًا إلى القائد جَوْهر بإعَادة الأمان عليهم ؛ فكتب كتابًا إليه يهنّئه بالفتح ، وسأله إعَادَة الأمان للمصريّين ؛ فكتب القائدُ أمانًا وبعثه إلى الشّريف ، فقرأه على النّاس ، وهو :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وصل كتاب الشّريف ، أطال اللهُ بقاءه وأدَامَ عِزَّه وتأييدَه وتمكينَه (٢) ، يهنّئُ بما هيأه الله (٣) من الفتح المبارك (٤) ، « وهو ، أيّده الله ، المهنأ بذلك لأنها دَوْلتُه ودولة أهله ، وهو المخصُوص بذلك » (٥) وأمّا ما سأل من الأَمان وإعادَةِ الأمان الأول ، فقد أُعيدَ إليه ما طلب ، وجعلت إليه عن مولانا وسيدِنا أمير المؤمنين ، صلواتُ اللهُ عليه ، أن يُؤمّن النّاس كيف شاء بما شاء (٦) . وقد كتبتُ إلى الوزير ، أيده الله ، بالاحتياط على بيوت (٧) الهاربين إلى أنْ يدخلوا فى الطّاعة ، وما دَخلت فيه

---

(١) « ابن » فى الأصل ، والتصحيح مما سبق .

(٢) « وعلوه » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٠ .

(٣) « وهو المهنأ بما هنأ به » فى اتعاظ الحنفا .

(٤) « الميمون » فى اتعاظ الحنفا .

(٥) « » ساقط من اتعاظ الحنفا .

(٦) « فوقفت على ما سأل من إعادة الأمان الأول ، وقد أعدته على حاله ، وجعلت إلى الشريف — أعزه الله — أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب — ويزيد على ما كتبته كيف يشاء ، فهو أمانى ، وعن إذنى وإذن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٠ .

(٧) « دور » فى اتعاظ الحنفا .

الجماعة (١) ، ويعمل الشّريف أيّده الله ، على لقائى فى يوم الأحد لأربعَ عشرةَ ليلةً تخلو من شعبان (٢) بجماعة الأشراف والعُلماء والثناء ، وأهل البلدان إن شاء الله تعالى » .

فقرأ الشريف الكتاب على الناس وسكّنهم وهدّأهم ، ففتحوا البلد ، وأخذ النّاسُ فى التجهُّز إلى لقاء القائد جوهر ، وقتل نحرير وميسر وبلال ويمن الطويل ، وجيءَ برُءُوسهم إلى القائد .

قال : وخرج النّاسُ إلى الجيزة والْتقَوْا القائد ، فنادى منادٍ ينزل النّاسُ كلُّهم إلا الشّريف والوزير ، ففعلُوا ذلك ، وسلّموا عليه واحدًا واحدًا ، وأبوجعفر أحمد بنُ نَصر يعرِّفُه بالنّاس ، والشّريف أبوجعفر مسلم عن يمينه ، وأبوالفضل الوزير عن يساره .

فلمّا فرغ السّلام انصرف النّاس ، وابتدأ العسكرُ فى الدُّخول منذُ زوال الشّمس ، فعبرُوا الجسْر بالدُّرُوع والجواشن (٣) ، ودخل القائدُ جوهر إلى المدينة بعد العصر من يوم الثلاثاء لاثنتى عشرةَ ليلةً بقيت من شعبان ، سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة ، والبنود (٤) والطّبول بين يديه ، ونزلَ الموضعَ الذى اختطّ فيه القاهرة واختط القصر .

---

(١) « إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ، ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة» فى اتعاظ الحنفا .

(٢) « فى يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلو من شعبان » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٠ .
والمرجح ما أورده النويرى ، فقد اتفقت المصادر على أن دخول جوهر إلى المدينة « بعد العصر من يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شعبان » انظر ما يلى .

(٣) الجوشن ــ الجواشن : مثل الزرد يلبس على الظهر ، ولكنه يتكون من حلقات تتداخل فيها صفائح رقيقة . صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٣ .

(٤) البنود : جمع بند ـ فارسى معرب ، وهو العلم الكبير ، ويذكر ابن خلكان أن هذا البند كان أبيض اللون ــ صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٩ ، وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٧٩ .

وأصبح المصريُّون حضَرُوا إليه للهناء ، فوجدوه قد حفر أساس القصر فى تلك اللّيلة . قال : ولم يكن فى المكان عمارة ألْبتّة إلّا بستان كافور . ولم يزل هذا البستان على حالتِه إلى سنة خمسٍ وأربعين وستمائة فعمر مكانه مساكنُ وهو الخطّ الذى يُعْرف الآن بالكافوُرىّ (١) .

قال صاحب كتاب خطط (٢) مصر : لمَّا دخل جوهر القائد واختطّ القاهرةَ قرّر كلَّ جانب منها على أميرٍ من أمراء عَسْكره وأرصدَهُ لبناء تلك (٣) الحارة حَسْبَما أمره المعزّ لدين الله فسميت كلُّ حارةٍ باسم مُقَدَّمها أو الطّائفة التى نزَلَت بها . وابتدأ بالعَمارَة فى شهر رَمَضان من السنة (٤) .

قال المؤ رخ : ودخل القائدُ جوهر مِصْر ، وبين يديه ألفٌ ومائتا صندوق مالاً (٥) ، وأقام عسكرُه يَدْخُل سبعةَ أيّام . وبعث إلى مولاه المعزّ لدين الله يبشِّرهُ بالفتح .

قال : ولما دخل القائدُ مِصر كان الغلاءُ بِها ، فنادَى مُنادِيه : مَنْ عِنْدَه قمح فَلْيُخرجْه . وفرَّق الصّدقات على النّاس ، وأقرّ أبَا الفضل على الوزارة ،

---

(١) بستان الكافورى : أنشأه الأمير محمد بن طغج الإخشيد ، فلما جاء جوهر إلى مصر جعل هذا البستان من داخل القاهرة ، وعرف ببستان كافور ، ثم اختط مساكن بعد ذلك — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٥ .

(٢) هو أحمد على بن عبد القادر ، تقى الدين المقريزى ، المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١ م — وصاحب كتاب : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

(٣) « ذلك » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسياق الكلام .

(٤) انظر ذكر بناء القاهرة وما كانت عليه فى الدولة الفاطمية — المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٢٦١ ومابعدها .

(٥) « ويقال إن المال كان فى ألف وخمسمائة صندوق » — اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١١ .

وجهَّز جعفر[1] بن فَلاحٍ إلى الشّام .

ذكر إقامة الخُطبة ، وضرب السكة بمصر ، [٤١] للمعزّ لدين الله وما قيل فى الدعاء له على المنبر ، وما نقش على السِّكة

وفى يوم الجمُعة لعشرٍ بَقِينَ من شعبان من السّنة ركب القائدُ جوهر إلى المسجد الجامع العتيق[2] لصَلاة الجمعة ، ولإقامة الدّعوة ، فى عسْكرٍ كثير . وخطب هبةُ الله بن أحمد خليفَة عبدالسميع بن عُمير العَبّاسى ، لغيبة عبدالسميع ، فخطب وعليه البياض ، ودعا للمعزّ لدين الله ، وقال فى دُعائه فى الخطبة الثّانية :

اللّهم صلِّ على عَبْدك ووَليِّك ، ثمرة النُّبوَّة ، وسليل العِتْرة الهادِيَة المهديَّة ، عبدالله الإمام مَعدّ أبى تميم المعزّ لدين الله ، أمير المؤمنين ، كما صلَّيت على آبائِه الطاهرين وأسلافه المُنْتَخَبِين[3] ، الأئمة الراشدين . اللهم ارفع دَرَجته ، وأَعْلِ كلمته ، وأوضِحْ حُجَّته ، واجْمَع الأمَّة على طاعته ، والقلوبَ على مُوالَاتِه [وصحبته][4] ، واجعَل الرَّشاد فى مُوافقته ، وَورِّثْه مشارقَ الأرضِ ومغاربَها ، وأَحْمِدْهُ مبادئَ الأُمور وعواقِبَها ، فإنك تقولُ وقولُك

---

(١) هو جعفر بن فلاح الكتامى ، أبو على ، أحد قواد المعز ، قتل على يد القرامطة سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠ م - وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٦١ رقم ١٣٨ ، الإشارة ص ٣٠ ـ ٣٢ .

(٢) هو جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٤٦ .

(٣) « المنتخبين » ساقط من اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٤ .

(٤) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٥ .

الحق ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبَادِىَ الصَّالحُونَ ﴾[١] فلقد امْتَعض[٢] لِدينكِ ، ولما انْتُهك من حرمتك[٣] ، ودَرَس من الجهاد فى سبيلك ، وانقطع من الحجِّ إلى بيْتك ، وزيارةِ قبرِ رسولِك صلى الله عَلَيْه [وسلم][٤] وأعدَّ للجهاد[٥] عُدَّته ، وأخذ لكل خطْبٍ أُهْبَتَه فسيَّر الجيوشَ لِنَصرك[٦] ، وأنفق الأموال فى طَاعَتِكَ ، وبَذَلَ المجهود فى رضاك ، فارْتَدَع الجاهل ، وقَصُر المُتَطَاول ، وظَهَر الحقُّ وزَهَقَ البَاطِلُ . فانصُر اللَّهم جيُوشه التى سيَّرها ، وسراياه التى انْتَدَبها لقتال المشركين [وجهاد الملحدين، والذب عن المسلمين ، وعمارة الثغور والحرم][٧] وإزالَةِ الظُّلْم والتُّهَم[٨] ، وبَسْطِ العَدل فى الأمم . اللَّهم اجْعَل رَاياتِه عاليةً منشُورة[٩] ، وعساكرَه مُؤَيَّدةً منصُورة[١٠] ، وأَصْلِح به وعلى يَديه ، واجعل لنا منه واقيةً عليه .

وضُربت السّكة على الدّنانير ، وكان على الوجه الواحد لا إلَه إلاَّ الله محَمَّدٌ رسولُ الله ، علىٌّ خيرُ الوصيِّين ، ووزيرُ خَيْرِ المرسَلِين ، محمد رسول الله أرْسَلَهُ بَالْهُدَى وَدِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِه

---

(١) سورة الأنبياء رقم ٢١ آية ١٠٥ .
(٢) « فقد امتعض » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ص ١١٥ .
(٣) « حريمك » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا .
(٤) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا .
(٥) « فأعد للجهاد » فى اتعاظ الحنفا .
(٦) « لنصرتك » فى اتعاظ الحنفا .
(٧) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٥ .
(٨) « والتهم والنهم » فى اتعاظ الحنفا .
(٩) « مشهورة » فى اتعاظ الحنفا .
(١٠) « وعساكره غالبة منصورة » فى اتعاظ الحنفا

الْمُشْرِكُون[١] . وعلى الوجه الآخر دعاء الإمام معدّ ، لتوحيد[٢] الإله الصّمد ، المعزّ لدين الله ، أمير المؤمنين . ضرب بمصر فى سنة ثمانٍ وخمسين [وثلاثمائة][٣] .

قال : وأشْرَكَ القائدُ جوهر فى الدّوَاوين المصريّين والمَغَاربة ، فجعل فى كلّ مكانٍ مصريًّا ومغربيًّا .

وفى ذى الحجّة من السنة تكامل بمصر من الإخشيدية وقوّادهم خمسةُ آلاف فارس استأمنوا للقائد جوهر ، وفيهم أربعة عشر رئيسًا فأمَّنهم ، ثم قبض عليهم واعتقلهم ، ثم سَيَّرهم إلى المعزّ بإفريقية .

وفى سنة تسعٍ وخمسين وثلاثمائة ، فى يوم الجمعة لثمانٍ خلَوْن من شهر ربيع الآخر[٤] ، صلّى القائدُ جوهر فى جامع ابن طولون وأذّن « حيّ على خيْر العمل » ، وهو أوّل ما أُذِّنَ به بمصر ، ثم أذّن بذلك بالجامع العتيق بمصر فى الجمعة الثانية .

---

(١) يوجد اختلاف فى ترتيب العبارات السابقة فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١١٦

(٢) « بتوحيد » فى اتعاظ الحنفا .

(٣) [ ] إضافة من اتعاظ الحنفا .

(٤) « من جمادى الأولى » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٠ ، الكامل جـ ٨ ص ٥٩٠ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ١٢٥ ، أخبار الدول ص ٢٣ ــ ٢٤ .
وعن ذكر الأذان بمصر انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٦٩ .

ذكر خروج تبر الإخشيدى والقبض عليه

وفى شعبان سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ثار تبر الإخشيدى[١] بناحية أسْفل الأرض ، ودعا للخليفة المطيع لله ، وكتب اسمه على البنود ، فراسَلَه جوهر ، فلم يَقْبل ؛ وكان معه أبو القاسم العلوى الأقطينى . فأنفذ القائد جوهرٌ العساكر لقتاله برًّا وبحرًا ، وكان قد كَبَس صَهْرَجت[٢] ونهبها ، فأمَرَ القائد بنَهْب دُوره بمصر . وقَبَض على صهره فأغار تبر ، ونهب ضياعًا . فوافَتْه العساكر بصَهْرجت ، فانهزم إلى تِنّيس ، وركب البحر الملح يُريد الشام ، ثم إلى الروم ، فأنْفَذَ القائدُ جوهرٌ أسطولا خلفه . فلما بلغ صُور[٣] دخل بها الحمّام ، فقُبض عليه وجماعةٌ من أتباعه وغلمانه ، وذلك فى شهر رمضان منها ، وحُمِل إلى مصر ، فقدِمَها لأربع عشرة ليلةً خلت من شوال ، فأُدخِل على فيل وبين يديه رجلٌ وخَلْفَه رجلٌ ، وغلامه عجيبٌ على جمل خلفه ، ومعه قرد ، وخلفه غلامُه سرور على جمل ، وجماعةٌ على جمل منكّسِى الرؤوس ، ثم اعتُقلوا واستَصْفَى القائدُ أمواله وودائعه ، وطُولب بالأموال ، فلما اشتد عليه الطلب جرح نفسه فماتَ بعد أيام فسُلخ جَلدُه وحُشِى تِبناً وصُلبَ جلده ، وضُرِب شلوه[٤] .

---

(١) عن تبر الإخشيدى انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤١٣ .

(٢) صهرجت : من القرى القديمة التابعة لمحافظة الدقهلية ، بالقرب من ميت غمر ، فهناك صهرجت الصغرى تابعة لمركز أجا ، وصهرجت الكبرى تابعة لمركز ميت غمر ــ القاموس الجغرافى ق ٢ ص ١٧٣ ، ص ٢٥٧ .

(٣) صُور : بضم أوله ، وسكون ثانيه ، وآخره راء ، مدينة مشهورة ، على الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، تقع حاليًا جنوب لبنان ــ معجم البلدان .

(١) شلو = أشلاء : عضو ــ أعضاء ، شلو الإنسان : أعضاؤه بعد البلى والتفرق ــ القاموس .

ذكر فتوح الشام

[٤٢] قد ذكرنا أن القائد جوهرًا جهَّز جعفر بن فلاح إلى الشام بالعساكر فى سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة ، فسارَ جعفر ولَقِى الحسن بن عبدالله بن طُغج بالرَّملة ، وهو يومئذ صاحب الشام ، فهزمه جعفر بن فَلاح وأسره ، وبعث به إلى مصر ، ثمّ سار إلى دمشق فملكها فى سنة تِسعٍ وخمسين بعد حَرْب شديدةٍ . فكتب إلى القائد جوهر بالفتْح ، واستأذنه فى المسير إلى غزو أنطاكية [١] ، فأذن له القائد فسار نحوها فى نحو عشرين ألف فارس . فأقام مدةً وكثُرت جُموعُه وعساكره وانبسطت يدُه ، ودانت له البلاد ، فحاصر أنطاكية مدة إلى أن اتَّصل به مسير مَدَدِ الرُّوم إليها ، فعاد عنها إلى دمشق [٢]

---

(١) استولى البيزنطيون على أنطاكية فى ذى الحجة ٣٥٨ هـ/أكتوبر ٩٦٩ م ، وذكر ابن الأثير أن استيلاء البيزنطيين على أنطاكية كان فى المحرم ٣٥٩ هـ ــ الكامل جـ ٨ ص ٦٠٣ .

(٢) ورد فى اتعاظ الحنفا « فلما كان فى ربيع الأول سنة ستين أنفذ جعفر غلامه فتوح على عسكر إلى أنطاكية وكان لها فى أيدى الروم نحو من ثلاث سنين .... وبعث عسكرا بعد عسكر إلى أنطاكية ... وورد على ابن فلاح خبر هزيمة عسكره »

وهكذا يؤكد المقريزى أن جعفر بن فلاح لم يسر بنفسه إلى أنطاكية ــ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٦ ، انظر أيضًا كنز الدرر جـ ١ ص ١٣٣ .

ذكر مقتل جعفر بن فلاح
واستيلاء القرامطة على دمشق

وفى سنَـة ستّين وثلاثمائة [١] وصَل الحسنُ [٢] الأعصم القَرْمطىّ إلى دمشق . وقيل إنهَ إنَّمـا قدم بأمر الخليفة المطيع فخرج إليه جَعْفر بن فَلاَح وقاتله ،وكان عليلاً فقُتل وانهزم أصحابه ونُصب رأسُه على دمشق .

وملك القَرمطىُّ دمشق والشام ، وسار إلى الرَّملة فانحاز عنه سعادة بن حَيان [٣] إلى يافا وتحصن بها ، فسارَ إليه وحاربه ، ثم سار يُريد مصر ، فتأهب القائدُ جوهر لذلك ، وحَفَر خندقًا [٤] ، وبنى عليه بابًا كبيرًا ، وركّب عليه الباب الحديد الذى كان على الميدان الإخشيدى ، وبنى عليه بابين آخرين ، وبنى القنطرة على الخليج ، وجعلَها ممرًّا لِمَن يريد المقس [٥] .

---

(١) « فى هذه السنة فى ذى القعدة » الكامل جـ ٨ ص ٦١٤ .

(٢) هو الحسن بن أحمد بن بهرام القرمطى ، المعروف بالأعصم ــ الكامل جـ ٨ ص ٦١٥ ، وورد ذكره فى الأصل فى عدة مواضع بصور مختلفة . مثل : الأعسم ، الأغشم ــ انظر أيضًا اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣٠ .

(٣) كان سعادة بن حيان واليًا على الرملة من قبل جوهر الصقلى منذ شوال ٣٦٠ هـ ـ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٢٨ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ١٣٥ .

(٤) سماه المقريزى « خندق السرى بن الحكم » المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٥) الـمَقس : قرية قديمة على شاطئ النيل ، كانت تسمى أم دنين ، وعندما أنشئت القاهرة كان المقس خارج السور ، وعندما أدار صلاح الدين السور على مصر والقاهرة جعل نهاية السور التى تلى القاهرة عند المقس ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٢١ وما بعدها .

وكاد القَرمطى يأخذ القاهرة ، ثمَّ رجَع عنها بغير سبب عُلِم[١]، وكبس الفرما ، ثم قاطَع أهْلهَا على مالٍ فحملوه إليه ، وأخذ عاملَها عبدالله بن يوسف ، وقيل إنّه كان مَعَهُ خمسة عشر ألف بغل تحمل صناديق الأموال وأَوَانِىَ الذَهب والفضَّة والسّلاح ، سوى ما تحمل المضارب والخيام والأثقال[٢] .

وفى سنة ستّين وثلاثمائة أيضًا بنى جوهرٌ سورًا على القُصُور التى بناها فى سنة ثمانٍ وخمسين وجعلها بلدًا وسماها المنصورية ، ولما استقرَّ المعزّ سمّاها القاهرة .

وفى سنة إحدَى وستّين وستمائة ، فى المحرَّم ، كبس يارُوق الفرما وأخرج منها ابن العُمر القَرمطىّ ، وأرسل إلى مصر رؤوسا وأعلامًا وغيرَ ذلك . وفى هذا الشّهر عصى أهل تنيس وغيّروا الدَّعوة ، ودَعَوْا للمُطيع والقرامطة ، وحاربوا ياروق . وفى صَفَر وصل ياروق منَهزمًا من القَرامطة وهم فى إثره ، وأقبلت عساكر القرامطة حتى بلغوا عين شمس واستعدَّ القائد [جوهر][٣] لِلِقَائهم ، وأغلق الأبواب التى بناها .

وفى مُسْتَهلِّ ربيع الأول جاءت مقدِّمة القرامطة ووقفوا على الخندق ،

---

(١) يذكر المقريزى أن القتال خارج الخندق استمر ثلاثة أيام من مستهل ربيع الأول ٣٦١ هـ ، وفى اليوم الثالث « اقتتلوا قتالاً شديدًا قتل فيه خلق كثير ، وانهزم الأعسم ونهب سواده » اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣٠ .

أما ابن أيبك فيقول : « ودام القتال والمحاصرة ثلاثة أشهر ، ثم أن القرمطى رحل بغير سبب ، ولا علم له خبر » كنز الدرر جـ ٦ ص ١٤٣ .

وانظر ما يلى :

(٢) ورد نفس المعنى فى أخبار الدول المنقطعة ص ٢٥ .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح .

فقاتلهم القائدُ ، واشتدَّ القتال ، وقُتل من الفريقين قتلى كثيرة ، وأصبح النّاس متكافئين للقتال . وسار الأعصم القَرمطىّ بجميع عسكره ، ووقَعَ القتالُ على الخندق والباب مُغْلَق ، وعمل القائد جوهر الحيلَة فانْهَزَم عن القَرمطىّ ، ودام القتال إلى الزَّوال ، ثم فتح القائد البَاب وانْتَصَبَ للقتال ، وخرجت العبيدُ والمغَاربة إلى القرامطة . واشتدَّ القتالُ واضْطَرب النّاسُ فى المدينة وكثُر القتلى من الفَريقين . وانهزم الأعصم القرمطى ، وأراد المغاربةُ اتّباعه فمنعهم[1] القائدُ جوهر لِدُخول اللّيل ، وخشيةً من مَكيدةٍ أو كَمِين . ونُهِبت صناديق القَرمطىّ ودفاتِرُه ، وفارقَ القرمطىَّ من كان معه من الإخشيدية والعرب . قيل : وهذه أوّلُ هزيمةٍ كانت للقرامطة[2].

ثم وصل بعد الكسرة بيومين أبو محمد الحسنُ بن عمّار بمَدَدٍ معه من جهة المعزّ ، وهرب القرمطىُّ الذى كانَ بتَنّيس وعادت الدّعوةُ المعزّيةُ بها .

وفى شهر ربيع الآخر قبض القائدُ على أربعمائةٍ وأربعين رجلاً من الإخشيديّة والكافوريّة وقيّدهم وحبَسهم .

وفى شعبان منها وَرَدَ على القائد جوهرٍ رسولٌ من ملك الرّوم[3] برسالته وهديته .

---

(١) « فمنعه » فى الاصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٢) هذا تفصيل لما سبق أن أورده النويرى ملخصًا ، فقد استولى القرامطة على دمشق وقتلوا جعفر بن فلاح فى ذى القعدة ٣٦٠ هـ ، ثم تقدموا فى اتجاه القاهرة فكانت هذه الوقعة فى ربيع الأول ٣٦٢ هـ — انظر ما سبق .

(٣) المقصود الامبراطور البيزنطى ، وهو فى ذلك الوقت الامبراطور حنا الشمشقيق (يوحنا تزيمسكس) والذى ولى العرش البيزنطى فى الفترة من ٩٦٩ - ٩٧٦ م — انظر مقدمات العدوان الصليبى على الشرق العربى ، الإمبراطور يوحنا تزمسكس وسياسته الشرقية ص ٣٥ وما بعدها

وفى شهر رمضان لسبعٍ خلَوْن منه كَمُل بناءُ الجامع بالقاهرة ، وجُمِعَت فيه الجمعة .

وفى شوّال منها ابتدأ القائد جوهرٌ يحفِر الخَنْدق الذى كان عبدالرحمن ابن جحدم[1] ، خليفة عبدالله بن الزبير ، حفره قبلىّ[2] مصر ، ثم شَقّ الخندق حتى بلغ قبر الإمام الشّافعى رحمه الله ، فعَدَل به عنه ، ثم شقَّه مُشرِّقًا إلى الجبل على المقابر ، أراد بذلك أن يحفظ طريق الحج من ناحية القلزم .

وفى ذى القَعدة منها خرج أبومحمد الحسَن بن عمّار إلى تنّيس ، فسار إليه أسطولُ القرامطة فواقعهُ وأسَرَ منه سَبْعَ مراكب ، وسيَّرها إلى مصر ومعها خمسمائة رجل منهم[3] .

ذكر خروج المعز لدين الله من بلاد الغرب إلى الديار المصرية [٤٣] ومارتَّبه ببلاد المغرب قبل مسيره

وفى يوم الاثنين لثمانٍ بقينَ من شَوَّال سنة إحْدى وستِّين وثلاثمائة ، رحَل

---

(١) « بن محدر » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من الولاة والقضاة ص ٤١ . وهو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم ، ولى مصر من قبل عبد الله بن الزبير فدخلها فى شعبان ٦٤ هـ/٦٨٣ م ، وذلك مدة تسعة أشهر ـــ الولاة والقضاة ص ٤١ وما بعدها

(٢) كان الغرض من هذا الخندق أن يخندق به على الفسطاط فى مواجهة الغزو الأموى ـــ الولاة والقضاة ص ٤٢ .

(٣) « فواقعهم وأسر منهم سبع مراكب وسيرهم إلى مصر ومعهم خمسمائة رجل منهم » فى الأصل ، وتصحيح الضمائر يتفق والسياق .

المعزّ لدين الله من المنصورية إلى سِرْدَانية [١] ومعه يوسُف بن زَيْرى [٢] بن مناد فسلّم إليه إفريقية وأعمَالهَا وسائر أعمال المغْرب ، وذلك فى يوم الأربعاء لسبعٍ بقين من ذى الحجة منها ، وأمر الناس بالسَّمع والطّاعة لَه ، وفوضّ إليه أمُور البّلاد كلِّها إلّا بلاد جزيرة صِقليَّة وطرابلس . وأقام المعز بسردانية أربعة أشهر ، ورَحل منها لخمس خَلَوْن من صفر سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، وسار حتى أتى قابس ، ثم وصل إلى طرابلس فأقام بها أيّامًا ، ورحل منها فى يوم السّبت لثلاثَ عشرةَ ليلة بقِيَتْ من شهر ربيع الآخر منها ، وسار فوصل إلى الإسكندرية فى يوم الجمعة لستٍّ خلَوْن من [٣] شعبان،ونزل تحت المنار ، وأنزل النَّاسَ حولها ، وأتاه أهلُها فسلَّمُوا عليه ، ووافى يوم الأحد أبوطاهر [٤] قاضى مصر ، ومعه العُدُول وقدم أبوعبدالرحمن بنُ أبى الأعز فى بنى عَمِّه وغيرهم من العرب ، فركب لهُم المعزّ فسلَّموا عليه وانصرفوا .

ثم رحل من الإسكندرية يوم الاثنين لثلاثٍ بقين من شعبان . فلما

---

(١) سردانية : منتزه فيه ثمار عظيمة بالقرب من مدينة جلولاء التى تبعد نحو ٢٤ كم من القيروان — المغرب ص ٣٢ .

(٢) هو يوسف بلكين بن زيرى ، رئيس بربر صنهاجة ، والى الفاطميين على القيروان منذ سنة ٣٦١ هـ ٩٧٢ م ، والذى أعلن استقلاله عن الفاطميين ، وأسس دولة بنى زيرى — توفى سنة ٣٧٣ هـ/٩٨٤ م — تاريخ الدول الإسلامية ص ٤٧ — ٤٨
وقد ترجم له ابن خلكان باسم « بلكين بن زيرى » — وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٨٦ رقم ١١٩ .

(٣) « لست بقين من شعبان » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣٤ ، ووفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٢٧ .

(٤) هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن نجير ، أبو الطاهر الذهلى ، ولى قضاء مصر منذ عهد كافور سنة ٣٤٧ هـ/٩٥٨ م — وحتى سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م ، وتوفى فى السنة التالية — ذيل كتاب الولاة والقضاة ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٨١ وما بعدها .

كان يومُ السّبت لليلتين خلَتَا من شهر رمضان نزل المنية بساحل مصر ، وهى بُولاق ، فأقام بها إلى يوم الاثنين ؛ وخرج إليه الشريف أبو جعفر مُسلم الحسَنى قبل وُصُوله فى جَمَاعة الأشراف وَوُجُوه البلد ، فرأى المعزّ وهو سائرٌ والمظلّة على رأسه ، فنادى منادٍ : يتَقدمُ الشّريف أوّل الناس ، فتقدّم وسلّم على المعز . ثم تقدّم النّاسُ كلُّهم وسلّموا عليه واحدًا بعد واحد حتى فرغوا ، وهو واقف على دابّته ؛ ثم سارَ والشريف يحادثه .

قال : وأخذ الناس فى التّعْدية بِعِيالاتِهِم وأَثْقَالهم فى هذه الأيام إلى ساحل مصر ، وتفرق النّاسُ فى الدُّور بمصرَ والقاهرة ، وأكثرهم فى المضارب فيما[1] بين القاهرة ومصر .

ثم عبرَ المعزُّ لدين الله إلى القاهرة يوم الثلاثاء لخمسٍ خلَوْن[2] من شهر رمضان ، سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، ولم يدخل إلى مِصْر ودخل إلى قصره .

فلما انتهى إلى الإيوان الكبير خرَّ ساجدًا للهِ تعالى ، وجلس على سرير الجَوْهر[3] الذى صنعه لهُ القائدُ جوهر ، وقَبِلَ الهناء ، ومدحه الشعراء .

قال : وكان تَلَقّى القائد جوهر له عند جَوَازه من الجسر الثّانى ، فكانت مُدّة تدبير جوهر الديار المصرية إلى أن قدم المعز ، أربع سنين وعشرين يومًا .

---

(١) « فيمان » فى الأصل .

(٢) « لسبع خلون » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣٤ .
ويتفق ابن خلكان مع النويرى فى أن دخول المعز إلى القاهرة كان لخمس خلون من شهر رمضان ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٢٧ .

(٣) « سرير الذهب » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣٦ .
والمقصود العرش .

وحكى بعض المؤرخين أنّه لما وصل المعزّ وخرج الأشراف للقائه ، قال له أبو [محمد][1] عبدالله بن أحمد بن طَبَاطَبَا الحسينى ، من بينهم يا مولانا ، إلى مَنْ تنتسب ؟ فقال المعزُّ : سنعْقِدُ لكم وتجمعُكم ونسرد عليكم نسبَنا . فلما استقرّ فى قصره جمعَ النّاس فى مجلسٍ عامٍّ وقال : هل بَقِى من جمَاعَتِكم أحد ؟ فقالوا : لم يبق مِنا مُعْتَبر فجرَّدَ عِنْد ذلك سيفه إلى نصفه وقال هٰذا نَسَبِى وفرّق المال وقال : هذا حَسَبِى . فقالوا : سمعنا وأطعنا . وكان الخليقَ بما قيل :

جَلَوْا صارِمًا وتَلَوْا باطلاً ... وقالُوا : صَدَقْنا ؟ فقلنا : نَعَمْ !

وقال ابن جلب راغب فى تاريخه : إنّ المعزّ لمّا قدِم صَعِد المنبر وخطَب خُطبة بليغة ، وذكر نسَبَه إلى علىّ بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فكتب إليه بعض المصريين ورقةً ولصقها بالمنبر فيها :

إنّا سمعْنَا نسبًا مُنكرا ... يُتْلى على المِنْبر فى الجَامع
إنْ كُنتَ فيما تَدَّعى[2] صادقًا ... فاذكر أبًا بعد الأبِ الرّابع

---

(١) [ ] إضافة للتصحيح .
فهو عبد الله بن أحمد بن طباطبا الحسينى ، أبو محمد ، وقد توفى سنة ٣٤٨ هـ/٩٥٩ م ، وقد ناقش ابن خلكان تناقض تاريخ وفاته ومقابلته للمعز ، ويقول : (إن صاحب هذه الرواية هو صاحب كتاب الدول المنقطعة ، ثم علل هذا التناقض بقوله : « ولعل صاحب الواقعة مع المعز ولده » والله أعلم أى ذلك كان) .
وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٨١ وما بعدها رقم ٣٤٢ ، الدول المنقطعة ص ٢٧ ــ ٢٨ .
ويذكر ابن أيبك « أن الشريف الذى جرى للمعز معه هذا السؤال هو أبو جعفر مسلم بن عبد الله الحسينى ، والشريف أبو إسماعيل إبراهيم بن أحمد الحسنى الزينبى » ، ثم يقول : « ولعل يكون صاحب هذه الواقعة بعض ولده » ــ كنز الدرر جـ ٦ ص ١٤٧ .

(٢) « فيما قلته » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٢٧ .

أو فَدَعِ[١] الأَنْساب مستُورةً وادْخُل بنا فى النَّسب الواسع
أو كُنتَ فيما تدّعى صادقا فانْسُبَ لنا نفْسَك كالطّائع [٢]

قال : وكان يتظَاهُرُ بذكر الْماجَرَيات قبل وقُوعها لاطلاعه على علم النَّجامة ولِكتْب كاتب عنده يَسْتدلُّ ، فكتَب إليه بعضُ المصريين ورقة وطرحَها فى مجلسه ، فيها :

بالظلم والْجَوْرِ قد رضينا وليس بالكُفْر والحَماقَةِ
إنْ كُنتَ أُوتيتَ[٣] عِلْمَ غيبٍ فقُلْ لنا كاتبَ البطاقة[٤]

وقال بعض المؤرخين : لمّا قدم المعزُّ إلى مصر أحضر معه توابيت آبائه . وكان معه خمسة عشر ألف رجل تحمل صناديق الأموال والسّلاح وغير ذلك ، وكان معه مائة جمل تحملُ شِبْه الطّواحين من الذهب ، وثلاثة آلاف جمل على كل جمل صُنْدوقان وألف وثمانمائة بختى محملة ،وثلاثمائة جمل تحمل الخركاهات وجملان يحملان[٥] الإكسير الذى يصنع به الكيمياء [٤٤]

---

(١) « اولادع » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٢٧ ، ووفيات الاعيان جـ ٥ ص ٣٧٣ .

(٢) المقصود الخليفة العباسى الطائع لله ، أبو بكر عبد الكريم الذى ولى الخلافة العباسية فى الفترة من ٣٦٣ ــ ٣٨١ هـ/٩٧٤ ـ ٩٩١ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .
ويذكر ابن خلكان هذه الحادثة وهذه الأبيات فى ترجمة العزيز بالله ، وكذلك ابن تغرى بردى ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣٧١ رقم ٧٥٩ . النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١١٦ .

(٣) « إن كنت أعطيت » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٢٧ ، ووفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣٧٤ .

(٤) يذكر ابن خلكان هذه الحادثة وهذه الأبيات فى ترجمة العزيز بالله ، وكذلك ابن تغرى بردى ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣٧١ رقم ٧٥٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١١٦ .

(٥) « تحمل » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

وثلاثة آلاف شينى وغراب[١] فى البحر تحمل الموجود . ومن الرجال المقاتلة منْ قَبيلة كتامة مائةُ ألف ، ومن البربر أربعون ألفًا ، ومَن الروح ستون ألفًا ، وغير هؤلاء من قبائل العرب والمغاربة ، وهو مع ذلك شديدُ الخوف من القرمطى .

قال ابن زولاق[٢] فى تاريخ مصر : ولما انقضى شهرُ رمضان ركب المعزّ لصلاة العيد وصلّى بالناس ، وكان القاضى ابنُ النعمان[٣] يبلّغ عنه فى التكبير ، وقرأ فى الأولى بَعْد الفاتحة « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَة » ، وفى الثانية بعد الفاتحة بسورة الضُّحَى ، ثم صعد المنبر وَخَطب بعد أن سلّم على الناس يَمينًا وشمالاً ، وذلك بالمصلى الذى بناه القائد جوهر[٤]

قال : وأقام المعزُّ بعد مَقْدمِه أيَّامًا وعزل القائد جوهرًا من جميع ما كان إليه من النَّظَر على الدَّواوين وجباية الأموال ، وتدبير الأمور ، وغير ذلك ، والله أعلم[٥] .

---

(١) شينى ، أو شانى ، أو شينية ، أو شونة : والجمع : شوانى : سفينة حربية كبيرة ، ومن أسمائها أيضًا غراب : وجمعها أغربة ــ معجم السفن الإسلامية ص ٨٣ ، ص ١٠٤ .

(٢) هو الحسن بن إبراهيم بن الحسين المصرى ، ابن زولاق ، المؤرخ ، صنف كتاباً فى خطط مصر ، وكتابًا فى أخبار قضاة مصر ، وتوفى سنة ٣٨٧ هـ/٩٩٧ م ــ وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٩١ رقم ١٦٧ .

(٦) هو على بن النعمان بن محمد بن حيون ، أشركه الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى قضاء مصر مع أبى طاهر الذهلى ، وتوفى القاضى على بن النعمان سنة ٣٧٤ هـ/٩٨٤ م ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٤١٧ وما بعدها .

(٤) المقصود الجامع الأزهر ، والذى كان يسمى أيضًا جامع القاهرة ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٧٣ .

(٥) وذلك فى المحرم سنة ٣٦٣ هـ/٩٧٣ م ــ المنتقى من أخبار مصر ص ١٦٣ .

ذكر مكاتبة المعزّ لدين الله القَرْمطىّ وجواب القرمطىّ له

قال بعض المؤرخين : لما استقر المعز بالقاهرة أهمه أمر الأعصم القرمطىّ فرأى أن يكتب إليه كتابًا يُعْلِمهُ فيه أن المذهب واحد ، وأن القرامِطة [منهم][1] استمدُّوا وهم سادتُهم فى هذا الأمر ، وبهم وصَلُوا إلى هذه الرتبة ، فكتَب إليه المعز كتابًا مشحونًا بالمواعظ وضمَّنه من أنواع الكفر ما لا يصْدُر إلا عن مارقٍ من الدين .

كان عنوانَ الكتاب :

« من عَبْد الله ووَليّه ، وخيرته وصفيِّه ، معَدّ أبى تميم بن إسْمَاعيل ، المعزّ لدينِ الله أمير المؤمنين ، وسُلاَلة خَيْر النَّبِيين ، ونَجل [على][2] أفضل الوصيِّين إلى الحسن بن أحمد .

وأول الكتاب :

« رُسُومُ النطقاء ، ومذاهبُ الأئمة والأولياء[3] ، ومسالكُ الرُّسل والأنبياء[4] ، السّالف منهم والآنف[5] ، صلى الله[6] علينا وعلى آبائنا أُولى الأيْدى والأبْصَار، فى متقدِّم الدهور والأكوار ، وسالف الزمان والأعصار ،

---

(١) [ ] إضافة من كنز الدرر جـ ٦ ص ١٤٨ .
(٢) [ ] إضافة من كنز الدرر جـ ٦ ص ١٤٩ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٨٩ .
(٣) « والأنبياء » فى كنز الدرر ، وفى اتعاظ الحنفا .
(٤) « والأوصياء » فى نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣٠٨ ، اتعاظ الحنفا ، و« الأصفياء » فى كنز الدرر .
(٥) « السالف والآنف منا » فى نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣٠٨ ، فى كنز الدرر ، وفى اتعاظ الحنفا .
(٦) « صلوات الله » فى نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣٠٨ ، وفى كنز الدرر ، وفى اتعاظ الحنفا .

عند قيامهم بأحكام الله وانتصابهم لأمر الله ، الابتداء بالإعذار . والانتهاء إلى الإنذار[١] ، قبل نفاذ الإنذار[٢] فى أهل الشقاق والإصرار[٣] ، ولتكون الحجّة على مَنْ خالف وعصَى والعقوبة على من بَاينَ وغوى ، حَسْبَمَا قال الله تعالى[٤] : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[٥] ، ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[٦] .

وقد ذكرنا فى أخبار القَرامطة جُملةً من مواعظ هذا الكتاب على ما نقف عليه هناك[٧] . ومن جملة ما لم نذكره هناك .

أمَا عَلِمت أنّى[٨] ﴿ نارُ اللهِ الْمُوقَدَةِ * الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾[٩] أَعْلَم ﴿ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ﴾[١٠]

وحشاه بأنواعٍ من الكفر وحَضّه[١١] على اقْتفاء آثار آبائه وعُمومته ومُوَالاتهم ، فقال : إن آباءك كانوا أتباعَ آبائى . ثم قال فيه بعد الإطالة : وكتابُنا هذا من فُسطاطِ مصر ، وقد جئناها على قَدَر مقدُور ، ووقتٍ

---

(١) « بالانذار » فى كنز الدرر ، وفى اتعاظ الحنفا .
(٢) « قبل إنفاذ الأقدار » فى كنز الدرر ، وفى اتعاظ الحنفا .
(٣) « والآصار » فى كنز الدرر ، وفى اتعاظ الحنفا .
(٤) « قال الله عز وجل » فى كنز الدرر ، وفى اتعاظ الحنف .
(٥) سورة الإسراء رقم ١٧ آية رقم ١٥ .
(٦) سورة فاطر رقم ٣٥ آية رقم ٢٤ .
(٧) انظر نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣٠٨ وما بعدها .
(٨) « وإنا لـ ... » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ١٥٢ .
(٩) سورة الهمزة رقم ١٠٤ آية ٦ ، ٧ .
(١٠) سورة غافر رقم ٤٠ جزء من الآية ١٩ .
(١١) « وحظه » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق ، ومع ما جاء فى اخبار الدول المنقطعة ص ٢٦ .

مذكور ، لا نرفَعُ قدمًا ولا نضع قدمًا إلا بعلم مصنُوع ، وعلم مجموعٍ ، وأَجلٍ معلُوم » . ثم قال فيه : « وأما أنت أيّها الغادر [الخائن] [١] النّاكثُ المُبَاينُ [٢] عن هدى [٣] آبائه وأجداده ، المنسلخ من دين أسْلافه وأنداده ، المُوقِدُ لنار الفتنة ، الخارجُ عن الجماعة والسُّنَّة ، لم أُغْفِل أمرك ، ولا خَفِى علىَّ خبرك ، وإنّك منّى بمنظر وبمسمع ، قال الله تعالى : ﴿ إنَّنِى معَكُما أَسْمَعُ وأرَى ﴾ [٤] ، ﴿ مَا كَان أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وماكَانَت أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [٥] فعرِّفْنا على أىِّ رأىٍ ضللت [٦] وأىّ طريقٍ سلَكْت .

وقال فى فصل منه : « إنّا لسنا مُهْمِليك ولا مُمْهِليكَ إلّا ريْثما يَرِدُ به كتابُك والوقوف على مجرى جوابك ، فانْظُر لنفساك ما يبقى ليومك ومعادك ، قبل انْغِلاق باب التّوبة ، وطول وقت النَّوْبة . حينئذ ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فى إيمَانِها خَيْرًا ﴾ [٧] . ثم ختمه بأن قال : « فما أنت وقومُك إلّاكمناخ نَعَم ، أو مَراحِ غنم » . فَأَمَّا ﴿ نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَيَنَّكَ ﴾ [٨] ، ﴿ فإنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾ [٩] . هكذا رأيت . والتِّلاوة فى سُورة يونس [١٠] ﴿ أَوْ نَتوفيَنَّكَ فَإلَيْنا

---

(١) [ ] إضافة من كنز الدرر جـ ٦ ص ١٥٢ .

(٢) « البائن » فى كنز الدرر جـ ٦ .

(٣) « عن هوى » فى الأصل ، والتصحيح من كنز الدرر جـ ٦ .

(٤) سورة طه رقم ٢٠ آية ٤٦ .

(٥) سورة مريم رقم ١٩ جزء من الآية رقم ٢٨ .

(٦) « على أى رأى أنت » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ١٥٣ .

(٧) سورة الأنعام رقم ٦ جزء من الآية رقم ١٥٨ .

(٨) سورة يونس رقم ١٠ جزء من الآية رقم ٤٦ .

(٩) سورة الزخرف رقم ٤٣ جزء من الآية رقم ٤٢ .

(١٠) « القصص » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من القرآن الكريم .

مَرْجِعُهُمْ ﴾[١] . فَعِنْدَها تخسر ﴿ الدُّنيا وَالآخِرة ، ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَان الْمُبِينُ ﴾[٢] . وأَنْذَرْتُهمْ ﴿ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى * الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [٣] . ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [٤] . فليتدبّر من كان ذَا نذِير . وليتفكَّر من كان ذا تفكير ؛ ولْيَحذَرْ يوم القيامة ، يوم الحسرة والنّدامة ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فى جَنْبِ الله ﴾ [٥] . و﴿ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا ﴾ [٦] . ويَا لَيْتَنَا ﴿ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾[١٤] . ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ [٨] . وسَلِم من عواقب الرّدى . وهو حَسْبُنَا ونعم الوكيل

قال : فلما وقف الحسن[٩] بن أحمد القرمطى [على][١٠] هذا الكتاب المطوّل[١١] كتب جوابه بعد البَسْملة : « وصل كتابك الّذى كثُر تَفصيلُه

---

(١) سورة يونس رقم ١٠ جزء من الآية رقم ٤٦ . وهو يكمل ما جاء فى هامش (٥) .

(٢) سورة الحج رقم ٢٢ جزء من الآية رقم ١١ .

(٣) سورة الليل رقم ٩٢ جزء من الآياد ١٤ ـ ١٦

(٤) سورة الأحقاف رقم ٤٦ جزء من الآية ٣٥ .

(٥) سورة الزمر رقم ٣٩ جزء من الآية رقم ٥٦ .

(٦) سورة الأنعام رقم ٦ جزء من الآية رقم ٣١ .

(٧) سورة الأعراف رقم ٧ جز من الآية رقم ٥٣ .

(٨) سورة طه رقم ٢٠ جزء مر الآية رقم ٤٧ .

(٩) « الحسين » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح مماسبق .

(١٠) [ ] إضافة يقتضيها السياق .

(١١) انظر فقرات مطولة من هذا الخطاب فى كل من : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٨٩ ـ ٢٠١ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ١٤٩ ـ ١٥٦ .

وقلّ تحصيلُه ، ونحن سائرون على إثره . والسّلام »[١]

وقيل إنّه كتب : « والجوابُ ماتراه دون ماتسمعه »[٢] .

وقيل [٤٥] إنّه كتب إليه :

ظنّت رجالُ الغَرب أنّ سُهـولتى   بمحـالها ، وأخـو المِحَال ذليـل
إنْ لم أرْوِّ النيلَ مِن دَمِهم ، فلا   نلت المُـراد ، ولا سقانى النيـل

وفى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، فى شعبان ، بلغت تقدمةُ القرامطة إلى أرياف مصر وأطراف المحلة [٣] ، فنهبوا ، واستخرجوا الخراج ؛ واشتهر الأعصَم القرمطىّ ببلبيس فتأهَّب المعزُّ لِلقائه ، وعرض العساكر ، وفرّق فيهم الأموال والسّلاح .

وسيَّر جيشا قدَّم عليه ولدَه الأمير عبْدالله[٤] ، فالْتقى معَ الأعصَم ، فانهزم القرمطىّ وأسر جماعةً من رجاله ، وجهّز جيشًا آخر قدّم عليه ريان الصقلبى فى أربعة آلاف فارس ، فأزال القرامطة عن المحلة ونواحيها .

---

(١) انظر أيضًا نهاية الأرب جـ ٢٥ ص ٣١١ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٠٢ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ١٥٦ ، الكامل جـ ٨ ص ٦٣٨ .

(٢) أخبار الدول المنقطعة ص ٢٦ .

(٣) المحلة : فى محافظة الغربية ، وقد ورد فى اتعاظ الحنفا « وانبسطت سرية القرمطى فى نواحى أسفل الأرض » أى الوجه البحرى — جـ ١ ص ٢٠٢ ، وانظر أيضًا المنتقى من أخبار مصر ص ١٦٥ .

(٤) توفى الأمير عبد الله فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٦٤ هـ/٩٧٤ م — فى يوم ٢٣ من الشهر فى المنتقى من أخبار مصر ص ١٦٦ ، وفى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢١٧ ، وفى التاسع من جمادى الأولى فى أخبار الدول المنقطعة ص ٢٦ .

وفى هذا الوقت ورد الخبرُ من الصّعيد الأعْلَى أن عُبَيْدالله [١] أخا الشريف مسلم أوغل فى الصّعيد واستخرج الأموال ، وقتل ألفًا من المغاربة .

وفى هذه السنة ، فى المحرّم منها ، انْبَسطت المغاربة فى نَواحى القَرافة ، ونزلوا فى الدُّيُور ، وأخرجوا النّاس من أمَاكنهم ، وشرعُوا فى السّكن فى المدينة ، وكان المعزّ أمَرَهم أن يسكنوا أطراف المدينة ، فاستغاث النّاس إلى المعزّ فأمَرَ أنْ يسكُنوا نَواحِىَ عين شمس ، وركب بنفسه وشاهد المكان ، وأخبرهم بالبناء فيه ، وهو الموضع المعروف الآن بالخندق [٢] ، وجعل لهم واليًا وقاضيًا ، ثم سكن أكثرُهم بالمدينة مخالطين للناس .

ذكر فتوح طرابلس الشام

كان فتوحها فى سلخ شهر ربيع الآخر سنة أربع وستّين وثُلاثمائة ، على يد ريَّان الخادم غُلَام المعز ، وهرب ابن الزَّيَّات بعد أن كان نصب عليها الصّلبان وجعلها للرُّوم .

وفى جُمادى الأولى منها سار نصير الخادم غلام المعزّ فى عسكر كثير ، ودخل إلى بيروت ، وتواقع مع الرّوم عـلى طَرَابلس وهـزمهم ، وكانتً الوقعة فى نصف شعبان .

---

(١) « عبد الله بن عبيد الله » فى اتعاظ الحفاظ جـ ١ ص٢٠٢ ، ص ٢٠٣ .

(٢) « وخندق العبيد » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٤٥ .

والخندق : خارج باب الفتوح ، كانت تعرف بمنية الأصبغ ، واشتهرت باسم الخندق لمرور الخندق الذى حفره جوهر بها ، ومكانها حاليًا المنطقة الواقعة حول دير الملاك البحرى من منطقة حدائق القبة ضمن القاهرة .

المواعظ والاعتبار ــ جـ ٢ ص ١٣٦ ، القاموس الجغرافى ق ١ ص ٥٦ .

وفى هذا الشّهر وصل الخبر إلى المعز بوصول أفتكين التركى من بغداد إلى دمَشْق بقَصْد مصر. فشرع المعزّ فِى تجهيز العساكر.

وفى شهر رمضان منها كثرت الأراجيف بمسير الرُّوم إلى الشام لأن أفتكين التُّركى كاتب ابن السنهسكى(١) فسار بالرّوم إلى بَيْروت، فلقيهم نصير غلام المعزّ فهزموه وأسَرُوه. وتوجَّهوا إلى صَيْدا فخرج إليهم أفتكين التُّركى وقبَّل الأَرض لابن السنهسكى وهادَنَه على دمشق؛ وسار ابن السنهسكى إلى طرابلس، فخرجَ إليْه رَيّان الخادم بعساكر المعزّ فقاتله وهَزمه، وقتل مقْتَلة عظيمة مِن عامّة عسكره. وانصرف ابن السنهسكى معْلُولاً، فسُرّ المعزّ بذلك. وهنأه النّاس بهٰذا الفتح، ومدحه الشّعراء(٢).

ذكر وفاة المعز لدين الله وشيء من أخباره

كانت وفاتُه بالقاهرة لسبعٍ خلَوْن من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة؛ وقيل فى يوم الجمعة لاثنتَىْ عشرةَ ليلةً بَقِيَت من الشهر(٣). وكانت مدة حياته خمسًا وأربعين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام، ومدّة مقامه بمصر سنتين وسبعة أشهر وأيّامًا.

---

(١) هكذا بالأصل، والمقصود الامبراطور البيزنطى ابن الشمشقيق ــ انظر ما سبق، وورد اسم «ابن السميسق» فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٣٠.

(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٢١ ــ ٢٢٢.

(٣) هناك اختلاف فى تحديد يوم وفاة المعز لدين الله، انظر مثلاً: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٢٩ حيث يعلل سبب الاختلاف بإخفاء خبر وفاة المعز «ولم يظهر ذلك ولا نطق به أحد مدة ثمانية أشهر» ــ وانظر أخبار الدول المنقطعة ص ٢٦، المنتقى من أخبار مصر ص ١٦٨، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧٨، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٢٤ وما بعدها.

وكان نقش خاتمه : بِنَصرِ العزيز العَلِيم ينْتصر الإمام أبو تميم . وقيل : كان لتوحيد الإله الصّمد دعاء الإمام(١) معَدّ . وقيل : لتوحيد الإله العظيم دعاء الإمام(٢) أبو تميم .

أولاده : أبو المنصور نزار تميم الظّاهر(٣) ، وبه كنى ، توفّى بمصر فى ذى القعدة سنة أربعٍ وسبعين وثلاثمائة ؛ الأمير عقيل ، توفّى فى شعبان من السنة ؛ وسبع بنات .

قضاته : قاضيه الواصل معه من المغرب أبوحنيفة النّعمان بن محمّد الدّاعِى ، مات بمصر فى سلِخ جُمادى الآخرة سنة خمس وستّين وثلاثمائة ، ولم يَلِ القضاء بها ؛ واستقْضَى بالمغرب أباطالْب أحمد بن القائم(٤) بن محمد بن المنهال ؛ ولمّا وصل إلى مصْرَ وجد القائد جوهرًا قد استخلف على القضاء أباطاهر محمّد بن أحمد بن عبدالله الذهلى البغدادى ، وهو القاضى على أيام كافور ، فأقرَّه ، وكان أبوسَعيد عَبْدالله(٥) بن محمّد بن أبى ثوبان حكم بمصر بين المغاربة الجند والتجار إلى أن مات فى شهر ربيع الأول سنة خمس وستين ؛ فتولّى القضاء أبوالحسَن علىّ بن النعْمان على قاعدته إلى أنْ مات [٤٦] أبوطاهر ، فقضى أبوالحسَن على الجميع .

كتّابه : كان جوهر قد فوض تدبير الأموال فى أيامه إلى علىّ ابن العرمرم

---

(١) ، (٢) « الإله » فى الأصل ، والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة ص ٣٠ .

(٣) « الشاعر » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٢٨ .

(٤) « بن القسم » فى اخبار الدول المنقطعة ص ٢٨ ، « بن أبى القاسم » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٤٧ . ورد إلى مصر بأهله وأولاده فى شوال ٣٦٨ هـ/مايو ٩٧٩ م ــ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٤٧ .

(٥) قدم صحبة المعز من بلاد المغرب ، فولاه نظر المظالم بمصر ، ... ذيل الـولاة والقضاة ص ٥٨٧ .

وأبى محمد الروذبارى ، ورجاء بن صولات[1] ، وعبدالله بن عطاء الله ، وأبى الحسن الكرجى[2] ؛ وردَّ تدبير هؤلاء الكتاب إلى الوزير أبى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات . واستقرّ الأمر بعد وُصُول المعزّ على عسلوج ، ويعقوب بن يوسف .

ومِمّن وزر للمعزّ يعقوب بن كلّس ، وهو أول وزراء دَوْلتهم بمصر ، وهو من جملة كتاب الدّوْلة الإخشيدية . وسنذكر خبره إن شاء الله مُستوفًى فى أخبار العزيز .

حاجبه : جعفر بن علىّ إلى أن تُوفّى ، فوَلِى عمّار بن جعفر ؛ والله أعلم بالصواب .

ذكر بيعة العزيز بالله

وهو أبوالمنصور[3] نزار[4] بن المعزّ بن المنصور بن القائم بن المهدىّ ، وهو الخامس من ملوك الدولة العُبَيْديّة ، والثانى من ملوك مصر والشام منهم .

كان قد وَلِى الْعَهد منْ أبيه فى حياته ، ثم بايَعه النّاس فى يوم وفاة أبيه ، لِسَبعٍ خلَوْن من شهر ربيع الآخر سنة خمسٍ وستّين وثلاثمائة .

---

(١) « ابن صولاب » فى أخبار الدول المنقطعة ص ١٢٩ .

(٢) « الكرخى » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٢٩ .

(٣) « وهو ابن المنصور » فى الأصل ، وهو تحريف .

(٤) انظر ترجمته وأخباره فى : وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣٧١ رقم ٧٥٩ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٣١ وما بعدها ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٦٨ وما بعدها ، كنز الدرر جـ ٦ ص ١٧٤ وما بعدها ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٣٦ وما بعدها ، المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٨٤ وما بعدها ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١١٢ وما بعدها ، الكامل جـ ٨ ص ٦٦٥ وما بعدها .

حكى الرئيس ابن القلانِسى فى تاريخ الشام فى سبب بيعة العزيز الأولى أن أباه المعزّ لدين الله كان مُغرَمًا بعلم النُّجوم والنّظر فيما تقتضيه أحكام مولده ، فحكم له بقطع ، فاستشار منجمه فيما يزيله عنه ، فأشار عليه أن يعمل له سردابًا تحت الأرض ويتوارى فيه مدّة إلى حين زوال ذلك القطع . فصنع ذلك وأحضر وُجوه دولته ، وقال لهم : إنّ بينى وبيْن الله عهدًا وعَدَنِيه قد قرب أوانه ، وقد جعلت عليكم ولدى نزارًا ، ولقّبته بالعزيز بالله ، واستخلفته عليكم وعلى تدبير أحوالكم مدّة غيبتى ؛ فالزمُوا الطّاعة والمناصَحَة له . فقالوا : نحنُ عبيدُك وخدمُك . فأخذ البَيْعة له ووَصّاه بما أراد ، وجعل القائد جوهرًا مدبِّرًا لأموره ، ونزل السِّرداب الّذى اتخذه ، وأقام به سنةً . فكانت المغاربة إذا رَأَوْا سحابًا ترجّلوا على الأرض وأوْمَوْا بالسّلام عليه . ثمّ خرج بعد ذلك ، وجلس النّاس ، فدخلوا على طبقاتهم وسلّموا عليه ؛ ولم يلبث بعد ذلك إلّا مدّةً يسيرة ، واعتلّ فمات[1] .

ذكر الحرب بين أفتكين التركى وعساكر العزيز بالله

ولنذكر ابتداء أمر أفتكين[2] لتأتى أخبارهُ بسياقه .

هو أبو المنصور أفتكين المعزّى ، أحد مماليك معزّ الدولة بن بويه[3] وكان سبب وصوله إلى الشام أنه لما وقعت الفتنة بين الترك والديلم ببغداد

---

(١) انظر الكامل جـ ٨ ص ٦٦٤ .

(٢) « هفتكين » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ١٧٥ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٣١ ، « الفتكين فى ذيل تاريخ دمشق ، والكامل جـ ٨ ص ٦٥٦ و « أفتكين » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٣٨ .

(٣) هو معز الدولة أبو الحسين أحمد ، حكم العراق فى الفترة من ٣٢٠ ـــ ٣٥٦ هـ/ ٩٣٢ ـ ٩٦٧ م ـــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٩٠ .

وخلع المطيع[١] كما ذكرناه ، وتوالت تلك الفتن ، انفصل أفتكين عن بغداد فى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة فى ثلاثمائة غلام ، وسار حتّى قَدِم حمص فأقام أيامًا يسيرة ، وسار منها إلى دِمَشق ، فوجد أحْدَاث البلد قد تحكّموا فيها والفتن بين أهلها وبين عسكر المغاربة . فخرج إليه شيوخ دمشق وأظهروا السُّرور به ، وسألوه أن يتولّى عليهم ، ويكفّ أيْدى المفسدين ، وتوثّقوا منه وتَوَثّق منهم بالأيمان ، ودخل البلد وأصلح أمره ، وأحسن السّيرة ، وكفّ المفسدين ، فاستقام له الأمر وثبت قدمُه[٢] . فاضطر إلى مكاتبة المعزّ لدين الله بمصر فكاتبه وخادعه ، وغالطه ، وأظهر الانقياد إليه والطاعة لأمره . فأجابه المعزّ يستدعيه إلى حَضْرته ليشاهدَه ، ويصطَفِيَه لنفسه ، ويُعيدَه إلى ولايته ؛ فلم يثق إلى ذلك وامتنع من الإجابة . ووافق ذلك علّةَ المعزّ ووفاتَه .

وكتب أفتكين فى أثناء هذه القضيّة إلى مولاه ببغداد يقول إنّ الشام قد صفا فى يدى ، فإن سيَّرت إلىَّ عسكرًا ومالاً وسلاحًا فتحتُ ديار مِصْر ، فبعث إليه الجواب : غرك عزك فصارَ قُصار ذلك ذُلّك فَاخْشَ فاحِشَ فِعْلك ، فَعَلّك تهدأ بهذا . فلما أَيِس أفتكين من إنفاذ العساكر إليه من بغداد اضْطُرّ عند ذلك إلى مُكَاتبة القرامطة ، فقصدوه ووافوه فى سنة خمسٍ وستّين وثلاثمائة ؛ وكان الذى أتاه منهم إسحاق ، وكسرى ، وجعفر ؛ فنزلوا بظاهر دمشق ، ووافاه معهم كثيرٌ من العجم . فأكرمهم أفتكين وحمل إليهم الميرة ، فأقاموا أيّامًا وتوجّهوا إلى الرّملة ، فخرجت إليهم عساكر السّاحل ، واقتتلوا ، فهزمهم أفتكين ، وقتل منهم مقتلةً عظيمة .

---

(١) خلع المطيع لله فى منتصف ذى القعدة ٣٦٣ هـ/أغسطس ٩٧٤ م ـ الكامل جـ ٨ ص ٦٣٧ ، وانظر نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٢٠١ وما بعدها .

(٢) انظر الكامل جـ ٨ ص ٦٥٦ وما بعدها .

وكان على السّاحل ظالم بن موهوب العقيلى ، فانهزم إلى صُور . وأحصيب القتلى فجاءُوا أربعة آلاف فارس ، فكاتب العزيزُ بن المعزّ أفتكين واستمالَهُ ووعَدَه إنْ وطِئَ بساطَه أنْ يرفع منزلته . فأبى إلّا مخالفته ، وأغلظ له فى الجواب . فاستشار العزيزُ وزيره يعقُوب بن كلّس فيما يفعله فأشار عليه بإخراج [٤٧] جوهر القائد إليه بالعساكر ؛ فشرع العزيز فى ذلك وجهّز جوهرا ، فلما سمع أفتكين ذلك عاد إلى دمشق واستشار أهلها ، وقصَد التَّوَجُّه لبلاد الرّوم ؛ وكان أهل دمشق يَكرهُون المغاربة لمخالفتهمْ لهُم فى الاعتقاد ، فطمأنُوه ، وثبّتُوه لِلِقاء عساكر مصر . وخرج جوهر فى العساكر العظيمة بعد أن استَصْحب أمانًا من العزيز لأفتكين [١]

فلما وصل جوهر إلى الرّملة كاتب أفتكين ولَاطَفَه ، وعرَّفه ما مَعَهُ له من الأمان ؛ فلاطفه أيضًا أفتكين فى الجواب واعتذر إليه بأهل دِمَشق ، فعلم جوهر أنّه لابُدّ من الحرب . فسار إليه ونزل بالشماسية [٢] فبرز إليه أفتكين ؛ ونشبت الحرب بين الفريقين مُدّة شهرين ، وقتل من الطائفتين عدد كثير . وظهر من شجاعة أفتكين ما عظُم به قدره فى النّفوس ، فأشار عليه أهل دمشق بمكاتبة أبى محمد الحسن بن محمد القرمطىّ واستدعائه لدفع عساكر مصر ، فكاتبه فأتاه القرمطىّ ، فعلم جوهر أنه إن أقام استْظهر أفتكين عليه ، فرجَعَ إلى طبريّة وتبعه أفتكين والقرمطىّ فقاتلاه ؛ فانْهزَم إلى عسقلان فتبعه أفتكين وحَصَره بها حتى أشرف جوهر على الهلاك ، فصالحه ، ووقع الصُّلح

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٣٨ ، الكامل جـ ٨ ص ٦٥٨ ، وكنز الدرر جـ ٦ ص ١٧٥ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٣١ ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٧ .

(٢) الشماسية : محلة بدمشق — معجم البلدان .

بينهما على أن يخرج جوهر وأصحابه حُفاةً عُراةً لا شيء يستُر عوراتِهم [١] .

وكان العزيز قد خرج من الدّيار المصريّة لإغَاثةِ جوهر ، فلقيه فى الطريق على تلك الحال ، فاخبره جوهر أن كتامة خذلوه فقبض عليهم ، ثم أظهر الغضب على جوهر وعزله عن الوزارة .

ذكر حرب أفتكين وأسره

وفى سنة ثمانٍ وستين وثلاثمائة ، فى المحرّم منها ، وصل العزيز بالله إلى الرّملة وأفتكين وعسكره بالطَّوَاحين ، ووقع المصَافّ بينهُما ، ونشبت الحرب فى يوم الخميس سابع الشهر . فانهزم أصحاب أفتكين وقتل عامتهم وشوهد العزيزَ فى هذا اليوم وقد انْفَرد عن عسكره وصلى على الأرض وهو يقول : اللّهم ارحمنى وارحم مَنْ وَرَائى من هذه القبلة ، وانصرنى ، فما أَسْتمدُّ النّصر إلّا منك ، وهو يعَفّر وجهه على التّراب ويبكى ، ثمّ ركب وقد انتصر عسكَره ، وجيء إليه بأفتكين أسيرًا ، اسره مفرج بن دغفل ابن الجرّاح الطائى[٢] أمير طيئ ، فجاء به وفى عنقه حبل ، فأحْسن إليه العزيز لِمَا رأى من شجاعته ، ومَنّ عليه ، ورجع به إلى مصر ، فأقام بها إلى أن مات فى سنة سبعين وثلاثمائة ، والحجّاب والأكابر يركبون إلى داره .

ولما رجع العزيز هنأه الناس بهذا الفتح ، ومدحه الشعرا . فمنهم الحسين

---

(١) عن الصلح بين أفتكين وجوهر ، انظر ذيل تاريخ دمشق ص ١٧ ، الكامل جـ ٨ ص ٦٥٩ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٤١ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٣١ .

(٢) « وسار العزيز وعلى مقدمته حسان بن على بن مفرج بن دغفل بن الجراح الطائى » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٤٢ .

ابن عبدالرحيم الزلالى بقصيدته التى أولها :

لَاحَ للحقِّ شهابٌ فوقَدْ فرأى قاصدُه أيْن قصد
بالعَزيز بنِ المعزّ اعْتَضدت دولَةُ الحقّ ، وبالله اعتضد
يا أميرَ المؤْمنين المرتَضَى وعمادَ الدّين ، والرّكن الأسدّ
بنزارِ بنِ معدٌّ ، وهما خير أبناء نزارِ بن معد[١]

ومنها :

أصْلح الشّامَ بما دبّره وتلافاه ، وقدْ كانَ فَسَد
أطفأ الفتْنةَ فيه ، بعدما أيْسرق التركىُّ فيها ورَعد

وكان عَوْدُ العزيز إلى مصر ووصُولُه إليها فى يوم الاثنين لست بقين من شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ وستّين وثلاثمائة .

وفى سنة تسع وستين وثلاثمائة ، فى ثامن عشر شهر ربيع الأول ، تزوّج العزيز بابنة[٢] عمه ، وأمْهَرَها مائتى ألف دينار عينا .

ذكر فتوح اللاذقية

وفى سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة ، فى حادى عشر شهر ربيع الأول ، ورد كتاب نزال[٣] يذكر فيه أنه وَاقَع الرُّوم بساحل الشّام ، وكَسَرهُم ، وأخذ

---

(١) المقصود فى أول البيت هو العزيز بالله ، وفى آخره الجدان الثامن عشر والتاسع عشر للرسول عليه الصلاة والسلام .

(٢) « وعقد العزيز على امرأة » فى اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٥٢ .

(٣) نزال والى طرابلس من قبل الخليفة الفاطمى . تكملة تاريخ ابن البطريق ص ١٦١ .

اللاذقية . ثم ورد نزال من الشّام فى العاشر من جُمادى الآخرة ، ومعه نحو خمسمائة نفر من الرّوم أسرى فى السّلاسل .

وفى هذه السّنة وصل من تنّيس رجل وامرأة بمولودة لها رأسان ووجهان وأربع أيدٍ كاملة الخلق فى جسد واحد ، وسنها دون الشهرين .

وفيها كان النَّوْرُوز لِسبعٍ خلَوْن من شهر ربيع الأول وأكل الناس [٤٨] الرُّطب قبل النَّوْروز على عادتهم ، وأصرمت النَّخل[١] ، ولم يَبْقَ عليها شيء ألبتّه ، ثم حمل النخل ثانيًا ، فأكل الناس البلح والبُسْر مرةً ثانية ، ولم يتّفق مثل ذلك فى زمنٍ من الأزمنة .

ذكر فتح قِنّسرين وحمص

وفى سنة ثلاثٍ وسبعين وثلاثمائة ، فى شهر ربيع الأول منها ، دخلت عساكر العزيز إلى قِنّسْرين وحمص ، وأقاموا الدعوة لهُ بها .

وفيها فى ثامن شوّال صرَف العزيزُ وزيرَه يعقوبَ بن كلّس واعتقله ، وحمل من مالِه خمسمائة ألف دينار ، ثم افرج عنه بعد ذلك ، وأعاده إلى الوزاره ، فى سنة أربع وسبعين ، ووهب له العزيز مالاً كثيرًا وألفًا وخمسمائة غلام تكون فى خدمته ، وإليهم تنسب حارة الوزيرية[٢] بالقاهرة .

---

(١) أصرم النخل : حان له أن يصرم أى يقطع . القاموس .

(٢) انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٥ .

وفى هذه السّنة اشتد الغلاء بمصر وبلغت حملة الدّقيق الجُشكار[١] أحد عشر دينارًا والعلامة اثنى عشر دينارًا ؛ والحملة ثلاثمائة رطل بالمصرى .

وفيها فى العشرين من ذى القَعدة ورد الخبر أنّ ابن حَمْدان[٢] خطب للعزيز بحلب والجزيرة كلِّها .

وفى سنة ستٍّ وسبعين وثلاثمائة خُطب للعزيز بمعرّة النّعمان .

وفى سنة ثمانٍ وسبعين وثلاثمائة استجدّ العزيز فى جامع مصر[٣] العين الفوّارة ، ودامت إلى أيّام العاضد ، فخربت فى الحريق فى سنة أربعٍ وستين وخمسمائة ؛ ثمّ جدَّدَها الملكُ العادلُ أبوبكر بن أيوب وفيها لَاعَنَ القاضى محمّد بن النُّعمان بين رجلٍ من لدن عقيل وامرأته .

وفى سنة ثمانين وثلاثمائة اختطَّ العزيز الجامعَ بالقاهرة ، وهو الجامعُ المعروف بالحاكم[٤] بباب الفتوح .

وفى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة خرج منير والى دمشق على العزيز بالله[٥] ، وقتَلَ ابن أبى العَواد[٦] الكاتب ولحقه بشارة الإخشيدى ، فسار

---

(١) الجشكار أردا انواع الدقيق ، والعلامة أجود أنواعه ، ومازال هذان الاصطلاحان يستعملان بهذا المعنى فى الريف المصرى .

(٢) هو سعد الدولة أبو المعالى شريف بن سيف الدولة أبو الحسن على ، الذى ولى حكم حلب فى الفترة من ٣٥٦ ـ ٣٨١ هـ/٩٦٧ ـ ٩٩١ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٤٤ .

(٣) المقصود جامع عمرو بن العاص والإشارة فيما يلى إلى الحريق الذى أشعله شاور فى الفسطاط ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٥١

(٤) جامع الحاكم بأمر الله ، نسب إلى الحاكم لأنه هو الذى أكمل بناءه ـ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٧٧ وما بعدها .

(٥) « ويلغ العزيز أن منير يكاتب صاحب بغداد » فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦٩ .

(٦) كان على الخراج بدمشق ــ اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦٩ .

نزال والى الرَّمْلة إلى دمشق ، فحاربه منير ، فهزمه نزال . وكانت الوقعة بمرج عذراء[1] فى تاسع شهر رمضان وهرب منير يريد حلب ، فأخذه العرب وأحضروه إلى دمشق لنزال ، فوجدُوا منجوتكين[2] قد وصل إليها فأخذ منيرًا وحرسه على جمل وإلى جانبه قرد وعليه طرطور .

وأقام منجوتكين بدمشق بقية سنة إحدى وثمانين . وأمده العزيز فى سنة اثنتين [وثمانين][3] بخمسمائة فارسٍ وخزانة وسلاح صحبة صالح بن على وجيلين التركى ، فاشتمل عسكر منجوتكين على ثلاثة عشر ألف فارس فطمع فى ملك حلب بحكم وفاة صاحبها سعيد الدولة[4] بن حمدان فحشد وخرج إليها فى ثلاثين ألف فارس ونازلها ، وفتحها فى شهر ربيع الآخر . وبقيت القلعة بيد أبى الفضل بن سعيد الدولة بن حمدان ولؤلؤ ، فكاتبا بسيل[5] ملك الرّوم ، فكتب لصاحب أنطاكية ، وهو من قِبَله ، بأنْ يجمع العساكر ويتوجَّه إلى حلب لنُصْرة صاحبها ، ودَفْعِ المغاربة عنها ، فسار إليها فى خمسين ألف راجل .

وقال المسبّحى : كان عسكر الرّوم سبعين ألفا وعسكر منجوتكين خمسة وثلاثين ألفا .

---

(١) مرج عذراء : نسبة إلى قرية عذراء بغوطة دمشق ــ معجم البلدان .

(٢) منجوتكين : كان ممن اصطنعهم العزيز بالله من الأتراك ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٦٩ .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح .

(٤) « سيف » فى الأصل ، وهو تحريف .
وهو سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد ، الذى حكم حلب فى الفترة من ٣٨١ ـ ٣٩٢ هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٠٢ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٤٤ .

(٥) هو الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى الذى ولى عرش الامبراطورية البيزنطية فى الفترة من ٩٧٦ ـ ١٠٢٥ م ــ أوربا فى العصور الوسطى .

فنزل الرّوم على جسر الحديد بين أنطاكية وحلب ، فأشار أصحاب منجوتكين عليه بقَصْد الرّوم ، فتوجه نحوهم (١) وانضم إليه جماعة من بنى كلاب ، فالتقَوْا فانكسرت عساكر الرُّوم ، وغَنِم منجوتكين ومن معه الغنائم الجزيلة ، وجمع من رؤوس الرُّوم مقدار عشرة آلاف رأس ، فسيَّرها إلى مصر .

وتبع منجوتكين الرّوم إلى أنطاكية ، وأحرق ضياعًا ، ونهب رساتيقها (٢) ، ورجع إلى حلب . فعمل لؤلؤ مقدم حلب على رجوع منجوتكين عن بلده ، فكاتب أبا الحسن بن المغربى وزير منجوتكين وخواصَّه أن يحسّنُوا (٣) له الرجوع إلى دمشق والعَوْد إلى حلب فى العام المقبل ، ووَعَدَهم على ذلك بالأموال الجزيلة . فذكروا ذلك لمنجوتكين فصادف هذا الرأى منه موقعاً لسَوْقه إلى دمشق ، فرجع عن حلب .

ولمّا بلغ العزيز رجوعُه عنها انزعج لذلك وعلم أنه بتدبير وزيره ابن المغربى ، فعزله عن وزارة منجوتكين ، وولى صالح بن على الرّوذبارى .

وفى سنة ثلاثٍ وثمانين وثلاثمائة ظهر من الجراد والكَمأة (٤) على جبل المقطم بمصر ما لم يعهد مثله ، فخرج النّاس إليه وجعلوا يدخُلون القاهرة

---

(١) « نحوهم إليهم » فى الأصل .

(٢) رستاق ، رسداق ــ رساتيق ، ومنها رزداق ، ورزداقات : القرى وما يحيط بها من الأراضى ، فارسى معرب ــ القاموس .

(٣) « أن يحسنا له » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٤) الكمأة ــ أكمؤ : نبات يسمى شحم الأرض ، مثل القلقاس ــ لا ساق له ولا عرق ، عديم الطعم ، يؤكل نيئًا ومطبوخًا ــ القاموس .

ومصر فى كلِّ يوم ، فبيع الجراد أربعة أرطال بدرهم ، والكمأة سبعة أرطال بدرهم .

وفيها فى يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة احترقت صناعة الإنشاء[١] بمصر بما فيها من المراكب الحربية وآلات السلاح وغير ذلك ، فاتُّهِم الأمراءُ بذلك ، فقتل منهم مائة وسبعة نفر ، ثم أحضر عيسى ابن نسطورس مَنْ بقى من الرُّوم فاعترفوا بذلك ، فأمر العزيز بالله أن تُنْهَب كنيسة الرّوم ، فنهبت وأُخذ منها ما ينيف عن تسعين ألف درهم .

[٤٩] ذكر وفاة العزيز بالله وشىء من أخباره وأخبار وزيره يعقوب بن كلّس ومَنْ وَلى بعده

كانت وفاةُ العزيز بالله بعد الظهر من يوم الثلاثاء لِلَيْلَتين بقيتا من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة بمدينة بلبيس فى مسلخ الحمام بعلق القولنج والحصاة[٢] .

وكان مولده بالمهديّة فى يوم الخميس لأربعَ عشرةَ ليلةً خلت من المحرّم سنة أربعٍ وأربعين وثلاثمائة .

---

(١) المقصود دار صناعة السفن ، وقد ورد الخبر فى أحداث شهر ربيع الآخر سنة ٣٨٦ هـ فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٩٠ .

(٢) « الحص » فى الأصل .

وكانت مدّة حياته اثنتين وأربعين سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما ، ومدّة ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا [١] .

وكان أسمر ، طويلاً ، بدينًا ، أشْهَل ، أعْيَن ، أصْهَب الشّعر ، عريض المنكبين . وكان لا يُؤْثر سفك الدماء .

قال المؤرخ : وجُدّد فى أيام العزيز من الأبنية قصر الذّهب [٢] ، وجامع القرافة [٣] والفوّارة وبستان السردوس [٤] ، وقصور عين شمس ، والمصلى الجديد بالقاهرة . وهو أوّل من بنى دار الفطرة [٥] ، وقرر الرّواتب ، وسنَّ إعطاء الضَّحايا للأولياء . وكان قريبًا من الناس ، بصيراً بالخيل والجوارح والصّيد .

ولده : أبوعلى المنصور ، وهو الحاكم بأمر الله .

---

(١) « وعشرة » فى الأصل ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ١٧٥ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٩٢ .
وفى كنز الدرر « وعشرة أيام » جـ ٦ ص ٢٣٨ .

(٢) قصر الذهب : قاعة الذهب ، وكان يقال لها قصر الذهب ، أحد قاعات القصر الكبير الذى هو قصر المعز لدين الله ـــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣٨٥ .

(٣) جامع القرافة : كان موضعه يعرف عند فتح مصر بخطة المغافر ، أنشأته السيدة تغريد والدة العزيز بالله ، على نحو بناء الجامع الأزهر ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م ـــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣١٨ .

(٤) السردوس : قرية قديمة ، تعرف اليوم باسم باسوس ، إحدى قرى مركز قليوب بمحافظة القليوبية ـــ القاموس الجغرافى ق ١ ص ٦٩ .

(٥) دار الفطرة : أنشأها العزيز بالله خارج القصر ، وهى عبارة عن حاصل أو مخزن لجمع أنواع الحلوى التى تفرق ، فى النصف الثانى من شهر رمضان ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٢٥ .

ذكر أخبار الوزير يعقوب بن كلّس

وكُنيَتُه أبو الفرج ؛ وهو أوّل من خوطب بالوزارة فى دولتهم . وكان يهوديًّا من أهل بغداد ، فهاجر منها إلى الشام ونزل الرّملة ، فجلس وكيلاً للتُّجار بها ، فاجتمع عنده مالٌ فاكْتَنَزَه ، وسافر إلى مصر . واتّصل بخدمة كافور ، فتاجر فى متاعٍ كان يُحيله بِثَمَنِه على الضياع ، فكان إذا احتيل على عملٍ بمالٍ لا يخْرُج منه حتى يعلم مستخرجه ونفقته وارتفاعه ، فعلم أحوال ديار مصر ، فأُخبر كافور به ، فقال : لو كان هذا مسلمًا لصلح أن يكون وزيرًا . فبلغه ذلك ، فأسلم على يَدَىْ كافور ، فى يوم الجمعة فى الجامع العتيق ، فى سنة خمسين وثلاثمائة .

ثم تعلّقت به مُطَالبات ديوانيّة فى الدولة الإخشيدية فهرب بسببها من مصر ، فلقى العسكر المغربىّ قاصدًا مصر فعاد فى صحبته ، فلمّا ملك القائد جوهر مصر تصرَّف ابن كلِّس فى الأمور الدِّيوانيّة مدّة أيام المعز ، ثم انتقل إلى خدمة ولده العزيز ، فاختصّ به وتمكّن منه ، واقتنى الأموال ، فاستوزره فى يوم الجمعة ثامن عشر شهر رمضان سنة ثمانٍ وستين[1] وثلاثمائة ؛ وأقطعه بمصر والشام فى كلِّ سنة ثمانية آلاف دينار ـ وبسطَ يدَه فى الأموالَ ، وكتب اسمه على الطُّرُز[2] ، وابتدأ بنفسه فى المكاتبات والعُنْوانَات · من يعقوب بن يوسف وزير أمير المؤمنين .

---

(١) « سنة خمس وستين » فى النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٥٨ ، وذيل تاريخ دمشق ص ٣٢ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٢٢٧ .

(٢) طراز ـ طرز : كلمة فارسية تعنى الرداء المحلى ، وكانت الحلية أشرطة من الكتابة ، ثم صارت الكلمة تطلق على الدار التى تصنع بها هذه الأشرطة ـ عن دار الطراز فى العصر الفاطمى انظر خزانة الكسوات ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٠٩ .

وتمكن من الدولة حتى أسْقَطَ المغاربة ، واستخدم المشارقة ، فى سنة سبعين وثلاثمائة ، من التُّرك والإخشيدية . وأذل جوهرًا الرُّومى غلامَ المعزّ وجعله على المرمّة . وكان [جوهر][1] يقول : قبح الله طُول هذا العمر الذى أحْوج لمثل هذا .

ثم نكبه العزيز النكبة التى ذكرناها فى سنة ثلاث وسبعين ، ثمّ أطلقه وأعاده إلى الوزارة ، وقال له : عُزِلتَ بالإغراء ، ورُدِدْت بصمم الآراء . ووهب له ألفًا وخمسمائة غلام كما ذكرنا[2] .

ولم يزل ابن كلس على ذلك إلى أن توفى لِستٍّ خلَوْنَ من دى الحجة ، سنَةَ ثمانين وثلاثمائة .

ولمَّا مرض مَرْضته التى مات فيها ركب العزيز إليه ، وعَادَهُ ، وقال له : وَدَدْتُ أنّك تباع فأبتاعك بملكى ، وولدى .

ولمّا مات أمر العزيز أن يُدفن فى داره فى قُبة كان بنَاها لنفسه ؛ وحضر جنازته وصلّى عليه ، وألحده فى قبره .

وبلغ قيمة الكفن الذى أنْفَذه العزيزُ له ، وهو خمسون ثوبا مثقلة سبعة آلاف دينار . وانْصَرف من دفنه ، وأظهر الحُزن وأغلق الدّواوين ثمانية عشر يومًا ، وعطّل الأعمال أيامًا ، واشتملت تركته على مال عظيم .

ولم يستوزر [العزيز][3] بعده أحدًا بل ضمن أموال الدّولة بجماعةٍ من المستخدَمين وجعل الغالبَ عليهم عيسى بن نسطورس النّصرانى ، فمال إلى

(١) [ ] إضافة للتوضيح .
(٢) انظر ما سبق .
(٣) [ ] إضافة للتوضيح .

النّصارى وقلدهم الأعمال . واستناب بالشام منشا بن إبراهيم اليهودىّ فقدّم اليهود ومال إليهم ، واطّرح المسلمين ، فوقَفَت للعزيز امرأة بيدها قصّة مكتوبٌ فيها : يا أمير المؤمنين بالّذى أعزّ النّصارى بابن نسطورس وأعزّ اليهود بمنشّا بن إبراهيم وأذلّ المسلمين بك إلا ما نظرت فى أمْرى وكشفت ظُلَامتى[1] ! فقبض العزيز على عيسى ، وكتب بالقبض على منشّا بالشام ، ثم شفعت ستّ الملوك ابنة العزيز فى عيسى فردّه إلى ما كان عليه ، وحمل إلى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار ، وشرط عليه استخدام المسلمين فى دولته وأعماله .

قضاته : أبوطالب محمد بن أحمد البغدادى إلى أن استعفى ، ثم على بن النعمان إلى أن تُوُفّى فى شهر رجب سنة أربع وسبعين ، فردّ القضاء إلى أخيه أبى عبدالله محمّد بن النّعمان .

حُجّابه : الأمير منجوتكين [٥٠] ، القائد باروخ .

ولمّا مات العزيز قام بالأمر بعده ولده أبوعلى المنصور .

ذكر بيعة الحاكم بأمر الله

وهو أبو على المنصور بن العزيز بالله نزار ، بن المعز لدين الله أبى تميم معدّ ، بن المنصُور بنصر الله أبى طاهر إسماعيل ، بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد ، بن المَهدى عبيد الله . وهو السادس من ملوك الدّولة العُبيدية ، والثالث من ملوك مصر والشام منهم .

بايع له أبوه العزيز قبل وفاته ببلبيس ، وكان ولّى قبله ابنَه محمدًا فهلك فى حياة أبيه العزيز ، ثم جُدّدت البيعة للحاكم بأمر الله صبيحة وفاة أبيه فى

---

(١) اتعاظ الحنفا ... أخبار الدول المنقطعة ص ٤١ ، الكامل جـ ٩ ص ٧٧ ، ص ١١٦ .

يوم الأربعاء لليلةٍ بقيت من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة ، ولبس أثواب الخلافة ، وتعمَّم بعمامةٍ عليها الجوهر ، وعمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة وستة أشهر[1] . وتولَّى كِفَالته برجوان[2] الخادم ، وقام بأمر الجيوش وتدبير الدَّولة أبومحمد الحسن بن عمّار ابن أبي الحسين ، وتلقب بأمين الدّولة ، وهو أول من لقب فى دولتهم بمصر ، وكان ذلك بوصية من العزيز .

قال : وكان الكتاميون قد أضعفهم الوزير ابن كلّس ، فأظهرهم ابن عمّار وردَّهم إلى ما كانوا عليه .

ذكر القبض على الوزير عيسى بن نسطورس النصرانى وقتله

كان القبض عليه فى تاسع شوال سنة ستٍّ وثمانين وثلاثمائة : وذلك أن ابن عمار اتّهمه بالإغراء عليه ومباطنة منجوتكين ، فبَسَط عليه العذاب ، واستخرج منه سبعمائة ألف دينار ، ثم أخرجه لثلاثٍ بقين من المحرم سنة سبع وثمانين على حمار ، إلى المقس ، وضرب عنقه هناك . رحم الله ابن عمار الآمر بقتله ، فلقد حُكى عنه مِنْ جَوْره على المسلمين واطِّراحِه لهم ما لَا مَزِيد عليه .

حكى الأثير بن بيان المصرى أنّ بعض رؤساء المصريّين كتب ورقةً يعاتب فيها عيسى على قُبْح فعله مع المسلمين وبالغ فيها فأجابه عيسى عنها يقول :

---

(١) ولد بالقاهرة فى ٢٣ ربيع أول ٣٧٥ هـ - اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٧٦ ، وورد أنه ولد فى ربيع الآخر فى أخبار الدول المنقطعة ص ٦٠ .

(٢) هو الأستاذ أبو الفتوح برجوان ، من خدام العزيز بالله ، قتل سنة ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩ م - وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٧٠ رقم ١١٢

«إن شريعتنا متقدّمة ، والدّولةُ كانت لنا ثم صارت إليكم ، فَجُرْتم علينا بالجزية والذِّلَّة ، فمتى كان منكم إلينا إحسَانٌ حتى تطالبونا بمثله!. إن مانَعْنَاكم قاتلتمُونا ، وإن سَالَمناكم أهنتمونا ، فإذا وجدنا لكم فرصة فماذا تتوقَّعُون أن نصنع بكم» . ثم تمثل فى آخرها ببيتين :

بنتُ كَرمٍ غصبُوها أمّها ثم داسُوهَا ، هوانًا ، بالقدم
ثم عادوا حكَّمُوها فيهمُ وأناهيك بِخصْمٍ قد حكم !

ذكر مخالفة منجوتكين بدمشق وحربه وأسره وسبب ذلك

كان سبب ذلك أن ابن عمار أظهر الكتاميين وبالغ فى الإحسان إليهم ، وخوَّلهم فى الأموال وبسط أيديهم ، وفرَّق فيهم ما خلَّفَه العزيز .

قال بعض المؤرخين : إن العزيز كان عنده عشرون ألف عليقة ما بين فرسٍ وبغل ، وجمل وحمار ، ومن الأموال ما لا يدخل تحت الإحصاء ، ففرَّق ابن عمار ذلك فيمن أراد اصطناعه . فلما كان فى سنة سبع وثمانين ومائتين انبسطت يد كُتامة وجاروا على النَّاس بديار مصر ، وامتدُّوا لِأَخْذِ أموالهم ، ثم اجتمع مشايخهم وحسَّنوا للحسَن بن عمار قتل الحاكم . فعلم برجوان بذلك ، فبالغ فى حفظ الحاكم وضم إليه شكر العضُدى من غلمان عضُد الدَّولة بن بويه . وكاتبا منجوتكين أمير دمشق يُعرِّفانه ما عزم عليه ابن عمّار ، وأنه بَسَط يد كتامة فى الأموال ومكنهم من الجوْر وأنهم حَصَرُوا الحاكم بقصره ، وأشارَا عليه أن يقصد مصر ليكون عوضًا عن الحسن بن عمّار .

فلما قرأ منجوتكين الكتاب جمع القُوَّاد والأجناد وغيرهم بجامع دمشق ، وعرَّفهم ما جرى من كتامة ، وبكى ، وخرّق ثيابه ؛ فأطاعه النّاس وحلفوا له على طاعة الحاكم وقتال ابن عمار . فأنفق فيهم الأموال ووثّق منهم ؛ وبرز من دمشق فى ستة آلاف فارس .

فلما تّصل ذلك بابن عمار عَظُم عليه وجمع وُجُوه كتامة وعرَّفهم الحال ، فقالوا : [٥١] نعرّف الناس أن منجوتكين قد عصى على الحاكم وخالف عليه ، وخرج عنه ، ليبالغوا فى قتاله ؛ ففعل ذلك وأظهره ، وفرَّق الأموال فى وُجُوه الدَّولة . ثم أحضر برجوان وشكر العضدى وقال لهما : أنا شيخٌ كبير وقد كثُر الكلام علىَّ والقول فىَّ ، وليس لى غرضٌ إلّا فى حفظ الإمام الحاكم . وسألهما أن يحلفا له على المساعدة فما وسعهما إلا أن حلفا [1] له . وندب من وقته أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح وقدّمه على العسكر ، وأمره بالمسير إلى الشام ، فخرج فى ستة عشر ألف فارس وراجل . فسار سليمان فى ثانى صفر ، ورحل منجوتكين إلى الرّملة فملكها ومعه مفرّج بن دغفل بن جراح ؛ وسار سليمان حتى نزل بظاهر عسقلان .

وتقابل الجيشان بعد ثلاثة أيّام ؛ وكان المصافّ فى يوم الجمعة لأربعٍ بقينَ من جمادى الأولى سنة سبعٍ وثمانين وثلاثمائة ، فاستأمنت العرب من أصحاب دغفل وغيرهم إلى سليمان ، فاستظهر ، وقتل من أصحاب منجوتكين أربعة قوّاد . وانهزم منجوتكين وأحصيت القتلى من أصحابه فجاءت ألفى فارس ، وامتلأت أيدى أصحاب سليمان . وبذل سليمان لمن

---

(١) « حلفوا » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

يُحضر منجوتكين عشرة آلاف دينار ومائتى ثوب . فأسره على بن الجرَّاح وحمله إلى سليمان ، فسَيَّره إلى مصر . فاصطنع الحسنُ بنُ عمّار منجوتكين ، وسار سليمان ونزل طبريّة .

فلما بلغ أهل دمشق ما اتفق لمنجوتكين نهبُوا دارَه . وبعث سليمان أخاه إلى دمشق فى خمسة آلاف فارس ، فلمّا وصلها أغلقُوا دونه الأبواب ، فكتب إلى أخيه بذلك . فسار إلى دمشق وتلطَّف بأهلها ، وطيّب قلوبهم ، ففتحوا له الأبواب . ودخل البلد واستقر أمره ، وثبت قدمه ، واستتبَّ له الأمر . فنظر فى أمر السّاحل واستبدل بولاية الجابرين ، وعزل [الأمير][1] جيش بن الصَّمصامة من طرابلس الشام واستعمل عليها أخاه . فحضر جيش إلى مصر ولم يجتمع به .

ذكر الفتنة بين المشارقة والمغاربة وهرب ابن عمار وما كان من أمره

كان سبب ذلك أنّ سليمان بن جعفر لما عَزَل جَيْشَ بنَ الصَّمْصامة عن طرابلس حضر [جيش][2] إلى مصر واجتمع بشكر الخادم وبرجوان سرًّا وعرَّفَهما بُغْض أهل الشّام فى المغاربة ، وكان جيش أيضًا من كتَامة وبيْنه وبين سُليمان عداوةٌ متمكنة ، فحسَّن لهما الفتك بالحسَن بن عمّار ، فوَقَع هذا الكلام من برجوان بالمَوْقِع العظيم مع ما تقدّم بينهما من الوحشة . وعلم برجوان أن القاهرةَ ومصر قَدْ خَلَتاَ من المغاربة ولم يبق فيهما إلاّ العدد القليل ،

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح .

وأمكنته الفرصة فانتهزها ، وراسَل الأتراك والمشارقة فى القَبْض على الحسن ابن عمّار .

وأحسّ ابن عمار بذلك فقصد الْمُبَادرة بالإيقاع ببرجوان وشُكر ، ورتّب جماعةً فى دهليز داره ، وقرر معهم الفتك بهما إذا دخلا إليه . وكان لبرجوان عيونٌ كثيرة فاطّلعوا على ما دبّره ابن عمار عليه . واتفق أنّ الحسن استدعاه [ومعه شكر](1) فركبا إلى داره ، وكانت فى آخر القاهرة مما يلى الجبل ، ومعهما جماعة من الغلمان . فلمّا وصلا إلى باب الدّار ظهرت لهما عين القضيّة فعادَ إلى القصر بسرعةٍ ، وجرّدَ الغلمانُ سيوفهم ، فَدَخَلَا قصر الحاكم . فثارت الفتنة ، واجتمع الأتراك والدَّيْلم والمشارقةُ وغيرهم على باب القصرِ ، وبرجوان يبكى ، وهم يبكون لبكائه ، وهو يحرّضهم على القيام بواجب خدمة الحاكم .

وركب الحسَن بن عمّار فى كتامة إلى الجبل ، وتبعه وجوه الدّولة ، فصار فى عددٍ كثير . وفتح برجَوان خزائن السّلاح وفرّقها على الغلمان وغيرهم ، وأحدقوا بالقصر ، فبرز منجوتكين وفارحتكين وينال الطويل فى خمسمائة فارسٍ من الأتراك . ووقعت الحربُ بينهم وبين الحسن بن عمّار إلى وقت الظهر من يوم الخميس سلخ شعبان سنة سبعٍ وثمانين وثلاثمائة ، فانهزم ابن عمّار ، ورجعت العامّة إلى داره فنهبوها ونهبوا خزائنه ؛ واستتر عند بعض العوامّ وتفرّقت عنه جموعه(2) .

وفتح برجَوان باب القصر ، وأجلس الحاكم ، وأوصل إليه النّاس ،

---

(1) [ ] إضافة للتوضيح .

(2) عن الآراء المختلفة فى أسباب هذه الفتنة وأحداثها ، انظر ذيل تاريخ دمشق ص ٤٨ ـ ٤٩ ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٢ .

وجدَّدَ له البيعة على الجند ، فلم يختلف عليه أحد ؛ وكتب الأمانات لوجُوه كتامة وقُوّاد الدَّيْلم وراسَلَهم بما يُطَيِّب قلوبهم فأتوْه . واستقام أمرُ برجَوان وكتب إلى أهل دمشق يُطيِّب قلوبهم ويأمرهم بالقيام على سليمان والإيقاع به ؛ فثار أحداث[1] دمشق وقصدوا دار أميرها سليمان ، فوجدُوه وقد الْتَهى بالشُّرب وانهمك على لذّاته ، فهرب على ظهر فرسه ونُهبت خزائنه [٥٢] وأمواله . وجعل برجوان الحسينَ بنَ القائد جوهر قائدَ القُوّاد ، وبعث جيش ابن محمد بن الصّمصامة إلى دمشق ، وتلطَّف فى إخراج الحسن بن عمّار من استتاره . فخرج ، فأعاد برجوان عليه ما كان بيده من الإقطاعات وحلَّفه ألّا يخرج من داره .

وفى سنة ثمانٍ وثمانين وثلاثمائة عصى أهل صُور على الحاكم بسبب فتنة برجوان وابن عمار وقتلوا جماعةً من جند المصريّين ، وثار بعضُ الملاحين من أهلها ، ويعرف بالعلاقة ، فملك البلد .

وثار مفرج بن دغفل الجراحى بالرّملة ونهبها .

فندب برجوان إلى الشام أبا الحسن عبدالصّمد ابن أبى يَعْلَى ، وضمّ إليه عسكرًا ، فسار من القاهرة لأربع عشرةَ ليلةً خلت من ذى القعدة ، سنة ثمانٍ وثمانين[2] . فلمّا وصل إلى الرّملة حضر إليه من جند السّاحل خمسة آلاف

---

(١) أحداث : جمع حدث ، ومعناها الشبان الصغار ، وكان الأحداث يكونون نوعًا من رجال الشرطة أو الحرس ، وقاموا بدور هام فى مدن سوريا . خاصة فى حلب ودمشق ، والفارق بين الأحداث والشرطة فى طريقة تجنيدهم المحلية غير الرسمية ، فهم رجال مسلحون من أهل البلد ــ انظر هامش ٣ فى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٣٩ ، ومادة حدث فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) « وثلاثين » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح يتفق وسير الأحداث ، وانظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨ ـ ١٩ .

فارس ، ووجد سليمان بن جعفر [بن][1] فلاح بها فقبض عليه وسيَّره إلى مصر . وسيّر إلى صور أبا عبدالله الحسن بن ناصر الدّولة وياقوتا الخادم ومَنْ معه مِنْ عبيد الشّراء ، فوقعت الحرب بينهم وبين أهل صور ، ثم طلبوا الأمان فأمِّنوا . وأسر العلاقة الثائر ، وكان قد استنصر بالروم ، فسُلخ وهو حيّ ، وحُشِى جلده تبنًا وصلب . وكان قد ضرب على الدينار بصُور « عزّ بعد فاقة ، وشطارة بلباقة ، للأمير العلاقة » .

وفيها فى شعبان ورد الخبر بفتح أنطاكية على يد [الأمير][2] جيش بن محمد ابن الصّمصامة .

ذكر قتل برجوان الخصىّ

كان مقتله فى ثالث عشر[3] شهر ربيع الآخر سنة تسعين وثلاثمائة .

وسبب ذلك أنه كان لِفرْط إشفاقه على الحاكم منَعه من الرّكوب خوفًا عليه ، وَمنعه من العَطاء لغير مستحقّ ، فثقُل على الحاكم ، ولم يَبْقَ للحاكم فى الأمر غير الاسم ، واستبدَّ برجوان بالأمر . وكان عند الحاكم خادمٌ اسمه ريدان الصقلبى قد اختصّ به وأنس إليه ، فشرع فى إغراء الحاكم على برجوان . وكان من جُملة ما قال له : إن هذا يقصد أن يفعل بكَ كما فعل كافور الإخشيدى مع أولاد سيِّده ، فبَاطَن الحاكم الحُسَين بنَ جوهر قائدَ

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح .

(٣) « فى سادس عشر » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ، ص ٢٥ ، « سادس عشرى » فى المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣ .

القواد على قتل برجوان ، ووعده أن يفوّض إليه تدبير الأمر بعده . ثم ركب الحاكم وبرجوان فى بعض الأيام إلى بستان اللُّؤلؤة [١] على عادته ، فمال عليه ريدان بسكين فضربه بها فى ظهره وأخرجها من صدره . فقال برجوان للحاكم : غُدرت ، فزعق على الخدَّام فاحتزُّوا رأسه ، فانزعج النّاس لذلك ولبسوا السلاح . فسبق الحاكم ودخل القصر ، وحضر شكر الخادم والجند وأحاطوا بالقصر ظنًّا منهم أن الحسن بن عمار تمَّم على الحاكم حيلة . فلما رأى الحاكم ذلك تراءى للنّاس فترجلوا وقبَّلوا الأرض ، وسكنت الفتنة .

ثم فتح الحاكم القصر واستدعى أكابر النّاس وقال لهم : أنكرت على برجوان حاله وقتلته ، واستدعى الحسين بن جوهر وأمره بصرف الناس إلى منازلهم ، فصرفهم .

وركب مسعود الحاكمى إلى دار برجوان فأحاط على ما فيها ، وكان من جملة ما وجد له ألف سروال[٢] دبيقى بألف تكّة حرير ، وناهيك بموجودٍ يكون هذا من جملته .

وإلى برجوان هذا تنسب حارة برجوان [٣] التى بالقاهرة .

واستقرّ الحسين بن جوهر فى تدبير الدّولة فى ثالث جُمادى الأولى من السنة .

وقتل فى أثناء هذه الفتنة الحسن بن عمّار الكتامى . وتوفّى جيش ابن محمد بن الصّمصامة أمير الشام بدمشق فى ثالث عشر ربيع الأول منها ،

(١) « كان الحاكم فى بستان يعرف بدويرة التين والعناب » بالقصر ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤ . اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٥ .

(٢) « سراويل » فى الأصل .

(٣) انظر المواعظ والأعتبار جـ ٢ ص ٣ .

وندب الحاكم لولايتها القائد تميم بن اسماعيل المعزّى الملقب بفحل .

ذكر ما فعله الحاكم بأمر الله وأمَر به من الأمـور الدالَّة على اضطراب عقله بعد أن استـقل بالأمر بمفرده

كان أول ذلك أنه نهى فى سادس شهر رجب سنة تسعين وثلاثمائة أن يخاطِب الناس بعضهم بعضًا بسيدنا أو مولانا ، وألّا يخاطَب بذلك غيره(١) . وفى سنة إحدى وتسعين ، فى شهر المحرم ، أمر أن تُزيَّن مصر ويفتح الناس دكاكينهم ليلاً ، ولازَم الركوب بالليل ، وكثر ازدحام النَّاس ، وصار البيع باللّيل أكثر من النهار ، وأكثر الناس الوفود . وغلب النساء على أزواجهم على الخروج ، فأمر فى رابع عشر الشّهر ألّا تخرج أمرأة من العشاء لهذا السبب ، فلم يخرجْنَ بعد أمره(٢) .

وفى سنة ثلاثٍ وتسعين حصل للحاكم مرض المانخوليا ، فأخذ فى قتل أرباب الدّولة وذوى المناصب وغيرهم ، وصدر عنه من الأفعال [٥٣] ما نذكره إن شاء الله تعالى بتواريخه على حكم السّنين .

ذكر بناء الجامع المعروف بجامع راشده

كان ابتداء عمارته فى سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة . وكان سبب إنشائه أن أبا المنصور الزيات الكاتب زرع هذا الموضع

---

(١) قرئ بذلك سجل فى القصر ــ اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٥ .

(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٨ .

وبنى للنَّصارى فيه كنيسة فرفع أمْرُه للحاكم ، فأمر بهدم الكنيسة وأن يُجعَلَ موضعُها مسجدًا ، ثم أمر بالتوسعة فيه ، فخربت مقابر اليهود والنّصارى ؛ وجمع فيه الجمعة لليلتين بقيتا من الشهر ، وبُنِى فيه منبر من الطّين ، وصَلّى فيه ابن عصفورة القارئ. ثم ظهر بعد ذلك أن المحراب وُضع على غير صحّة فهُدِم ما كان ارتفع من البناء ، ثم بنى عليه ما هو عليه الآن[١] .

ذكر بناء الجامع المعروف بالحاكم الذى هو بين باب النصر و[باب][٢] الفتوح بالقاهرة

قد ذكرنا أن العزيز بالله كان قد اختطّه فى سنة ثمانين وثلاثمائة ، ومات العزيز بالله ولم تكمل عمارته[٣] .

فلما كان فى سنة ثلاثٍ وتسعين وثلاثمائة ، لليلتين بقيتا من جمادى الأولى ، أمَرَ الحاكمُ بالله بإتمامه . وقيل إن الوزير يعقوب بن كلّس ، وزير العزيز ، هو الذى كان بدأ بعمارته وقدّر له أربعين ألف دينار ، فأخرج له خمسة آلاف دينار ومات ولم يكمل ، فابتُدِئ بعمارته فى هذا التاريخ .

وفى هذه السنة قتل الحاكم مقداد ابن حسن كاتب جوهر ، ضُرِبَ عنقُه وأحرق بالنار ، وفيها لليلتين خَلَتا من ذى الحجة قتل ريدان الصقلبى

---

(١) المقصود بالآن عصر المؤلف ، فليس لهذا الجامع وجود فى العصر الحالى ــ وعن جامع راشده انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٨٢ وما بعدها .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح تتفق وسياق الكلام .

(٣) « صلى العزيز بالله فى جامعه صلاة الجمعة وخطب » وذلك فى ٤ رمضان ٣٨١ هـ قبل أن يكتمل بناؤه ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٧٧ .

الخادم ، وكان خصيصا به مكينا عنده ، وإليه ينسب الريدانية التى هى بظاهر القاهرة خارج باب النّصر . وفيها قتل منجمه العكبرى صاحب الرّصد الحاكمى وكان شديد الاختصاص به . ونادى مُنَاديه بإباحة دم المنَجِّمين وأنهم كفار ، فهربوا ولم يبق بالديار المصرية منجم .

وفى سنة أربع وتسعين وثلاثمائة اشتدت السّوداء على الحاكم ، فصار يركب فى الهاجرة حمارة بلقاء والسّياف بين يديه ، فيقتل من يخطر بخاطره قتله . فقتل خلقًا كثيرًا وغرَّق وأحرق ، حتى قتل الركابية[1] وأصحاب السّتر والوزراء والقضاة ؛ واستمرّ به هذا الحال .

وفى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، فى رابع عِشْرِى المحرم قُرِئ سجل من الحاكم بمنع الملوخيا[2] والمتوكلية[3] والترمس المعفن والدَّلِّيَس[4] وعمل الفقاع[5]، وعن ذبح البقر[6]، وألا يدخل أحد الحمّام إلَّا بمئزر ، ولا تكشف امرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ، وألا يباع من السّمك ما ليس له قشر .

---

(١) الركابية : هم الذين يحملون السلاح حول الخليفة عند ركوبه فى المواكب ، ولهم زى خاص بهم ، وكانوا يسمون أيضًا صبيان الركاب الخاص ، وهم الذين عرفوا فى عصر المماليك باسم السلاحدارية والطبردارية ــ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٠ .
وهم غير الركبدارية الذين يحملون الفاشية بين يدى السلطان فى العصور التالية ــ صبح الأعشى جـ ٤ ص ٧ ، ١٢ .

(٢) « وعلل تحريم الملوخية بميل معاوية إليها » أخبار الدول المنقطعة ص ٤٤ .

(٣) « لنسبتها للمتوكل » الخليفة العباسى ، نفس المصدر ص ٤٤ .

(٤) نوع من السمك الصغير لا قشر له ــ انظر ما يلى .

(٥) شراب كالرمان يصنع من الشعير ــ القاموس .

(٦) « إلا ما يصلح للحرث » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٥٣ .

وفى رابع صفر منها كتب على المساجد بسب الصحابة رضى الله عنهم ، وعلى حيطان الشوارع والقياسر[١] ، ثم نهى عن ذلك فى سنة سبع وتسعين . وأمر اليهود والنصارى الا الحَبابرة بلبس السّواد[٢] ، وأن يحمل النَّصارى الصُّلبان على أعناقهم ، وأن يكون طول الصليب ذراعا وزنته عشرة[٣] أرطال ، وعلى أعناق اليهود قوامى الخشب والجلاجل ، وألا يركبوا شيئًا من المراكب المحلّاة ، وأن يكون ركبهم من الخشب وألا يستخدموا أحدًا من المسلمين ولا يركبوا حمارًا لمكّار مسلم .

وفى سابع عِشْرِى صفر منها نودى بالقاهرة ألا يخرج أحد بعد عشاء المغرب إلى الطريق ولا يظهر بها .

وفى سادس عشر شهر ربيع الآخر منها أمر بقتل الكلاب فقتلت عن آخرها [٤] .

وفى تاسع عشر جمادى الآخرة فتحت دار بالقاهرة وسميت دار الحكمة [٥] ، وجلس فيها الفقهاء وحُملت إليها الكتب من خَزائن القصور ، ونسخ النّاس من الكتب ما اختاروه ؛ وجلس فيها القُرّاء والفقهاء والنّحاة واللّغويون ، والأطباء والمنجّمون ، بعد أن فُرشت وزُخرفت ، وعُلّقت السّتور على جميع أبوابها وممرَّاتها ، وجعل لها قُوّام وخُدَّام . وحصل فى هذه الدّار من الكتب والخطوط المنسُوبة ما لم يُرَ مثله ، وأجريَت بها الأرزاق .

---

(١) القياسير » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٢) « وشعارهم بالسواد شعار الغاصبين العباسيين » ــ اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٥٣ .

(٣) حدد فيها بعد بخمسة أرطال ــ انظر ما يلى فى أحداث سنة ٤٠٣ هـ .

(٤) « فقتلوا عن آخرهم » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٥) دار الحكمة ، وتعرف أيضًا بدار العلم ـ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٥٨ .

وفى هذا الشهر مُنِع الناس من العبور إلى القاهرة ركّاباً مع المكّارية ، ومُنع من الجلوس على باب الزُّهومة[١] إلى أقصى [٥٤] الباب [المعروف][٢] بباب الزمرد .

وفى سنة ستٍّ وتسعين وثلاثمائة ركب الحاكم فى مَوْكبه ومعه أرباب دولته فمرّ على الموضع الذى يُباع فيه الحطَبُ وقد تراكمت الأحطابُ فيه بعضُها على بعض ، فوقف وأمر أن تؤجَّج النّار فى بعضها ؛ ثم أمَر بقاضى القضاة بمصر ، وهو الحسين بن على بن النعمان ، فأُنزل عن دابّته ورُمِى به فى تلك النّار حتى هلك[٣] ، ولم يتقدَّم له مقدّمة توجب ذلك[٤] . ثم مرَّ كأن لم يصنع شيئًا .

ذكر أبى ركوة وظهوره
وما كان من أمره إلى أن قتل

كان ظهوره فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، وادّعى أنه الوليد بن هشام[٥] بن عبد الملك بن عبد الرحمن الأموى ، وتلقّب بالثائر بأمر الله

(١) باب الزهومة : من أبواب القصر الفاطمى الكبير الشرقى ، فى آخر ركن القصر ، وكانت حوائج الطعام تدخل من هذا الباب ، ولذلك عرف باسم باب الزهومة ، أى باب الزفر — المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٣٥ .

(٢) إضافة تتفق وسياق الكلام — انظر أيضًا اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٥٧ .

(٣) باب الزمرد : من أبواب القصر الفاطمى الكبير الشرقى ، وكان يتوصل منه إلى قصر الزمرد فعرف به — المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٣٥ .

(٤) « ضربت رقبته ثم أحرق بالنار » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٥٩ .
عن سبب قتل القاضى انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٥٩ .

(٥) « من ولد هشام بن عبد الملك » فى الكامل جـ ٩ ص ١٩٧ .

والمنتقم من أعداء الله . ونحن الآن نذكر أخباره وابتداء أمره ، وكيف تنقّلت به الحال إلى أن كان منه ما نذكره إن شاء الله تعالى .

كان مولده بالأندلس ونشأ بها ثم خرج منها بحالٍ سيّئة يجوبُ البلاد إلى أن وصل إلى القيروان ، ففتح بها مكتبًا يعلّم الصبيان فيه القرآن ، ثم توجه منها إلى الإسكندرية ومنها إلى مصر فأقام بها وبأَرْيَافِها يعلم الصبيان ، ثم توجه إلى الفيّوم وعلّم بها الصبيان أيضًا ، وعاد إلى مصر ، وخرج إلى سبك الضحاك[1] فنزل به على رجل يعرف بأبى اليمن ، ثم نزل بقَرَنْفيل[2] وسار منها إلى البحيرة فنزل على بنى قرة . وكان الحاكم قبل ذلك فى سنة خمسٍ وتسعين قدْ بعث إليهم جيشًا مقدّمه أبوالفتيان التّركى وقتل الحاكم بعضهم وحرّقهم بالنّار ، فوجدهم قد أجمعوا على أن يلتقُوه بجموعهم ويحاربُوه ، ولم يَعْلموا من يُقدّمونه عليهم ، فعرّفهم أبوركوة[3] أنّه من بيت الخلافة ، فانقادوا إليه وبايعوه بالخلافة ، ونُعِتَ[4] بأمير المؤمنين ، وانضاف إليهم من لوانة ومزاتة وزناتة جمع كثير ، وجاءوا إلى مكانٍ بالقرب من برقة .

فلمَّا بلغ الحاكمَ أمرُه جهز العساكر لقَصْده ؛ فأول من خرج بها ينال الطَّويل التركى فى منتصف شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، فالْتَقَوْا

---

(١) سبك الضحاك : من القرى القديمة من أعمال المنوفية ، ويسميها العامة سبك التلات ، لأن سوقها الأسبوعي ينعقد يوم الثلاثاء ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٢ ص ٢١٧ .

(٢) قرنفيل = قرانفيل : من القرى القديمة ــ تابعة لمركز قليوب من أعمال القليوبية ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ١ ص ٥٧ .

(٣) « وإنما كنى أبا ركورة لركوة كان يحملها فى أسفاره ، سنة الصوفية» ـ الكامل جـ ٩ ص ١٩٧ .

(٤) « وبعث » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع ما جاء فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٦٠ ، وورد « وخاطبوا أبا ركوة بالإمامة » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٤٥ .

واقتتلوا ، فقُتل يَنال وعامّة مَنْ معه من العساكر ، وغنموا ما معهم .
وسار أبوركوة إلى برقة وأخذها بعد حصارٍ ، فاستفحل أمره .

وشرع الحاكم فى تجريد العساكر إليه ، فجهّزها فى شهر ربيع الأول سنَة ستٍّ وتسعين وعليها ابن الأرمنية ، فسار إلى المكان المعروف بالحمام(١) ، فلقيه بنو قرّة فى جماعتهم فهزموه وقتلوه وانتهبوا ما كان معه .

فندب الحاكم عسكرًا وقدّم عليه أبا الحسن ابن فلاح وجلين وإبراهيم بن الأفرنجية ؛ ثم ندب القائد أبا الفتوح فضلَ بن صالح لقتاله ، فخرج إلى أرض الجيزة فى رابع شوال وأنفق فى العساكر ، وكوتب على بن الجرّاح بالوصُول إلى الحضرة ، فورَدَ من الشام فى سابع عشر شوّال . وورد الخبر بنهب الفيوم ، فبعث الحاكم سريّة لحفظه ، وسار الفضل بن صالح عن مكانه إلى ذات الكوم(٢) فى رابع ذى القعدة ، وكَسر أبوركوة عسكرَ ابن فلاح ونهب سواده والخزائن التى معه ، وقَتَل من أصحابه جماعةً ؛ فاضطرب النّاس واشتد خوفهم ، وباتوا فى الدكاكين والشوارع . وتوجّه القائد فضل للقاء أبى ركوة ، فالتقيا بموضعٍ يُعرف برأس البركة ، على نصف مرحلة من مدينة الفيوم ، لثلاثٍ خلَوْن من ذى الحجّة . واقتتل العسكران قتالاً شديدًا وانجلت الحرب عن قتل عامّة عسكر أبى ركوة . وانهزم أبوركوة إلى بلاد النّوبة وتبعه الفضل إلى الأعمال القوصية .

---

(١) الحمام : من القرى القديمة ، غربى الاسكندرية بنحو ٧٤ كم على السكة الموصلة بين الإسكندرية ومرسى مطروح — القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٤ ص ٢٤٩ .

(٢) ذات الكوم : من القرى القديمة بمركز إمبابة ، من أعمال الجيزة — القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ٦١ .

وذكر بعض المؤرخين أن الحاكم لمَّا أعياهُ أمرُه دَسَّ إليه جماعةً من أولياء دولته وأمرهم بطاعته ، وأن يَذْكُروا انحرافهم عن الحاكم بسبب قتله لهم ؛ ففعلوا ذلك ، فاغترّ به[1] ، ووصل معهم إلى أوسيم على ثلاثة فراسخ من القاهرة ، فالتقى هو والفضل كما ذكرنا ، واتّبعه ، فبلغه أنه وصل إلى بلاد النوبة فكتب إلى متملكها يقول إنْ عدُوّ أمير المؤمنين الحاكم فى بلادك ، وكتب إلى صاحب الجبل وهو نائب صاحب دنقلة ومقره ببلد الدّو[2] فيما بين دنقلة وأسوان . وندب الفضل من العسكر من توجّه لقبضه ، وكان المساعد على مَسْكه الشيخ أبو المكارم هبة الله ، شيخ بنى ربيعة وقيل إنه وجد فى دير يعرف بدير أبى شنودة فى أطراف النوبة ، فمسك . وكان الطعن به فى شهر ربيع الآخر سنة سبعٍ وتسعين وثلاثمائة .

وعاد القائد فضل إلى القاهرة فوصل إلى بركة الحبش فى يوم الجمعة ، النّصف من جمادى الآخرة منها ، وتلقّاه أكابرُ الدّولة الحاكميّة ؛ وركب فى سابع عشر الشّهر وأبوركوة على جمل وعلى رأسه طرطور ، وطيف به على هذه الصفة وخلفه قِرد يصفعُه[3] ،ثم صُلب [٥٥] وضُربت عنقه وجُهّزت

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٦٢ .

(٢) الدو ، وتسمى أيضا الدر ، بلدة قديمة من بلاد النوبة ، وإليها ينسب مركز الدر بمحافظة أسوان ـــ القاموس الجغرافى ق ١ ص ٥٨ .

(٣) « وكان بمصر رجل شيخ يعرف بالإبزارى ، ومن عادته إذا خرج خارجى أن يصبغ طرطورًا كبيرا بألوان الصبغ ، ويعلق عليه من أصناف الخرق الملونة ، ويبتاع قردًا ويعلمه أن يصفع الطرطور بدرة يتخذها له ، فإذا ظفر بالخارجى وأريد إشهاره أركب جملاً وأحضر الإبزارى ، ورسم له أن يلبس الطرطور ، ويقيم القرد من خلفه يصفعه بالدرة ، ويركب معه على الجمل ، وينادى عليه يمينًا وشمالاً حتى يشاهده الناس إلى الموضع الذى يقتل فيه ، فإذا فرغ من ذلك أطلق له مائة دينار وخمس قطع ثياب على رسم ثابت فى الديوان » ـــ أخبار الدول المنقطعة ص ٤٧ ، وانظر أيضًا النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢١٦ .

رأسه إلى البلاد .

ونقل بعض المؤرخين أنه اعتُبرت الأكياس التى خرجت مع القائد فضل لمّا خرج للقاء أبى ركوة ، وكان زنتها فوارغ خمسة وعشرين قنطارًا . وقيل إنّ جملة ما أنفق ألف ألف دينار والله أعلم .

وفى سنة ثمانٍ وتسعين وثلاثمائة أمر الحاكم بقتل أصحاب الأخبار حيثما وجِدوا ؛ وذلكْ أن كان قد قتل خلقًا كثيرًا لسعايتهم ، ثم اطّلع على خبائثهم وأنهم صَيرّوا ذلكَ معيشةً ، فقتلهم عن آخرهم .

وفيها أمر بهدم كنيسة قمامة بالبيت المقدس ، فكتب ابن خيران صاحب ديوان الإنشاء فى ذلك «خرج أمر الإمامة بهدم كنيسة قمامة [١] ، فلْيُصيَّر طولها عرضًا ، وسقفُها أرضًا» .

وفى سنة ثمانٍ وتسعين أيضًا ، فى سابع عشرى [٢] شعبان ، عزل القائد حسينْ بن جوهر عن جميع ما كان يتولّاه ، وكُتب سجل بتوليته صالح بنْ على بن صالح الروزبارى فانصرف الحسين إلى داره وأُمِر بلُزومها ، ثم خُلِع عليه وركب فى رابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعٍ وتسْعين وثلاثمائة [٣] .

وفى سنة تسعٍ وتسعين وثلاثمائة ، فى يوم الجمعة التاسع من شهر رمضان ، حضر النّاس إلى القصر وقُرِئ سجل لصالح بن علىّ لقب فيه بثقة الثقات للسّيف والقلم ، وخلع عليه ، وقُيِّد بين يديه بغلات وخيل .

---

(١) كنيسة قمامة = كنيسة القيامة : وأصل تسميتها بالقمامة يرجع إلى أن القبر المقدس بنى على الموضع الذى كانت توضع به القمامة خارج سور بيت المقدس ، وهو الموضع الذى يقال أن المسيح صلب فيه ــ معجم البلدان .

(٢) « فى يوم الجمعة سابع شعبان » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٧٢ .

(٣) فى تاسع عشر ذى القعدة سنة ٣٩٨ هـ ـ فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٧٤ .

وفيها مرض الحاكم فداواه بن معشر ، فأعطاه عشرة آلاف دينار .

وفيها سخط الحاكم على وزيره ابن المغربى وقتله ، وقتل أخاه وابنَه ، وهرب ابنُه الآخر إلى الشام .

وفيها فى تاسع عشر ذى الحجّة أمر الحاكم بهدم كنائس القنطرة التى فى طريق المقس وكنائس حارة الرّوم ، فهُدم جميع ذلك .

وفى سنة أربعمائة ، فى يوم الخميس حادى عشر شهر رمضان ، جمع الأولياء . وأصحاب الدواوين فى صحن الإيوان بالقصر ، وخلع على أبى نصر بن عبدون ، وقرئ سجله ، ولقّب بالكافى ، وولى مكان صالح بن علىّ بن صالح الروزبارى . وكانت مدّة ولايةِ صالح سنتين وأربعةَ عشر يومًا .

ذكر خروج آل الجرّاح على الحاكم ومتابعتهم لأبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى وما كان من أمرهم

كان سبب ذلك أنّ نصر بن عبدون كان بينه وبين بنى المغربى عداوة متمكنة ، فسعى بهم عند الحاكم وأغراه ، إلى أن أمر بضرب أعناقهم ، وذلك فى ثالث ذى القعدة سنة أربعمائة ؛ فقتل أخَوَى الوزير وولدَه وثلاثةً من أهل بيته ، واستتر الوزير أبو القاسم بن المغربى وهرب إلى الشام ، فى تاسع ذى القعدة منها ، والتجأ إلى حسّان بن المفرج بن دغفل بن الجرّاح ، واستجار به فأجاره ؛ وأنشده عند دخوله عليه :

أمّا وقدْ خيّمتُ وسْط الغابِ   فلْيقسُوَنَّ على الزّمانِ عتابى
يترنَّم الفُولاذُ دُون مُخيَّمِي   وتَزَعْزَعُ الخرْصان دون قِبابى
وإذا بَنيْتُ على الـثَّنِيَّة خيمةً   شُدَّت إلى كسر القنا أطنابى

وهى قصيدةٌ مطولة مدح بها آل الجرّاح . فلما سمعها حسّان هشّ لها وجدّد من القول ماطاب به قلبُ الوزير وسكَنَ جأشه .

ثم حسّن ابن المغربى لبنى الجراح أنّ يخرجوا عن طاعةِ الحاكم ، فوافقوه على ذلك ، وقتلوا نارتكين أحد الأمراء الحاكميَّة المقيم بالرَّملة ؛ ثم حسَّن لهم أن يُقيموا أبا الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى خليفةً ، وهو أمير الحرمين يومئذٍ[١] ، وأن يُحضروه من مكّة ؛ فأجابوه إلى ذلك ، وأسلوا إلى مكّة وأحضروه إليهم . فلمّا قرُب أبوالفتوح من ديار بنى الجرّاح خرجُوا إليه وتلقَّوْه ، وقبّلوا الأرض بين يديه ، وبايعوه بالخلافة ولقبوه الرّاشد بالله . فحينئذ صعد أبوالقاسم بن المغربى المنبر وخطب خطبة يحرّض الناسَ فيها على الخُروج على الحاكم ، فأشار إلى مصر وقرأ : ﴿ طسٓمٓ * تِلكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فى

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٤٩ ، المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٥٧ .

الْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا [مِنْهُمْ] [١] مَاكَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[٢] .

فلمّا سمع الحاكم ذلك أزعجه ، فندب الجيُوش لقتالهم ، مع ياروخ تكين العزيزى ، فاعترضه حسّان بن رفح والدَّارُوم[٣] ، والْتَقَوْا واقتتلُوا ، فانهزمت أصحاب ياروخ تكين ، وأسر هو ونقل إلى الرّملة ، وسمع غناء جواريه وحَظَاياه بحضُوره وهو مقيّدٌ معه فى المجلس ، وارتكب معَه الفواحش العظيمة ، ثم قتله صبرًا بين يديه .

وبقى الشّام لبَنى الجرّاح . فشرع الحاكم [٥٦] يأخذهم بالملاطفَة ، ورَاسَلهم ، وبذل لهم الرَّغائب والأموال ، والأقمشة والجوارى ، وقرّر لكلّ واحدٍ منهم خمسين ألف دينار عينًا ، واستمالهم عن أبى الفتوح . فاتصل ذلك بأبى الفتوح ، فقال لهم : إن أخى قد خرج بمكة ، وأخاف أن يستأصل مُلكى بها . فأعادوه إلى مكّة فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وأربعمائة . وكان الحاكم قد أرسل إلى الوزير أبى القاسم بن المغربى وكتب له أمانًا واستماله ، وبنى على أهله تُربًا فى القرافة وهى[٤] ستّ ترب ، وتعرف بالسبع قباب إلى هذا الوقت .

ولما ورد أمان الحاكم على أبى القاسم وهو مقيمٌ عند بنى الجراح أجابهُ برسالةٍ وضمَّن أولها بيتين :

---

(١) [ ] إضافة لاستكمال الآية .

(٢) سورة القصص رقم ٢٨ الآيات ١ ـ ٦ .

(٣) الداروم = الدارون : قلعة بين غزة والعريش ، على ساحل البحر ــ معجم البلدان .

(٤) « وهم » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

وأنت ، وحَسْبِى أنت ، تعلم أنّ لى لسانًا أمام المجد يَبْنِى ويَهدمُ[١]
وليس كريمًا[٢] من تُباسُ يمينُه فيرضى ، ولكن منْ يُعَضُّ فَيَحْلُم

وسأل آل الجرّاح أن يجهّزُوه إلى العراق فجهّزوا معه من أخرجه من بلاد المغاربة ؛ وعاد بنُو الجرّاح إلى طاعة الحاكم . وأقام ابن المغربى بالعراق إلى أن توفى بمَيَّافَارقين[٣] فى سنة ثمان عشرة وأربعمائة ؛ وحمل إلى الكوفة فدفن بها . ولمّا فارق آل الجراح قدم بغداد وتقلد الوزارة لمشرف الدولة بن بويه كما ذكرنا ذلك فى أخبار الدَّولة البويْهيّة[٤] .

ذكر تفويض السّفارة والوساطة لأحمد بن محمد القشورى وقتله

وفى سنة إحدى وأربعمائة فى يوم الخميس رابع المحرّم استدعى الحاكم النّاس على طبقاتهم إلى القصر فركبوا[٥] معه إلى خارج باب الفتوح ، ثمّ عاد إلى قصره وأمَرَ من مكان بالموكب بالنُّزول إلى القصر ، فنزلُوا وحضروا فى الإيوان . فخرج مِنْ عند الحاكم خادمٌ فأخذ بيد أحمد بن محمد المعروف بالقشورى[٦] الكاتب وأخرجه من بين القوم ، ثم عاد القشورى وقد خُلِع

---

(١) « نبنى ونهدم » فى الأصل .
(٢) « وليس كريم » فى الأصل .
(٣) ميافارقين : مدينة بديار بكر فى إقليم الجزيرة شمال العراق — معجم البلدان .
(٤) انظر نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٢٤٦ وما بعدها .
(٥) « فركب » فى الأصل .
(٦) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٨٤ وما بعدها .

عليه وبيده سجلّ ، فأخذه أبو على العبّاسى الخطيب وقرأه على النّاس ، فإذا هو يتضمَّن تقليده السِّفارة والوَساطة بين النَّاس وبين الحاكم ، وتفويضَ الأمور إليه . وصرْفَ ابن عبدون . وأقام [القشورى][١] إلى الثالث عشر من الشّهر ، فقُبض عليه وقتَ الظّهر وهو فى مجلس ولايته ، وضَربت رقبتُه ، ولُفَّ فى حصير ورمى . فكانت ولايته عشرة أيام . وكان سبب ذلك إكرامه للقائد حسين بن جوهر وتعظيمه له وكثرة سؤَّاله الحاكم فى معناه .

وفوضت هذه الوظيفة فى يوم الأحد رابع عشر الشّهر لأبى الخير زُرعة[٢] ابن عيسى بن نسطورس النصرانى الكاتب ، على عادة من تقدّمه ، ولم يخلع عليه إذ ذاك ، ثم خلع عليه فى سابع عشر شهر ربيع الآخر منها .

وفى السادس والعشرين منه قُرئَ بجامع مصر سجلّ يتضمّن النّهى عن معارضة الحاكم فيما يفعلّه ، وتركَ الخَوْض فيما لا يعنى ، وإعادة حَيَّ على خيرْ العَمَل فى الأذان ، وإسقاطَ الصّلاة خيرٌ من النّوم ، والنّهىَ عن صلاة التراويح والضّحى .

وفى ثانى عشر شهر جمادى الآخرة دخل قائد القواد الحسين بن جوهر ، والقاضى عبدالعزيز بن النعمان إلى القصر ، وكان قد خلع عليهما فى ثانى صفر ، فلمّا أرَاد الانصراف بعث إليهما زُرعة بن نسطورس يقول إن الخليفة يريدكما لأمر يختارُه . فجلسا حتى انْصرف النّاس ، فقُتلا وقُتِل معهما أبوعلى أخو الفضل بن صالح ، ووقعت الحوطة على دارهم .

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٢) « ولقب الشافى » ، وتوفى سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م ــ الإشارة ص ٢٨ .

وفى سنة إحدى واربعمائة قامت دعوة الحاكم بالمدائن ، وهى على نصف مرْحلة من بَغداد ، وخُطب له بمدينة الأنبار وقصر ابن هبيرة[١] من العراق بدخول مالك بن عقيل بن قِراوش بن المقلد[٢] فى طاعته وإظهار تَشيُّعه ، وذلك فى أيام الخليفة القادر العباسى[٣] . ثم بلغ قراوشَ بن المقلّد اختلالُ أمر الحاكم وقتلُه أربابَ دولته وأن المانخوليا غلبت عليه ،فأعاد الخُطبة العبّاسيّة

وفيها قام بدعوة الحاكم بمدينة الجامعين وهى الحلة[٤] وماجاورها من العراق الأمير على[٥] بن مزيد الأسدى ، وكان قد هَزَم خفاجه واستولى على بلادهم وخطب فيها للحاكم .

وفى سنة اثنتين وأربعمائة تاب الحاكم ونهى عن شرب الخمر وعن كلّ ما يُعمل منه ، كالزبيب والعسل ؛ ونفى المغانى ، وحرّم الملوخيا ، ومنع أن تُقبَّل الأرضُ بين يديه ، وأن تُقبَّل يدُه ، وأن يخاطَبَ بمولانا ؛ واقتُصِر على قولهم السّلام على أمير المؤمنين .

---

(١) قصر ابن هبيرة = الهاشمية : بالكوفة ــ معجم البلدان .

(٢) من الأسرة العقيلية التى حكمت الموصل وغيرها ، وبنو عقيل قبيلة عربية كبيرة ، فهى إحدى القبائل الخمس التى يتكون منها بنو كعب ، وكان حاكم الموصل فى ذلك الوقت معتمد الدولة أبو المنيع قراوش بن المقلد ، والذى ولى أمر الموصل فى الفترة ٣٩١ ـ ٤٤٢ هـ/١٠٠١ ـ ١٠٥٠ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٣) هو أبو العباس أحمد القادر بالله ، ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة ٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ/٩٩١ ـ ١٠٣١ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ .

(٤) الحلة : تقع فى مواجهة مدينة « الجامعان » أو الجامعين ، على نهر الفرات بالعراق ، وكانت تعرف بحلة بنى مزيد أو الحلة السيفية ــ معجم البلدان .

(٥) هو على بن مزيد الأسدى ، سند الدولة ، الذى ولى حكم الحلة فى الفترة من ٤٠٣ ـ ٤٠٨ هـ/١٠١٢ ـ ١٠١٧ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

وفى سنة ثلاث وأربعمائة قطعت كروم العنب بأسْرها ورُميت إلى الأرض ودُرست بالبقر ، وجُمع ماكان من الخمر بالمخازن وأهريق فى البحر . وفيها كسرت جرار العسل ، وأمر اليهودُ والنّصارى بلبس العمائم السّود إلا الجبابرة ، ومُنعوا أن يستخدموا [٥٧] المسلمين ، وأن يركبوا مع المكّارية ، وإذا دخل النّصرانى الحمّام يكونُ الصليب فى عنقه ، واليهودى الجلجل ، ثم أفردَ بعد ذلك حمّاماتٌ للنّصارى وحمامات لليهود ، وأسلم جماعة من النصارى فى شهر ربيع الأول .

وفيها فى شهر ربيع الآخر شدَّد الحاكم على النّصارى واليهود فى حَمل الصُّلبان ، وأن يكون الصّليب فى طول ذراع وزنتُه خمسة أرطال[١] ؛ فلما أضرّ ذلكَ بهم دخلُوا فى دِين الإسْلام .

وفيها فى شهر رمضان أمر الحاكم ببناء مُصلّى العيد[٢] بسفْح الْمُقطّم وأحسن بناءه ، وكان قبل ذلك ضيِّقًا صغيرًا ، فهدمه الحاكم وبناه على ما هو عليه الآن .

ذكر هدم كنائس الدّيار المصرية

وفى العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وأربعمائة أمر الحاكم بهَدْم جميع الكنائس بالديار المصرية فسأل جماعةٌ من النّصارى أن يتَولّوْا هدم كنائسهم بأيديهم وأن يبنُوها مساجد ، فوهب الحاكم جميع الكنائس بجميع

---

(١) سبق أن حدد بعشرة أرطال — انظر ما سبق فى أحداث سنة ٣٩٤ هـ .

(٢) مصلى العيد : شرقى القصر الكبير ، من خارج باب النصر — المواعظ والاعتبار جـ ١ص ٤٥١ .

ما فيها من أوانى الذّهب والفضة وغيرها من الحواصل والمآكل وما لَها من رِباعٍ وأملاك لجماعة من الصّقالبة والفرّاشين والسعدية ، ولم يَرُدَّ من سأله شيئًا منها ، وكُوتب كلُّ متصرِّفٍ فى عملٍ من الأعمال بهَدم ما فى عمله من الكنائس ، فهُدمت من جميع أعمال الديار المصرية .

وفى ثالث شهر رجب منها قرئ سجل بتَحْبِيس ضياعٍ ومواضعَ على الفقَراء والفُقَهاء والمؤَذِّنين بالجوامع .

وفى رابع عشر جمادى الآخرة منها أمر الحاكم بعمل رصد[1] بالقرافة ، فنزل القاضى مالك بن سعد وأشرف على الرّصد وابتدأ بعمله ولم يتم .

ذكر البيعة بولاية العهد لأبى القاسم عبد الرحيم

وفى ثالث شهر ربيع الأول ، سنة أربعٍ وأربعمائة[2] عهد الحاكم بولاية العهد بعده لابن عمّه أبى القاسم عبدالرّحيم بن إلياس بن أحمد بن المهْدى ،فبُويع بولاية العهد ، وكُتب اسمه على السّكة ، ودُعِىَ له على المنابر .

وفيها منع الحاكم النّساء من الخروج مطلقًا ليلاً أو نهارًا ، ومن دُخول الحمّامات ، وطلوع الأسطحة ، ومَنَع الأساكِفَة من عمل الخِفَاف لهنّ ، وشدّد فى ذلك ، فشكى إليه التُّجار من ذلك ، فأمرهم أن يحملوا ما يبيعونه

---

(١) الرصد : مكان مرتفع لرصد الكواكب ، أتمه الأفضل بن بدر الجمالى ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٢٥ وما بعدها .

(٢) « وسبعمائة » فى الأصل ، وهو تحريف .

فى الأسواق ويطوفوا به فى الدّروب ويبيعوا النساء ، وأن يكون للمرأة شىء مثل المِغْرَفَة بساعدٍ طويل تتَناول به ما تبتاعهُ من الرّجل . ثمَّ أمر بإطلاق العجائز والإماء فى يوم الخميس تاسع شهر رمضان منها ، فخرج بعض النّساء إلى القصر داعياتٍ للحاكم ، فعلم بهنّ فأعاد المنع والتشديد فى يومه ، ولم يسمح إلا للنّساء المتظلّمات للشّرع ، والخارجات للحجّ ، والإماء للبيع ، والأرامل ، وغواسل الأموات ، والأرامل اللّواتى يبعن الغزل .

ذكر إحراق مصر وقتال أهلها .

كان سبب ذلك أن الحاكم ركب فى ذى القَعدة سنة عشر وأربعمائة ، فوجد صورة امرأة مترِدّية عُملت من قراطيس ، وفى يدها جريدة عليها ورقة فيها سَبٌّ للحاكم وأسلافه وذكرهُ بقبيح الفعال . فلمّا وقف عليها أمر بنَهْبِ مصر وحرْقِ بَعْض دُورِها ، وفرّق السلاح على السّودان والعبيد ، فتبادَرُوا إليها وفعلوا ما أمرهم به . فقام أهلُها وقاتلوا قتالاً شديدًا ثلاثة أيّام ، ثم أرسلوا إلى الحاكم يستقيلون فلم يُقِلهم ، فعاوَدُوا القتال ، وأحرق من مصر جانب جيد . فلما رأى الحاكم أن الأمر يؤول إلى التّلاف كفّ عنهم بعد أن تلف من العقار ما لا تُحصى قيمته ، وسيَّر عيادًا الصقلبى إليها فى جماعة من الجند لتسكين الفتنة ، فشاهد أمرًا عظيمًا ، فعاد إلى الحاكم وذكر له قُبْح النّازلة وعِظَم الفادحة وقال : لو أن بسيل ملك الروم دخل مصر لما استحسن أن يفعل فيها هذا الفِعل . فغضب الحاكم من كلامه وأمر بقَتلِه ، فقُتل .

وفى سنة عشرٍ وأربعمائة أمر الحاكم ولىَّ العهد ، عبدالرّحيم بن إلياس ، بالخروج إلى دمشق واليًا عليها ، ثم عزله فى شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وأربعمائة .٦

وفى شهر رجب[٥٨]منها اشتدّ غضب الحاكم على أهل مصر فأحرق السّاحل ، ووقع النّهب فى الأسواق والقياسر[١] .

وسنذكُر إن شاء الله السّبب الذى أوجب خروج الحاكم على أهل مصر إلى أن فعل بهم ما فعل .

ذكر غيبة الحاكم بأمر الله وعدمه والسّبب الذى نقل فى إعدامه، وشىء من أخباره وسيرته غير ما تقدم

قال المؤرخ : لمّا كان فى آخر ليلة الاثنين السّابع والعشرين من شوّال سنة إحدى عشرة وأربعمائة ،ركب الحاكمُ حمارَه وخرج على جارى عادته ، فأصبح عند قبر الفقاعىّ [٢] بقرافة مصر وردَّ مَنْ كان معه ، ففُقِد من ذلك الوقت . ولم يزل النّاس يخرجُون ويلتمسون رُجوعه إلى يوم الخميس سلخ الشهر ، ثم خرج مظفّر حامل المظلّة فى يوم الأحد الثّالث من ذى القَعدة ومعه جماعةُ الأمراء والكتاميين إلى حلوان ، وأمعنوا فى الكشف . فبينما هُم كذلك إذْ بَصُروا بالحمار الّذى كان الحاكم قدْ خرجَ عليه وهو على قرنة الجبل ، وقد ضربت يداه بالسيف فأثر فيهما ، فتُتبّع الأثر فإذا أثر الحاكم وأثر آخر خلفه وآخر أمامه ، فقَصُّوه حتى انتَهوْا إلى بركة القصب شرقىّ حلوان ، فأنزلوا

---

(١) « القياسير » فى الأصل .

(٢) « القضاعى » فى الأصل ، والتصحيح من كنز الدرر جـ ٦ ص ٢٩٩ ، النجوم الزاهرة : جـ ٤ ص ١٨٥ ، ووفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٩٧ .
وعن تربة الفقـاعى انظر الكواكب السيارة .

رجلاً من الرَّجالة فوجد ثياب الحاكم فى البركة ، وهى سبع جباب [١] مزرّرة لم تُحلّ أزرارها ، وفيها آثارُ السكاكين ، فعادوا إلى القصر ولم يشكُّوا فى قتله .

وأما السبب الذى نُقِل فى إعدامه فقالوا : كان السّبب فى ذلك أنّ ستّ الملك أختَ الحاكم وقع بينها وبينه ، فتنكّر لها وهمَّ بقتلها . وكرهت أمورًا صدرت منهُ منها أنه رأى بعض قهَارِمَتِها داخلةً إلى القصر ، فقال لها : قد سمعت أنّكم تجمعون الجموع وتدخل إليكم الرّجال ؛ وَالله لأُقتلنّكم أجمعين .[٢] وتكرر هذا القول منه ، فأعملت ستّ المُلك الحيلة فى إعدامه ، وخرجت ليلاً إلى دار الأمير سَيْف الدّين حسين ابن دوَّاس [٣] ، فدخلت عليه واختلت به وعرّفته بنفسها أنها ابنةُ العزيز بالله أخت الحاكم ؛ فعظّمها ، وبالغ فى إكرامها . فقالت له : إنّك قد علمتَ ما فعل أخى وما صدَرَ منه من سَفْك الدّماء وقتل الأولياء وَوُجُوه الدّولة بغير سبب ، وقد عَزَمَ على قَتْلِك وقَتْلى . فقال لها : فكيف الحيلة فى أمره ، فأشارت : أن تُجَهِّزَ إليه رجالاً يقتلونه إذا خرج إلى حُلوان فإنه ينفرد بنفسه هناك ، ووعَدَتْه أن يكون هو المدبّر لِدَولة ولده والوزير لها . فاتّفقا على ذلك وتحالفا عليه ، ورَجَعت هى إلى قصرها .

فلمّا ركب الحاكم وانْفرد عند وُصُوله إلى المقطّم على عادته ، كان ابنُ دوّاس قد أحضر عشرةً من العبيد ، وأعطى كلَّ واحدٍ منهم خمسمائة دينار ، وحلّفهم ، وعرَّفَهم كيف يقتلونه . فسبقُوه إلى الجبل فى تلك اللّيلة ؛ فلمّا

(١) « أربع جباب » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ٣٠٠ .

(٢) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٥٧ ــ ٥٨ ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨٥ .

(٣) كان رئيس الكتاميين ، وكان قد حلف ألا يدخل القصر خيفة من الحاكم ــ أخبار الدول المنقطعة ص ٥٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨٥ .

انفرد خرجُوا عليه وقتلوه بالمكان الّذى ذكرناه ، وخرج الموكب لتلقّيه على العادة ، فطال انتظارُهم له فلم يرجع ، فعادُوا ؛ ثمّ خرجوا ثانيًا وقَصُّوا الأثر ، فوجدوا حمارَه وثيابَه ، كما ذكرناه ، فعادوا إلى القصر وطَلَبوه من أخته ستّ الملك وقالوا : إن مولانا ما جَرَتْ عادتُه بهذا . فقالت لهم : إن رُقعته قد وصلت إلينا أنه يأتى بُكرة الغد . فتفرّقوا . فبعثت الأموال إلى وجوه الدّولة والقوّاد على يد ابن دوّاس ، وبقى الأمر مستمرًّا والحال متماسكًا إلى عاشر ذى الحجة من السنة ، فجرى بين العساكر وبين ستّ الملك كلامٌ كثير أوجب أنها أخرجت إليهم ولده أبا الحسن عليًّا فى يوم الأضحى فبايعه الناس ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخباره . هذا ما حكى فى سبب إعدامه .

وأما سيرته وأفعاله وأخباره ، فقد قدّمنا منها على حكم السنين ما قدمنا ، فلنذكر خلاف ذلك .

قال المؤرخ : كان الحاكم سيئ الاعتقاد ، كثير التنقّل من حال إلى حال . كان فى ابتداء أمره يلبس الثّياب الفاخرة والمذهبة ، والعمائم المنظومة بالجوهر النّفيس ، ويركب فى السُّروج المُحلّاة ، ثم ترك ذلك على تدريج أن ينتقل منه إلى لباس الْمُعْلم غير المذهب ، ثم لباس الساذج ؛ ثم زاد به الأمر حتى لبس الصُّوف والشواشى وركب الحمير ، وأظهرَ الزُّهد ، وكثر استطلاعه على أخبار النّاس ، فلم يَخْفَ عليه خبرُ رجلٍ ولا امرأةٍ من حَواشيه ورعيّته وكان يأخذ بيسير الذُّنوب ، ولا يملك نفسه عند غضبه ؛ أفْنى خلقًا كثيرًا ، وأقام هيبة عظيمة . وكان مع طُغيانه المستمرّ وفَتْكه ، وسفكه للدّماء ، وظلمه ، يركب وحده تارةً وفى الموكب أخرى ، وفى المدينة طورًا وفى البرِّيَّة آونة ، والنّاس كافَّةً على غاية الهيبة له والخوف منه ، وهو بينهم كالأسد

الضارى[(١)]

ثم عَنَّ له أن يدّعى الإلهية ، ويصرّح بالحُلول والتّناسخ ، ويحملَ النّاس عليه . وألزم النّاس أن يسجدُوا له مدة إذا ذُكر ؛ فلم يُذكر فى محفل أو غيره إلّا سجَد منْ سمع بذكره ، وقبّل الأرض إجلالاً له [٥٩] .ثم لم يُرْضه ذلك[(٢)]

فلمّا كان فى شهر رجب سنة تسع وأربعمائة ظهر رجلٌ يقال له حسن ابن حَيدرة الفَرغانى الأخرم يرى حُلُول الإله فى الحاكم ويدعو إلى ذلك ، ويتكلّم فى إبطال النُّبوَّة[(٣)] ، ويتأوّل جميع ما وردتْ به الشريعة[(٤)] . فاستدعاهُ الحاكم [وقد كثر تبعه][(٥)] وخَلَع عليه خلعا سنيَّة ، وحملهُ على فرسٍ بسرجه ولجامه ، وركّبه فى موكبه [وذلك][(٦)] فى ثانى شهر رمضان منها .

فبينا هو يسير فى الموكب فى بعض الأيام تقدّم إليه رجلٌ من الكرخ [وهو على جسر طريق المقس][(٧)] فألقاه عن فرسه ، وَوَالى الضَّرب عليه حتى قتله [وارتج الموكب][(٨)] ، وأُمْسك الكرخى فأمر الحاكم بقتله ، فقتل لوقته ونهب الناس دار الأخرم فى القاهرة . وكان بين الْخَلْع عليه وقتله ثمانية أيام[(٩)] .

ثم ظهر رجل من دعاته فى سنة عشر وأربعمائة يقال له حمزة اللباد ، أعجمى من الزُّوزن ، ولازم الجُلوسَ فى المسجد الذى عند سقاية ريدان خارج باب

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٥٠ ـ ٥١ .
(٢) المصدر السابق ص ٥١ .
(٣) « النبوات » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٥١ .
(٤) « ما ورد فى الشريعة » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٥١ .
(٥) ، (٦) ، (٧) ، (٨) إضافة من أخبار الدول المنقطعة ص ٥١ .
(٩) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٥١ ــ ٥٢ .

النصر ، وأظهر الدعاء إلى عبادة الحاكم وأنّ الإله حَلّ فيه . واجتمع إليه جماعةٌ من غُلاة الإسماعيليّة ، وتلقّب بهادى المُستجيبين.وكان الحاكم إذا ركب إلى تلك الجهة خرج إليه من المسجد وانفرد به وحادثه ، وتمادَى على ذلك وارتفع شأنه ، واتّخذ لنفسه خواصَّ لقّبهم بألقاب ، منهم رجل لقّبه بسَفير القُدرة وجعله رسولاً له ، وكان يُرسله لأخذ البيعة على الرؤساء على اعتقاده فى الحاكم ، فلم يمكنهم مخالفتُه خوفًا على نفوسهم من بطشه[1] .

ثم نبغ شابٌّ من مولّدى الأتراك اسمه أنوشتكين النجارى[2] ، ويعرف بالدّرزى ، فسلك طريق الزُّوزَنى وكثُرت أتباعه .وكان الحاكم أيضًا يقفُ معه ويخلو به ، وسمّى نفسه سَنَدَ الهادى[3] وحيَاة المستجيبين . واستمر الأمر على ذلك إلى الثانى عشر من صفر ، سنة إحدى عشرة[4] وأربعمائة ، فاجتمع جماعةٌ من أصحاب حمزة الزُّوزَنى على خيول وبغال ، ودخلوا الجامع العتيق رُكبانًا وهم يعلنون بمذهبهم ، وجاء ثلاثةٌ منهم إلى الموضع الذى يجلس فيه قاضى القضاة ، والمتحاكمون جُلُوس ، ينتظرونه ، فتكلّموا بكلام أنكره الناس وضجُّوا بالتكبير والتهليل والثناء على الله عزَّ وجلَّ ، واجتمع أهل مِصْرَ بالجامع من كلّ جهةٍ ، ومضى بعضُ الناس لِلقاء القاضى فلقوه وعرَّفوه ما جرى ، فجاء إلى المجلس ، فتقدَّم إليه أحد الثلاثة فناوله رُقعةً من الزوزنى[5] فى أولها : « بسم الحاكم الله الرّحمن الرَّحيم » يأمُره فيها بالاعتراف

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٥٢ .

(٢) « البخارى » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٥٣ .

(٣) « الهادين » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٥٣ .

(٤) « أربع عشرة » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٥٣ ، وهو تحريف .

(٥) « الروزة » فى الأصل ، والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة ص ٥٣ .

بالهيئة الحاكم . فلم يُجبه القاضى بشىء سوى أن قال حتى أدخل إلى حضرة مولانا.فطاوَله الكلام ، فقتله العوامّ وقتلوا رفيقيه والجماعة الّذين بالجامع أبْرَحَ قَتل . ووثَبَ العوامُّ على قوم كانوا يَعْرفونهم بهذا المُعتقد فقتلوا مَنْ وجدُوه منهم وحرَّقوهم(١) .

فلمّا اتّصل ذلك بالحاكم أمر بعزل أصحاب الشُّرَط وولّى غيرَهم ، وأمَرَهم بطلب من اعْتَدَى على أصحاب الزُّوزنى ، فقبضوا على جماعةٍ منهم يناهزون الأربعين ، فقُتِلوا فى أوقاتٍ متعدّدة . واجتمع الأتراكُ وقصدُوا دَار الزُّوزَنى فغلَّقها عليه وعلى مَنْ عنده ، وقاتلهم من أعْلاها ، فهدَمُوها ونهبُوا ما فيها ، وقتلوا نحوًا من الأربعين رجلاً مِمَّن كان معه فيها . وفرّ الزُّوزَنى فلم يُقْدَر عليه ، ودخل إلى القصر ، فأخفاه الحاكم فيه . فاجتمع الأتراك ولبسُوا سلاحَهُم وطلَبُوه من الحاكم ، فوعدهم بتسليمه لهم ، فانصرفوا . ثمَّ ركبُوا فى اليوم الثّانى وطلبوه منه ، فخرج جوابُه لهم أنّه قُتل ؛ فرجعوا إلى ريدان فى طلب الزُّوزَنى فلم يجدوه . وأظهر الحاكم الْغَضَبَ على كافَّة الجند طول شهر ربيع الأول ، ثم رضى عنهم فى الرّابع من شهر ربيع الآخر .

وتحقق [الحاكم](٢) أنّ أوّل من جَرَّأ عليه العسْكر وحملهم على قتل دُعاته أهلُ مصر ، فأمْهَلهُم حتّى دخل جُمادى الآخر ، ثم ابْتدأ فى التّدبير عليهم .

فأوّل ما عمل أنْ سلَّط عليهم الرَّجّالَة ومُقدَّمى السُّودان وغيرهم ، وقرَّر

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٥٣ .

(٢) [ ] إضافة من أخبار الدول المنقطعة ص ٥٤ للتوضيح .

معهم أن ينزلوا إلى مصر على هيئة المناسر[١] ، فيكبسون الحمّامات ومنازل أهل مصر ؛ فكانوا يفعلون ذلك نهارًا . وتكرّر ذلك منهم ، فاجتمع النّاسُ ووقَفُوا لِلحاكم وسألوه أنْ يكفَّ عنهم أيديَهم ، فما أجابهم بجواب. فتزايد بهم الضَّرر إلى أنْ بقيت الرَّجّالة تكبسُ مساكنهم ويأخُذُون ما فيها ، ويُعرُّونهم فى الطُّرقات ، ويفتحون دكاكين البزَّازين وغيرهم ، وينهبون ما فيها ويحرقون أبوابها بعد ذلك ، والنّاس يستغيثون فلا يُغاثون . ثم نزل بعد ذلك جمع كثير بعد أن غُلِّقت الدّرُوب ، وكانت بقيت تغلق قبل الغروب ، وتخلّلوا البلدان ، وفتحوا ما وراء الجامع من النّحاسين والأبزاريين[٢] والسُّكريّين ودار الشّمع ، وغير ذلك مما يقرب من هذه الأسواق ، وأخذوا ما أرادوا منها ، وأفسدوا بقيّة ما فيها ؛ فكانوا يخلطون العقاقير والأصناف بعضَها ببعْض ، والمياهَ المختلفةَ بالزّيت ؛ ويُفسدون ما لا يمكنُهم حمله . وطرحُوا النّار فى أبواب القياسر[٣] المجاورة للجامع بعد ذلك ، فأخذ النّاس فى الانتقال إلى القاهرة ، وضجُّوا بالابْتهال إلى الله تعالى فى كشف ما بهم من[٤] البلاء .

قال : وكان الحاكم قبل ذلك قد ضيّق على النّصارى واليهود كما [٦٠] قدمناه ، وأمرهُم بالتّظاهر بالإسلام ؛ فأسلم بعضُهم وهرب بعضهم إلى بلاد الروم ؛ وهدم جميع الكنائس . فلمّا كان فى شهر جمادى الآخرة ، سنة إحدى عشرة وأربعمائة ، أذِن لهم بالرُّجوع إلى دينهم ، فارتدُّوا ، وأذن لهم

(١) المنسر — المناسر : الجماعة من الخيل ، أو قطعة من الجيش بين المائة والمائتين ، لا تمر بشىء إلا اقتلعته — القاموس .

(٢) « البزازين » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٥٦ .

(٣) « القياسير » فى الأصل .

(٤) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٥٥ - ٥٦ .

ببناء الكنائس فأعادُوها . فاشتدّ غضبُ العسكر وحَنَقُهم ، فاجتمع الأتراك والكتاميّون وتحالفُوا على قتل الرَّجّالة الذّين فعلوا بالمصريين ما فعلوا ، فوقع القتال بينهم ، فقُتِل الرَّجّالة أبْرَح قَتْل ، ورأى أهلُ مصر فيهم وفى حرمهم ومنازلهم ما أسلاهم[1] عما جرى عليهم .

وتمادَى الحال على ذلك والحربُ قائمةٌ بينهما ، والحاكم على حَالِهِ فى ركوبه وهيبته ، فإذا بلغَهُ ركوبُهم للحرب تركَهُم تارةً وجاء أخرى ، فإذا رأَوْه تفرَّقوا لهيبته . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن فُقد الحاكم فى التّاريخ الّذى ذكرناه .

ذكر مولد الحاكم ومدّة عمره وملكه وأولاده وكتّابه ووسائطه وقضاته ونقش خاتمه

كان مولدُه بالقاهرة فى يوم الخميس لستٍّ بقين من شهر ربيع الآخر[2] ، سنة خمس وسبعين وثلاثمائة . فكانت مدَّةُ عمره ستًّا وثلاثين سنة وستة أشهر ويومين ؛ ومدَّة ولايته خمسًا وعشرين سنة وشهرًا واحدًا إلّا ثلاثة أيام إلى يوم ركوبه الذى عدم فيه .

أولاده : أبو الحسن على ، وهو الظاهر أبو الأشبال الحارث ؛ مات فى حياته لعشرٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر سنة أربعمائة .

كتّابه ووسائطه : أمين الدّولة أبو محمد الحسن بن عمّار[3] ، ثم الأستاذ

---

(١) « باسلامهم » فى الأصل ، والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة ص ٥٦ .

(٢) انظر ما سبق عن الاختلاف فى يوم ميلاده .

(٣) انظر الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٦ ـ ٢٧ .

برجوان[١] الخصىّ إلى أن قُتل ، ثم استقل الحاكم بالأمر ووَلّى من ذكرناهم وغيرهم . وكتب له أبوالعلاء فهد بن إبراهيم النّصرانىّ .

قضاته : أبوعبدالله محمّد[٢] بن النّعمان إلى أن توفّى فى سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ؛ وأقام النّاس بغير قاض تسعة عشر يومًا ؛ ثم ولّى أباعبدالله الحسن[٣] ابن علىّ بن النّعمان إلى أن صرفه فى شهر رمضان سنة أربع وتسعين ؛ وولّى أبا القاسم عبدالعزيز[٤] بن محمّد بن النّعمان ثم صرفه فى شهر رجب سنة ثمانٍ وتسعين ؛ وولّى مالك[٥] بن سعيد إلى أن قتله فى سنة خمسٍ وأربعمائة ، لأربعٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر . وأقام النّاس بغير قاضٍ إلى أنْ ولّى أبا العبّاس أحمد[٦] بن محمّد بن عبْدالله بن أبى العوام فى يوم الأحد لإحدَى عشرة ليلةً خلت من جُمادى الآخرة منها إلى آخر وقت .

نقش خاتمه : بنَصْر العلىّ الولىّ ينتصر الإمام أبوعلىّ[٧] .

ذكر بيعة الظّاهر لإعزاز دين الله

هو أبوهاشم ، وقيل أبو الحسن ، علىّ بن الحاكم ؛ وهو السّابع من ملوك الدولة العُبيديّة . بويع له بعد أن تحقّق النّاس عدم الحاكم بأمر الله فى

---

(١) انظر الإشارة ص ٢٧ .
(٢) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة ص ٥٩٢ وما بعدها .
(٣) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة ص ٥٩٦ وما بعدها .
(٤) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة ص ٥٩٩ وما بعدها .
(٥) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة ص ٦٠٣ وما بعدها .
(٦) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة ص ٦١٠ وما بعدها .
(٧) « بنصر الإله العلى ينتصر الإمام أبو على » فى ذيل تاريخ دمشق ص ٨٠ .

يوم الأضحى من سنة إحدى عشرة وأربعمائة . وأقام النّاسُ منذ فُقد الحاكم فى سابع عشر شوّال منها إلَى هذا التّاريخ بغير خليفة ، وستّ الملك ، ابنة العزيز وأختُ الحاكم ، تدبرّ أحوال الدّولة ، وتسكّن الجيوش ، وتفرّق الأموال على يد الأمير سيْف الدّين الحسين بن دوَّاس . ثمّ جرى بينهما وبين العساكر كلامٌ كثير أوجب أنها أخرجَت إليهم أبا هاشم هذا وقت الظُّهر من يوم الأضحى ، فبايَعه النّاس وازدحموا عليه ، فركب تحتَ الأرض فى السّرداب إلى قصْر الذّهب ، وخرج من بابه إلى باب العيد ، فأجلسته وقالَت : هذا خليفتُكم . فلما رآه ابن دوّاس قبّل الأرض ، وسلّم عليه بالخلافة ، فبايعه الأمراء والأجناد ، ولُقّب الظّاهر لإعزاز دين الله[1]

وكُتبت الكتب لسائر الأعمال بأخذ البيعة ، وجَمعت ستّ الملك الأجناد وأحسنت إليهم ، ورتّبت الأمور أحسن ترتيب ، وعَدَلت عن ولىّ العهد إلياس[2] بن داوود بن المهدىّ وَجِيء به فبايع والسّيف على رأسه ، وحُبس ، وكان آخر العهد به . وكان يشار بالخلافة إلى عبدالرحيم بن إلياس ابن أحمد بن المهدىّ ، فأدخل عليه الشُّهود وهو يتشحَّط[3] فى دمه فأشهدهم أنه فعل ذلك بنفسه ، ثم قضى نحبه . وقام ابن دوّاس بتدبير الدّولة هو والعزيز عمار بن محمد ؛ وكانا لا يُصدران إلّا عن رأى ستّ الملك عمة الظاهر .

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٢٥ .

(٢) « العباس » فى الأصل والتصحيح من النجوم الزاهرة ، فقد ورد « وأما ولى العهد ... فاسمه الياس ، وقيل عبد الرحيم ، وقيل عبد الرحمن بن أحمد ، وكنيته أبو القاسم ، ويلقب بالمهدى » ــ جـ ٤ ص ١٩٣ .

(٣) شحط ــ يتشحط : تضرج بالدم ــ القاموس .

ذكر مقتل الحُسين بن دوَّاس

قال : لمَّا استقرّ أمر الظّاهر لإعزاز دين الله وسَكنت الأحوال خرج من القصر خصيٌّ وبيده سيف مجرّد ، واستدعى وُجوه الدّولة ، والوزيرُ فى دسته والحسَين بن دوّاس قائد القوّاد إلى جانبه . فقال الخصىّ أمر مولانا أن يُقتل بهذا السّيف[٦١]قاتلُ مولانا الحاكم ، فنادَوْا السّمع والطاعة فصبّه على ابن دوّاس فقتله ، ولم يختلف اثنان[١] .

وقيل إنه إنما قُتل فى شهر رجب سنة ثلاثَ عشرة وأربعمائة . والله أعلم .

وباشرت السيّدة ستّ الملك للأمور بنفسها وقامت هيبتها عند الناس .

وفى ثالث عشر ذى الحجّة من السّنة ، فى اليوم الرابع من بَيْعة الظّاهر ، قُرِئ سجلٌ لأصحاب الأخبار أنّهم لايرفعون ما لافائدة فيه مِمّا كان يُنْهى إلى الحاكم .

وفى يوم الاثنين سابع عشر ذى الحجّة منها ركب القاضى عبْدالعَزيز بن النّعمان ومعه جَمَاعة وتوجّهوا نحو الجبل لافْتِقادِ الحاكم وعادُوا .

وفى يوم الخميس لعشرين منه أُقيمت المآتم فى القصر وسُمع الصُّراخ واتّصل ، وارتجَّ البلد فى تلك اللّيلة بالصّراخ إلى أن مضى وقتٌ كثير من اللّيل ، وأصبح النّاس على وجلٍ ، وأغلقت أبواب القاهرة .

وفى المحرّم سنة ثنتى عشرة وأربعمائة سومح بمكس الفقاع . وكان مبلغه فى الشهر سبعمائة دينار .

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٢٥ وما بعدها .

وفى حادى عشر ذى القَعدة ، سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ، تُوفّيت ستّ الملك ابنة العزيز ؛ وكان مولدها فى ذى القعَدة سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ببلاد المغرب ، وكانت من الدُّهاة .

وفى سنة أربع عشرة وأربعمائة ظهر ببلاد الفيوم بركة ينْصَبّ إليها الماء ، فاستخرج منها سمك بلطىّ ، ومقدارها أربعة آلاف فدان .

وفى شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وأربعمائة ورد الخبر بإقامة الدّعوة الظاهرية بالموصل والبصرة والكوفة وأعمال الشرق .

وفيها وردت الأخبار أن سنان بن صَمْصَام الدّولة وصالح[1] بنَ مرداس جمعا العساكر وحشدا[2] العُربان لحصار دمشق ، وأنّهم حاصرُوها وقَطعُوا أشجارها ، وقتلوا فلّاحى الضّياع . وتقرّر الحال أن يقاتل العوام يومًا وعسكر السُّلطان يومًا ؛ واتّصلت الحرب بينهم وقُتل جمع عظيم . وحاصر صالح بن مرداس حلب ؛ واضطربت أحوال الشّام بأسره ، وتغلّبت الحرب عليه . وطلب سنان من أهل دمشق ثلاثين ألف دينار ويرتحلُ عنهم ، فأجابه أهل البلد لذلك ، فمنعهم الشّريف ابن الحسن وأشار بنفقتها فى عيّارى البلد ، فأنفقوها[3] وقاتلوا قتالاً شديدًا ، فقُتل من العرب جمع كثيرٌ . وطلب العرب الصُّلح فأجيبوا إليه ، ثم عادوا إليها فى الوقت برأى ابن الجرّاح ...

ووصل الخبر من جهة بنى قرة ، عرب البحيرة ، أنهم أقاموا عليهم إنسانًا

---

(١) انظر ترجمته فى زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٧٧ وما بعدها ، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٨٧ رقم ٣٠٠ .

(٢) « جمعوا العساكر وحشدوا » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسياق الكلام .

(٣) « فنفقوها » فى الأصل فى هذا الموضع ومواضع تالية ، وسيجرى تصحيحها .

ببرقة ولقّبوه بأمير المؤمنين .

وفى الحادى والعشرينَ من ذى الحجّة سنة خمس عشرة وأربعمائة اجتمع من العبيد ألف عبد عند سفح المقطّم وقصدوا نهب مصر ، فأركب الظّاهرُ لإعزاز دين الله مَنْ حفظها ، وأمر أهل مصر بقَتْل مَنْ ظفروا به منهم ، ونهبوا فى اليوم الثانى أطراف مصر ، فقاتَلَهم النّاس فانهزموا .

وفى سنة سبع عشرة وأربعمائة جرَّد الظّاهر أمير الجيوش أَنُوشْتكين الدِّزبرى[١] من مصر بعساكر كثيرة لِدَفع العرب[٢] عن الشّام ، وخرج الظّاهر لتوديعه . وسارَ فى سبعة آلاف فارسٍ غير العرب ، وعيَّد عيد الأضحى فى الرّملة ، وجمع العساكر . فلما بلغ حسّانَ بن مفرّج[٣] خروجُه بعث إلى صالح بن مرداس[٤] فأتاه من حلب فى بنى كلاب . ووقعت الحرب بينهم بالأُقْحُوانة[٥] من عمل طبريّة يوم الأربعاء لخمسٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر سنة عشرين وأربعمائة . فطُعِن صالح بن مرداس ، فسقط عن فرسه ، فقُتل ، وحُمِل رأسه إلى أمير الجيوش . فعندها انْهَزم حسّان . وقُتل من أصحابهم مقتلةٌ عظيمة ، وهرب أصحاب صالح إلى بعلبك وحمص وصيدا وحصن عَكّار[٦] . واستولى نَصر بن صالح وأخوه ثِمَال على حلب وأعمالها

(١) « الزربرى » فى الأصل ، والتصحيح من المصادر المتداولة ، وانظر ترجمة مفصلة له فى ذيل تاريخ دمشق ص ٧١ وما بعدها .

(٢) المقصود جيوش صالح بن مرداس .

(٣) حاكم الرملة فى ذلك الوقت .

(٤) « بن برداس » فى الأصل ، فى هذا الموضع ومواضع تالية ، وهوتحريف سيجرى تصحيحه .

(٥) الأقحوانة : على شاطىء بحيرة طبرية ــ معجم البلدان .

(٦) حصن عكار : على جبل عكار شمالى طرابلس ــ بلدان الخلافة .

وبالس[١] ، ومَنْبج[٢] . وسار الدّزبرى حتى أتى دمشق ، ثم إلى حلب ، فظفر بشبل الدّولة[٣] نصر بن صالح فقتله . ثم عاد إلى دمشق فأقام بها وعَلَت منزلتُه .

ذكر وفاة الظاهر لإعزاز دين الله على ابن الحاكم بأمر الله وشيء من أخباره

كانت وفاته فى ليلة الأحد النّصف من شعبان المكرّم من شهور سنة سبعٍ وعشرين وأربعمائة ببستان الدكة بالمقس[٤] ، فركب الوزير صفيّ الدين أبوالقاسم على الجرجرائى[٥] إلى البستان ، وحمل الظّاهر منه إلى القصر .

وكان مولدُ الظّاهر فى يوم الأربعاء لعشرٍ خلَوْنَ من شهر رمضان المعظّم سنة خمس وتسعين وثلاثمائة . وكانت مدّةُ عمره إحدى وثلاثين سنة وأحد عشر شهرًا وخمسة أيّام ، ومدة ملكه خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وستّة

---

(١) « ونابلس » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٧٦ .
وبالس : بين حلب والرقة ، كانت تقع على شاطىء النهر ثم انحسر النهر عنها شيئًا فشيئًا حتى أصبحت على مسافة أربعة أميال من النهر فى زمن ياقوت ــ معجم البلدان .

(٢) منبج : من إقليم العواصم . بينها وبين حلب حوالى ٣٠ ميلاً ، وبينها وبين الفرات حوالى ٩ أميال ــ معجم البلدان .

(٣) « سند الدولة » فى الأصل ، والمقصود نصر بن صالح ولقبه شبل الدولة ــ اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٧٦ .
وأخبار الدول المنقطعة ص ٦٤ ، وفيها « وذلك فى سنة ثلاثين وأربعمائة » .

(٤) بستان الدكة بالمقس = منظرة الدكة ، وهى من مناظر الخلفاء الفاطميين ، ولها بستان عظيم بجوار المقس ، فيما بينه وبين أراضى اللوق ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٧٩ .

(٥) انظر الإشارة ص ٣٥ ــ ٣٦ ، ذيل تاريخ دمشق ص ٧٣ وما بعدها ، أخبار مصر للمسبحى ص ٣٢ هـ ٢ ، وانظر ما يلى .

أيام . وكان أجمل النّاس صورةً . وتولّى غسله قاضى القضاة عبدالحاكم ، ومعه ظاهر بن عبدالخالق بن أحمد ابن المهدى شيخ القرافة ؛ وصلّى عليه قاضى القضاة وأخذ سَلَبه . قال واستمرَّت النّوائح تَنُحْنَ عليه مدّة شهر . وكان كريمًا مشتغلاً [٦٢] بلذّاته معوِّلاً على وزيره .

ولده أبو تميم معدّ المستنصر بالله ، وهو الّذى وَلِى الأمْر من بعده على ما نذكره .

وزراؤه ووسائطه : أبوالحسين عمّار[١] بن محمد ، أحد وسائط أبيه الحاكم بأمر الله ، إلى أنْ زال أمرُه فى ذى القعدة سنة ثنتى عشرة وأربعمائة ، ثم قتل ؛ وتولّى الوساطة أبوالفتوح موسى[٢] بن الحسن ، وذلك فى المحرّم سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ، إلى أن قُبض عليه فى العشرين من شوّال وقيل صبيحته ؛ وتولى الوساطة أبوالفتح مسعود[٣] بن ظاهر الوزّان إلى أن عزل ؛ وتولّى الوزارة عميد الدّولة أبومحمد[٤] الحسن ابن صالح الروذبارى ، أحد وسائط الحاكم بأمر الله ؛ ثم عُزل فى سنة ثمانى عشرة وأربعمائة بالوزير أبى القاسم على[٥] بن أحمد الجرجرائى إلى آخر المدّة ، ولقب بالوزير الأجلّ الأوحد صفىّ الدّين ؛ وكان أقطع اليدين ؛ وتمكّن من الظاهر تمكُّنًا عظيمًا . حُكى من تمكُّنه أنّه كان بينه وبين خَليل الدولة بن العدَّاس عداوة ، فاتّفق

---

(١) الإشارة ص ٣٣ ـ ٣٤ .
(٢) الإشارة ص ٣٤ .
(٣) الإشارة ص ٣٤ .
« ابن محمد » فى الأصل ، وهوتحريف ، والتصحيح من الإشارة ص ٣٤ .
(٥) الإشارة ص ٣٥ ـ ٣٦ .

أن خليل الدّولة سأل الظّاهر لإعزاز دين الله أن يشرِّفه بزيارته ببركة الْحَبَش فأجابه الظّاهر إلى ذلك وحضر عنده . فاغتنم ابنُ العدّاس الفرصة وجعل يذكر للظاهر مثالبَ الوزير . فسدَّ الظّاهر مسامعه وقال لابن العداس : إنّى وإن رَعَيْت حقَّ تشريفى إياكَ بزيارتى فما أترك حقّ من أرتَضيه لوزارتى ، ولابدَّ أذكُر له طرفًا من ذلك . فاذكُرْ خيرًا لأحكيَه له . فرجع عن ذكر مثالبه وأثْنى عليه . فذكر الظّاهر للوزير عنه خيرًا . فكان ذلك سببَ الصُّلح بينهما . وسنذكر إن شاء الله تعالى أخبارَ الوزير الجرجرائى مستوفاةً عند ذكر وفاته فى سنة ستٍّ وثلاثين فى أخبار المستنصر .

ذكر بيعة المستنصر بالله

هو أبو تميم معدّ[1] ، بن الظّاهر لإعزاز دين الله أبى هاشم علىّ ، بن الحاكم بأمر الله أبى علىّ المنصور ، بن العزيز بالله أبى المنصور نزار ، بن المعزّ لدين الله أبى تميم معدّ ، بن المنصور بنَصر الله أبى طاهر إسماعيل ، بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمّد ، بن المهدىّ عبيد الله .

وهو الثّامن من ملوك الدّولة العُبَيديّة وهو الخامس من ملوك مصر والشّام منهم .

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٦٧ وما بعدها ، ذيل تاريخ دمشق ص ٨٣ وما بعدها ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨٤ وما بعدها ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٢٩ رقم ٧٢٨ المنتقى من أخبار مصر ص ٣ وما بعدها ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص١وما بعدها ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٣٤٢ وما بعدها .

بُويع له صبيحة يوم الأربعاء لاثنتى عشرة ليلةً بقيَتْ من شعبان[١] سنة سبع وعشرين وأربعمائة . وذلك أنّ الوزير الجرجرائى أحضر وجوه القبائل من الكتاميين ، وغيرهم من الأتراك ، فلمّا اجتمعوا قال لهم: مولانا ضعيفٌ والآجال بيدالله سبحانه ، فإن قضى الله بانتقاله ماتقولُون فى ولده الأمير معدّ ؟ قالوا : الذى يقولُه الوزير نحن به راضُون ، وله سامعون . فلمّا رتّب هذا الأمر استْدعىَ الوزير ، فنهض قائمًا ودخل إلى قاعة من قاعات القصر ، ثم أحضر الجماعة ، فوجدُوا الأمير معدًّا على سرير الملك وعليه التاج ؛ فقال : هذا مولاكم ، سلّموا عليه بالخلافة . فسلّموا عليه وانصرفوا ؛ ولُقّب المستنصر بالله ، وكان عمره إذ ذاك سبع سنين .

فلمّا كان فى صبيحة يَوْمِ مبايعته ، وهو يوم الخميس ، وقف الكتاميّون وعبيدُ الشّراء[٢] وغيرُهم بباب القصر ، وأغلظوا فى الكلام وطلبوا أرزاقَهم واستحقاقاتِهم من الوزير ، فقال : أناكنت وزير الظّاهر لإعزازِ دينِ الله وقد توفّى ، وأنا أحمل إليكم جميع ما فى دارى . وأصبح حَملَ جميع ما فى دَاره إلى القصر ، فغضِبَ له الأتراكُ ، وأعادوا ما أحضره إلى مكانه . وتقرّر اجتماعُه يوم السّبت ، فاجتمع الأتراك والدّيلم وعليهم السّلاح ، وجاء الكتاميّون ، فلما اجتمعُوا بباب القصر خرج إليهم [أحد][٣] الخَدَم وقال : ليدخل مِنْ كلّ طائفةٍ عشرة أنفس ، فدخل جماعةٌ ، فقال لهم الوزير :

---

(١) « بويع بالخلافة يوم الأحد للنصف من شعبان » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨٤ ، وفى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١ ، ونلاحظ أن يوم الأحد هو يوم وفاة أبيه ، ومن المستبعد أن تتم البيعة له بالخلافة فى نفس اليوم ــ انظر ما يلى .

(٢) « الشرى » فى الأصل .

(٣) [ ] إضافة تتفق والسياق .

مولانا يُقرئكُم السّلام ويقول لكم : إذا كان مُستهلّ شهر رمَضان أمر بالنّفقة فيكم . فانصرفُوا ، وجلس قاضى القضاة عَبْد الحاكم يحلّف النّاس للمستنصر بالله . فلمَّا استهلّ شهر رمضان أنفق فى الأشراف والكتاميّين والعرب والدّيلم وغيرهم لكلٍّ واحدٍ منهم ثُلثَ رزقه ، فلم يرضَوْا بذلك .

ودامت النّفقة إلى العشر الأوسط من شوّال فتحالف الكتاميون والأتراك أن يكونُوا عُصْبةً واحدة فى طلب واجباتهم . واجتمعوا بباب القصر ، فخرج إليهم الأمير أن احضروا بكرةَ الغد ، فحضروا ، وركب المستنصر إلى أن بلغ بَابَ البحر[1] ، فرمَوْه بالحجارة وصاحُوا عليه ، ورماه أحدُ العبيد بحربةٍ فلم يُصبه ، فرمى نفسه عن دابّته ودخل من باب البحر إلى القصر . وانصرف النّاس ، وعادُوا بُكرةَ نهارِ الغد ، فدخل مِنْ كلِّ طائفةٍ مائة نفر ، ووَقع كلامٌ كثير ، وتقرّر فى آخر الأمر أن يحضروا [٦٣] البغاة منهم ، وخرجوا على مثل ذلك ؛ ثم عادُوا بعد ذلك وتنصّلوا من ذُنوبهم . وسكَّن الوزير جميع الطّوائف ، واختلف بنو قرّة مع كتامة بالجيزة ، فأخرج الوزير عسكرًا فأصلح بينهم ، واستقرّت الأمور .

وركب المستنصر فى مستهلِّ المحرّم سنة ثمانٍ وعشرين وأربعمائة من باب العيد[2] إلى باب الذَّهب [3] ؛ ومشى النّاس كافّةً بين يديه ، والوزير راكبٌ

---

(١) باب البحر : أحد أبواب القصر الفاطمى الشرقى الكبير ، يخرج منه الخليفة إذا أراد الذهاب إلى شاطى النيل ، وهو من إنشاء الحاكم بأمر الله ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٣٣ .

(٢) باب العيد : أحد أبواب القصر الفاطمى الشرقى الكبير ، كان يخرج منه الخليفة فى يومى العيد إلى المصلى بظاهر باب النصر ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٣٥ .

(٣) باب الذهب : أحد أبواب القصر الفاطمى الشرقى الكبير ، كانت تدخل منه العساكر وجميع أهل الدولة فى يومى الاثنين والخميس ، وهو يؤدى إلى قاعة الذهب ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٣٢ .

خلفه . وتفرّق النّاس ، ودخل الوزير إلى مكانه ، فدخل عليه جماعة من الأتراك الصّغار وطلبوا أرزاقهم وأغلظوا له فى القول ، وقصدوا قتْله ؛ فدخل بعضُ الأمراء الكبار فخلّصه منهم .

ذكر عود حلب إلى مِلْك مَلِك الدّيار المصرية

وفى سنة تسعٍ وعشرين وأربعمائة ملكت حلب على يد أمير الجيوش أنوشتكين الدّزبرى أمير الشام ، وذلك بعد أن التقى هو ونصر بن صالح بن مرداس ، صاحب حلب ، يوم الجمعة لسبعٍ بَقِينَ من جُمادى الآخرة فانهزم عسكر ابن صالح . ثمّ كانت وقعةٌ ثانية ، فانهزم ثَمال بن صالح وأخوه نصْر ، فبادر ثَمال بدخول البلد ، وأخَذَ مِن قلعة حلب أموالاً وتُحفا ، واستخلف بها عمّه مقلّد بن كامل بن مِرداس ، وسار يستنجد بأخواله بنى خفاجة [١] ، فثار العوامّ ونهبُوا حلب . ووافى طغان ، أحد الأمراء الّذين مع أمير الجيوش ، فدخل حلب بموافقةٍ من أهلها . ثم وَصل أنوشتكين الدّزبرى إليها فى يوم الثّلاثاء لثمانٍ خلَوْن من شهر رمضان ، وأقام بها إلى آخر السّنة ، ورجَع إلى دمشق فى تاسع عشرى[٢] الحجّة منها .

ذكر الوحشة الواقعة بين الوزير أبى القاسم الجرجرائى وأمير الجيوش أنوشتكين الدّزبرى

قال المؤرخ : كان ابتداءُ الوحشة بينهما فى سنةِ ثلاثين وأربعمائة . وسببُ ذلك أن شبيب بن وثّاب النّميرى صاحب الجزيرة توفّى ، فقصد أميرُ

---

(١) « بأخواله من صاحبه » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨٧ .

(٢) « تاسع عشر » فى اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١٨٧ .

الجيوش [أنوشتكين] أنْ يزوّج ابنته لولد أبي نصر أحمد بن مروان ليكون له عونًا على بنى نُمير أصحاب الجزيرة ؛ وكتب أمير الجيوش إلى مصر يستدعى ابنته ، فلم يُطْلِقها الوزير ولا رأى إتمامَ الزّواج لانضمام ابن مروان إلى الدَّولة العبّاسية وتَظاهُره بمَوالاتها . وكتَب لوُلاة الشام ألّا يمتثلوا أمْر أمير الجيوش . فوقعت الوحشةُ بينهما ، وأطلق أميرُ الجيوش لسانه فى الوزير ، وسبَّه .

ودامت الوحشة إلى سنة ثلاثٍ وثلاثين وأربعمائة ، فصرفه الوزيرُ عن دمشق ، واستعمل عليها ناصر الدّولة الحسن بن الحُسين بن حمدان . فلمّا علم بذلك أهل دمشق تنكّروا على أميرهم ، وحاصروه بقصره ظاهِرَ دمشق ، فى سابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين ، فهرَب إلى حلب ، وقاسى مشقّةً عظيمة فى طريقه ، ونُهبت أمواله . فلمّا دخل حلب أقام بها ثلاثة أيّام ومرض ، فتُوفّى يوم الأحد النّصفَ من جمادى الأولى ، ووصل سجلٌ إلى ثَمال بن صالح بن مرداس بولاية حلب ، وذلك قبل وفاة أنوشتكين أمير الجيوش .

ذكر ظهور سكين المشبه بالحاكم وقتله

وفى شهر رجب سنة أربعٍ وثلاثين وأربعمائة ظهر بالقاهرة رجل يسمى سكين[1] يشبه الحاكم وكان بمصر أقوامُ يعتقدون أنّ الحاكم حىٌّ وأنّه غاب لرأى رآه . وهذه الطّائفة باقية إلى وقتنا هذا ، ويحلفون فما بينهم فيقولون : وحقِّ غيبة الحاكم ، إلّا أنّهم لا يتظاهرون بذلك لكلِّ أحد . قال : فلمّا كان فى هذه السّنة ظهر هذا الرّجل ، فاجتمع عليه القائلون بغَيْبة الحاكم

(١) هكذا بالأصل : وفى الكامل جـ ٩ ص ٥١٣ ، و« اسمه سليمان » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨٩ .

وزفُّوه إلى القصر ، وأدخلوه إيّاهُ ، وقد دُهش النّاس ، فأدّى الأمر إلى أنْ حَارَبهم أولياء الدَّولة ، وركب الوزير ، فأُخِذوا جميعًا وصُلبوا أحياء ، ورُشقوا بالسّهام حتى هلكوا .

ذكر وفاة الوزير صفيّ الدّين أبي القاسم أحمد بن علي الجرجرائي وشيء من أخباره

كانت وفاته لثلاثٍ بقِينَ من شهر رمضان سنة ستّ وثلاثين وأربعمائة ، [٦٤] وأوصى أن يُدفن في داره في المكان الّذي كان يجلس فيه ؛ فأُخْرِج وصلّى عليه المستنصر في الإيوان ، وأُعيد إلى داره فدُفن بها ، ثمّ نُقل إلى تُرْبَته بالقرافة .

وكانت وزارته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يومًا .

وهذه النسبة إلى جرجرايا ، قريةٌ من قرى العراق .

قدم إلى مصر هو وأخوه أبو عبدالله محمد ، فتنقلت به الحال إلى أن خدم في الصّعيد ، فكثُرت فيه المرافعات في أيام الحاكم ، فاعتقله في شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعمائة ، ثم أَمر بقَطع يدِهِ ، فأخرج اليسار عِوضًا عن اليمين فقطعت ؛ فقيل ذلك للحاكم فقال : إنما أنا أمرت بقَطع يمينه ؛ وأمر بقطع اليمين ، فقُطعت على باب القصْر المعروف بباب البحر ، وهو الباب الّذي مقابل دار الحديث الكاملية[1] في وقتنا هذا . وكان قطْعُهما في ثامن عشر شهر ربيع الآخر منها .

---

(١) دار الحديث الكاملية = المدرسة الكاملية : بالقاهرة ، بخط بين القصرين ، أنشأها السلطان الملك الكامل الأيوبي ، سنة ٦٢٢ هـ/١٢٢٥ م — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٧٥ .

قال : ولما قطع الحاكم يديه مَضَى مِن وقته وجلس فى ديوانه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنّ أمير المؤمنين أدّبنى وما صرفنى . فبلغ الحاكم ذلك ، فأمر باستمراره . ثمّ صرَفه وولّاه ديوان النفقات[١] فى سنة ستٍّ وأربعمائة ، ثم رتّب أن يكون واسطةً فى نظر الدّواوين مع أبى عبدالله محمد بن العدَّاس ، فى سنة ثنتى عشرة وأربعمائة . ثم وَزرَ للظّاهر لإعزاز دين الله فى سنة ثمانى عشرة وأربعمائة ، فاستكتب أبا الفرج البابلى وأبا علىّ الرّئيس . وكان القاضى أبو عبدالله القُضَاعى صاحب كتاب الشّهاب يكتبُ عنه العلامة[٢] وهى : «الحمد لله شكرًا لنعمه» . وكانت أيامه تُسمى الأعراس لطيبها . وضَبط الأُمور أحسن ضبط واستعمل الأمانة التامة ، وتمكن فى الدّولة الظّاهرية ، على ما قدّمناه .

قال : وهجاه جماعةٌ من الشعراء . فمن ذلك قولُ أبى الحسن علىّ بن عبدالعزيز الجلبى المعروف بالفكيك ويعرف بجاسوس الفلك :

يـا جـرجـرائىّ اتـئـد ... وارفق ، ودَعْ عنك التّحامُق
أزعـمـتَ أنك فى الـثّـقـا ... ة ، فهَبْك فيما قُلت صادق
أَعَـلـى الأمـانـة والـتُّـقـى ... قُطِعت يَداك من الْمَرَافِق !

قال : ولمّا مات أوصى أنْ تُفوّض الوزارةُ بعده لأبى نَصْر صدقة[٣] بن

(١) انظر ديوان الرواتب : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٩ ـ ٤٩١ ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٠١ .

(٢) المقصود العبارة التى يختارها القاضى لتدون فى بداية الوثائق التى تصدر عنه ، صبح الأعشى جـ ٦ ص ٣١٤ ، المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١١ .

(٣) « أبو منصور » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٤ ، الإشارة ص ٣٧ .
وعن ترجمته انظر : الإشارة ص ٣٧ ـ ٣٨ .

أبي الفضل يُوسف ابن على الفلاحيّ ، فخلع عليه خلع الوزارة . وكان يهوديًّا ، ولُقِّب بالوزير الأجلّ تاج الرئاسة فخر المُلك مُصْطَفَى أميرِ المؤمنين ، ثمّ أسلم بعد الوزارة .

ذكر مقتل أبي سعيد التُّسْتَرى وعزل الوزير وقتله ووزارة ابن الجرجرانى

وفى سنة تسعٍ وثلاثين وأربعمائة قتل أبوسعيد[1] التُّسْتَرى اليهوديّ . وكان يتولّى ديوان والدة المستنصر . وذلك أنها كانت جاريته ، فأخذَها منه الظّاهر واستَوْلدها فولدت المستنصر بالله . فلمّا أفضت الخلافة إلى وَلَدها فوَّضت إليه أمْرَ ديوانها ، فعظُم أمره وانبسطت كلمتهُ بعد وفاة الجرجرائى الوزير حتّى لم يبق للوزير الفلاحيّ معه إلا اسم الوزارة ، فدبَّر الفلاحى فى قتله فقُتل .

وقيل بل كان السَّبب فى قتله أنّ عزيز الدّولة ريحان الخادم كان قد خرج فى هذه السنة إلى بنى قُرَّة ، عرب البحيرة ، لِمَا أفسدُوا فى البلاد ، فظفِر بهم وقَتَل منهم . وعادَ إلى القاهرة وقد عظُم قَدرُه وزاد إدْلاله ، فثقُل أمره على أبى سعيد .

واستمال المغاربةَ وزاد فى أرزاقهم ونقص من أرزاق الأتراك ومَنْ ينضافُ إليهم . فجرى بين الطَّائفتين حربٌ بباب زويلة .

---

(١) « أبو سعد » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٤ .
وهو إبراهيم بن سهل بن هارون التسترى ، أبو سعد ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣٥٥ ، ص ٤٢٤ .

ومرض إثر ذلك عزيز الدّولة ومات فاتُّهم أبوسعيد أنّه سَمَّه . فلما كان فى يوم الأحد لثلاثٍ خلَوْن من جمادى الأولى ركب أبوسعيد من داره فى مَوكبٍ عظيم وتوجَّه إلى القصر على عادته ، فاعترضه ثلاثةٌ من الغلمان الأتراك واختلطوا فى الموكب وقتلوه . فاجتمعت الطّوائف إلى المُستنصر بالله وقالوا : نحن قتلناه . وقُطِّع لحمه . فاشترى أهلُه ما وصلوا إليه من أعضائه ، وأحرق ما بقى ، وضَمَّ أهلُه ما اشتَرَوْه منه فى تابوت وغطّوه بستر . وأوقدوا أمام التابوت الشموع ووضعوه فى بيت مُفرد . وأزَرّوا البيت بالسُّتور ، فوصل لهب النّار إلى بعض السُّتور فاحترق ، وقويت النّار فأحرقت التّابوت بما فيه .

قال : وكان التُّسْتَرى قد زادَ أذاه فى حقّ المسلمين حتى كانوا يَحْلفون : وحقِّ النّعمة على بنى إسرائيل .

ولما قُتِل وَلى مكانه فى نَظَر ديوان والدة المستنصر بالله أبومحمد الحسن بن على بن عبدالرحمن اليازُورى .

وحقدت والدة المستنصر بالله [٦٥] على الوزير الفلاحىّ وتحقَّقَت أنّه تسبَّب فى قتله ، فقبضت عليه وصَرَفْته عن الوزارة فى هذه السّنة ، واعتقلته بخزانة البنود[1] ، ثم قتل بعد ذلك « أبومنصور صدقة »[2] ودُفن بخزانة البنود ، وذلك فى سنة أربعين وأربعمائة .

---

(١) خزانة البنود : ملاصقة للقصر الكبير فيما بين قصر الشوك وباب العيد ، وكان يعمل فيها السلاح وآلات الحرب والبنود أى الأعلام ، ثم استخدمت كسجن ، كما يتضح من النص بالمتن — المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٢٣ وما بعدها .

(٢) « بيبرس » فى الأصل وهو تحريف ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ٨ ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٩٦ .

ووالدُ هذا الوزير هو أبوالفضل يوسف بن على الذى هجاه الواسانى[(١)] بقصيدته المشهورة التى أولها :

يا أهل جيرون هل لِسَامركم إذا استقلّت كواكب الحمل

وقد أوْردنا أكثر هذه القصيدة فى الباب الثانى من القِسم الثّالث من الفَنّ[(٢)] الثانى .

ولمّا قبض عليه وَلِىَ الوزارة أبوالبركات الحسين[(٣)] بن محمد بن أحمد الجرجرائى ، ابن أخى الوزير صفىّ الدّين .

وفى سنة أربعين وأربعمائة صرف ناصر الدّولة الحسن[(٤)] بن حمدان عن ولاية دمشق ، وأُحْضِر تحت الحُوطة ووَلِىَ مكانه القائدُ طارق ، ثمّ أُطلق ابن حمدان فى سنة إحدى وأربعين .

وفى سنة إحدى وأربعين صرف أبوالبركات الحسين بن الجرجرائى عن الوزارة ونُفى إلى صور واعتقل بها ، ثم أُطلق ، فسار إلى دمشق . ونظر فى الدّواوين بعده عميد الدّولة أبوالفضل[(٥)] صاعد بن مسعود . ثم فُوضت

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن واسانة بن محمد ، أبو القاسم ، المتوفى سنة ٣٩٤ هـ/١٠٠٣ م ، وانظر بقية القصيدة فى نحو ١٤٠ بيت فى يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣١٠ وما بعدها .

(٢) هذا الباب فى الهجاء ، ولكن لم ترد القصيدة فيه فى المطبوع من نهاية الأرب انظر جـ ٣ ص ٢٦٥ وما بعدها .

(٣) الإشارة ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٤) « الحسين » فى الأصل .

وهو الحسن بن الحسين بن حمدان التغلبى ، ناصر الدولة ، قتل سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢ م ـ انظر ما يلى عن قتله .

(٥) الاشارة ص ٣٩ ،

الوزارة لأبى محمد الحسين[١] بن على بن عبدالرحمن اليازورى .

وفى سنة ثلاثٍ وأربعين أظهر المعزّ[٢] بن باديس الصِّنهاجى ، صاحب إفريقية ، الخلاف على المستنصر بالله ؛ وقد ذكرنا سبب ذلك فى أخبار ملوك إفريقية[٣] . وكتب المعزّ إلى بغداد ، فأجيب عنْ رسالته على لسان رسولٍ من بغداد ، يُعرف بأبى غالب الشِّيرازى ، وسيّر إليه صحبته عهدًا بالولاية ولواءً أسود وخلعة فاجتاز أبوغالب ببلاد الرُّوم فقبض عليه صاحب القسطنطينية[٤] وبعثهُ إلى المستنصر بالله ؛ فقَدِم الرّسول إلى مصر وهو مُجَرّسٌ[٥] على جمل ، وحفر بين القصرين حُفَيرة ، وحُرق فيها العَهْد والخلَع واللّواء .

وفيها فى ذى القعدة عصى بنو قُرّة ، عرب البحيرة ، على المستنصر بالله . وكان سبب ذلك أنّ الوزير اليازورى قدَّم عليهم رجلاً يُقال له المقرّب ، فنَفروا منه واستعْفَوْا منه ، فلم يُجب الوزير سُؤالهم ؛ ثم دخلوا على الوزير وطالبوه بواجباتهم ، وأغلظوا له فى القول ، فتوعَّدَهم باستئصال شأفتهم . ففارقُوه وأظهروا العصيان ، واجتمعوا بالجيزة فى جمعٍ كثير ؛ فندب الوزيرُ

---

(١) الإشارة ص ٤٠ وما بعدها .

هو المعز بن باديس بن منصور بن بلكين الصنهاجى ، رابع أمراء بنى زيرى فى أفريقية ، وليها سنة ٤٠٦ هـ/١٠١٥ م إلى أن توفى سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م ـــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٣٣ رقم ٧٣٠ ، تاريخ الدول الإسلامية ص ٤٨ . وانظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٢ هامش ٣ .

(٣) انظر نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٢٠٩ وما بعدها .

(٤) المقصود هو الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين التاسع الذى ولى عرش الإمبراطورية البيزنطية فى الفترة ١٠٤٢ ـــ ١٠٥٥ م/٤٣٤ ـ ٤٤٧ هـ .

(٥) التجريس : التشهير ، القاموس .

عسكرًا لقتالهم فكسروُه ، فندب عسكراً ثانيًا فهزمهم وقتَل منهم قتْلى كثيرة . وحمَل إلى الخزانة المستنصرية من أموالهم جمْلَة عظيمة ، فهرَبُوا إلى برقة .

وفى سنة ثمانٍ وأربعين بعث المستنصرُ بالله ووزيرُه اليازُورى خزائن الأموال إلى أبى الحارث[1] أرْسلان البَسَاسيرى ليقيم الدّعوة المستنصِريّة ببغداد واستنفد ما كان بالقصر من الأموال . وكان مِنْ أمر البساسيرى وقيامِه ، والخُطبة للمستنصر هذَا ببغداد ، ما قدَّمناه فى أخبار الدّولة العباسية[2] ولمّا خُطب للمستنصر ببغداد فِى سنة خمسين وأربعمائة ، وَرَد الخبر إلى مصر بذلك فزُيّنت القَاهرة .

وكان عند المستنصر مُغَنّية تغنى بالطّبل[3] ، فدخلت عليه وغنّته فى ذلك اليوم :

يا بنى العَبّاس رُدّوا[4] مَلَكَ الأمْرَ معدٌّ
ملكُكُم ملكٌ مُعَارٌ[5] والعوارى تُستَردُّ

---

(١) « أبى الحرث » فى الأصل .
وهو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيرى التركى ــ انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٣٢ ، ذيل تاريخ دمشق ص ٨٥ ، الكامل جـ ٩ ص ٥ ، ٦ ، ص ٦٤٠ وما بعدها ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٦٤ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٤ ، ص ٢٠ . وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٩٢ رقم ٨١ .
(٢) انظر نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٢٢٦ وما بعدها .
(٣) « فوقفت نَسَب طبالة المستنصر » فى المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٢٥ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٩ .
(٤) « صدوا » فى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢ .
(٥) « ملككم كان معارا » فى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢ .

فقال لها : تمنىّ . فقالت : أتمنى الأرض المجاورَةَ للمقسم . فقال : هى لكِ . فعُرفت الأرض بأرض الطبّالة(١) إلى وقتنا هذا .

ذكر القبض على الوزير أبى محمد الحسن(٢) بن على ابن عبدالرّحمن اليازورى وقتله وشىء من أخباره

وفى المحرّم سنة خمسين وأرْبعمائة سُعِى بالوزير المذكور عند المستْنصر بالله أنّه كاتب السُّلطان طغرلبك السّلجوقى وحَسَّن له قصْد الدّيار المصريّة ، فقَبض عليه وجهَّزه إلى تِنّيس ، ثم أمر بقتله ، فقُتل فى الثانى والعشرين من صفَر(٣) منها . وكان من أكابر وُزراء ملُوك هذه الدّولة .

قال المؤرخ : كان والدُ اليازورى قاضى يازور ، وهى قرية من أعمال الرّملة ، فلمّا تُوفّى خَلَفه ولدُه الحسين المذكور ، ثمّ عُزل عنها ، فقدِم مصر وسعى فى إعادته لحُكم يازور ، فرأى من قَاضى مصر اطِّراحًا لجانبه ، فصحب رفق المستنصرىّ ــ وكان خصيصًا بوالدة المستنصر ، فكلّم القاضى فى أن يسمع قوله بمصر ففعل . فلمّا قتل أبوسعيد التّسْترى أشار رفق على [٦٦] والَدَة المستنصر أن يكون اليأزُورى وزيرَها ، فرتَّبتْه فى وزارتها ، فخافه الوزير أبوالبركات الجرجرائى أن يلى الوزارة ، فسعى له فى الحكم

---

(١) أرض الطبالة : كانت على جانب الخليج الغربى بجوار خط المقس ، ويذكر المقريزى أنها كانت من أحسن متنزهات مصر ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٢٥ .

(٢) « الحسين فى الأصل » والتصحيح من الإشارة ص ٤٠ .

(٣) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٣٦ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٦ .

ليشغله عن الوزارة ، فامتنع اليازورى من ذلك ، فأشارت عليه والدة المستنصر بقَبول الولاية فقبل . ولم تمض إلّا مدَّة يسيرة حتى صُرِف ابن الجرجرائى عن الوزارة وفُوّضت الوزارة إلى اليازورى[١] مُضَافةً لما بيدِه من قضاء القضاة وديوان والدة المستنصر بالله .

قال القاضى أبوالحسين أحمد الأسوانى فى تاريخه : حدّثنى القاضى إبراهيم ابن مسلم الفوّى قال : شهدت خطير الملك ، ولد[٢] اليازورى الوزير ، وكان قد ناب عن والده فى قضاء القضاة والوزارة وغير ذلك ، وسار إلى الشام بعساكر عظيمة فأصلح أمره . ورأيتُه بعد ذلك بمسجد فوّة[٣] وهو يخيط للنّاس بالأجرة وهو فى حال شديدةٍ من الفقر والحاجة ، فرأيته ذات يوم وهو يطالب رجلاً بأجرة خياطةٍ خاطها له ، والرّجل يدافعُه ويُماطله ، وهو يلحُّ فى الطلب . فلمّا ألح عليه قال له الرجل : يا سيّدنا ، اجعَلْ هذا القدر اليسير من جُملة ما ذهب منك فى السَّفْرة الشامية . فقال : دَعْ ذكر ما مضى . فسألتُه عن ذلك فلم يحدّثنى بشىء ، وسألتُ غيره فقال : الذى ذهب منه فى سَفْرته فى نفقات سِمَاطه ستّة عشر ألف دينار .

قال المؤرخ : وكان اليازورى سيئ التدّبير ، أوجب سوءُ تدبيره خُروجَ إفريقية وحلب عن المستنصر بالله .

---

(١) يذكر ابن ميسر « واجتمع ناصر الدولة بن حمدان باليازورى ، وأشار عليه بالوزارة مضافًا لأشغاله ، وتحدث له مع المستنصر فأجاب وولاه » ـــ المنتقى من أخبار مصر ص ١٦ .

(٢) « غيطر الملك والد اليازورى » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح يتفق مع ما يأتى ، وما ورد فى المنتقى من تاريخ مصر ص ١٧ .

(٣) فوه : من القرى القديمة ، وهى حاليًا قاعدة مركز فوة بمحافظة الغربية ـــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٢ ص ١١٢ وما بعدها .

قال : ولما قبض على اليازورى وَلِىَ الوزارة بعدَه صاحبُه أبوالفرج عبدالله[١] بن محمد البابلى ، وكان خصيصًا به،فلما ولى الوزارة بعده سعى فى قتله كلَّ السَّعى ، ويقال إنّه جهّز إليه من قتله بغير أمر المستنصر ، فلما اطّلع على ذلك عظُم عليه . وعُزِل البابلى فى شهر ربيع الأوّل منها . واستوزر أبا الفرج محمد[٢] بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين المغربى ، ثم صرَفه فى شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين وأعيد البابلى .

وفى سنة خمسين وأربعمائة استعمل ناصر الدّولة بن حمدان على ولاية دمشق .

وفى سنة ثلاثٍ وخمسين ، فى المحرَّم ، صُرِف البابلىّ عن الوزارة ووَلِيَها عبدالله[٣] بن يحيى بن المدبّر ، ثم صُرف فى بقية السنة ووَلِى أبومحمد عبدُالكريم[٤] بن عَبدالحاكم بن سعيد الفارقىّ فى شهر رمضان من السنة ؛ فقال أبوالحسن على بن يسر الرحمن بن بشر الصقلى يخاطب ابن المدبر :

لا تجزعنَّ عن الأمور إذا الْتوت ... وَابشر بلُطف مسبِّبِ الأسباب
ماكنْتَ إلَّا السَّيف ، جُرِّدَ ماضيًا ... وأُقِرَّ مذْخورًا ليَوْمِ ضِراب
للهِ سيرتُك الّتى ما سِرْتَها ... إلا بِأقْومِ سنَّةٍ وكِتاب
شيَّدْتَ للوزراء يا ابنَ مدبِّرٍ ... شرفًا لهم يَبْقى على الأعْقاب
وجمعْتَ بين طهارةِ الأعراق ، والـ ... أخْلاق ، والأفْعَال ، والأثواب

(١) الإشارة ص ٤٦ .
(٢) الإشارة ص ٤٧ .
(٣) الإشارة ص ٤٨ .
(٤) الإشارة ص ٤٨ ـ ٤٩ .

جعَل الإلٰهُ لكلّ قوْمٍ سادةً وبنُو المدبّر سادَةُ الكُتّاب

وفى سنة أربع وخمسين وأربعمائة فى المحرم تُوفّى الوزير أبو محمد عبد الكريم ، فرُدّت الوزارة إلى أخيه أبى على أحمد[1] بن عبد الحاكم ، وكان يلى قضاء القُضاة ؛ وصُرف عن الحُكْم فى صفر ، ثم صُرِف عن الوزارة ، وقيل إنه صَرف عنها بعد سبعة عشرَ يومًا من ولايته . وأعيد البابلى مرة ثالثةً فى شهر ربيع الأول من السنة ، واستعفى بعد خمسة أشهر ، فاستوزر المستنصر سديد الدّولة أبا عبد الله الحسين[2] بن على الماسكى ، وكان يلى نظر الدّواوين بدمشق ، ثم صُرف فى شوال وأعيد البابلىّ .

ذكر الفتنة الواقعة التى أوجبت خراب الديار المصرية

كان ابتداء هذه الفتنة فى سنة أربع وخمسين وأربعمائة . وسببُها أنّ المستنصر بالله كان فى كلّ سنة يركب على النُّجُب ومعه النّساء والخمرُ[3] إلى المكان المعروف بجُبّ عميرة[4] ، وهو موضع نزهة ، ويَذكُر أنّه خرجَ يريد

الإشارة ص ٤٩ .

(٢) الإشارة ص ٤٩ .

(٣) « والحشم » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٦٥ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٢٤ .

(٤) « يوسف » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا ، والمنتقى من أخبار مصر .
جب عميرة : موضعه حاليًّا المنطقة المعروفة باسم البركة شمال شرق القاهرة ، وكان هذا الموضع ينزل به حجاج البر عند مسيرهم من القاهرة إلى مكة ـــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٦٣ .

الحجَّ ، على سبيلِ الاستهزاء والتهكّم ، ومعه الخمر فى الرَّوَايا بدلاً عن الماء . يَسقيه للنَّاس كما يُسقى الماءُ فى طَريق مكَّة [٦٧] ، شرَّفها الله تعالى . فلمَّا كان فى هذه السَّنة خرج على عَادَته فى جُمادى الآخرة ؛ فاتّفق أن بعض لأتراك جرَّد سيفًا على سُكْرٍ مِنْه على بَعْض عَبيد الشّراء ، فاجتمع عليه طائفةٌ من العبيد وقتلُوه ، فجاء الاتراك إلى المُستنصر وقالوا : إنْ كانَ هذا عن رِضاك فالسّمع والطاعة ،وإنّ كان عن غير رِضاك فلا نَصبرُ عليه . فأنكر المستنصر ذلك ؛ فاجتمع جماعةٌ من الأتراك وقتلوا جماعةً من العَبيد بعد قتالٍ شديد على كوم شريك [١] . وكانت والدةُ المستنصر تُعين العبيدَ بالأموال والسّلاح ، فاطّلع بعضُ الأتراك على ذلك ، فجمَعَ طائفةً كثيرةً من الأتراك ودخل على المستنصر بهم ، وأغلظُوا له فى الكلام ؛ فحلَف أنّه لم يكن عندَهُ عِلْمٌ من ذلك . ودَخَل على والدتِه وأنكرَ عليها ؛ وصَار السَّيفُ بين الطَّائفتين . ثمّ سَعَى أبوالفرج بن المغربى ، الذّى كان يلى الوزارة ، وجماعةٌ معه ، فى الصُّلح بين الطّائفتين ،فاصطلحوا ؛ولم تصْفُ طائفةٌ منهم للأخرى .

ثمّ اجتمع العبيد وخرجُوا إلى شَبرا دَمنهور[٢] فى جمع كثير .

وكان سبب كسرتهم أنّ والدة المستنصر لمّا قُتل سيدها ووزيرُها أبوسعيد التُّسْترى اليهودىّ غضِبَت لقتله ، وشرعت فى شراء العبيد السُّودان واستكثرت منهم ، وجعلتهُم طائفةً لها ؛ فاشتَدّ أمرُهم إلى أنْ صارَ العبدُ مِنهم يحكمُ

---

(١) كوم شريك : من القرى القديمة ، إحدى قرى مركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة ، وتنسب إلى الصحابى شريك بن سمى ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٨٣ ، القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٢ ص ٣٣٩ .

(٢) شبرا دمنهور : من القرى القديمة ، وهى الآن شبرا الخيمة ، بمحافظة القليوبية ، وتعتبر حاليًا ضمن القاهرة الكبرى ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ١ ص ١٢ وما بعدها .

حكمَ الوُلاة . فلمَّا وَلِيَ أبوالبركات بن الجرجرائى أمَرَتْه أن يُغرِيَ العبيدَ بالأتراك ، فخاف العاقبةَ فلم يفعل ؛ فصَرَفَتْه وولَّت وزيرها اليازُورى وأمرته بذلك ، فلم يقبَلْ منها ، ودبَّر الأمرَ وساسه إلى أن قُتِل . ووَزَر البابلىّ فأمرته بذلك ، ففعل ، ووَقَع بين الطائفتين .

قال : فلمَّا خرج العبيد إلى شَبَرَا دمنهور قَوِيت شوكةُ الأتراك وطلبوا الزِّياداتِ فى أرزاقهم إلى أنْ خَلَتَ الخزائن من الأموال وضعُفت الدّولة ، والعبيد على حالٍ من الضرورة وهُمْ يتزايدُون عِدّة ، فتكامل منهم ما بَيْن فارس وراجل خمسُون ألفًا .

فبعثَت والدةُ المُستنصر لقُوّاد العَبِيد ، فى سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، وأغْرَتهم بالأتراك ؛ فاجتمعُوا ووَصَلُوا إلى الجيزة ، فخرج الأتراك لقتالهم ، والمقدَّم عليهم ناصرُ الدّولة الحسن[١] بن حمدان ، فَلَقِيَهم فكسَرَهُ العبيد ونهبوا عسكره ، واشتَغلُوا بالنَّهب ، فعطَف عليهم ابنُ حمدان وهَزَمهم إلى الصَّعيد ، وعادَ إلى القاهرة وقد قَوِيَت شوكتُه .

ثمّ تجمَّع العبيدُ فى الصّعيد فى خمسة عشر ألف فارس وراجل ، فقلِقَ الأتراك لذلك قلقًا شديدًا ، وحضَر المقدَّمون إلى المستنصر ليشْكُوا ذلك إليه ، فأمرت والدته مَنْ عندَها من العبيد والخدَم بالهُجوم عليهم[٢] وقَتْل الأتراك ، ففعلوا ذلك . وسَمع ناصرُ الدَّولة ابنُ حمدان بالخبر ، فَركب إلى ظَاهر القاهرة واجتمع إليه مَنْ بقى من الأتراك ووقعت الحرب بينهم وبين العبيد المقيمين بمصر والقاهرة ، ودامَتْ بين الفريقَيْن أيّامًا . فانتصر ناصر

---

(١) « الحسين » فى الأصل ، والتصحيح مما سبق ؛ ومن اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٧٣ .
(٢) « عليه » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

الدّولة والأتراكُ على العبيد ، وقتلُوا منهم مقْتَلَةً عظيمة ؛ ولم يبْقَ منهم بالقاهرة ومِصْر إلّا القليل .

وبقى العبيدُ المقيمون بالصّعيد على حالهم . وكان بالإسكندريّة منهم جماعةٌ . فسار ناصر الدّولة إليهم ، فسألوا الأمان ، فأمّنهم ؛ ورتّب بالإسكندرية من يثق به . وانقضت سنة تسع وخمسين فى حربهم .

وقويَت شوكةُ الأتراك فى سنة ستين وأربعمائة ، وطمِعوا فى المستنصر بالله ، وقلّ ناموسُه عندهم . وكان مقرّرهم فى كلّ شهر ثمانيةً وعشرين ألف دينار ، فصار فى كلّ شهر أربعمائة ألف دينار . وطالبوا المسْتنصِر بالأموال ، فاعتذر أنّه لم يبْقَ عنده شىء منها ؛ فطالبوه بذخائره فأخرجها إليهم ، وقُوِّمت بأبخس الأثمان .

وخرج ناصرُ الدّولة بن حمدان فى جماعةٍ من الأتراك إلى الصّعيد لقتال مَنْ فيه من العبيد ، وكانَ قد كثُر فسادهم ، فالتقَوْا واقتتلُوا ، فكانت الهزيمة على ناصر الدّولة والأتراك ، فعادوا إلى الجيزة . فاجتمع على ناصر الدّولة مَنْ سَلِم مِن عسكره ، وشَغَبُوا على المستنصر بالله ، واتّهموه أنه يُمِدّ العبيد بالنّفقات سرًّا ، فحلَف لهم على ذلك .

ثمّ خرج الأتراك إلى العبيد وقاتلوهم ، فقُتل منهم مقتلةٌ عظيمة ولم ينج منهم إلّا القليل . وزَالت دولةُ العبيد ، وعظُم أمرُ ناصر الدّولة بن حمدان .

ذكر الوحشة الواقعة بين ناصر الدّولة والأتراك

وفى سنة إحدى وستين وأربعمائة ابتدأت الوحشة بين ناصر الدّولة بن حمدان وبين الأتراك . وسبب ذلك أنّ ناصر الدّولة قوِىَ واشتدّت شوكتهُ ، وانفرد بالأمر دُون قوّاد الأتراك ، فعظُم ذلك عليهم وفسدت نياتهم

[٦٨] ، وشكوا ذلك إلى الوزير الخطير[١] ، وقالوا : كلَّما خرج من الخزانة مالٌ أخذ ناصرُ الدَّولة أكثره وفرّقه فى حاشيته ، ولا يصِلُ إلينا منه إلّا القليل . فقال : ما[٢] وصل إلى هذا الأمر وغيره إلابكم ، ولو فارقتُموه لم يتمَّ له أمر . فاتّفق أمرهم على محاربته وإخراجه من ديار مصر ، فاجتمعوا وذكَرُوا ذلك للمستنصر ، وسألوه أن يُخرِجَه عنهم ؛ فأرسل إليه يأمره بالخروج ويتهدَّدُه إنْ لم يفعل . ففارَقَ ناصر الدَّولة القاهرةَ وغدا إلى الجيزة ، ونهبت دُورُه ودور حواشيه وأصحابه .

فلمّا جاء الليلُ دخل ناصرُ الدّولة ، واجتمع بالقائد تاج الملوك شادى ، وقبّل رِجليه ، وسأله أن يُعينه على إلْدِكِز[٣] والوزير الخطير . قال : وكيف الحيلةُ فى ذلك ؟ قال : تركبُ أنت وأصحابُك وتسيرُ بين القصرين ، فإذا أمكنَتْك الفرصة فاقتلهما . فأجابه إلى ذلك .

وركب شادى من بُكرة الغد للتسيير فعلم إلْدِكِز بمراده ، فهرب إلى القصر واستجار بالمستنصر فَسَلِم . وأقبل الوزيرُ فى موكبِه فقتله شادى ، وسيَّر إلى ناصر الدَّولة يأمره بالحضور ؛ فعدَّى من الجيزة إلى القاهرة . فأشار إلْدِكِز على المستنصر بالرّكوب ، وقال : متى لم تركب هلكت[٤] وهلكنا معك . فلبس

---

(١) « خطير الملك » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٣٤ .
وهو محمد بن الحسن بن على اليازورى ، استقر فى القضاء والوزارة فى ١٣ صفر ٤٦١ هـ ، وصرف عنها فى شوال من نفس السنة ــ المنتقى من أخبار مصر ٣٥ .

(٢) « إنما » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٣) شيخ الأتراك والمقدم عليهم ، ولقبه أسد الدولة ، وكان زوج ابنة ناصر الدولة بن حمدان ، ولم يمنعه ذلك من التآمر عليه ــ اتعاظ الحنفا ص ٢٧٩ هامش (١) .

(٤) « وإلا هلكت » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

سلاحه وركب ، وتبعَهُ خلقٌ من عامَّة النَّاسِ والجند ، واصطَفّوا للقتال . فحملت الأتراك على ناصر الدّولة فانهزم ، وقُتِل من أصْحابه جماعةٌ كثيرة ، ومضى لا يُلْوى على شيء وتبعَه بعضُ أصحابه فالتحق ببنى سِنْبِس بالبحيرة فأقام عندهم وصاهرهم ، وتقوَّى بهم .

ولما تحقّق ناصر الدّولة ميْلَ المستنصر عنه قصَد إبطَال دعْوته ، وكتب إلى السّلطان ألب[1] أرسلان السلجوقى[2] ملك خراسان والعراق يسأله أن يسيرِّ إليه عسكرًا يفتح له مصر ويُقيم الدّعوة العبّاسية بها . فتجهز ألب[1] أرسلان من خراسان بعساكره ، وكتب إلى صاحب حلب[3] يأمره بقَطْع دعوة المستنصر وإقامة الدّعوة العباسية ، ففعل ذلك ، وانقطعت دعوة المستنصر[1] من حلب ؛ ثمّ ملكها ألب[1] أرسلان ؛ كما ذكرناه فى أخبار الدّولة السلجوقية[4] ؛ ثم ملكت عساكره دمشق[5] .

---

(١) بدلاً من كلمة « ألب » فى المواضع الثلاثة فى هذه الفقرة ، وكلمة « المستنصر » بياض فى الأصل ، والتكملة من المنتقى من أخبار مصر ص ٣٥ .

(٢) « السلجقى » فى الأصل ،

وهو ألب أرسلان محمد بن داود بن جغرى بك بن ميكائيل بن سلجوق ، الكامل جـ ١٠ ص ٧٤ وما بعدها ، وانظر نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٢٩٧ وما بعدها .

(٣) هو محمود بن ثمال بن صالح بن مرداس ، رشيد الدولة ، الذى ولى حكم حلب مرتين فى الفترة من ٤٥٢ ـ ٤٥٣ هـ/١٠٦٠ ـ ١٠٦١ م ، والفترة من ٤٥٤ ـ ٤٦٨ هـ/١٠٦٢ ـ ١٠٧٥ م ــ اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٠٢ ، تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٤٦ .

(٤) « السلجقية » فى الأصل ، وانظر نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٣١٢ .

(٥) كان ذلك سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٥ م على يد القائد التركى ، أحد أمراء السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان ــ المنتقى من أخبار مصر ص ٤٢ .

ذكر الحرب بين ناصر الدّولة والأتراك

قال : ولما اتّصل بالمستنصر ما فعله ناصرُ الدّولة من مكاتبة ألب[١] أرسلان جرَّد عسكرًا لِقتاله من الأتراك ، فساروا ثلاث فِرَق . فأرادَ أحدُ المقدَّمين أن يلْقاهُ ليكونَ الظَّفرُ لهُ دُون رفيقَيه ، فتقدَّم والتقى بناصر الدّولة ، فهزمه ناصرُ الدّولة وقتل جماعةً من أصحابه وأسَره . ثمّ التقى العسكرُ الثّانى ولم يعلمُوا بما جرى على الأوّل ، فهزمهم أقبح هزيمة ، وهرب العسكرُ الثّالث . وقَوِىَ ناصرُ الدّولة بهذا الظّفر ، وقطَع المِيرَة عن القاهرة ومصر ، ونهَب أكثر الوجه البحرى ، وقطَع خُطبة المستنصر من الإسكندرية ودمياط والوجه البحرى ، وخطب للقائم بأمْر الله[٢] العبّاسى . وعُدمَت الأقواتُ بالقاهرة ومصر ، واشتدَّ الغلاء ، وكثرُ الوباء ، وامتدَّت أيدى الجند إلى نَهْب العوامّ .

ذكر الصُّلح بيْن ناصر الدَّولة والأتراك

وفى المحرّم سنة ثلاث وستين وأربعمائة وقع الصُّلح بين ناصر الدّولة بن حمدان والأتراك . وسببُ ذلك أنّ المستنْصر بالله والأتراك اشتدَّت بهم الضَّائقةُ لقَطْع المِيرَة ، فاضْطرُّوا إلى مُصَالحته ، فصالحوه على أن يكُونَ مقيمًا بمكانه ويُحمَل إليه مال قرَّره المستنصِر ، ويكون تاجُ الملوك شادى نائبًا عنه . فرضِى بذلك وسيَّر الغِلال إلى مصْر . ثمّ وقع الخلافُ بينهم بعْدَ شهور ، فجاء

---

(١) بدلاً من كلمة « ألب » بياض فى الأصل .

(٢) هو الخليفة العباسى أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله ، الذى ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة من ٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ/١٠٣١ ـ ١٠٧٥ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ ـ ١٣ .

ناصرُ الدّولة من البحيرة ، وعساكرَ كثيرةً ، وحاصر مصر فى ذى القَعدة من السّنة ، ودخل أصحابه فنهبوا شطرًا منها ، وأحرقوا دور السّاحل ؛ ثم عادُوا إلى البحيرة . والله أعلم[1] .

ذكر الحرب بين ناصر الدّولة وتاج الملوك شادى وماكان من أمر ناصر الدّولة إلى أن قتل

وفى سنة أربعٍ وستّين وأربعمائة جمع ناصر الدّولة جمُوعه من العُربان وجاء إلى الجيزة ، واستدْعى إليه تاجَ الملوك شادى وبعض المقدَّمين ، فخرجُوا للقائه ، فقبضَ عليهم ونهب مصر [٦٩] وأحرقها .

وكان سببُ ذلك أنّ شادى كان قدْ قَطَع عن ناصر الدّولة ماكان قد تقرّر حمْلُه إليه من المال ، ولم يُوصِّل إليه إلّا اليسير منه . فلمّا قَبض عليهم سيرَّ المستنصرُ إليه عسكرًا كثيفًا ، فهزموه ، فهرب إلى البحيرة وجمع جموعه من العُربان وغيرهم ، وقطع خطبةَ المستنْصر وأبطل ذكرَه . ثم قدِم ناصر الدّولة فى شعبان من السنة ودخل إلى مصر وحكم بها ، وأرسل إلى المسْتنَصر يطلُب منه المال ؛ فرآه الرّسولُ وهو جالسٌ على حصيرٍ وحوله ثلاث خدم ، ولم ير شيئًا آخر من آثار المملكة . فلمّا ذكر الرّسول رسالته للمستنْصر قال : ما يكفى ناصرَ الدّولة أنْ أجلسَ فى مثلِ هذا البيت عَلَى هذه الحال ! فبكى الرّسولُ ، وعاد إلى ناصر الدّولة وذكر له الحال ؛ فأطلق ناصرُ الدّولة للمستنصر بالله فى كلّ شهرٍ مائةَ دينار ، وحَكَم فى القاهرة ، وبالغ فى إهانةِ المستنصر ، وقبض

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٠٥ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٣٧ .

على والدته وعاقبَها ، وأخذ منها الأموال . وتفرّق عن المسْتَنصر جميعُ أقاربه وأولاده ، ومضوْا إلى بلاد المغْرب والعراق(١) .

وعمِل ناصرُ الدّولة على إقامة الدّولة العبّاسية . فنهض إلْدِكِز أحد الأمراء ، ويلدكوز ، واجتمعا بِمَن بقى من الأتراك ، واتّفقُوا كلّهم على قتْل ناصر الدّولة ، وكان قد أَمِن وترك الاحتراس لقوّته وسَطوته ، وظنّ أنّ الدّنيا صَفَت له . فتواعَدَ الأتراكُ وركبُوا إلى داره ، فى شهر رجب سنة خمس وستين وأربعمائة ، وهو إذْ ذاك بمصر بمنازل العزّ(٢) ، فدخلوا عليه من غير استْئذان إلى أن بلغوا صحن الدّار ، فخرج إليهم فى رداء ، فقتلوه وأخذوا رأسه . وكان الّذى تولى قَتْله إلْدِكز ، وقتل أخوه فخر العرب وأخوهما تاج المعالى وجماعة من أهل بيته . وانقطع ذكرُ آل حمدان ، ولم يبْقَ بمصر لهم ذكر(٣) .

وناصر الدّولة هذا هو الحسَن بن الحسين بن ناصر الدّولة الحسَن بن عبدالله بن أبى الهيجاء حمدان بن حمدون .

نرجع إلى حوادث الدّولة المستنصريّة .

وفى سنة خمسٍ وخمسين وأربعمائة نُدب أمير الجيوش بدر الجمالى لوِلاية دمشق على حربها(٤) ، وفُوّض إليه فى سنة ثمانٍ وخمسين وأربعمائة ولايةَ

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٣٨ .

(٢) منازل العز : دار أنشأتها السيدة تغريد أم العزيز بالله ، تشرف على النيل ، اتخذها الخلفاء الفاطميون متنزهًا ، وسكنها ناصر الدولة بن حمدان إلى أن قتل ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٨٤ وما بعدها ، وجـ ٢ ص ٣٦٤ .

(٣) انظر النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢١ ـ ٢٣ .

(٤) انظر ذيل تاريخ دمشق ص ٩١ وما بعدها ، الكامل جـ ١٠ ص ٣٠ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٢٨ .

الشّام بأسرها (١)

ذكر الغلاء الكائن بالدّيار المصريّة

كان ابتداؤه فى سنةِ سبعٍ وخمسين وأربعمائة واشتدّ من سنة إحدَى وستّين ، وقلّت الأقواتُ فى الأعمال حتّى أكل النّاس الميْتَة ؛ وتزايدَ فى سنة اثنتَين وستّين : وكثُر الوباء بالقاهرة ومصر حتّى إنّ الواحدَ كان يموت فى البيْت فيموتُ فى بقيّة اليوْم أو اللّيلة كلّ مَنْ بقى فيه . وخَرج من القاهرة ومصْر جماعةٌ كثيرة إلى الشّام والعراق ؛ وأكل بعضُ النّاس بعضًا . ودامَ ذلك إلى سنة أربعٍ وستّين . وشبِّهت هذه السّنين بسنى يوسُف عليه السلام .

قال ابن الهمذانى فى تاريخه(٢) : وفى سنة اثنتين وستّين وأربعمائة ورد إلى بغدادَ من مصر الرّجال والنساءُ هربًا من الجوع والفتنة ، وأخبروا أنّ بعضهم أكل بعضًا . وورَدَ التّجار ومعهُم ثيابُ صاحبِ مصر وآلاته وذخائره ؛ وكان معهم أشياء كثيرة نُهبت عند القبض على الطّائع ، فى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ؛ وما نُهب فى وقعة البساسيرى(٣) .

قال : وخرج من خزانة المستنصر بالله أشياء عظيمة ، من جملتها ثلاثون ألف قطعة بلور كبار ، وخمسة وسبعون ألف ثوب ديباج خسروانى(٤) ،

---

(١) المنتقى من أخبار مصر ص ٣٠ .

(٢) هو محمد بن عبد الملك الهمذانى ، صاحب تكملة تاريخ الطبرى .

(٣) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٠٣ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٣٦ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٧٥ .

(٤) نسبة إلى خسرو شاه من أكاسرة الفرس ، وهو نوع من الحرير رقيق .

وأحد عشر ألف[١] درع ، وعشرون ألف سيف محلاة ، وغير ذلك .

قال المؤرخ : ومِنْ جملة ما بلغ من أمْر الغلاء أنَّ امرأةً كان لها حلى باعت مايُساوى ألف دينار بثلاثمائة دينار واشترت به حِنْطة ، فنُهبت منها فى الطَّريق ، فنَهَبَت مع مَنْ نَهب ، فحصَّل لها ماجَاء رغيفًا واحدًا (٢) .

وحكى أنّ بعض أهل اليسار وَقف بباب القصر وصاح واستصرخ إلى أن أُحْضِر بين يدى المُسْتنصر ، فقال له : يا مولانا ، هذه سَبعون قمحةً وقفت علىّ بسبعين دينارًا ، كلّ قمحة بدينار ، فى أيامك ؛ وهو أنى اشتريت أردبّ قمحٍ بسبعين دينارٍ ، فنُهب منّى فنَهَبْت مع مَنْ مهب ، فوقع فى يدى هذه ؛ فكلّ قمحة بدينار . فقال المستنصر الآن فرَّج الله عن النّاس فإنّ أيّامى حُكم لها أنّ القمحة تُباع بدينار[٣] .

قالوا : ولم يكنْ هذا الغلاءُ عن نَقص النّيل ، وإنمّا كان لاختلاف الكلمة وحروب الأجناد ، وتَغلُّب المتغلِّبين على الأعمال . وكان النّيل يزيد ويهبط فى كلّ سنة ، ولم يجِدْ من يزرع الأراضى ؛ وانْقطعت الطُّرقات برًّا وبحرًا إلّا بالخِفَارة الكثيرة ، وأبيع الرّغيف الخبز بأربعة عشر دينارًا أو درهمًا . قال الحوانى : وأبيع الأردبّ القمح بمائتى دينار .

[٧٠] ذكر قدوم أمير الجيوش بدر الجمالى إلى مصر واستيلائه على الدولة

كان تقدّمه فى سنة ستٍ وستّين وأربعمائة . وسبب ذلك أنّ المستنصر

---

(١) « منها واحد وعشرون ألف ذرع » فى المنتقى من أخبار مصر .

(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٩٩ .

(٣) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٩٩ .

تواترت [١] عليه الرَّزَايَا وحصَره ابنُ حمدان كما ذكرنا فلمّا قتل ابن حمدان استطال إِلْدِكز والأتراك والوزير ابن أبى كدينة [٢]، فضاق المستنصر ذَرعًا ، وكاتب أمير الجيوش بدر الجمالى[٣] وحسَّن له أن يكون المتولِّى لأمر دولته ، فأعاد الجواب واشترط أنْ يستخدم معه عسكرًا ، وألّا يُبقى على أحدٍ من عسكر مصر . فأجابه إلى ذلك . فاستخدم العساكر وركب فى البحر الملح ، وكان إذْ ذاك بعكّا ، وسار فى مائة مركب فى أوّل كانون ، وهو وقتٌ لم تجْرِ العادةُ بركوب البحر فى مثله ، فوصل دمياط ، وركب منها . وسار إلى أن نزل بظَاهِر قليوب . وأرسل إلى المستنصر بالله أن يقبض على إِلْدِكز[٤] ، فقبض عليه ، ودخل أمير الجيوش إلى القاهرة فى شهر ربيع الآخر منها ، وقيل فى جمادى الأولى . فما لبث أن بعث كل أمير من أمرائه إلى قائدٍ من قوّاد الدّولة ليلاً وأمره أن يأتيه برأسه ؛ فأصبح وقد أُحْضر إليه من رءوس قوّاد الدّولة شىء كثير . وقبضَ على الأتراك وقويت شوكته ، وقَمع َكلَّ مفسد ، حتى لم يبق أحد منهم بمصر والقاهرة . وخلع المستنصر[٥] بالله على بدر الجمالى بالطَّيلسان ، وصار أمر المستخدَمين فى حُكمه ، والدّعاةُ والقضاةُ نوّابه .

قال : ولمَّا قدم مصر حضر إليه المتصدِّرون بالجامع ، فقرأ ابن

---

(١) « لما تواترت » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسياق الكلام .

(٢) هو الحسن بن مجلى بن أسد بن أبى كدينة ـ المنتقى من أخبار مصر ص ٤٠ .

(٣) انظر ترجمته فى : الإشارة ص ٥٥ ــ ٥٦ ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ ــ ١٢٨ ، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٤٨ ، الوافى جـ ١٠ ص ٩٥ رقم ٤٥٤٥ .

« بلدكوز » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٤٠ ، و« يلدكوش » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١٢ ، الوافى بالوفيات جـ ١٠ ص ٩٥ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٣٩ .

(٥) « على المستنصر بالله » ، وهو تحريف ، والتصحيح يتفق والسياق . وانظر المنتقى من أخبار مصر ص ٤٠ .

العجمى : « وَلَقَدْ نَصَرَكُم اللهُ بِبَدْرٍ »[١] وسكت عن تمام الآية . فقال له بدر : والله لقد جاءت فى مكانها ، وسكوتُك عن تمام الآية أحسن[٢] ؛ وأحْسَنَ إليه . وقيل : بل قال له : لِمَ لا قرأت « إنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْه »[٣] .

وقَتَل أمير الجيوش من أماثل المصريين ووزرائهم وحكّامهم جماعةً ، وشرع فى إصلاح الأعمال وقَتْل المفسدين .

وفى سنة ثمانٍ وستّين وأربعمائة خُطب للمستنصر بمكّة والمدينة ، وكانت الخطبة بهما قد انقطعت منذ خمس[٤] سنين .

وفيها حاصر أتسيز[٥] دمشق وملكها ، على ما ذكرناه فى الباب العاشر من القسم الخامس من هذا الفنّ فى أخبار الدّولة السلجقية . وانقطعت خُطبة المستنصر من الشّام .

ذكر هلاك عرب الصعيد وقتل كنز الدولة

وفى سنة تسعٍ وستين وأربعمائة اجتمع جماعةٌ كثيرة من عرب جهينة

---

(١) سورة آل عمران رقم ٢ جزء من الآية رقم ١٢٣ .

(٢) بقية الآية « فَاتَّقُوا الله لعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ، وورد فى كنز الدرر « لو أتم الآية أمرت بضرب عنقه » جـ ٦ ص ٣٩٩ .

(٣) سورة الزخرف رقم ٤٣ ، جزء من الآية ٥٩ .

(٤) ورد هذا الخبر فى أحداث سنة ٤٦٧ هـ فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١٤ ، وانظر أيضًا الكامل جـ ١٠ ص ٩٨ .

(٥) أتسيز أو أتسز أو أطسز ، ويكتب أحيانًا أقسيس ، أحد أمراء السلطان السلجوقى ملك شاه ، انظر الكامل جـ ١٠ ص ٩٩ وما بعدها ، والمنتقى من أخبار مصر ص ٢٤٢ ، وانظر نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٣١٦ - ٣١٧ .

والجعافرة والثعالبة وغيرهم بمدينة طوخ[1] العليا من صعيد مصر ، واتّفقوا على قِتال أمير الجيوش ، فخرج إليهم . فلمّا قارَبَهم هجم عليهم فى نِصْف الّليل ، فهزمهم وأبادهم بالقتل ، وغرق خلقٌ كثيرٌ منهم ، وغَنِم أموالَهم وحُمِلت إلى المستنصر .

وكان كنز الدّولة[2] محمّد قد تغلَّب على ثغر أسوان ونواحيها وعظُم شأنه وكثُرت أتباعه ، فقاتله أمير الجيوش وقتَلَه ، وبنى فى المكان مسجدًا سمّاه مسجد النّصر . وكانت هذه الوقْعَة آخرَ إصلاح حالِ مصر وعُرانها . وقيل كان قَتْل كنز الدّولة فى سنة خمسٍ وسبعين والله أعلم .

وفى غيبة أمير الجيوش [هجم][3] أتسيز على الدّيار المصريّة ، وكان ابن يلدكوز قد الْتحَق به وأهدى له تُحفًا جليلة المقدار ، منها ستّون حبّة لؤلؤ مدحرج[4] تزيد كلُّ حبة على مثقال ، وحجر ياقوت زنته سبعة عشر مثقالاً ، وغير ذلك ، وأطمعه فى ملك الدّيار المصريّة ، وملك ما وصل إليه . فجمع أمير الجيوش عساكرَه وخرج إليه ، وقاتله وهزَمَه ، وقتل خلقًا كثيرًا من أصحابه بعد أن أقام بأرياف مصر جُمَادَيَيْن وبعض شهر رجب[5]

---

(١) طوخ : يوجد بصعيد مصر ٢١ موضع كل منها يحمل اسم طوخ مضافًا إلى اسم آخر .
ووردفى معجم البلدان طوخ : قرية بصعيد مصر غربى النيل ، وورد فى القاموس الجغرافى طوخ : قرية فى صعيد مصر الأعلى على غربى النيل ، ومن المرجح أن تكون هذه القرية هى المقصودة ، وهى التى تعرف باسم طوخ دمنو من أعمال قوص ـ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٤ ص ١٨٧ .

(٢) عن بنى كنز انظر تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ــ القاهرة ١٩٧٦ .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح تتفق والسياق ، وانظر أيضًا المنتقى من أخبار مصر ص ٤٤ ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١٧ ، الكامل جـ ١٠ ص ١٠٣ .

(٤) « مرجرج » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٤٤ .

(٥) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٤٤ ، واتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١٧ وما بعدها .

وفيها خرج على أمير الجيوش عربُ قيس وسليم وفزارة ، فخرج إليهم وقاتلهم ، وهزمهم ، وطردَهم إلى برقة [١] .

وفى سنة سبعين وأربعمائة فوّض لأمير الجيوش بدر الجمالى قضاءُ القضاة ، ونُعِت بكافل قُضاة المسلمين ، وهادى دُعاة المؤمنين .

وفى سنةٍ سبعٍ وسبعين وأربعمائة خالف الأوحد بن أمير الجيوش على والده ، واجتمع معَه جماعةٌ من العُربان وغيرهم ، واستولى على الإسكندريّة . فسار إليه والدُه وحاصره بها ، وفتحها ، وقبض على ولده ، وبنى أميرُ الجيوش الجامع المعروف بجامع العطّارين بالإسكندرية [٢] من أموالٍ أخذها من أهل البلد ؛ وكانت عمارتُه فى شهر ربيع الأول سنة تسعٍ وسبعين . وقامت الخطبة بهذا الجامع إلى آخر أيّام العاضد [٣] .

وفى سنة اثنتين وثمانين [٧١] وأربعمائة ندبَ أميرُ الجيوش بدر الجمالى عسكرًا إلى السّاحل ففتح صُور وصَيدا ، وصارًا بِيَد نوّابه . ثم سار بعد ذلك وفتح جُبيل وعكّا . وكان ذلك فى يد تاج الدولة تُتُش [٤] صاحب دمشق .

ذكر بناء باب زويلة بالقاهرة

وفى سنة خمسٍ وثمانين وأربعمائة أمَرَ أمير الجيوش بدر الجمالى ببناء باب

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٧٦ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٤٤ .

(٢) كان هذا الجامع خرابًا وجدده بدر الجمالى ــ انظر تاريخ المساجد الأثرية جـ ١ ص ٦٧ ، جـ ٢ لوحة ٣١ ، وانظر المنتقى من أخبار مصر ص ٤٦ هامش ١٨٩ .

(٣) « ولم تزل الخطبة فيه حتى ملك صلاح الدين يوسف فنقل الخطبة منه إلى جامع بناه » المنتقى من أخبار مصر ص ٤٧ ، وانظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٢١ .

[illegible] فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ٥٠ ، الكامل جـ ١٠ ص ١٧٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٢٦ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢٨ .

زويلة الكبير ، الذى هو الآن باقٍ ، وعلّى أرضَه[١] ، وأراد أن يجعل له عطفةً على عادة أبواب الحصُون حتّى لا تهجم عليه العساكر فى أوقات الحصار ، ويتعذّر دخولها جُملة ؛ فأشار عليه بعضُ المهندسين أن يعمل فى بابه زَلّاقةً من حجارة الصَّوّان ، فعمله على هذا الحكم . ولم يزَلْ كذلك إلى أن دخَل منه السّلطان الملك الكامل[٢] بنُ الملك العادل ، فزَلق فرسه ، فرسَم أنْ يُخفَف من حجارَته ، فخُفّف منها ، ولم يبق إلّا القليل على ما هو عليه الآن[٣] .

وفى سنة ستٍّ وثمانين وأربعمائة ملك تاجُ الدّولة تُتُش ثغر صور بمواطأة من نائب بَدْرٍ بها .

ذكر وفاة أمير الجيوش بدر الجمالى
وولاية ولده الأفضل

كانت وفاتُه فى شهر ربيع الأول[٤] ، وقيل فى جُمادى الأول ، سنة سبعٍ وثمانين[٥] وأربعمائة . وكان حكمه بديار مصر حكم المُلوك ولم يَبْق للمستنصر بالله أمر ، بل سلَّم الأمور إليه فضبَطَها أحسن ضبط . وكان شديدَ الْهَيْبة ،

---

(١) « وعلًى أبراجه » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٥١ ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) هو محمد بن أبى بكر بن أيوب ، الملك الكامل ، ولى حكم الدولة الأيوبية فى الفترة من ٦١٥ ـ ٦٣٥ هـ/١٢١٨ ـ ١٢٣٨ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٤٢ .

(٣) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٥١ ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٢٧ .

(٤) « ربيع الآخر » فى المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣٨١ ، و « فى ذى العقدة » فى الكامل جـ ١٠ ص ٢٣٥ .

(٥) « سنة ست وثمانين » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٣٩ ، و « سنة ثمان وثمانين » فى كل من : العبر جـ ٣ ص ٣٢٠ ، شذرات الذهب جـ ٣ ص ٣٨٣ .

سريعَ البطْش ؛ قتلَ خلقًا كثيرًا من أكابر المصرّيين وقُوَّادهم وكُتّابهم ، وعلى يديه صلحت الدّيار المصريّة بعد أن خربت . وكان له نحو الثّمانين سنة .

وكان أرمنىّ الجنس مملوكًا لجمالىّ الدّولة بن عمار وإليه يُنسب.وتولّى إمرة الشّام والسّاحل .

ولما كان يلى دمشق جرت فتنةٌ من عسكره وأحداث البلد خَرِب بسببها قصرُ الإمارة والجامع الأموى .

ذكر وفاة المستنصر بالله وشىء من أخباره

قال المؤرخ : ولمّا ولىَ مصر أطلق الخراج للمزارعين ثلاثَ سنين إلى أن تمّت أحوالهم واتّسعت أموالهم.وكانت إمارته بمصر إحدى وعشرين سنة .

ولمّا توفى ولىَ بعده الوزارة ولده الأفضل ، ونعت بنعوت أبيه،وقبض على جماعةٍ من الأمراء كانوا قد ثاروا عليه .

كانت وفاته فى ليلة الخميس الثامن عشر من ذى الحجّة سنة سبعٍ وثمانين وأربعمائة،ومولدُه فى يوم الأحد سادس عشر جُمادى الآخرة سنة عشرين وأربعمائة ، فكانت مدّة حياته سبعًا وستين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام ، ومدة ولايته ستّين سنة وأربعة أشهر .

ولقى فى ولايته أهْوالاً عظيمة وشدائد كثيرة وفاقةً متمكّنة حتى جلس على نخّ[1] وكانت أيّامه ما بين غلاء ووباء وفتن ، على ما نذكره . وكان قد عتّا وتجبَّر واشتهر ، وذلك أنه اشتُهر عنه أنه نصب خركاه فى القُصور التى بعين

---

(١) نخ : نوع من الحصير ــ أو بساط طويل ــ القاموس .

شمس وبنى فسقيَّةً عظيمة وحمل إليها الخمر فى الرَّوَايا وأخرج جميع مَنْ فى قصره من الملاهى والقيان إلى الخركاة وهم يغنون بأصوات مرتفعة ويستقُون من فسقيَّة الخمر ، ويطوفون بالخركاة ، يُضاهون بذلك البيتَ المعظَّم وزمْزَم ، ويقول : هذا أطيب من زيارة حجارة ، وسماعِ صوتٍ كريه ، وشرب ماء آسن . فأخذه الله تعالى وعجّل العقوبة ، وأراه الذُّلّ مع قيام سُلطانه ، وسلَّط عليه أنصار دولته حتّى نهبوا أمواله واستولوا على قصره ، ولم يَبْقَ له إلاّ بساطٌ فجذبوه من تحته . وصار إذا ركب لا يجدُ ما يركبه حاملُ مظلّته إلاّ أنْ يُستعار له بغلة ابن هبة ، صاحب ديوان الإنشاء ، وكلُّ خواصِّه مشاة ليس لهم دواب يركبونها ؛ وكانوا إذا مشوْا يتساقطُون فى الطّرقات من الجوع . وكانت ابنة بابشاذ تبعثُ إليه برغيفين فى كلّ يوم(١) . وهذه عاقبةُ الطغيان والاستهتار .

وكان له أولاد منهم : أبوالقاسم أحمد ، وأبوالمنصور نزار ، وأبوالقاسم محمد ، وأبوالحسين جعفر(٢) ، وغيرهم .

ووَزَر له جماعة(٣) وهم : أبوالقاسم الجرجرائى الأقطع ، وزير والده ، إلى أن توفّى ، فاستوزر من ذكرناهم [٧٢] إلى آخر سنة أربع وخمسين . وتكرَّر بعضُهم فى الوزارة مرارًا واستوزر ابا غالب عبدالظّاهر بن فضل العجمى غير مّرة ، دفعةً فى جُمادى الأولى سنة خمس وخمسين وصُرف بعد

---

(١) « لا يجد من القوت إلا ما تتصدق به عليه الشريفة ابنة صاحب السبيل فى كل يوم » اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٣٢ .

(٢) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٧٧ .

(٣) « ووزر له أربعة وعشرون وزيرًا » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٥٥ ، وفى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٣٢ .

ثلاثة أشهر ، ودفعةً فى شهر ربيع الآخر سنة ستٍّ وخمسين وصُرف بعد ثلاثة وأربعين يومًا ، ثم وليها ثالثةً فى أيام الفتنة ولُقّب تاج الملوك شادى ، وقتل فى سنة خمسٍ وستين . ووَلِى له الحسن بن ثقة الدولة بن أبى كدينة القضاء والوزارة ، كلّ منصبٍ منها خمس دفعات ، ويقال إنه من ولد عبدالرحمن ابن ملجم قاتل على بن أبى طالب رضى الله عنه . ولمّا وصل أمير الجيوش بدر الجمالى أرسله إلى دمياط وأمر بضرب عنقه ، فدخل عليه السيَّاف بسيفٍ كليل[1] فضربه عدَّة ضربات حتى أبان رأسه ، وكان عدّة ماضَرَبه عدَّة ولاياته الحُكم والوزارة . وولى أبوالمكارم أسعد ثم قتله أمير الجيوش ، ووَزَرَ بعده أبوعلى الحسن بن أبى سعد إبراهيم بن سهل التّسْترى عشرة أيام ثم اسْتَعفى ، وكان يهوديا فأسلم ، ووَلِى أبوالقاسم هبة الله محمد الرعبانى دفعتين كلّ دفعة عشرة أيام . وَوزَر الأثير أبوالحسن بن الأنبارى أياما وصُرف ، وَوَزر أبوعلى الحسين بن سديد الدولة الماسَكى مرة ثانية أيَّامًا ثم صرف ، ووزر أبوشجاع محمد بن الأشرف بن فخر الملك ، وفخر الملك هو الذى وزر لبهاء الدولة ابن بويه ، فصُرف وسار إلى الشّام فقتله أمير الجيوش فى مسيره . واستوزر أبا الحسن طاهر ابن الوزير الطرابلسى ، من طرابلس الشّام ، ثم صَرَفه ، وكان أحد الكتّاب بديوان الإنشاء ، واستوزر أبا عبدالله محمد بن أبى حامد السيسى يومًا واحدًا ثم قُتل ، فاستوزر أبا سعد منصور بن أبى اليمن سورس بن مكرواه بن زنبور ، وكان نصرانيًّا ثم أسلم ، والنصارى يُنكرون إسلامه . واستوزر أبا العلاء عبدالغنى بن نصر بن سعيد وصُرف وبقى أيّامًا وقتله أمير الجيوش . ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا ووَزر

---

(١) كليل : ضعيف ، وسيف كليل : أى لا يقطع — القاموس .

للسَّيف والقَلَم والحُكم إلى أن مات ، ثم ولدُه الأفضل بعده[١].

قضاته : كان منهم جماعةٌ من الوزراء قد ذكرناهم ، ومَنْ لم يَلِ الوزارة عبدالحاكم بن سعيد الفارقى فى أوَّل خلافته ، ثم القاسم بن عبدالعزيز بن النعمان . وفى ولاية أمير الجيوش أبويعلى العرَق إلى أن مات ، فولى أبوالفضل القضاعى . ثم جلالُ الدَّولة أبوالقاسم على بن أحمد بن عمار ، ثم صرفه وولَّى أبا الفضل بن عتيق ، ثم أبا الحسن على بن يوسف الكحال النابلسى ؛ ثم فخر الأحكام محمد بن عبد الحاكم[٢] .

وكان نقش خاتم المستنصر بالله « بنصر السَّميع العليم ينتصر الإمام أبو تميم »[٣]

ذكر بيعة المستعلى بالله

هو أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معدّ ، وهو التَّاسع من ملوك الدَّولة العُبَيديّة ، والسادس من ملوك مصر منهم . بُويع له فى بُكرة نهار الخميس لاثنتى عشرة ليلةً بقيت من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة .

وذلك أن المستنصر بالله لما تُوفى بادر الأفضل أمير الجيوش بدُخول القصر وأجلسه على تخت المملكة ، وسيَّر إلى إخوته نزارٍ وعبدالله وإسماعيل ،

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٧٨ ـ ٨١ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٥٥ ـ ٥٦ ، الإشارة ص ٣٦ ـ ٥٩ .

(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٣٤ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٨١ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٥٧ .

(٣) « ينتصر المستنصر أبو تميم » فى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٣٤ .

وأعْلَمهَم بوفاة أبيهم ، وأمرهم بسُرعة الحضور . فلمّا حضروا شاهدُوا أخاهم الصّغير وقد جلس على سرير الخلافة ، فامتعضوا من ذلك ، فقال لهم الأفضل : تقدَّموا وقبِّلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلى بالله وبايعوه ، فهو الذى نصَّ عليه الإمام المستنصر بالله قبل وفاته بالخلافة من بعده . فقال نزار : لو قُطِّعت ما بايعتُ مَن هو أصغر منّى سنًّا ، وخطُّ والدى عنْدى بولاية العهد ، وأنا أُحضره . وخرج مُسرعًا ليُحضر الخطَّ فمضى إلى الإسكندريّة ، فسيّر الأفضل خَلْفَه من يُحضره ، فلم يعلم أحدٌ أين توجَّه ولا كيف سلك ، فانزعج الأفضل[1] لذلك .

وقيل إنَّه لمّا تُوفى المستنصر بالله جلس بعدَه ولدهُ أبومنصور نزار ، وهو ولىُّ العهد وأراد أخذ البيعة لنفسه فامتنع الأفضل أمير الجيوش منْ ذلك لكراهته فيه[2] واجتمع بجماعة الأمراء والخواصّ وقال لهم : إن هذا كبير السّن ولا نأمنهُ على نفوسنا ، والمصلحة أن نبايع لأخيه الصغير أبى القاسم أحمد . فوافقوه على ذلك إلا محمود بن مصال اللكى (٣) ، فإن نزارًا كان قد وعده بالوزارة والتّقدِمة على الجيوش مكان الأفضل . فلمَّا علم ابن مصال الحال أطلعَ نزارًا عليه .

وبادر الأفضَلُ وبايع أحمدَ الخلافة ، ونعته بالمستعلى بالله وأجلسه على

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١١ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(٢) عن سبب هذه الكراهية ــ انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٦٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٤٢ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٢ .

(٣) « المالكى » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ٦٠ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٢ .
« من قرية يقال لها لُك برقة » ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٢ ، وانظر ما يلى عن قرية لك .

سرير الملك ، [٧٣] وجلس **الأفضل على دكّة الوزارة . وحضر قاضى** القضاة نصر الإمام على بن الكحال ومعه الشّهود ، وأخذ البيعة على مقدّمى الدّولة ورؤسائها وأعيانها ، ثم مضى إلى إسماعيل وعبدالله ، وهما بالقصر فى المسجد وعليهما التوكيل ، فقال لهما : إن البيعة قد تمّت لمولانا المستعلى بالله ، وهو يُقرِئُكما السّلام ويقول لكما : تبايعانى أم لا ؟ فقالا : السمع والطاعة ؛ إن الله اختاره علينا . وبايعاه ، وكتب بذلك سجلّ قرأه على الأمراء الشّريف سناء الملك محمد بن محمد الحسنى الكاتب بديوان الإنشاء . وبادر نزار وأخوه عبدالله ومحمود بن مصال إلى الإسكندرية ، وعليها ناصر الدّولة [1] أفتكين التّركى ، أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالى ، فعرّفوه الحال ووعدُوه بالوزارة ، فبايعه ، وبايعه أهل الثّغر ، ولُقّب بالمصطفى لدين الله .

ذكر ما اتّفق لنزار ومَنْ معه

قال : وفى المحرّم سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة خرج الأفضل أمير الجيوش بعساكره إلى الإسكندرية لقتال نزار وأفتكين وابن مصال . فلمّا قرُب منها خرجوا إليه ، والتقوا ، واقتتلوا قتالاً شديدًا ، فكانت الهزيمةُ على الأفضل ومَنْ معه ، فرجع إلى مصر ونهبَ نزار ومَنْ معه من العرب أكثر بلاد الوجه البحرى .

ثم خرج الأفضل ثانيًا وحاصر الإسكندرية ، واشتدّ الحصار إلى ذى القعدة . فلمّا اشتد الحال رأى ابنُ مصال منامًا ، فلمّا أصبح أحضر رجلاً أعجميًّا وقال له : رأيتُ كأنّى راكبٌ فرسًا وكأنّ الأفضل يمشى فى ركابى .

---

(١) « نصر الدولة » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٣ .

فقال له العجمىّ : الماشى على الأرض أَمْلَك لها . فلمّا سمع منه ذلك جمع أمواله وهرب إلى لُكّ قرية من قرى برقة . فعند ذلك ضعُفت قوّة نزار وأفتكين ، فاضطرّ إلى مسألة الأفضل [وبعثا] (١) يطلبان الأمان ، فأمّنهما وفُتحت البلد .

ودخل الأفضل الإسكندرية وقبض على نزار وأفتكين ، وسيَّرهما إلى مصر ، وكان آخرَ العهدِ بنزار . قيل إنَّه جعلَهُ بين حائطين إلى أن مات . وكان مولدُه فى عاشر شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وأربعمائة . وأمّا أفتكين فإنه أظهر قتله بعد ذلك للناس . وأمّا محمود بن مصال فكاتَبَه الأفضل ورغَّبه فى العَوْد،فعاد إلى مصر ، فأكرمه الأفضل .

وفى سنة تسعين وأربعمائة خطب الملك رضوان(٢) صاحب حلب للمستعلى بالله أربع جُمَع(٣) ، ثم قطع خطبته ، على ما ذكرناه(٤) فى أخبار الدولة السلجقية والله أعلم .

ذكر استيلاء أمير الجيوش على البيت المقدَّس

وفى شعبان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة خرج الأفضل أمير الجيوش بعساكره إلى الشام ونزل على البيت المقدس ، وهو فى يد الأمير سُقْمان

---

(١) [وبعثا] إضافة يقتضيها السياق من اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤ .

(٢) هو رضوان بن تتش صاحب حلب وأنطاكية ــ انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٩ ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٦٩ ــ ٢٧٠ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٦٤ .

(٣) « أربعة أشهر » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٩ .

(٤) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٧٢ ـ ٧٣ .

وإيلغازى ، ابنى أُرْتُق (١) ، وجماعة من أقاربهما وخلق كثير من الأتراك . فراسلَهُما يلتمسُ منهما تسليم البيت المقدّس من غير حرب ولاسَفْك ، فلم يجيباه لذلك . فنصب المجانيق وهدم منه قطعة ، وقاتل ، فاضطرَّا لتسليمه فسلّماهُ له ، فخلع عليهما وأطلقهما . وعاد الأفضل إلى مصر(٢) .

ونَقَل محمد بن على بن يوسف بن جلب راغب فى تاريخ مصر أن الأفضل لمَّا رجع من بيت المقدس مرَّ بعسقلان ، وكان فى مكانٍ دارسٍ بها رأس الحسين بن على ، رضى الله عنهما ، فأخرجه وعطَّره وطيَّبه ، وحُمل فى سفط إلى أجَلِّ دارٍ بها ، وعمرَ المشهد ، ولما تكامل حمل الأفضل الرأس على صَدره وسعى ماشيًا إلى أن ردَّه إلى مقره ، ثم نُقل إلى مصر على ما نذكره إن شاء الله . وقيل إن المشهد [بعسقلان](٣) ابتدأ بعمارته بدر الجمالى وكمَّله الأفضل(٤) .

ذكر استيلاء الفرنج على ما نذكره من البلاد الإسلامية بالساحل والشام والبيت المقدس

لم يكن جميعُ ما استولَوْا عليه مما نذكره داخلاً فى ملك الدولة العُبَيديّة ، بل كان منه ما هو فى أيدى نُوّاب المستعلى وما هو بيد الملوك الذين تغلَّبوا على الأطراف ، ولم يكن أيضًا فى أيام المُسْتعلى خاصَّةً . وإنما وردناه بجُملته فى

(١) وليا القدس بعد وفاة والدهما سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٥٠ .
(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٢ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٦٥ ـ ٦٦ .
(٣) [ ] إضافة للتوضيح من المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٢٧ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٢ .
(٤) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٦٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٢ .

هذا الوضع لتكون الأخبارُ متتابعةً ولا تنقطعُ بالسنين والدول . وقد نبّهنا عليه فيما تقدم من أخبار الدولة العباسية [١] .

والذى نذكرُه الآن فى هذا الموضع هو ما استوْلَوْا عليه [٧٤] من سواحل الشام سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وما بعدها .

وكان ابتداء ظهورهم وامتدادِهم وتطرُّقِهم إلى البلاد الإسلامية فى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وذلك أن بلاد الأندلس[٢] لما تقسَّم ملوكها بعد بنى أُمية وصارت كلُّ جهةٍ بيد ملك . وأنِفَت نفسُ كل واحدٍ أن ينقاد إلى الآخر ، ويدخل تحت طاعته ، فكانوا كملوك الطوائف فى زمن الفُرس ، وعجز كلُّ واحدٍ عن مقاومة مَنْ يليه أو يقصدُه من الفرنج ، أدى ذلك إلى اختلال الأحوال ، وتغلب الأعداء على البلاد الإسْلَامية . فأول ما استولَوْا عليه مدينة طُليطِلة من الأندلس ، على ما ذكرناه[٣] فى سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة . ثم ملكوا جزيرة صقليّة فى سنة أربعٍ وثمانين وأربعمائة ، وتطرَّقوا إلى أطْراف أفريقية فملكوا منها شيئًا ثم استُرجع منهم ، على ما قدَّمناه[٤]

ذكر ملكهم مدينة أنطاكيَّة

كان استيلاءُ الفرنج خَذَلَهم الله تعالى ، على مدينة أنطاكيَّة فى جُمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة . وكانت بيد مُلوك الرُّوم من سنة ثمانٍ

(١) انظر نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٢٥٤ وما بعدها .

(٢) يلاحظ أن النويرى ، مثله فى ذلك مثل ابن الأثير ـــ يبدأ كلامه عن الحروب الصليبية بغزو الفرنج للأندلس ، فيربط بذلك بين الحركة الصليبية فى بلاد الأندلس ، والحركة الصليبية فى المشرق الإسلامى ـــ الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٢ .

(٣) انظر نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٤٤٢ .

(٤) انظر نهاية الأرب جـ ٢٤ صفحات متفرقة ، جـ ٢٧ ص ٩٠ وما بعدها .

وخمسين وثلاثمائة إلى أن افتتحها الملكُ سُليمانُ[١] بن شهاب الدين ولد قُتْلُمش السلجقى ، صاحب أقصرا وقونية وغير ذلك من بلاد الروم فى سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، على ما ذكرناه فى أخبار الدولة السّلجقية[٢] . وبقيت فى يده إلى أن قتل . وتداولتها أيدى المتغلّبين من ملوك الإسلام وأمرائهم إلى أن استقرت بيد يَاغِى سِيَان وهو يخطب فيها للملك رضوان ابن تُتُش صاحب حلب ، ولأخيه الملك دُقاق صاحب دمشق .

فلمَّا كان فى سنة تسعين وأربعمائة جمع بغدوين[٣] ملك الفرنج جمعًا كثيرًا من الفرنج ، وكان تسيب رُجَار[٤] الفرنجى صاحب صِقلّية ، فأرسل إليه بغدوين يقول : قد جمعت جمعًا كثيرًا وأنا واصل إليك وسائرٌ مِنْ عندك إلى إفريقية أفتحُها وأكون مجاورًا لك .

فجمع رُجارْ أصحابه واستشارهم فقالوا كلُّهم : هذا جيد لنا ولهم ، وتصبح البلاد كلُّها للنصرانية . فلمَّا سمع رُجارْ كلامَهم وما اجتمعوا عليه ، رفع رجله وحَبَق حبقَةً قوية ، وقال : وحقِّ دينى هذه خيرٌ من كلامكم . قالوا : وكيف ذلك ؟ قال إذا وصلوا إلىَّ احْتَجْتُ إلى كلفةٍ كثيرة ، ومراكب تحملُهم إلى إفريقية ، وعساكر من جهتى معهم ، فإن فتحوا البلاد وكانت

---

(١) هو سليمان بن قتلمش بن أرسلان بن بيغو بن سلجوق ، مؤسس دولة سلاجقة الروم أو سلاجقة الأناضول ، وحكم فى الفترة من ٤٧٠ ـ ٤٧٩ هـ/١٠٧٧ ـ ١٠٨٦ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣١٥ ، ٣٢١ .

(٢) انظر نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٣٠٥ وما بعدها .

(٣) « بردويل » فى الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٢ .
والمقصود بلدوين من أمراء الحملة الصليبية الأولى ، والذى عرف فيما بعد باسم الملك بلدوين الأول Baldwin I ، وهو أول ملك يتوج على مملكة بيت المقدس الصليبية .

(٤) هو روجر الأول Roger I .

لهم وصارت مؤونتهم من صِقلّية وينقطع عنى ما يصل إلىّ من المال من ثمن الغلّات فى كل سنة ، وإن لم يفتحُوها رجعوا إلى بلادى وتأذّيتُ بهم ، ويقول تميم[١] ، صاحب إفريقية غدَرْت بى ونقَضْت عهدى ، وتنقطعُ الوُصلة والأسفارُ بيننا وبين بلاد إفريقية ، وإفريقية باقيَةٌ متىَ وجدْنا قوة أخذناها بها .

ثم أحضر رسُوله وقال له إذا عزمتم على جهاد المسلمين فاقصدوا بذلك فتْحَ بيت المقدس وخلِّصوه من أيديهم ، ويكون لكم الفخر ، وأمّا إفريقية فبينى وبين أهلها أيْمان وعُهود ، فاخرجوا إلى الشام[٢] .

وقيل إنّ المستنصر ، أو المستعلى ، لمّا رأى قوة الدولة السلجقية وتمكُّنَها ، وأنهم استولوا على ملك بلاد الشام [إلى] [٣] غزّة ، ولم يبْقَ بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ، رَاسَل الفرنجَ يدعُوهم إلى الخروج إلى الشّام ، ليملكوه ، ويكونوا بينه وبين المسلمين . والله تعالى أعلم[٤] .

قال فلمّا عزم الفرنج على قصد الشّام ساروا إلى قسطنطينية ليعبُروا المجاز إلى بلاد الإسلام ويسيروا فى البرِّ فيكون أسهل عليهم . فمنعهم ملكُ الروم[٥] من ذلك ، ولم يمكّنهم أن يمرُّوا ببلاده ، وقال : لا أُمَكّنكم من العبور إلّا أن تحلفوا أنكم تسلمون إلىّ أنطاكية . وكان قصدُه أن يحثَّهم على

---

(١) هو تميم بن المعز بن باديس ، من بنى زيرى فى أفريقية ، والذى ولى الحكم فى الفترة ٤٥٣ ـ ٥٠١ هـ/ ١٠٦١ ـ ١١٠٧ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٤٨ .

(٢) انظر الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٢ ــ ٢٧٣ .

(٣) [ ] إضافة تتفق وسياق الكلام من الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٣ .

(٤) الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٣ .

(٥) هو الامبراطور الكسيوس كومنين الذى ولى عرش الامبراطورية البيزنطية فى الفترة من ١٠٨١ ـ ١١١٨ م/ ٤٧٤ ـ ٥١٢ هـ .

الخروج إلى بلاد الإسلام ظنًّا منه أن الترك لا يُبْقُون منهم أحدًا لما أرى من صرامتهم وملكهم[(١)] البلاد .

فأجابوه إلى ذلك وعبروا الخليج فى سنة تسعين وأربعمائة . ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان[(٢)] بن سُلمان بن قُتُلْمش ، فلقِيَهم فى جُموعه ومنَعَهم ، فقاتلوه وهزموه ، وذلك فى شهر رجب منها . ومرُّوا فى بلاده إلى بلاد ابن ليون الأرمنى ،فسلكُوها وخرجوا منها إلى أنطاكيَة ، فحصروها .[(٣)]

قال المؤرِّخ[(٤)] : فلمَّا سمع صاحبها يَاغِى سِيَان بتوجُّهِهِمْ إليها خاف من النَّصارى الذين بها ، فأخرج مَنْ بها من المسلمين بمفردهم فى أول يوم ، وأمرهُم أن يحفروا الخندق ، ثم أخرج النصارى من الغد لذلك . فعملوا فيه إلى العَصْر ، فلمَّا أرادوا دخول البلد منعهم ، وقال لهم : أنطاكية لكُم فهَبُوها لى حتى أنظرَ ما يكونُ بيننا وبين الفرنج . فقالوا : مَنْ يحفظ أولادَنا ونساءَنا ؟ فقال :أنا أخْلُفكم فيهم[(٥)] فأمسكوا ثم صاروا فى عسكر الفرنج .

وحُصِرت أنطاكية تسعةَ أشهر،وظهر من حَزْم يَاغِى سِيَان واحتياطه وجَوْدة رأيه ما لم يُشَاهد مثله ، وهلك [٧٥]أكثر الفرنج موتًا وقتلاً ، وحفظ يَاغِى سِيَان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم ، وكفَّ الأيدى عنهم .

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٣ .

(٢) ولى الحكم فى سلطنة سلاجقة الروم فى الفترة من ٤٨٥ ـ ٥٠٠ هـ/١٠٩٢ ـ ١١٠٧ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٢١ .

(٣) الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٤ .

(٤) ينقل النويرى عن ابن الأثير ابتداء من ذكر استيلاء الفرنج .

(٥) « أخلفكم فيه » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق من الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٤ .

فلمَّا طال مُقام الفرنج عليها رَاسَلُوا أحد المستَحفظين للأبراج ، وهو ذراد ، ويعرف بروزبة [(١)] ، وبذلوا له مالاً وإقطاعًا ، وكان يتولى حِفظ بُرج يلى الوادى ، وهو مبنى على شباك فى الوادى .

فلمّا تقرَّر الأمر بينهم وبينه ، جاءوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه ، وصعد جماعة كثيرة منهم بالحبال ، فلما زادت عدتهم على خمسمائة ، ضربوا البوق وذلك عند السَّحَر وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة،فاستيقظ يَاغِى سِيَان وسأل عن الحال فقيل له : هذا البوق من القلعة ، ولا شك أنها قد أُخِذت . ولم يكن من القلعة وإنما من ذلك البرج . فَدَاخله الرُّعْب ؛ ففتح باب البلد وهرَب فى ثلاثين غلامًا ، وجاء نائبه ليحفظ البلد ، فقيل له : إنه قد هرب ، فخرج من الباب الآخر هاربًا . وكان ذلك إعانة للفرنج ، ولو ثبت ساعة لهلكوا .

ثم إن الفرنج دخلوا البلد من بابه ، ونهبوا وقتلوا مَنْ فيه من المسلمين .

وأما ياغى سِيَان فإنه لما طلع عليه النهار رجع إلى عقله وكان كالوَلْهَان . فرأى نفسه وقد قطع عدَّةَ فراسخ ؛ فقال لمن معه : أين أنا ؟ فقالوا : على أربعة فراسخ من أنطاكية . فندم كيف خلص سالمًا ولم يقاتل حتى يُزيلهم عن البلد أو يُقتل .

وجعل يتلهّف على ترك أهله وأولاده والمسلمين ، ويسترجع ؛ فسقَط عن فرسه لشدة ما ناله ، وغُشِى عليه . فأراد أصحابه أن يُرْكِبوه فلم يكن فيه

---

(١) « نيروز » فى زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٢ ، ويعرف فى المراجع الحديثة باسم « فيروز الأرمنى » ــ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٢٤٥ ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ١ ص ٣٢٨ .

مُسْكة ، وكان قد قارب الموت ، فتركوه وساروا عنه. فاجْتاز به إنسان أرمنى كان يقطع الحطب وهو بآخر رمق فقتله، وحمل رأسه إلى الفرنج بأنطاكيّة[١]

ذكر مسير المسلمين لحرب الفرنج وماكان من أمرهم

قال[٢] : ولما اتصل خبر أنطاكيّة بالأمير قوام الدّين كربوقا صاحب الموصل[٣] جَمَع العساكر وسار لحربهم واجتمع معه الملك دقاق صاحب دمشق وصاحب حمص وصاحب سنجار[٤] . فلمّا بلغ الفرنج اجتماعُهم عظُمت عليهم المصيبة وداخَلَهم الخوف؛ لِمَا هُم فيه من الوهن وقلّة الأقوات . وسار المسلمون حتى نَازَلُوا أنطاكيّة ، فأساء كربوقا السِّيرة فيمَنْ معه من المسلمين ، فأغْضب الأُمراء وتكبَّر عليهم ، ظنًّا منه أنهّم يقيمون معه على هذه الحال . فأغضبهم ذلك وأضمروا فى أنْفسهم الغَدْر به إذا كانَ قتالٌ ، وعزموا على إسْلامِه عند الصَّدمة[٥] .

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٥ .

(٢) مازال النويرى ينقل عن ابن الأثير .

(٣) أتابك الموصل من قبل سلطان السلاجقة بركياروق ، الذى ولى سلطة السلاجقة بخراسان فى الفترة من ٤٨٧ ـ ٤٩٨ هـ/١٠٩٤ ـ ١١٠٤ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣١٩ .

(٤) « فاجتمع معه دقاق بن تتش وطغتكين أتابك ، وجناح الدولة صاحب حمص ، وأرسلان تاش صاحب سنجار ، وسليمان بن أرتق وغيرهم » ـ الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٦ .

(٥) « المصدوقة » فى الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٦ ، أى التخلى عنه عند احتدام القتال .

قال : وأقام الفرنج بانطاكيّة بعد أن ملكوها ثلاثة [١] عشر يومًا ليس لهم ما يأكلونه ؛ فتقوَّتَ الأقوياء بدوابّهم والضّعفاء بالميتة وورَق الشّجر . فلمّا انتهت حالهم إلى ذلك أرسلوا إلى كربُوقا يطلبون منه الأمان ليخرجُوا من البلد ، فلم يُعْطهم ، وقال : لا تخرجُون منه إلّا بالسّيف .

وكان معهم من الملوك بغدوين وصنجيل وكندفرى والقمص صاحب الرُّها وبيمند صاحب أنطاكيّة[٢] وهو مقدَّم العسكر . وكان معهم راهبٌ مُطاعٌ فيهم [٣] فقال لهم : إن المسيح عليه السّلام كان له حربة مدفونة بالقسيان[٤] الّذى بأنطاكيّة ، وهو بناء عظيم ، فإن وجدتمُوها فإنكّم تظفَرون ، وإن لم تجدوها فالهلاكُ متحقّق .

وكان هو قد دفنها قبل ذلك وعفّى أثَرها . وأمَرَهم بالصّوم ثلاثة أيّام والتّوْبة ؛ ففعلوا ذلك . فلمّا كان فى اليوم الرّابع أدخَلَهم جميعَهم وجميعَ عامَّتِهم والصُّنَّاع ، وحفروا عليها فى ذلك المكان فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم : أبْشِروا بالظَّفر . فخرجُوا فى اليوم الخامس من الباب مِنْ خمسة وستّة ونحو ذلك ؛ فقال المسلمون لكربُوقا : ينبغى أن نقف على الباب فنقتلَ كلَّ من يخرج فإنّ أمْرَهم الآن سهل . فقال : أمهلوهم حتى يتكاملُوا ؛ ولم

---

(١) « إثنى عشر » ـــ الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٦ .

(٢) هذه الأسماء ـــ بالترتيب هى :
Baldwin-Raymond of St Gilles- Godefroy-Baldwin de Burgh-Bohemand.

(٣) هو بطرس بارتلميو Peter Bartholomew ـــ انظر تاريخ الحروب الصليبية جـ ١ ص ٣٤٣ وما بعدها ، ص ٣٨٥ وما بعدها .

(٤) القسيان : الاسم العربى لكنيسة القديس بطرس بأنطاكية ، وتنسب إلى الرجل الذى يقولون أن بطرس أحيا ولده بعد موته .

يُمكِّن من مُعَاجَلتهم ؛ فقتل قومٌ من المسلمين جماعة من الخارجين ، فجاء إليهم بنفسه ومنعهم .

فلمّا تكامَلَ خروج الفرنج ولم يَبْقَ منهم أحدُ بأنطاكية ضربوا مصَافًّا عظيمًا ، فانهزم العسكر الإسلامى لِمَا عاملهم به كربوقا من الاستهانة بهم والإعراض عنهم ، فتمَّت الهزيمة عليهم ، ولم يَضْرِب أحدٌ منهم بسيف ولا طَعَن برُمح ، ولا رَمَى بسهم . وآخر مَنْ انهزم سُقمان بن أُرْتُق وجناح الدولة ، لأنهما كانا فى الكمين ؛ وانهزم كربُوقا معهم . فلمّا رأى الفرنج ذلك ظنّوه مكيدةً ، فخافوا أن يتبعوهم ؛ وثبت جماعةٌ من المجاهدين وقاتلوا حِسْبَةً ورغبة فى الشّهادة فقتل الفرنج منهم أُلوفًا ، وغنموا ما فى العسكر من الأقوات والأموال والآلات والدّوابّ ، وغير ذلك ؛ فصلحت حالُهم وعادت إليهم قُوّتهم .

ذكر ملكهم معرة النعمان

[٧٦] قال المؤرِّخ . ثم سار الفرنج إلى معرة النُّعمان [١] ، فنازلوها وحصروها ، وقاتلهم أهلها قتالاً شديدًا ، فرأى الفرنج منهم شدَّةً ونِكايةً عظيمة . فعمِل الفرنج عند ذلك بُرْجًا من خشب يوازى سور المدينة ، ووَقع القتالُ عليه ، فصبر المسلمون عَلى القتال إلى الّليل . ثمَّ خاف قوم منهم وفشِلوا ، وظنّوا أنهم إذا تحصَّنوا ببعض الدُّور الكبار امتنعُوا بها . فنزلوا عن السُّور وأخلَوْا مكانَهم الذى كانوا يحفظونه ، وفعلت طائفة أخرى مثلَ ذلك .

---

(١) معرة النعمان : بين حماة وحلب ، وكانت تعد من أعمال حمص — معجم البلدان .

ولم تزل كلُّ طائفة منهم تتْبع الأخرى حتّى خلا السُّور ، فصعد الفرنج إليه على السَّلاليم . فلمّا علَوْه تحيّر المسلمون ودخلوا دُورهم ، ووضع الفرنج فيهم السَّيف ثلاثةَ أيام ، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبَوا السَّبْى الكثير .

وأقاموا بها أربعين يومًا وساروُا إلى عِرْقة [(١)] ، فحصروها أربعةَ أشهر ، ونَقَبوا سُورَها عدّةَ نقوب ولم يقدروا عليها . وراسَلَهم ابنُ منقذ[(٢)] صاحبُ شَيْزَر ، وصالحهم عليها . ثم ساروُا إلى حمص وحَصَرُوها ، فصالحهم صاحبُها جناحُ الدّولة . وخرجوا على طريق النّواقير[(٣)] إلى عكا فلم يقدروا عليها [(٤)] ، فساروا إلى البيت المُقَدَّس .

ذكر استيلائهم خذلهم الله تعالى على البيت المقدس

كان استيلاءُ الفرنج ، خذَلهم الله تعالى ، على البيْت المقدَّس فى يوم الجمعة ، ضُحًى ، لسبعٍ بَقِين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وكان إذْ ذاك بيد افتخار الدّولة نيابةً عن المستعلى بالله . فإنه كان بيد تاج الدّولة تُتش السّلجق صاحب الشّام ، وأقْطعه للأمير سُقمان بن أُرْتُق التُّركمانى ، فجاءه الأفضل أمير الجيوش واستولى عليه[(٥)] ، وبقى بِيَد نوّابه إلى الآن .

---

(١) عِرْقة : بكسر العين ، وسكون الراء ، تقع على بعد ١٢ ميلاً من طرابلس من الشمال الشرقى فى سفح جبل ، وبينها وبين البحر نحو ميل ــ معجم البلدان .

(٢) « وراسلهم منقذ صاحب شيزر » فى الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٨ .

(٣) النواقير : فرجة فى الجبل بين عكا وصور ــ معجم البلدان .

(٤) الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٨ .

(٥) وذلك فى رجب سنة ٤٩١ هـ/أغسطس ١٠٩٨ م ــ انظر ماسبق .

فقصَدَه الفرنج عند عَجزهم عن فتح عكّا ، وحصروه نيّفًا وأربعين يومًا ، ونصبوا عليه بُرْجين ، أحدهما من ناحية صِهْيَوْن [١] ، فأحرقه المسلمون وقتلوا جَميع مَنْ فيه من الفرنج .

فلمّا فرغُوا من ذلك أتاهم الصَّارِخ أن المدينة قد مُلكت من الجانب الآخر ، وهو الجانب الشَّمالى ، وركب النّاسَ السيفُ ولبث الفرنج أسبوعًا يقتلون فيهم .

واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود وقاتلوا فيه ثلاثة أيام ، فبذَل لهم الفرنج الأمان ، فسلَّموه إليهم ، فوفَوْا لهم ؛ وخرجُوا ليلاً إلى عسقلان وأقاموا بها .

وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيدُ على سبعين ألفًا ، منهم جماعةٌ كثيرةٌ من أئِمة المسلمين وعُلمائهم ، وعُبَّادهم وزُهَّادهم ، مِمَّن فارق أهله ، ووَطَنه وجَاوَرَ بذلك الموضع الشّريف . وأخذوا مِنّ عند الصّخرة نيِّفًا وأربعين قنديلاً من الفضّة ، زنة كلِّ قنديل [ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنورا من فضة وزنه] [٢] أربعون رطلاً بالرّطل الشامى [٣] ؛ وأخذُوا من القناديل الصّغار مائةً وخمسين قنديلاً من الفضَّة ؛ ومن الذهب نيِّفًا وعشرين قنديلا . وغَنِموا ما لا يقعُ عليه الإحصاء .

---

(١) « وعملوا برجين مطلين على السور ، احدهما بباب صِهْيَوْن ، والاخر بباب العامود وباب الأسباط ، وهو برج الزاوية » ــ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٤٨ .

(٢) [ ] إضافة من الكامل جـ ١٠ ص ٢٨٤ .

(٣) الرطل الشامى يساوى ١٢ أوقية ، والأوقية تساوى ٦٠ درهمًا ، أى أن الرطل الشامى يساوى ٧٢٠ درهمًا بالصنجة الشامية ــ صبح الأعشى جـ ٤ ص ١١٨ .

وورد إلى بغداد القاضى سعيد القروى[١] فى شهر رمضان ، ومعه جماعة ، يَسْتَنْفِرون النّاس ، وأوردوا فى الدّيوان كلامًا أبكى العيون ، وصدَع القلوب واستغاثوا بالجامع يوم الجمعة ، وبكَوْا ، وذكروا ما نَزَل بالمسلمين من البلاء ، وما حَلَّ بهم من المُصيبة . فأمر الخليفة أنْ يسير القاضى أبومحمد الدّامغانى ، وأبوبكر الشّاشى ، وغيرهما[٢] ، إلى السّلطان[٣] بسبب ذلك ، فاتّفق ما ذكرناه من الاختلاف الذى وقع بين المُلوك السّلجقية[٤] ، فتمكّن الفرنج من البلاد .

قال : ولمّا اتّصَل خبر هذه الحادثة العظيمة بالأفضل أمير الجيوش جَمَع العساكر وخَرج إليهم ، فقاتلهم فى شهر رمضان من السّنة . ثمّ كَبسَهُ الفرنج هو ومَنْ معه ، وهم على غير تَعْبِئة ، فهزموهم وقتلُوا منهم مَقْتَلةً عظيمة . وحاصر الفرنج عسقلان ، فصالحهم أهلها على عشرة آلاف دينار ، وقيل عشرين ألف دينار ، فعادُوا إلى القدس .

قال : وكان الذى ملك البيت المقدَّس من الفرنج كندفرى[٥] .

---

(١) « أبى سعد الهروى » فى الكامل جـ ١٠ ص ٢٨٤ .

(٢) « وأبو بكر الشاشى ، وأبو القاسم الزنجانى ، وأبو الوفا بن عقيل ، وأبو مسعد الحلوانى ، وأبو الحسين ابن سماك » فى الكامل جـ ١٠ ص ٢٨٤ .

(٣) المقصود السلطان بركياروق .

(٤) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٩٠ وما بعدها .

(٥) هو جودفرى بوايون Godfrey of Bouillon .

ذكر ظفر المسلمين بالفرنج

قال المؤرخ[(١)] : وفى ذى القَعدة سنة ثلاثٍ وتسعين وأربعمائة لقى كُمُشْتَكين بن الدانِشْمند طايلو ، وهو صاحب ملطية وسيواس ، بيمند الفرنجى بالقرب من ملطية ، وكان صاحبُها قد كاتبه واستَقْدمه عليه ، فورَدَ عليه [٧٧] فى خمسة آلاف ؛ فلقيهم ابن الدَّانِشْمند ، وقاتلهم ، فهُزِم بيمُند وأُسِر .

ثمُ وصل من البحر سبعةُ قمامصة من الفرنج ، فأرادُوا خَلَاصَ بيمُند ، فأتَوْا إلى قلعة أنكُورية[(٢)] فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين ؛ وسارُوا إلى قلعةٍ أخرى فحصَرُوها وفيها إسماعيل بن الدّانِشْمند ، فجمع الدّانِشْمند جمعًا كثيرًا ، ولقى الفرنج ، وجعل له كمينًا ؛ فقاتلَهم وخرج عليهم الكمينُ فقتلهم . وكانوا ثلاثمائة ألف لم يُفلت منهم غيرُ ثلاثة آلاف[(٣)] هربُوا .

وسار ابن الدّانِشمند إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها .

قال ابن الأثير الجزرى : وكانت هذهِ الوقائع فى شهورٍ[(٤)] قريبة .

قال : ولم يزل بيمُند فى أسْرِه إلى سنة خمسٍ وتسعين ، فأخذ منه مائة

---

(١) مازالت الإشارة هنا إلى ابنّ الأثير .

(٢) أنكورية : فى وسط شبه جزيرة آسيا الصغرى ، وهى مدينة أنقرة الحالية ــ معجم البلدان

(٣) الإشارة هنا إلى الجموع الصليبية من اللمبارديين الذين تحركوا فى أواخر سبتمبر ١١٠٠ نحو القسطنطينية ، ثم انضمت إليهم جموع أخرى من الفرنسيين والألمان ، والذين أصروا على محاولة تخليص بوهمند من الأسر قبل الاتجاه إلى الشام ــ انظر تفصيل ذلك فى الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٣٥ وما بعدها .

(٤) الكامل جـ ١٠ ص ٣٠٠ .

ألف دينارٍ وأطلقه[١] .

ذكر قتل كندفرى وملك أخيه بغدوين
وما استولى عليه الفرنج من البلاد
وهى : حيفا . وأرسوف . وقيسارية . والرها . وسروج

وفى سنة أربعٍ وتسعين وأربعمائة سار كندفرى صاحب البَيت المقدَّس إلى عكَّا ، فحاصرَها ، فأصابه سهمٌ فقتله[٢] . وكان قد عمَّر مدينة يافا وسلَّمها إلى قمص من الفرنج اسمه طَنْكُرى[٣] . فلما قُتِل كندفرى سار أخوه بغدوين[٤] إلى البيْت المقدَّس فى خمسمائة فارس وراجلٍ ، فبلغ ذلك الملكَ شمس الملوك دُقاق صاحب دمشق ، فنهض إليه فى عَسْكره ومعه الأمير جناح الدَّولة فى جموعه فقاتله ، فنصر على[٥] الفرنج .

وفى هذه السنة ملك الفرنج مدينة حَيْفا عنوةً وهى على ساحل البحر بالقرب من عكَّا ، وملكوا أرسوف بأمانٍ وأخرجوا أهلها منها ، وملكوا قيساريّة بالسيف وقتلوا أهلها . وفيها ملك الفرنج مدينة سَرُوج من ديار الجزيرة ، وكانوا قبل ذلك قد ملكوا الرّها بمكاتبة من أهلها لأن أكثر أهلها

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٣٤٥ .

(٢) تجمع المصادر العربية على أن جود فرى مات مقتولاً بسهم أصابه أثناء حصار عكا ، بينما تجمع المصادر والمراجع الصليبية على أن جودفرى توفى بالحمى ــ الكامل جـ ١٠ ص ٣٢٤ ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ١ ص ٤٤٠ ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٦٦ .

(٣) طنكرى أو تنكرى ، هو المعروف فى المراجع العربية الحديثة باسم تانكرد .

(٤) هو بلدوين صاحب الرها ، والذى توج ملكاً باسم « بلدوين الأول » .

(٥) تشير المصادر الغربية إلى أن المعركة انتهت بهزيمة الدماشقة ونجاة بلدوين ... الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٧٥ ، الشرق الأوسط جـ ١ ص ٢٩٢ .

أرمن . فلمّا كان الآن جَمَع الأميرُ سُقْمان بن أُرْتق جمعًا عظيمًا من التركمان وزحف بهم إليهم ، فلَقُوه وقاتلوه ؛ فهزمُوه فى شهر ربيع الأوّل . فلمّا تمَّت الهزيمة على المسلمين سار الفرنج إلى سَرُوج ، فتسلّموها ، وقتلُوا كثيرًا من أهلها وسبَوْا حَرِيمهم ، ونهبوا أموالهم ، ولم يَسْلَمَ منهم إلّا من انهزم(١) .

ذكر أخبار صنجيل الفرنجى وماكان منه فى حروبه وحصار طرابلس وأَلْطُوبَان وملك أنطرسوس

وفى سنة خمسٍ وتسعين وأربعمائة لقى صنجيل(٢) الملك قِلِج أرسلان صاحب قُونْية ، وصنجيل فى مائة ألف مقاتل وقِلج فى عددٍ يسير ، واقتتلوا ؛ فانْهزم الفرنج وأُسِر كثير منهم ، وفاز قِلِج بالظَّفَر والغنيمة(٣) . ومضى صنجيل مهزومًا فى ثلاثمائة ، فوصل إلى الشام ، فأرسل فخر الملك بن عمَّار(٤) صاحب طرابلس إلى الأمير جناح الدّولة(٥) بحِمْص وإلى الملك دُقاق بدمشق يقول : من الصَّواب معاجَلَةُ صنجيل إذْ هو فى العدد اليسير .

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٣٢٤ ــ ٣٢٥ .
(٢) المقصود هو ريموند كونت تولوز ، والمعروف فى المراجع الأوربية باسم
'Raymond of st. Gilles'
(٣) الإشارة هنا إلى الجموع الصليبية اللمباردية التى هزمت فى ذى القعدة ٤٩٥ هـ/آغسطس ١١٠١ م ــ الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٣٨ .
(٤) هو القاضى فخر الملك أبو على بن عمار ، الذى ولى حكم طرابلس فى الفترة من ٤٩٣ ــ ٥٠٢ هـ/١٠٩٩ ـ ١١٠٨ م ــ معجم الأسر الحاكمة .
(٥) « إلى الأمير ياخز خليفة جناح الدولة على حمص » فى الكامل جـ ١٠ ص ٣٤٤ .
وجناح الدولة هو حسين بن ملاعب ــ صاحب حمص ، قتل سنة ٤٩٥ هـ/١١٠٢ م ــ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

فخرج إليه جناحُ الدّولة بنفسه [١] وسيَّر دُقاق ألفَىْ مقاتل ، وأتتْهُم الأمداد من طرابلس . وصافُّوا صنجيل فأخرج مائةً من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق وخمسين إلى عسكر حمص وبقى هو [فى] [٢] خمسين .

فأما عسكر حمص فانْهزمُوا عند المشاهدة وتَبِعَهُم عسكر دمشق .

وأما عسكر طرابلس فإنهم قَتَلوا المائة الذين قاتلوهم ، فحمل صنجيل فى المائتين الباقيتين ، فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل . ونَازَل طرابلس وحَصَرها .

وأتاه أهلُ الجبل فأعانوه على حَصْرها ، هم وأهل السّواد ، لأن أكثرهم نصارى . فقاتَل مَنْ بها أشدّ قتال ، فقُتل من الفرنج ثلاثمائة : ثم هادَنهم ابنُ عمّار على مالٍ وخيـل ، فرحَـل صنجيل عنهم إلى مـدينة أنْطَرْسوس ، [٣] وهى من أعمال طرابلس ، فحصَرَها وفتحها [٤] ، وقَتلَ مَنْ بها من المسلمين .

ورحل إلى حصن الطُّوبان [٥] ، ومقدَّمُه ابن العريض ، فقاتَلَهم فنُصر

---

(١) « فخرج الأمير ياخز بنفسه » فى الكامل جـ ١٠ ص ٣٤٤ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من الكامل جـ ١٠ ص ٣٤٤ .

(٣) أنطرسوس = أنطرطوس : تقع شرقى عرقة بنحو ٢٤ ميلاً ، وتطل على البحر - معجم البلدان .

(٤) تشير المصادر الصليبية إلى أن فتح أنطرسوس كان سابقًا على هذه الفترة ، فقد استولى ريموند على أنطرسوس مرتين فى سنة ١٠٩٩ ، ١١٠٠ م ، واستولى عليها نهائيًا فى فبراير ١١٠٢ م (جمادى الأولى ٤٩٥ هـ) - انظر الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٤٣ وما بعدها .

(٥) الطوبان : حصن من أعمال حمص أو حماة ، إلى الشمال الشرقى من حصن الأكراد - معجم البلدان .

عليهم وأَسَر فارسًا من أكابر فرسانهم ، فبذَل فيه صنجيل عشرة آلاف دينار وألف أسير فلم يجبه ابن العريض إلى ذلك .

ثمّ سار صنجيل إلى حصن الأكْراد[1] فحصره ، فجمع الأمير جناح الدّولة عسكره ليسير إليه ويكبِسَه ، فقتله باطِنيٌّ بالمسجد الجامع . فلما قُتل صَبَّح صنجيل حمص من الغد ونَازَ لها ومَلَك أعمالها .

[٧٨] ذكر ملك الفرنج جبيل وعكا

وفى سنة سبْعٍ وتسعينَ وأربعمائة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة لاَذِقيّة ، فيها التُّجّار والمُقاتلة والحجَّاج وغيرهم ؛ فاستعان بهم صنجيل الفرنجى على حصار طرابلس فحاصرُوها معه وضايقُوها ، فلم يرَوْا فيها مطمعًا ، فرحلوا عنها إلى مدينة جُبَيل[2] فحصروها وقاتلُوا عليها قتالاً شديدًا . فلمّا رأى أهلُها عجْزَهم عن الفرنج طلبوا الأمان على تسليمها ، فبذل لهم صنجيل الأمان ، وتسلَّم البلد منهم فلم يَفِ لهم . وأخذ الأفرنج أموالهم وعاقبوهم عليها بأنواع العذاب . ثم سارُوا إلى عكّا نجدة لبغدوين ، صاحب القدس ، على حصارها ؛ فنازَلُوها وحصروها فى البر والبحر ، وعليها زهرُ الدّولة [3] الجيوشى ، فقَاتَلَهم أشدَّ قتال . فلمّا عجز عن حِفْظ البلد فارقه ؛ وملك الفرنج عكّا بالسّيْف ، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة . وسارُوا منها إلى دمشق ثم إلى مصر .

---

(١) حصن الأكراد : على جبل الجليل فى مواجهة حمص ، بينها وبين بعلبك ــ معجم البلدان .

(٢) جبيل . شمال شرقى بيروت بنحو ٢٤ ميلاً ــ معجم البلدان .

(٣) « وكان الوالى بها اسمه بنا ، ويعرف بزهو الدولة الجيوشى نسبة إلى ملك الجيوش الأفضل » ــ الكامل جـ ١٠ ص ٣٧٣ .

وفى سنة تسع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج حصن أفَامية وَسَرْمِين من أعمال حلب .

وفى سنة اثنتين وخمسمائة فتح السردانى[1] عرقة ، وذلك أنها كانت بيد غلام فخر الملك بن عمَّار وقد عَصَى على مولاه ، فضاق به القُوت وانْقَطَعت عنه الميرة ، فكاتب طُغْز تكين[2] صاحب دمشق أن يُرسل إليه مَنْ يتسلّم الحصن لعجزه عن حفظه . فبعث إليه طغز تكين صاحبًا له اسمه إسرائيل فى ثلاثمائة ، فتسلّم الحصن . فلمّا نزل غلام ابن عمّار رماه إسرائيل بسَهْمٍ فقتله فى الاختلاط[3] طمعًا فى المال الذى بعَرقة لئلا يطّلع طُغز تكين عليه .

قال وأراد طُغزتكين أن يشحن الحصن بالعساكر والأقوات ، فتوالت الأمطار [والثلج][4] مدّة شهرين ، فعجز عن ذلك . فلمّا انْقَطع المطر ركب أربعة آلاف فارس وجاءُوا إلى عَرقة ، فتوجّه إليه السّرْدانى وهوُ يحاصر طرابلس ومعه ثلاثمائة فارس ، فانهزم عسكر طُغُزتكين عندما أشرفَت الخيل من غير قتالٍ ، فأخذ السّردانى أثقالهم وتسلّم الحصن بأمان ، وقبض على إسرائيل ، وقال لا أُطْلقه إلا بفُلان وهو من أكابر الفرنج كان أسيرًا ، ففُودى به .

ذكر ملك الفرنج طرابلس وبيروت

كان صنجيل لمّا مَلَك مدينة جبيل ، كما ذكرنا ، حصَر طرابلس ، فلمَّا

---

(١) هو المعروف باسم « وليم جوردان » .

(٢) « فأرسل إلى أتابك طغتكين » ــ الكامل جـ ١٠ ص ٤٦٨ .

(٣) « فى الأخلاط » فى الكامل جـ ١٠ ص ٤٦٨ ، والمقصود فى ازدحام الناس .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح من الكامل جـ ١٠ ص ٤٦٨ .

لم يتمكّن منها وعجز عن الاستلاء عليها بنى بالقرب منها حصْنًا وجعل تحته رَبَضًا ، وأقام يرصُدُها ينتظر فرصة ، فخرج فخر المُلك أبو على بنُ عمّار ، صاحب طرابلس ، فأحْرَق ربضه ، فوقف صنجيل على سُقوفه المحترقة ، ومعه جماعة من القامصة والفرسان ، فانخسف بهم . فمرض صنجيل عشرة أيّام ، ومات ، وحُمل إلى القُدْس فدفن هناك . وذلك فى سنة تسعٍ وتسعين وأربعمائة[1] .

ودامت الحرب على طرابلس خمس سنين . فسار فخر الملك ابنُ عمّار إلى بغداد يستنجد بالخليفة والسُّلطان على الفرنج ، على ما ذكرناه ، وعاد من بغداد فى منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسمائة وتوجه إلى جبيلة[2] فدخلها وأطاعه أهلُها .

وأما طرابلس فإن ابنَ عمّار لمّا فارقها راسَل أهلُها الأفضل أمير الجيوش يلتمسون منه واليا يكونُ عندهم ومعَهُ الميرة فى البحر ، فسيّر إليهم الأفضلُ شرفَ الدّولة بن أبى الطَّيِّب واليًا ، ومعه الغلال وغيرها . فلمّا صار إليها قبض على جماعةٍ من أهل ابن عمّار واستولى على ما وجده من أمواله وذخائره[3] .

فلمّا كان فى شعبان سنه ثلاثٍ وخمسمائة وصل أسْطُول كبير من بلد

---

(١) ٢٨ فبراير ١١٠٥ م ــ الشرق الأوسط جـ ١ ص ٤٣٦ ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ١٠٠ .

(٢) جبيلة = جبلة : قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية ــ معجم البلدان ، وانظر ما يلى عن فتح جبلة .

(٣) انظر ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٤٢ .

الفرنج ، مقدّمه قمص كبير اسمه ريمُند بن صنجيل [١]، ومراكبُ مشحونة بالرّجال والسلاح والميرة وليس ريمُند هذا ابن صنجيل صاحب الحصن [٢] المقدم ذكره . فنزل على طرابلس وكان السّردانى وهو ابن اخت صنجيل محاصرًا لها قبله ، فجرت بينهما فتنةٌ أدّت إلى الشرِّ والقتال فوصل تنكرى صاحب أنطاكيّة إليها إعَانةً للسّردانِى ، ووصل بغدوين صاحب البيت

المقدّس فى عسكره ، فأصْلح بينهم [٣] ونزل الفرنج بأجمعهم على طرابلس وضايقوها ، وذلك [٧٩] فى شعبان ، وألْصَقوا أبراجهم بسُورها . فلمَّا شاهد الجند وأهلُ البلد ذلك سُقِطَ فى أيديهم ، وذلَّت نفُوسهم ، وزادهم ضعفًا . فتأخر الأسطولُ المصرىّ عنهم بالميرة والنّجدة ؛ وداَوَم الفرنج القتال والزّحف إلى أنْ ملكوا البلد عَنْوة ؛ وذلك فى يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلةً خلت من ذى الحجة ، سنة ثلاثٍ وخمسمائة [٤]. ونَهَبُوا ما فيها ، وأسَرُوا الرجال ، وسبَوْا النّساء والذّرّية ، وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة

---

(١) « ريمند بن صنجيل » هكذا فى الأصل ، والكامل جـ ١٠ ص ٤٧٥ ، واتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٤٣ ، وغيرهم .

والمقصود برترام (برتراند) الابن الأكبر لريمند كونت تولوز الصنجيلى .
"Bertram, a son of Raymond of Toulouse"

(٢) هكذا فى الأصل ، وهو تحريف ــ انظر الهامش السابق .
وانظر الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٥ حيث يوجد خلط مماثل .

(٣) تم الاتفاق على تقسيم إرث ريموند كونت تولوز بينهما ، فيحتفظ وليم جوردان بأنطرطوس وما فتحه من البلاد مثل عرقة ، وأن يكون نصيب برترام جبيل وطرابلس عقب الاستيلاء عليها ، وعلى أن يتوارث كل منهما إذا مات دون وارث ــ تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ١١٢ .

(٤) دخل الصليبيون طرابلس فى ١٢ يولية ١١٠٩ م ــ تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ١١٣ .

وكُتُب العلم الموقوفة ما لا يُحد ولا يُوصف .

وكانت طرابلس من أعظم البلاد وأهلُها من أكثر الناس أموالاً .

وسلِم الوالى الذى كان بها وجماعةٌ من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها ، فوصلوا إلى دمشق ؛ وعاقب الفرنج أهلَ طرابلس بأنواع العقوبات ، وأُخِذت دفائِنُهُم وذخائرهم[1] .

ووصل الأسطول المصرى بالرجال والغلال وغيرها ، ما يكفيهم سنة ، وكان وصول الأسطول إليها بعْدَ أنْ مُلِكت بثمانية أيام ؛ ففُرِّق ما فى الأسطول على الجهات المجاورة لها : صُور وصَيْدا وبيروت .

ذكر ملك الفرنج جبلة وبُلُنْيَاس

قال : ولما فرغ الفرنج من طرابلس سار تنكرى صاحب أنطاكية إلى بُلُنْيَاس[2] فافتتحها وأمَّن أهلها ؛ ونزل على مدينة جبلة[3] وبها فخر الملك ابن عَمّار ، وكان القُوتُ قدْ قلَّ بها ، فقاتل مَنْ بها إلى أنْ ملكها فى الثانى والعشرين من ذى الحجة بالأمان .

وخرج فخر الملك ابنُ عَمَّار وقصد شَيْزَر ، فأكرمه صاحبُها الأمير سُلطان ابن علىّ بن مُنقذ الكنانى . ثمّ سار إلى دمشق فأكرمه طُغُزتكين

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٥ ــ ٤٧٦ .

(٢) بلنياس : بضمتين وسكون النون ، وياء وألف وسين مهملة : كورة ومدينة صغيرة وحصن بساحل حمص على البحر ــ معجم البلدان .
ووردت « بانياس » فى الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٦ .

(٣) انظر ما سبق عن جبيلة وجبلة .

صاحبها ، وأجزل له فى العطيّة وأقطعه أعمال الزَّبَدانى ؛ وذلك فى المحرم سنة أربعٍ وخمسمائة[١] .

ذكر ملكهم مدينة صيدا

وفى جُمادى الأولى[٢] سنة أربعٍ وخمسمائة ملك الفرنج مدينة صَيْدا ، وكانت من جُملة ما هو بيد طُغُتكين صاحب دمشق . وذلك أنّه وصل فى البحر ستُّون مركبًا للفرنج مشحونة بالرّجال والذَّخائر مع بعض ملوكهم[٣] ، ليحُجَّ إلى القدس ويغزو[٤] المسلمين بزَعْمه ؛ فاجتمع به بغدوين صاحب القدس وقرّر معه الغَزْو فنَزلُوا[٥] على مدينة صيدا فى ثالث شهر ربيع الآخر ، وضايقوها فى البرّ والبحر ، ومنَعوا الأُسطول المصرىّ من الوصول إليها ، وكان بساحل مدينة صُور ، فعمل الفرنج بُرْجًا من الخشب وأحكموه ، وجعلُوا عليه ما يمنع النّار والحجارة عنه ، وزحفوا به . فلمّا عَايَن أهلُ صيدا ذلك ضَعُفَت نفُوسهم وأشفقوا أنْ يصيبَهم مثلُ ما أصاب أهلَ بيروت ؛ فأرسلوا قاضيها ومعه جَماعةٌ من شُيوخها إلى الفرنج وطلبوا الأمان ، فأمَّنهم على نفوسهم وأمْوالهم والعسكر الّذى عندهَم ، ومَنْ أراد المُقام بها[٦] عندهم أمَّنوه ،

---

(١) « سنة اثنتين وخمسمائة » فى الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٧ ، وهو تحريف لا يتفق وسير الأحداث .

(٢) « فى ربيع الآخر » فى الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٩ .

(٣) هو سيجورد ملك النرويج ، الذى اشترك فى حصار صيدا فى أكتوبر ١١١٠ م — تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ١٥٠ .

(٤) « ويقرو » فى الأصل ، والتصحيح من الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٩ .

(٥) « فنزلا » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق من الكامل جـ١٠ ص ٤٧٩ .

(٦) [بها] إضافة من الكامل جـ ١٠ ص ٤٨٠ .

ومَنْ أراد المسيرَ عنهم لا يمنعونه ، وحلفوا لهم على ذلك فخرج الوالى وجماعةٌ كثيرة معه تحت الأمان ، وكانت مدَّة الحصار سبعة وأربعينَ يومًا .

ورحل بغدوين عنها إلى القدس ، ثمّ عاد إليها بعد مدَّة يسيرة يُقرِّر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينار ، فاسْتغرَقَ أموالَهُم وأفقَرَهم .

ذكر استيلائهم على حصن[1] الأثارب وحصن زردنا

وفى سنة أربعٍ وخمسمائة جمع صاحبُ أنطاكيّة الفارسَ والرّاجل ، وسار إلى حصن الأَثَارِب ، وهو على ثلاثِ فراسخ من حلب ، فحصره ومَنَع الميرة عَمَّن فيه ؛ فضاق الأمر عليهم . فنَقَب المسلمون من القلْعَة نَقْبًا وقصدُوا أنْ يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكيّة فيقتلُوه . فلمَّا فعلوا ذلك استأْمَن إليه صبيٌّ أرمنىّ فعرّفه الحال ، فاحتاط لنفسه واحترز ؛ وجَدَّ فى قتالهم حتى ملك الحصن عَنْوة ، وقتل مِنْ أهله ألفى رجل[2] وسبى .

ثم سار إلى حصن زردنا[3] ، فحصره وفتحه ، وفعل باهله مثل ذلك . فلمّا سمع بذلك أهلُ مَنْبِج فارقُوها خوفًا من الفرنج ، وكذلك أهلُ بَالِس[4] ، فطلب أهل الشّام الهدنة ، فامتنع الفرنج ثمّ أجابوا . فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنتين [٨٠] وثلاثين ألف دينار ، وخيولٍ وثيابٍ ، وصالحهم ابنُ منقذ صاحبُ شَيْزَر على أربعة آلاف دينار ،

---

(١) « حصين » فى الأصل ، وهو تحريف .

(٢) الكامل جـ ١٠ ص ٤٨١ .

(٣) زردنا : بليدة صغيرة غربى حلب — معجم البلدان .

(٤) بالس : بين حلب والرقة — معجم البلدان .

وصالحهم عليّ الكردى صاحب حماة على ألفى دينار . وكانت عِدّةُ الهُدنة إلى إدراك الْمُغَلّ وحصاده[١] . ثمّ جاءت العساكر من العراق ولم يبلغوا غرضًا .

ذكر حصر مدينة صور وفتحها

كان استيلاءُ الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، على مدينة صُور فى الثالث والعشرين من جُمادى الأولى سنة ثمانى عشرة وخمسمائة . وكان ابتداءُ الحصار فى سنة خمس وخمسمائة ؛ وذلك أن الفرنج فى هذه السّنة اجتمعوا مع بغدوين صاحب القُدْس على حصارها ، وكانت إذ ذاك بيد نُوّاب الآمر بأحكام الله[٢] وبها مِنْ قِبَلِهِ عزْ الملك الأعز ، فحصرُوهـا فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السّنة ، وعمِلوا ثلاثة أبراج من الخشب عُلُوُّ البُرْج سبعون ذراعًا فى كلّ بُرج ألفُ رجل ؛ ونصبُوا عليها المجانيق . وألْصقُوا أحدَ الأبْراج بسُور صور ، فجمَعَ عزّ المُلك أهْلَ البلد واستشارهم فى حيلة يدفعونَ بها شرَّ الأبراج . فقام شيخٌ من أهل طرابلس وضَمِن إحراقها ، وأخذ ألفَ رجلٍ بالسّلاح التام ، ومعَ كلّ رجلٍ حُزمة حطب ؛ فقاتلوا الفرنج حتى وصلوا إلى البُرج الملتصق بالسُّور وألقَوْا الحطَب من جهاته ، وأشعلوا فيه النار . ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين فى الأبراج بإطفاء النّار ، فرماهم بجِرَارٍ مملوءة بالعُذْرة كان قد أعدّها لهم فلمّا سقطت عليهم اشتغلوا بما نالهُم من الرّائحة الكرهة ،

---

(١) الكامل جـ ١٠ ص ٤٨٢ .

(٢) الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله أبو على المنصور الذى ولى الخلافة الفاطمية بالقاهرة فى الفترة من ٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ/١١٠١ ـ ١١٣٠ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٣٣ ، وانظر ما يلى .

فتمكّنت النار من البُرج . وأحرق المسلمون البرجين [الآخرين] (١) أيضا .

وكاتب عزُّ الملك طُغُتْكين ، صاحبَ دمشق ، فأنْجَده بالرّجال ، وأرسل أصحابه للإغارة على بلاد الفرنج ، فرجعوا مِنْ حصار مدينة صُور فى شوّال من السّنة .

ثم عادُوا فى سنة ستٍّ وخمسمائة إلى الحصار ، وضايقوا البلد ، فأرسل أهلُ صور إلى طُغُتكين صاحب دمشق يطلبون منه أن يرسل إليهم من جهته مَنْ يتولَّى أمرهم ويحميهم ، وتكون البلد له . فسيّر إليهم عسكرًا ، وجعل عندهم واليًا اسمه مسعود ، وكان شهمًا شجاعًا عَارِفًا بالحرب ومكايدها ، وأمدّه بالعساكر والميرة ؛ فطابت قُلوب أهل البلد . ولم يَقْطع خطبة الآمر بأحكام الله ولا غَيَّر سِكَّته ؛ وكتب إلى الأفضل أمير الجيوش يُعرِّفُه ما عمِل ويقول : متى وصل مِنْ مصر مَنْ يتولّاها ويذُبّ عنها سلّمتها إليه ؛ وطلب منهم ألّا ينقطع الأُسطول عنها بالرّجال والميرة . فأجابه الأفضل إلى ذلك ، وشكره على ما فعل ، وجهّز أسْطولاً إليها ، فاستقامت أحوال أهلها .

ولم يزل كذلك إلى سنة ستّ عشرة وخمسمائة ، بعد قتل الأفضل أمير الجيوش . وذلك أن المأمون بن البطائِحى لمّا وَلِى إمرة الجيوش بعد قَتْل الأفضل سيرَّ إلى مدينة صور أسطولاً على العادة ، وأمَرَ المقدَّم عليه أن يُعْمِل الحيلة على الأمير مسعود ، الوالى من قبل طُغُتكين ، ويقبض عليه ، ويتسلم البلد منه . وكان سبب ذلك أنّ أهل صور شكَوْا منه إلى الآمر بأحكام الله . فلمَّا وصل الأُسطول وجاء الأمير مسعودٌ ليُسلِّم على المقدَّم قبض المقدَّمُ عليه

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

واعتقله ، وحمله إلى الآمر ؛ فأكرمه وأعاده إلى صاحبه بدمشق . واستَوْلى مقدَّم الأُسطول على مدينة صور ، ورَاسَل الأمير طُغْتِكين بالخدمة ، واعتذر إليه ، فقبل عذره (١) ، ووعده المساعدة .

فلمَّا سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قَوِيَ طمعُهم فيها ، وشرعوا فى الجَمْع ؛ واتَّصَل خبرهُم بواليها ، فعلم أنّه لا قُوّة له ولا طاقة بهم ، لِقلَّةِ مَنْ بها من الجند والميرة ، وأرسل إلى الآمر بذلك ؛ فرأى أن يُرُدَّ ولاية صور إلى طُغْتكين ، فأرسل إليه بذلك ، فملكها ورتَّب بها الجند وغيرهم .

وسار الفرنج إلى صور ، ونازَلُوها فى شهر ربيع الأول سنة ثمانى عشرة ، وضيَّقوا عليها ولازموا القتال ؛ فقلَّت الأقْوات ، وسَئِمَ مَنْ بها القتال ، وضعفت نفوسُهم . وسار طُغْتكين إلى بانياس ليقْرُب منهم ويذُبَّ عن البلد ، وأرسل إلى الآمر يستنجده ، فلم ينجده ؛ وأشرف أهلُها على الهلاك . فحينئذٍ رَاسَل طُغْتكين الفرنج على أن يسلِّم إليهم البلد ويمكِّنوا مَنْ بها من الجند والرَّعية من الخروج بما قَدَرُوا عليه من أموالهم وغيرها فاستقرَّت القاعدةُ على ذلك ، وفُتحت أبوابُ البلد ، وفارقه أهله ، وحملوا ما أطَاقوا وتفرّقُوا فى البلاد ، ولم يتعرّض الفرنج إليهم . وملك الفرنج البلد فى التّاريخ [٨١] الذى قدّمناه ، ولم يَبْقَ بصور إلّا ضعيفٌ عاجز عن الحركة (٢) .

وفى سنة ثلاثٍ وعشرين وخمسمائة ملك الفرنج حصن القدموس (٣) من المسلمين ، وملكوا بانياس بمراسلة إسماعيل الإسماعيلى ورَغْبَتِه فى ذلك ،

---

(١) « فاعتذر إليه وقبل عذره » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٢) انظر الكامل جـ ١٠ ص ٦٢٠ ــ ٦٢٢ .

(٣) القدموس : من حصون الاسماعيلية ــ انظر ما يلى ، الكامل جـ ١٠ ص ٦٥٩ ، نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٧٩ .

وانضمامه إلى الفرنج ، على ما قدّمنا ذكره[1] فى أخبار تاج الملوك طُغْرتكين صاحب دمشق .

هذا ما استولى عليه الفرنج من البلاد الإسلامية . فلنَرجع إلى أخبار الدّولة العُبَيْديَّة .

ذكر وفاة المستعلى بالله

كانت وفاتُه فى يوم الثّلاثاء لثلاثَ عشرةَ بقيتْ من صفر[2] سنة خمس وتسعين وأربعمائة .

ومولدُه لعشرٍ بقينَ من المحرّم سنة سبعٍ وستين[3] وأربعمائة ، وكان عمرُه ثمانيا وعشرين سنة[4] وثمانيةً وعشرين يومًا .

ومدّةُ ولايته سبعَ سنين وشهرًا واحدًا وثمانيةً وعشرين يومًا .

ولم تكن لهَ سيرة تُذكر ، فإنّ الأمر كان للأفضل أمير الجيوش ، لم يكُن للمستعلى مَعَه من الأمر إلّا الاسمُ ، والرَّسم للأفضل .

---

(١) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٨٠ .

(٢) يوجد اختلاف فى تاريخ وفاته ، فهو ٢٧ صفر فى كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٥٣ ، ٩ صفر فى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥٣ ، ١٣ صفر فى أخبار الدول المنقطعة ص ٨٥ .

(٣) يوجد اختلاف أيضًا فى تاريخ ميلاده ، فهو ١٨ محرم ٤٦٨ هـ فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٧ ، ١٠ محرم ٤٦٨ هـ فى المنتقى من أخبار مصر ص ٦٩ ، وفى وفيات الأعيان سنة ٤٦٩ هـ ، جـ ١ ص ١٨٠ .

ولا يتفق مع النويرى إلا ابن ظافر ــ انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٨٥ .

(٤) يوجد اختلاف فى عمره تبعًا للاختلاف فى تاريخ ميلاده ، وتاريخ وفاته انظر الهوامش السابقة .

وكان للمستعلى من الأولاد أبوعلى المنصُور ، وجعفر ، وعبدالصّمد .
وزيرُه الأفضل أمير الجيوش .

قضاته : أبوالحسن بن الكّحال النابلسى ؛ ثم أعَادَ بن عبدالحاكم ، ثم أبوطاهر محمد بن رجاء ، ثم أبوالفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسى .

ذكر بيعة الآمر بأحكام الله

هو أبوعلى المنصور بنُ المستعلى بالله ؛ وهو العاشر من ملوك الدّولة العُبَيْدِيَّة والسّابع من مُلوك الدّيار المصريّة منهم .

قال المؤرخ : لمَّا مات المستعلى بالله أجلس الأفضل أمير الجيوش ولدَه أبا على هذا على سرير الخلافة ، وذلك فى يوم الثلاثاء لثلاثَ عشرةَ ليلةً بقيت من صفر سنة خمسٍ وتسعين وأربعمائة ؛ وبايع له النّاس ولقّبه بالآمر بأحكام الله وله من العمر خمسُ سنين وشهرٌ واحدٌ وأيام .

قال : ودبَّر الأفضل الأمر على ماكان عليه فى أيام أبيه المستعلى[1] .

وفى سنة خمسمائة بنى الأفضل أمير الجيوش الدَّار المعروفة بدار الملك[2] على شاطئ النيل بمصر ، وكمُلت عمارتُها فى سنة إحدى وخمسمائة ، وسكنها .

---

(١) ينقل النويرى عن ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ٨٧ .

(٢) دار الملك : يقول المقريزى : هى من إنشاء الأفضل بن أمير الجيوش ، ابتدأ فى بنائها وإنشائها فى سنة إحدى وخمسمائة ، فلما كملت تحول إليها من دار القباب بالقاهرة ، وسكنها ، وحول إليها الدواوين من القصر فصارت بها ، وجعل فيها الأسمطة واتخذ بها مجلسًا سماه مجلس العطايا ، فلما قتل الأفضل صارت دار الملك هذه من جملة متنزهات الخلفاء » المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٨٣ .

ومدحه الشُّعراء . فمن مدحه أبو الفضل بن أمية المغربى من قصيدة جاء منها :

دارٌ هى الفلك الأعلى، وأنت بها شمس الضُّحى، وبَنُوكَ الأنجمُ الزّهر

ودار الملك هذه هى دار الوكالة الآن[1] ؛ وكان موضعَها أخصاص موقوفةٌ على الأشراف ، فأمر أن يؤخذ ماكان لهم من الحكر على الأخصاص من مال الرِّباع السّلطانية .

ذكر إنشاء ديوان التحقيق

وفى سنة إحدى وخمسمائة جدّد الأفضل ديوانًا وسمّاه ديوان التحقيق[2] ، واستخدم فيه أبا البركات يوحَنّا بن أبى اللّيث النّصرانى ؛ وبقى فيه إلى أن قُتل فى سنة ثمانٍ وعشرين[3] . واستمرّ هذا الديوان إلى أن انقرضت الدّولة العبيديّة وانقطع ، ثم أعاده السّلطان الملك الكاملُ بن الملك العادل فى سنة أربعٍ وعشرين ، واستخدم فيه أبو كُوجك[4] اليهودى . ثمّ أُبطل فى سنة ستٍّ وعشرين وستمائة فلم يعُدْ . واستُخدِم فى أيام السلطانِ

---

(١) « ثم عملت فى أيام الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى دار وكالة » ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٨٣ .

(٢) كانت وظيفة هذا الديوان هى المقابلة على سائر الدواوين ــ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٩ ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٠١ .

(٣) « ثمان عشرة » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٩ ، المنتقى من أخبار مصر ص ' ١

(٤) « ابن كوجك » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٧٧ .

الملكِ المعِزّ أيبك صفىُّ الدّين عبدالله بن على المغربى فى استيفاء مقابلة الدواوين ، وهو نوع منه (١) .

ذكر حل الإقطاعات وتحويل السنة

وفى سنة إحدى وخمسمائة كثُرت شكاوَى الأجناد وطوائف العساكر المصريّة بسبب إقطاعاتهم ، وأنّها خرِبت وقَلّ ارتفاعُها ، وأنّها لا تقوم ببَعْض كُلَفهم ، وأن الإقطاعات الّتى بيد الأمراء زائدة عن الارتفاع . فأحضر الأفضل محمد [٨٢] بن فاتك البطائِحى(٢) ، وهو وزيرُه وأستاذ داره ، واستشاره فيما يفعل فى ذلك ؛ فأشار عليه بحلِّ جميع الإقطاعات التى بيد الأمراء وغيرهم ، وأن يجمع الأمراء والطّوائف للمزايدة فيها . فاتّفق الرأى على ذلك .

وأحضر الأمراء والأجناد فى دار الوزارة ، وتحدّث معهم فى ذلك ؛ فقال الأمراء : لنا فى إقطاعاتنا أملاكٌ وبساتين ومعاصر وغيرها . فقال الأفضل : الأملاك لمُلّاكها على حالها يتصرّفون فيها بالبيع والإيجار .

ثم حلّ الإقطاعات ووقعت الزّيادة فيها ، وتميّز لكلٍّ منهم إقطاعٌ ، وكتبت المناشير بذلك . ثم شكى إليه كثرة عبرة البلاد (٣) وأنّ متحصِّلَها لا يَفِى بالعبرة .

---

(١) المنتقى من أخبار مصر ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) انظر الإشارة ص ٦٢ ـ ٦٤ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٨٨ ، الوافى بالوفيات جـ ٤ ص ٣١٣ ومابعدها ، وانظر أيضًا نصوص من أخبار مصر ص ٣ هامش ٢ .

(٣) العبرة : يقصد بها مقدار الضرائب (الخراج والأموال) المقررة على كل إقطاع ـ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٨١ وما بعدها .

وحَصَل للديوان ضياعٌ مفردة [١] عبرتُها خمسون ألف دينار فى كلّ سنة .

ونُقلت السّنة الشمسية الخَرَاجيّة إلى الهلاليّة ؛ وكانت سنة إحدى وخمسمائة الهلالية وسنة سبعٍ وتسعين وأربعمائة الخراجيّة فنقلت إلى سنة إحدى وخمسمائة[٢] .

ذكر أخذ الفرما وهلاك بغدوين الفرنجى صاحب القدس

وفى سنة إحدى عشرة وخمسمائة[٣] أغار بغدوين ملك الفرنج على الفرما [٤] وقتَل جميع مَنْ بها ، وأحرق جامعَها ومساجدَها ، وذلك بعد أن حاصرها أيامًا والفرما كانت بلدة بين القصير والغرابى من منازل الرّمل ، وهى الآن خراب . وقصد بغدوين مِصْر فرحل عن الفرما . ورجع إلى البيت

---

(١) « وحصل لديوان السلطان ضياع مفردة » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٤٠ ، وانظر أيضًا نصوص من أخبار مصر ص ٩ ـ ١٠ .

(٢) عن تحويل السنة الخراجية الشمسية إلى الهلالية انظر صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٥٤ ـ ٦٠ ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٢٧٣ ـ ٢٨٥ .

(٣) « وفى سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وقيل فى سنة أربع عشرة » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٥٦ ، والكامل جـ ١٠ ص ٥٤٣ ، وكنزا الدرر جـ ٦ ص ٤٨٠ .
وهو ما يتفق مع المصادر والمراجع الصليبية التى تذكر وفاته فى ٢ إبريل ١١١٨ م ، وهو يوافق ٨ ذو الحجة ٥١١ هـ ، فقد ذكر ابن الأثير « فى ذى الحجة من سنة إحدى عشرة وخمسمائة توفى بغدوين ملك القدس » ــ الكامل جـ ١٠ ص ٥٤٣ ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ١٧٢ .

(٤) الفرما : مدينة على الساحل شرقى تنيس ، على بعد ٢٣ كم شرقى محطة الطينة الواقعة على السكة الحديد بين بور سعيد والاسماعيلية ــ معجم البلدان ، القاموس الجغرافى ق ١ جـ ١ ص ٩٢ .

المقدّس ، وهو مثقل بالمرض ، فهلك بموضع يقال له جور قبل وصوله إلى العريش . فشقّ الفرنج بطنه وألقَوْا مصارينه هناك ، فهى تُرْجم إلى وقتنا هذا ، ودخلوا بجثته ، فدفنوها بقمامة بالبيت المقدس .

وفى سنة إحدى عشرة وخمسمائة رُتِّب ذخيرة الملك جعفر فى ولاية القاهرة ، ونظر الحسبة وظلم وعسف ؛ وهو الّذى بنى المسجد بسوق الخيل المعروف : بالذّخيرة ، ومسجد « لَا بالله »[1] ، وسببُ تسميته بذلك أنّه كان يَقْبض النّاس من الطّريق ويَعْسِفهم ، فيقولون له : لا بالله ، فيقيّدهم ويستعملهم فيه بغير أجرة . ولم يعمل فيه صانعٌ إلّا وهو مكره مقيَّد . فابتلى الله ذخيرة الملك بأمراضٍ شديدة ، ولمّا مات تجنّب النّاس الصلاة عليه وتشييعه .

ذكر نهب ثغر عيذاب

وفى سنة ثنتى عشرة وخمسمائة عمّر الشريف أبومحمد قاسم بن أبى هاشم[2] ، أمير مكة ، مراكب حربية وشحنها بالمقاتلة وسيَّرهم إلى عيذاب[3] ، فنهبوا مراكب التّجار وقتلوا جماعةً منهم . فحضر من سَلِم من

---

(١) كان بخارج القاهرة فى موضع الميدان أسفل القلعة . المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤١١ .

(٢) هو قاسم بن محمد بن جعفر بن أبى هاشم ، المتوفى سنة ٥١٧ هـ/١١٢٣ م أو سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤ م ــ العقد الثمين جـ ٧ ص ٢٨ رقم ٢٣٢٤ ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٦٣ .

(٣) عيذاب : ميناء صغير على البحر الأحمر ، تصل إليه المراكب القادمة من عدن والحبشة والهند إلى صعيد مصر ، كما كانت على طريق الحج المصرى ، يسير إليها الحجاج من مدينة قوص بصعيد مصر ــ معجم البلدان .

التجار إلى باب الأفضل وشكَوْا ما حلّ بهم فأمر بعمارة حَرَاريق[١] يجهِّزها ، ومنع الناس أنْ يحجّوا فى سنة أربع عشرة ، وقطَع الميرة عن الحجاز، فغلت الأسعار . وكان الأفضل قدْ كتب إلى الأشراف بمكة يلومهم على فعل صاحبهم ، فكتب الشريف إلى الأفضل يعتذر ، والتزم بردّ المال إلى أربابه ، ومن قُتِل من التّجار فماله لورثته . وأعاد الأموال فى سنة خمس عشرة [٢] .

ذكر مقتل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش ابن أمير الجيوش بدر الجمالى وشىء من أخباره

كان مقتله فى يوم الأحد سلخ شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وقد ركب من دار المُلك بمصر فقُتل عند كرسى الجسر[٣] ، قتلة الباطنية . قيل بمواطأة من الآمر لأنه كان قد ضاق منه لتحكُّمِه عليه ومنعه من شهواته ، فقصد اغتياله إذا دخل عليه للسلام ، فمنعه أبوالميمون عبدالمجيد بن أبى القاسم ، ابن عمه ، وقال : إنّ هذا الأمر فيه من قُبح الأُحدوثة وسوء الشّناعة ما لا تحمد عاقبتُه ، لأنّ هذا الرجل ما عُرف له ولا لأبيه إلّا المودّة فى خدمة هذا البيت والذّب عنه ، وإن قتلناه غيلَةً لا غُنْيَةَ أن

---

(١) حراقة ـــ حراقات ، وحراريق : نوع من السفن الحربية التى ترى بالنيران ـــ معجم السفن الإسلامية ص ٣٢ .

(٢) العقد الثمين جـ ٧ ص ٢٩ .

(٣) كرسى الجسر : بالفسطاط ، فى الطريق إلى رحبة الملاحين التى تقع أمام فندق تقى الدين المعروف بسكن الكارم ـــ الانتصار ق ٤ ص ٣٥ .

نولّى منصبه لغيره ، فيكون المتولّى بعده على وجلٍ واحتراس . وإنمّا الرأى أنْ ندبّر عليه . فدبّر عليه حتى قتل . هذا أحد الأقوال فى قتله .

قال : ولما وثب الباطنية عليه ضُرِب ثمانى ضربات ، فمات لوقته ، وحُمِل على أيدى مقدَّمى ركابه ، والقائد الميمون محمد وأخوته لا يمكّنون أحدًا من الدنُوِّ منه ، وهم [٨٣] يبشرون النّاس بسلامته ، حتى وضعوه على سريره وغُطّى . ونفّذ المأمون أخاه حَيْدرة إلى الآمر يقول له : أدْركنى وتسلّم ملكك لئلا أُغلبَ عليه أنا وأنت ؛ وأوصاه أن يُهنّئ من وَجَده بسلامة الأفضل . ففعل حيدرةُ ذلك ، وهنّأ حَرَم الأفضل وغيرهم . فعزم أولادُه على إثارة فتْنة وأنهم يطلبون الأمر لأخيهم تاج المعالى ؛ فأمر الآمر بحمْل أولاد الأفضل إلى الإعتقال بخزانة البُنود ، فحُملوا إليها ، وبات الأمر بدار الملك .

قال : وكان الأفضل حسن الاعتقاد فى مذهب السنّة ، جميل السيّرة ، مؤثرًا للعَدل ، صائب الرأى والتّدبير ، حَسَن الهّمة ، كريم النّفس ، صادق الحديث .

ونال النّاس بعد قَتْل الأفضل من الظُّلم والجَور والعسف مَا لَا يُعبّر عنه . فجاء النّاسُ إلى باب الآمر واستغاثوا ، ولعنوا الأفضل وسبُّوه أقبح سبّ ؛ فخرج إليهم الخدم وقالوا : مولانا يُسلِّم عليكم ويقول لكم : ما السّبب فى سبِّ الأفضل وقد كان قد أحْسَن إليكم وعَدَل فيكم ؟ فقالوا : إنّه عَدَل وتصدَّق وحَسُنت آثارُه ، ففارقْنا بلادَنا حُبًّا لأيّامه ، وأقمنا فى بلده ، فحصل بعده هذا الجورُ ؛ فهُو السّببُ فى خروجنا عن أوْطاننا واستقرارنا ببلده .

قال المؤرخ : لما قُتل الأفضل أحضر الآمر وزيرَه الشيخ أبا الحسن على الحلبى والقائدَ أبا عبدالله محمدًا وسألها عن الأموال ، فقال القائد : أمّا السّر فأعلمه وأمّا الظاهر فالوزير يعلمه ؛ وأخْبَراهُ بذخائره وأمواله . وأقام الآمر فى دور الأفضل ، وهى دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة ، وغيرهما ، أربعين يومًا ، والكُتّاب بين يديه يكتبون ما ينقلونه إلى القصور ؛ فَوُجِد لهُ من الذّخائر النفيسة ما لا يحصى(١) .

وذكر أن الذى وُجِدَ له من الأموال ستّة آلاف ألف دينار عينًا ؛ وفى بيت الخاصّة ثلاثة آلاف ألف دينار ، وفى البيت البرّانى ثلاثة آلاف [ألف](٢) ومائتان وخمسون دينارًا ، وخمسون أردبا دراهم [ورق](٣) وثلاثون راحلةً من الذّهب العراقى المغزول برَسْم الرّقم ؛ وعشرة بيوت، فى كلّ بيت منها عشرة مسامير من الذهب(٤) ، زنة كلّ مسمار مائتا مثقال ، عليها العمائم المختلفة الألوان مغطاة بالمناديل المزركشة ، وتسعمائة ثوب من الدّيباج الملوّن ، وخمسمائة صُندوق من دقّ دمياط وتنيس برَسْم كسوة جسده ، ولعبة من العنبر على قدر جسده برَسْم ثيابه توضع ثيابُه عليها لتكتسب رائحتها . وتَرَك من الطّيب والآلات والنّحاس مـا لا يحصى . وترك من الأبقار والجواميس والأغنام ما بلغ ضمان ألبانها ونتاجها أربعين ألف دينار فى السنة . وكانت الدَّوَاة التى يكتب منها مرصَّعةً بالجواهر ، فقُوِّم ما عليها من الجواهر باثنى عشـر ألف دينار . وخلّف من الكتب

---

(١) المنتقى من أخبار مصر ص ٧٩ .

(٢) [ ] إضافة من المنتقى بن أخبار مصر ص ٨٠ ، واتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٠ .

(٣) [ ] إضافة من المنتقى من أخبار مصر ص ٨٠ ، واتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٠ .

(٤) كانت هذه المسامير تستخدم كمشاجب تعلق عليها العمائم ــ انظر ما يلى .

خمسمائة ألف مجلد[١]

وحكى القاضى زكيّ الدين أبو زكريّا يحيى بن على الدّمشقى فى تاريخه عما خلّفه الأفضل فقال : خلّف . جملةً لم يُسمع أنّ أحدًا من الملوك والخُلفاء فى هذا الزّمان جمع مثله ولا ادّخر مثل بعضه : وأن الآمر بأحكام الله شرع فى حمل ما فى دُورِه إلى القصر ، فحُمل على عدّةٍ كثيرةٍ من الجمال والبغال ، ونُقل فى شهرين وأيّام .

قال : وحكى الدينبلى التاجر الآمدى أن مُتولّى الخزانة بالقصور ذكر له جُمَلاً ممّا حمَل من موجوده فى الدّار ، منها ستّة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار ، ومن الورِق ما قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار ، ومن أطباق الذهب والفضة سبعمائة طبق[٢] ، ومن الآلات مثل أتوار واصطال وصحاف وشربات وأباريق وزبادى وقدور وقطع من الفضة والذهب مختلفة الأجناس ما لايحصى كثيرةً ، وبرانى[٣] صينى كبار ، وعيبات مملوءة جواهر ، ومن أصناف الدّيباج والعتابى وغيره تسعون ألف ثوب ، وثلاث خزائن مملوءة صناديقَ كلُّها من الدّبيقى والشرب استعمال تنيس ودمياط ، وخزانة الطّيب مملوءة أسفاطا ، وعود ، وبرانى مسك ونوافج ، وبرانى زجاج مملوءة من

---

(١) عن تركة الافضل انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٠ وما بعدها ، المنتقى من أخبار مصر ص ٨٠ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٩١ ــ ٩٢ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٨٦ ــ ٤٨٧ ، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٥١ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٢٢ ، وانظر هامش ٢٨٩ من المنتقى من أخبار مصر ص ٨٠ .

(٢) « طوق » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٠ .

(٣) برانى ــ برنية : إناء من الخزف اللامع أو من الصينى .

الكافور القنصورى ، غير مصاعد ، ومن العنبر ما لا يحصى كثرة [(١)].

وكان له مجلس يجلس فيه للشراب فيه صُوَرُ ثمانى جوارى متقابلات ، أربع منهُنَّ بيض من كافور ، وأربع سود من عنبر ، قيام فى المجلس ، عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلى وأحسن الجواهر ، فكان إذا دخل باب المجلس نَكَّسْنَ رُءوسَهنّ خدمةً له ، فإذا جَلَس فى صدر المجلس استوَيْن قائماتٍ . ووُجِد له من المقاطع والسُّتور ، والدّيباج والدّبيقى الحريرى ، والذهب ، والفرش ، والمخادّ والمساند على اختلاف أجناسها ، كلٌّ حجرة مملوءة من ذلك ، وعدّة صناديق مملوءة حقاقَ ذهبٍ عراقىّ بِرَسْم الاستعمال . ووُجد له ثمانمائة جارية [٨٤ ا] منهن حَظايا خمسٌ وستون ، لكلٍّ جارية حجرة وخزانة مملوءةٌ من الكساوَى والآلات الدّيباج والذّهب والفضة . ومن كل صنف .

قال الخازن : هذا ما حَضَرنى حِفظُه ممّا فى داره.وأما ما كان فى مخازنه وتحت يدِ عُمّاله وجُبَاته وضُمَّانِ النّواحى فما لا يحصى كثرة ، من الأموال والغلاّل والحبوب والقطن والكتان والشمع والحديد والأخشاب وغير ذلك . وكلٌّ نوع منه ما يجاوز الحدّ والإحصاء ، ولا يمكن تحرير حسابه إلّا فى المدّة الطويلة [(٣)].

وأمّا العُدد والخيول والسلاح والبقر والغنم والخيام ، فقال الخازن لم تتحرّر

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٠ ـ ٧١ .

(٢) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧١ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٨٢ .

(٣) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٧١ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٨٣ .

لكثرتها . وقال حُيل من داره أربعة آلاف بساط ، وستّون حمل[١] طنافس ، وخمسمائة قطعة بلور كبار وصغار ، وخمسمائة قطعة مُحكم ، وألف عِدْل من متاع اليمن والإسكندرية والغرب ، وسبعة آلاف مركب [٢] من أصنافها .

وأمّا ما عمّره من المساجد فمنها : جامع الفيلة[٣] ، وقيل إنّه لم يكمله . وحكى الشريف محمّد بن أسعد الجوانى فى كتابه المترجم بالنقط فى ذكر الخطط أن جامع الفيلة بناه الأفضل فى سنة ثمانٍ وتسعين وأربعمائة ، وأنّ الأفضل مات ولم يكمِّله فكمَّلَه المأمون فى وزارته ، ووَلَّى خطابته الشّريف أمين الدّولة أبا جعفر ، محمد بن محمد بن هبة الله الحسينى الطرابلسى النّسابة ، وأمَرَ أنْ يَحْضُر جميع وُجوه الدّولة والرؤساء فى أوّل جمعة ، فحضروا . فلمّا رَقِى الشّريف المنبر قال : « الحمد لله » ، وأُرتِج عليه ودهش ، فلم يَزَل يكرّرها إلى أن أضْجَر النّاس ، ونزل وقد هُمَّ ، ومضى إلى داره ، فاعتلّ ومات فى سنة سبع عشرة وخمسمائة . ومنها المسجد الّذى على جبل المقطّم . وبنى فى جامع عمرو بن العاص المئذنة الكبيرة والمئذنة السعيدية[٤] والمئذنة المستجدة [به أيضًا] [٥] وجامعَ الجيزة . وغير ذلك . وهو الّذى أنشأ التّاج والخمسة وجوه .

---

(١) هكذا فى الأصل ، وفى اتعاظ الحنفا ، « وسور حمل » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٨٣ .

(٢) « وتسعة آلاف سرج » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧١ ، و « سبعة آلاف مركب يعنى سرج » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٨٣ .

(٣) مسجد الفيلة : كان يطل على بركة الحبش ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٤) « السعيدة » فى الأصل ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ٨٥ .

(٥) [ ] إضافة للتوضيح من المنتقى من أخبار مصر ص ٨٥ ، وعن مآذن جامع عمرو بن العاص انظر صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٣٨ ــ ٣٣٩ ، الانتصار ق ٤ ص ٦١ .

قال ناظم سيرة المأمون : وعمل الأفضل خيمةً سماها خيمة الفَرج ، ثم سُمِّيت بالقَاتُول لأنها كانت إذا نُصبت يموتُ تحتها من الفرّاشين رجلٌ أو رجلان [1] . اشتملت على ألف ألف ذراع [وأربعمائة ألف ذراع] [2] وكان ارتفاعها خمسين ذراعًا بذراع العمل [3] ، أنفق عليها عشرة آلاف ألف دينار .

ومدحه جماعة من الشعراء وذكرُوا هذه الخيْمة ، منهم أبوجعفر محمد بن هبة الله الطرابلسى بقصيدته التى يقول فيها :

ضَـربْت خيمة عـزٍّ فى مقرٍّ عُـلاً ... أوْفَت على عَذَبات الطَّوْد ذى القُنَن [4]
جاءت مَدَى إلطَّرف، حتى خِلْت ذروَتَها ... تأوِى من [5] الفَلَك الأعلى إلى سَكَن
أقـطارُها مُلِئت مِنْ منـظرٍ عجبٍ ... يُهدِى [6] إليك ذَكَاء الصَّانِع الفَطِن
فمِنْ رياضٍ سقاها القطْرُ صيِّبَه ... فمـا بها ظمـأً يومًـا إلى الْمُـزن
وجَـامحٍ فى عنـانٍ لا يُجـاذبُـه ... وطـائرٍ غيـر صـدَّاحٍ على فَنَن
وأرْقمٍ لا يمـجُّ الـسّم رِيـقتـه ... وَضَيْغمٍ ليس بالْعَادِى ولا الوَهِن
ومَـائِلين صُفوفًـا فى جَـوانبهـا ... لو يستطيعُون خَرّ الجمْعُ للذَّقن

---

(١) عن هذه الخيمة وسبب تسميتها انظر : صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٣٨ ، جـ ٣ ص ٤٧١ ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٧٠ ـ ٤٧١ .

إضافة من المنتقى من أخبار مصر ص ٨٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٢ .

(٣) ذراع العمل : طوله ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل ، ويستخدم فى العمائر والمبانى ـ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ .

(٤) « أوفت على عذبات الطور ذى الفتن » فى نصوص من أخبار مصر ص ١٠٢ .

(٥) « من » ساقط من نصوص من أخبار مصر .

(٦) « يهدى » فى نصوص من أخبار مصر .

زينتَ بأرْوَعِ ، لا تُحصَى فَضائلُه ماضٍ مِن المجْدِ والعلياءِ فى سَنَن
وأطْلَع الدَّستُ فيها شَمس مملكةٍ يرى[1] التَّأمُّل فضْلَ العين والأُذُن
وَعْدٌ على السّعدِ أنّ النّصر يَضْرِبُها بالصِّين ، بعْدَ فُتوحِ الهِنْدِ واليمن

وقال أبو على حسن بن زيد الأنصارى ، الكاتب بديوان المكاتبات ، يصفها ويمدح الأفضل :

مهلاً ، فقدْ قَصرت عن شأوِك الأُمم وأبـدَت العجزَ منهـا هذه الهِمَمُ
أخَيْمةٌ ما نصبت اليوم ، أمْ فلكٌ ؛ ويقْـظةٌ ما نـراهُ منك ، أم حُلُم ؟
ما كانَ يخْطُر فى الأفكارِ قبلك أن تَسمُو علُوًّا على أفقِ النُّهى الخِيَم
حتى أتيت بهـا شمَّـاءَ شـاهقـةً فى مَارِنِ الدَّهر من تِيهٍ بها شَمَمُ
إنّ الـدّليل على تكـوينها فَلَكـا أن احْتَوتك ، وأنت النَّاس كلُّهم

ومنها :

[٨٥] لَدَيْكَ جيشٌ، وجَيْشٌ فى جوَانبِها مُصـوَّرٌ، وكِـلا الجيْشَين مـزْدَحِم
إذَا الصَّبا حرَّكتْهـا ماج مـوكبُها فمُقْـدِمٌ منهُم فيـهـا ومُنْـهـزِم
أخَيْلُهـا خيلُك اللّاتى تُغيـرُ بهـا فلَيْس تُنْزَعُ[2] عنها الحُزْمِ واللُّجُم
علَّمْت أبطالَها أن يُقْـدِموا أبـدًا فكلُّهم لغُبـار الحـرْبِ مُقْتحم
أمَّنتَهم أن يَخافوا سـطوةً لِردًى فقدْ تسَالَمت الأسياف والقِمَم[3]
كـأنّها جنَّـةٌ ، والقـاطِنُـون بهـا لا يستَـطِيـلُ على أعْمَـارِهم هَـرَم

---

(١) « ترى » فى نصوص من اخبار مصر ص ١٠٣ .
(٢) « ينزع » فى نصوص من أخبار مصر ص ١٠٣ .
(٣) « اللمم » فى نصوص من أخبار مصر .

عَلَتْ ، فخِلْنَا لها سِرًّا تحدِّثُه ... للفَرْقَدين وفى سَمْعَيْهما صَمَم
إنْ أنبتَت أرْضُها زهرًا ، فلا عجبٌ ... وقد هَمَت فوْقَها مِن كفِّك الدِّيَم

قال المؤرخ : وكان للأفضل شعر حسن ، فمن قوله فى غلامه المعالى :

أقضيبٌ يميسُ ، أمْ هو قدّ ... أمْ شقيقٌ يلُوح ، أمْ هو خدّ
أنا مِثلُ الهلال سُقمًا عليه[1] ... وهْوَ كالْبَدْر حين وَافَاه سَعْدُ[2]

وكانت ولاية لأفضل سبعًا وعشرين سنة وخمسة أشهر .

---

(١) « خوفًا عليه » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٣

(٢) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٨٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٣ .

ذكر تفويض أمور الدّولة وإمرة الجيوش للمأمون البطائِحى

قال المؤرخ : وفى الخامس من ذى الحجة من سنة خمس عشرة وخمسمائة فوّض الآمر بأحكام الله أمورَ الدّولة وإمرة الجيوش للقائد أبى عبدالله محمّد بن الأمير ثقة الدّولة أبى شجاع فاتك بن الأمير منجد الدّولة أبى الحسن مختار المستنصرىّ المعروف بابن البطائحى[١] ، وكان قبل ذلك عند الأفضل أستاذ داره[٢] . واستقرَّت نُعوته فى سجلّه المقروء على كافة الأمراء والأجناد بالأجلّ المأمون ، تاج الخلافة ، وجيه الملك ، فخر الصنّائع ، ذخر أمير المؤمنين . ثُمَّ نعِت بعد ذلك بالأجلِّ المأمون ، تاج الخلافة ، عزّ الإسلام ، فخر الأنام ، نظام الدّين والدعاة . ثُمَّ نُعِت بعد ذلك بنعوت الأفضل وهى : السّيِّد الأجل المأمون ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الأنام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين[٣] .

قال ناظم سيرة المأمون : ولما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من ذى الحجة من السّنة ، وهو يومُ الهناء بعيد النَّحر ، جلس المأمونُ فى داره وقْتَ أذان

---

(١) الإشارة ص ٦٢ ــ ٦٤ ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٩٩ وما بعدها ، الوافى جـ ٤ ص ٣١٣ وما بعدها ، وانظر المنتقى من أخبار مصر ص ٨٧ هامش ٣١٣ .

(٢) « أستاذ دولته » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٨٨ ، وهى نفس الوظيفة .

أستاذدار : كلمة فارسية مركبة ، وتطلق على متولى الوظيفة الأستادارية ، ويقوم صاحبها بالإشراف على شئون مسكن السلطان أو الأمير ــ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٧ ، الفنون الإسلامية والوظائف جـ ١ ص ٦٥ .

(٣) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٨٨ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٧٥ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٨٨ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٨٨ .

الفجر ، وجاء النّاس لخدمته للهناء على طبقاتهم فى أرباب البيوت والأقلام ، ثم الشّعراء ، وركب إلى القُصور ، فأتى باب الذّهب ، فوجد المرتبة المختَصَّة بالوزَارة قد هُيِّئت له فى موضعها الجارى به العادة ، وأُغْلِق الباب الّذى عندها على الرَّسم المعتاد لوزير السّيف والقلَم ، وهذا البابُ يُعرف بباب السّرداب.فلما شاهد المرْتَبَةَ توقّفَ عن الجلوس عليها لأنّه لم يُذكَرْ له ذلك قبل حُضوره ، ثم ألْجأته الضّرورة ، لأجل حُضور الأمراء ، إلى الجلوس عليهافجلس وأولاده الثّلاثة عن يَمينه ، وأخَوَاه عن يساره ، والأمراء المطوَّقُون[1] خاصَّةً قائمون بين يديه ، ومَنْ عداهُم لا يصل إلى هذا الموضع . فما كان بأسْرعَ من أن فُتِح الباب وخرج عِدَّة من الأُستَاذين المحنكين [2] وخرج إليه الأميرُ الثّقة مُتولّى الرّسالة وزمام القصور [3] ، فوقف أمام المرتبة وقال : أمير المؤمنين يرُدّ على السّيِّد الأجلّ المأمون السّلام . فوقف المأمون عند ذلك وقبل الأرض ، وجَلَس فى موضعه ، وتأخر الأمير الثّقة حتى نزل من على المصطبة التى عليها المرتبة وقبَّلَ الأرض ويَدَ المأمون ، ودخل من فَوْره من الباب ، وأُغْلِق الباب ، على [حاله على] [4] ما كان عليه الأفضل .

---

(١) الأمراء المطوقون : من أرباب السيوف ، ومن الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب فى أعناقهم ــ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٦ .

(٢) « مطوقين » فى الأصل ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ٨٩ .

الأستاذون : الخدام والطواشية ، ومنهم أرباب وظائف القصر وأعلاهم رتبة المحنكون : الذين يدورون عمائمهم على أحناكهم كما يفعل المغاربة ، ومنهم أقرب أرباب الوظائف الخاصة إلى الخليفة ــ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٧ ، ٤٨٠ .

(٣) زمام القصر : وهو الذى يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير ــ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ .

(٤) [ ] إضافة من المنتقى من أخبار مصر ص ٩٠ .

قال : وكان الأفضل يقول : ما أزال أعُدّ نفسى سلطانا حتى أجلسَ على تلك المرتبة ويُعلق الباب فى وجهى والدّخان فى أنفى ؛ لأن الحمّام كانت خَلْف الباب فى السّرداب .

قال : ثم فُتح الباب وعاد الثّقة وأشار بالدّخول إلى القصر ؛ فدخل المأمون إلى المكان الذى هُيّئَ له ، ودُعِى لمجلس الوزارة . وبقى الأمراء بالدّهاليز إلى أن جلس الخليفة واستفتح المقرئون . واستدعى المأمون فحضر بين يديه وسلّم عليه أولادُه وإخوته [١] ؛ ثم دخل الأُمراء وسلّموا على طبقاتهم ، ثمّ الأشراف وديوان المكاتبات والإنشاء ، ثمّ قاضى القضاة [٨٦] ، والشهود ، والداعى ، ثم مقدّموا الرّكاب ومتولّى ديوان المملكة . ثُمّ دخل الأجناد من باب البحر ، وهو البابُ الذى يقابل المدرسة الكامليّة الآن ، ثمّ دَخَل والى القاهرة ووَالى مصر وسلّما بِبَياض أهل البلدين ، ثم البطرَك والنصارَى والكُتّاب منهم ، وكذلك رئيس اليهود . ودَخل الشعراء على طبقاتهم ، وأنْشَد كلٌ منهم ما سمحت به قريحته . وكانت هذه عادَة السّلام على مُلوك هذه الدّولة ، وإنما أوْردنا ذلك ليُعْلم منه كيف كانت عادتهم [٢] .

وفى سنة سبع عشرة وخمسمائة ورد إلى الدّيار المصريّة طائفةٌ كثيرة من عَرب لَواته من جهة المغرب ، وانتهَوْا إلى الإسكندريّة وأعمالها ، وأفسدوا فسادًا متحكّمًا . فندب المأمون إليهم أخاه نظامَ الملك [٣] حَيْدرة ، الملقّب بالمؤتمن ، فقاتلهم وهزمهم ، وغنم أموالهم . وتوجّه إلى الإسكندرية

---

(١) « وأخواه » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٩٠ .

(٢) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٨٩ ــ ٩١ حيث توجد تفصيلات أكثر .

(٣) « نظام الدين أبا تراب » فى المنتقى من أخبار مصر ص ٩٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٩٥ .

ودخلها ، فصادف مراكب البنادقة قد هجموا على ساحل الثغر وأسرُوا ، فخرج إليهم ، وحاربهم وهَزَمهم ، فعادوا .[(١)]

ذكر القبض على المأمون

قال : وفى سنة تسع عشرة وخمسمائة فى يوم السّبت لأربع خلَوْن من شهر رمضان قبض الآمر بأحكام الله على وزيره المأمون أبى عبد الله محمّد وعلى أخوته [الخمسة][(٢)] وثلاثين نفرًا من خواصّه وأهله ، واعتقله ، ولم يَزَل فى اعتقاله إلى سنة اثنتين وعشرين ، فصَلَبه مع أخوته .

وقيل فى سبب ذلك إنّ المأمون رَاسَل الأمير جعفرًا ، أخا الآمر ، وأغراه بقتل أخيه وأنّه يقيمهُ مكانه فى الخلافة ، واسْتَقرّت القاعدة بينهما على ذلك ، واتّصَل ذلك بالشيخ أبى الحسن على بن أبى أسامة ، متولّى ديوان المكاتبات ، وكان خصيصا بالآمر قريبا منه ، وناله من المأمون أذى كثير ، فأعلم الآمر بالحال . وكان المأمون كثيرَ التطّلُّع لأخبـار النّاس والبحث عن أحوالهم ، وكثر.. الوشاة فى أيّامه .

قال ابن الأثير الجزرى فى تاريخه الكامل : كان ابتداءُ حالِ المأمون أن والدَه كان من جواسيس الأفضل بالعراق ، فمات ولم يخلِّف شيئًا ، فتزوّجت أمُّه وتركته فقيرًا فاتصل ببعض البنائين بمصر ، ثم صار يحمل الأمتعة بالسُّوق الكبير . فدخل مع الحمّالين إلى دار الأفضل مرّةً بعد أخرى فرآه الأفضل خفيفًا رشيقًا ، حسن الحركة ، حُلو الكلام والحجّة ؛

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٩٨ ، المنتقى من أخبار مصر ص ٩٣ ، الكامل جـ ١٠ ص ٦١٧ .

(٢) [ ] إضافة من المنتقى من أخبار مصر ص ١٠٣ .

فسأل عنه ؛ فقيل هو ابن فلان ؛ فاستخدمه مع الفرَّاشين . ثم تقدّم عنده وكبرت منزلته وعلت درجته ، إلى أن انتهى إلى ما ذكرنا[١] . قال محمدبن على بن يوسف بن جلب راغب[٢] فى تاريخ مصر : إن ابن الأثير وَهِم فى وفاة والد المأمون ، وأن والده مات فى سنة ثنتى عشرة وخمسمائة ، والمأمون إذ ذاك مدبِّر دولة الأفضل [٣] . وأكثر النّاس يذكرون ما ذكره ابن الأثير .

وقال صاحب كتاب البُستان فى حوادث الزّمان : إن المأمون كان يرُشّ بين القصرين ، وجدّه من غلمان المستنصر بالله . والله أعلم [٤] .

ذكر أخبار أبى نجاح بن قنا النصرانى الراهب وقتله

كان هذا الرّاهب من أهل أُشْمُوم طَنَّاح[٥] . وكان قد خدَم وَلِيَّ الدّولة يُحَنَّا بن أبى الليث ، ثم اتّصل بالخليفة الآمر بعد القبض على المأمون . وبذل فى مُصَادرة قومٍ من النّصارى مائة ألف دينار ، فأطلق يده فيهم . وتسلسل الأمر إلى أن عَمّ البلاءُ منه جميعَ رؤساء الدّيار المِصريّة وقُضاتها وكُتّابها وغيرهم . ولم يَبْق أحدٌ إلا ناله منه مكروه من الضّرب والنهب وأَخْذ المال . وارتفَع شأنُه عند الآمر حتى كان يعمل له [٦] ملابس

---

(١) « حتى صار وزيرًا » فى الكامل جـ ١٠ ص ٦٢٩ ، وانظر المنتقى من أخبار مصر ص ١٠٤ .
(٢) المعروف بابن ميسر .
(٣) المنتقى من أخبار مصر ص ١٠٤ .
(٤) انظر كنز الدرر جـ ٦ ص ٤٩٣ .
(٥) أشموم طناح = أشمون الرمان : من المدن القديمة ، قرب دمياط ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ١ ص ٢٢٩ .
(٦) « إلى أن كان يستعمل له » فى الأصل ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ١٠٨ .

مخصوصة به بدمياط وتنّيس من الصُّوف الأبيض المنسوج بالذّهب ، فكان يلبسها ويلبس من فوقها الغفافير الدّيباج[١] . وكان يتطيب فى كلّ يوم بعدة مثاقيل من الـمُسك . وكان يركب الحمير بالسُّروج المحلاّة بالذهب والفضة ، ويجلس فى قاعة الخطابة بالجامع العتيق بمصر ويَسْتدعى النّاس للمصادرة . فا ستَدْعَى فى بعض الأيام رجلاً يُعرف بابن الفرس ، وكان من أكابر العدول ذوى الهيئات والدّيانة ، والناس يعظمونه ويبجّلونه — وأوقع به الإهانة والإخراق ؛ فخرج من عنده ووقف فى الجامع يومَ الجمعة وقال : ياأهل مصر ، انْظُروا عَدْلَ مَوْلانا الآمر فى تمْكينه هذا النّصرانى من المسلمين ! فارتَجَّ الناس لكلامه وكادت تكون فتنة ؛ فدخل جماعةٌ على الآمر وخوَّفُوه العاقبة ، وعرَّفوه ما حلَّ بالمسلمين منه [٨٧] فاستدعاه ، وكان فى المجلس رجلٌ من الأشراف [٢] ، فأنشد الآمر أبياتًا منها :

إن الّذى شُرِّفت من أجْله يزعمُ هذا أنّه كاذب

فقال له الآمر : ما تقول ياراهب ؟ فمسكت . فأَمَرَ به فقُتل . وكان الّذى تولّى قتله الأمير مقداد والى [٣] مصر ، وصَلَبه على الجسر . ثم أُنْزِل ورُبط على خشبةٍ ورُمِى فى بحر النيل وخرجت الكتب إلى الأعمال البحريّة أنّه إذا أَلقاه الماءُ إلى جهةٍ أخرجُوه عنها حتّى ينتهى إلى البحر المالح .

---

(١) « عفارة ديباج » فى المنتقى من أخبار مصر .

(٢) يذكر ابن خلكان أنه الشيخ أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشى المالكى المتوفى سنة ٥٢٥ هـ/١١٣٠ م — وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٦٢ رقم ٦٠٥ .

(٣) « ولى » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٢٦ .

ولما قُتِل هذا الرّاهب وجدُوا له مقطعًا فيه ثلاثمائة طُرَّاحة [١] سامان محشوةً ، جدُدًا ، لم تُستعمل . هذا مِنْ هذا النّوع ، خَلاَ ماوُجد من الذّهب والفضة والأقمشة والديباج [٢] .

ذكر مقتل الآمر بأحكام الله
وشىء من أخباره

كان مقتله فى يوم الثلاثاء لليلَتَين خَلَتا [٣] من ذى القَعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، بجزيرة مصر [٤] بالقرب من المقياس . وثَب عليه عشرة نفر من النِّزارية وقتلُوه ، فحمل فى جل [٥] إلى الجامع ، ونقل فى مركبٍ عشارى [٦]، وأُحْدِر إلى اللؤلوة فى الخليج ، ثم حُمل إلى القصر ؛ فتوفِّى بقية يومه . وقُتل القومُ الذين قتلوه .

---

(١) طراحة : المرتبة ، أو الفراش الذى يجلس عليه ــ القاموس .
(٢) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٨٨ ـ ٨٩ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٠٧ ــ ١٠٩ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .
(٣) « الرابع من ذى القعدة » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٣٠ .
(٤) « جيزة مصر » فى الأصل ، والتصحيح من اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٣٠ ، والمنتقى من أخبار مصر ص ١١٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧٢ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٠٤ ، وأخبار الدول المنقطعة ص ٩١ .
(٥) الجل للدابة : كساء يقيها من قسوة البرد ــ القاموس .
وفى أخبار الدول المنقطعة « فى شليل من أشلة الخيل » .
(٦) عشارى : عشاريات : مركب صغير نسبيًا يستخدم عشرين مجدافًا ، ويكثر استعماله فى نهر النيل ــ معجم السفن الإسلامية ص ٩٥ وما بعدها .

وكان مولدُه فى يوم الثلاثاء لليلةٍ خلت من المحرّم[١] سنة تسعين وأربعمائة وقتل فى يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم[٢] منها ، فكان عمره أربعًا وثلاثين سنة وعشرة أشهر وولايته تسعة وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصف شهر . وكان محكُومًا عليه إلى أن قُتل الأفضل وتولَّى المأمون فظهر أمره ، وصار يتصرَّف [ويركب][٣] فى يوم الجمعة ويوم السّبت ويوم الثلاثاء وإذا لم يركب فى يوم منها ركب فى غيره . ولم يستوْزِر بعد المأمون وزيرًا للسّيف والقلم ، بل استبدَّ بأموره وباشرها بنفسه .

وكان قبيح السّيرة فى رعيّته ، يظلمهُم ويأخذُ أموالهم ويغتصب أملاكهم ؛ وسفك دماءَهم ، وارتكب المحذورات ، واستحسن القبائح . ويكفى من سُوء سيرته تمكينُه الرّاهبَ من المسلمين ، وقد تقدم خبرُه.[٤]

ووُلد للآمر فى هذه السنة ولدٌ سمى أبا القاسم الطّيب وجعله ولىَّ عهدِه[٥] ، فأخْفَاه الحافظ .

وزراؤه : الأفضل ؛ ثم المأمون .

قضاته : ابن ذكا النابلسى إلى أن رَفَع إبراهيم حمزة الشاهد إلى الأفضل أمير الجيوش أنه أحدث فى مجلس الحكم فعزله ؛ ووَلّى أبا الفضل نعمة بن بشير الجليس النابلسى إلى أن استقال ؛ فولّى الرشيد أبا عبد

« ولد يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٩١ ، والمنتقى من أخبار مصر ص ١١٠ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١ .
ولم يتفق مع النويرى فى تاريخ ميلاد الآمر سوى ابن تغرى بردى ــ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧١ .

(٢) هذا يتناقض مع ما جاء فى أول الفقرة .

(٣) [ ] إضافة من المنتقى من أخبار مصر ص ١١١ .

(٤) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١١١ ،

(٥) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٢٨ .

الله محمد بن قاسم الصقلى إلى أن توفى ؛ فأعاد الجليس ثم صرفه ؛ وولّى أبا الفتح مسلم ، فبقى إلى أن تولى المأمون فعزله ونفاه لما أخطأ فى قراءته ؛ وولّى أبا الحجاج يوسف بن أيوب الأندلسى إلى أن توفى فى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ؛ فولّى الآمر أبا عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسِّر القيسرانى ، فاستمر إلى أن قُتل الآمر بأحكام الله [1] .

ذكر بيعة الحافظ لدين الله

هو أبو الميمون عبد المجيد بن محمّد بن المستنصر بالله ، وهو الحادى عشر من ملوك الدّولة العُبيديّة والثّامن من ملوك الدّيار المصريّة منهم . بُويع لهُ بَعْد مقتل ابن عمّه الآمر ، فى يوم الثلاثاء لِلَيْلَتَين خَلَتا من ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، بولاية العهد إلى أنْ يستبرئ نساءُ الآمر وهل فيهنَّ مَنْ هى مشتملةٌ على حَمْل أمْ لا .

ذكر قيام أحمد بن الأفضل الحافظ
وما كان من أمر أحمد إلى أن قُتل

قال المؤرّخ : لما بُويع الحافظُ لِدين الله ثار الجُنْد الأفضْليّة وأخرجوا ابنَ مولاهم ، أبا علّى أحمد بن الأفضل ، الملقّب بكتيفات ، وولَّوْه إمْرة الجيوش ؛ وذلك فى يوم الخميس السّادس [2] من ذى القَعدة منها ، فحكم ، واعتقل الحافظَ صبيحة يوم بيْعته ، ودعا لِلإمام الـمُنتظر ؛ وقَوِى أمرُ ابن الأفضل .

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٩٢ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١١٢ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٢)« سادس عشر » فى المنتقى من أخبار مصر ص ١١٣ .

وفى سنة خمس وعشرين رتّب أحمد بن الأفضل فى الأحكام أربعة قضاة : الشّافعية والمالكية والإسماعيلية [٨٨] والإمامية ، يحكم كلّ قاض بمقتضى مذهبه ويُورِّث بمقتضاه ، فكان قاضى الشافعيّة الفقيه سلطان[١] ، وقاضى المالكية اللّبنى[٢] ، وقاضى الإسماعلية أبو الفضل[٣] ابن الأزرق ، وقاضى الإمامية ابن أبى كامل[٤] .

وسار أحمد بن الأفضل سيرةً جميلة بالنِّسبة إلى أيّام الآمر ، وردَّ على الناس بعضَ مصُادراتهم ، وأظْهر مذهبَ الإمامية الاثنى عشرية ، وأسقط من الأذان قولهم « حيَّ على خيْر العمل » ، وأمر بالدّعاء لنفسه على المنابر بدعاءٍ اخترعه لنفسه وهوَ : « السّيد الأجلّ الأفضل ، مالك أصحاب الدُّول ، والمحامى عن حَوْزة الدِّين ، وناشر جَناح العدل على المسلمين ، الأقْرَبين والأبْعَدين ، ناصرُ إمام الحقّ فى حالَتَى غيبته وحُضوره ، والقائم بنُصرته بماضى سيفه ، وصائب رأيه وتدبيره ، أمينُ الله على عبادِه ، وهادى القُضاة إلى اتّباع شرعِ الحق واعتماده ، ومرشدُ دُعاة المؤمنين بواضِحِ بيانه وإرشاده ، مُولى النعم ، ورافعُ الجَوْر عن الأمم ، ما لكُ فضيلَتَى السَّيف والقلم : أبو على أحمد بن السيد الأجلّ الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش[٥] » .

---

(١) هو سلطان بن إبراهيم بن مسلم المقدسى ، المعروف بابن رشا ، والمتوفى سنة ٥٣٥ هـ/ ١١٤٠ م ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٧٥ ، العبر جـ ٤ ص ٤٢ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٣٣ .

(٢) هو محمد بن عبد المولى بن محمد بن عبد الله اللبنى المغربى ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤٢ .

(٣) هو هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد ، أبو الفضائل ، المعروف بابن الأزرق ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤٢ .

(٤) هو المفضل بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن أبى كامل ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤٢ .

(٥) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١١٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

واستمر أمرُه إلى يوم الثّلاثاء سادس عشر المحرّم سنة ستٍّ وعشرين وخمسمائة . فاتّفق ركُوبه فى هذا اليوم إلى الميدان بالبُستان الكبير(١) ظاهرَ القاهرة ، لِلّعب بالأكرة(٢) على جارى عادته ، فوثَبَ عليه مملوكٌ روميٌّ ، وقيل بَلْ من صِبيان الخاصّة(٣) ، فطعنه طعنةً ألقاه بها عن فرسه ، ونزل واحتزَّ رأسه ، ومضى به إلى القصر ؛ وذلك بمُوافَقةِ من الأجناد . فكانت مدّةُ تغلّبه على الأمر سنة واحدةً وشهرين وثلاثة عشر يومًا ؛ ودُفن بتربة أبيه خارج باب النصر(٤).

ذكر بيعة الحافظ لدين الله الثانية

قال : ولما قُتل أحمد بن الأفضل بويع الحافظ بالخلافة بيعةً عامّة ، وظهر الحمْلُ المنتظر بنْتًا ، فانتقلت الخلافة إليه ، وأمر أن يُدْعى له على المنابر : اللّهم صلِّ على الذى شَيَّدْت به الدّين بعد أن رامَ الأعداءُ دُثورَه ، وأقرَرْت الإسلام بأنْ جعلت طُلُوعه على الأمّة وظهورَه ، وجعلْتَه آيـة لِمَنْ يدبِّر الحقائق بِبَاطِنِ البصيرة ، مولانا وسيِّدنا وإمامِ عصْرنا وزمانِنا ، عبد المجيد أبى الميمون ، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين ، صلاةً دائمة

(١) « البستان الكبير خارج باب الفتوح من القاهرة » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤٣ .
وكان يمتد من زقاق الكحل خارج باب الفتوح إلى المطرية ــ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٨٧ .

٢ الأكرة لغة فى الكرة ، وانظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤٣ ، والمنتقى من أخبار مصر ص ١١٥ .

(٣) صبيان الخاص = صبيان الحجر : وهم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة ، يقيمون فى حجر منفردة بالقرب من باب النصر ــ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٧ ، وانظر ما يلى فى أحداث سنة ٥٤٤ هـ .

(٤) تربة أمير الجيوش بدر الجمالى ، وهى أول تربة أنشئت بمقابر باب النصر ــ خارج الباب ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٦٣ .

إلى يوم الدين[١] .

قال : ولما تم أمر الحافظ استوزر أبا الفتح يانس ، وهو رومىّ من مماليك الأفضل ، ولقبه بأمير الجيوش ؛ فقتل الطّائفة المعروفة بصبيان الخاصّ ، ومن جملتهم قاتل أحمد بن الأفضل . وكان عظيم الهيبة ، بعيدَ الغَوْرَ ، فخافه الحافظ وتخيَّل منه ، وتخيَّلَ يانس أيضا من الحافظ ، فدبّر كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه ، فسَبَق تدبيرُ الحافظ فيه فسَمَّه فى إبريق استعمل الماء منه عند الطّهارة فعولج وكادَ أن يبرأ . فكلّم الحافظُ بعضَ الأطباء ، فقال له الطبيب : إن رأى مولانا أميرُ المؤمنين أن يَمْضى إليه ويزورَه ويُهنِّئه بالعافية فإنّه لابُدّ أنْ ينهض إليك ويمشى ، فإذا مشى لايكاد يعيش أبدًا . فمضى إليه الحافظ فقام إليه وتلقّاه ، فمات فى ليلته ؛ وذلك فى السّادس والعشرين من ذى الحجة[٢] فكانت مدةُ وزارته تسعة أشهر .

ذكر الخُلف بين ابنَىْ الحافظ لدين الله

قال المؤرخ : وفى شعبان سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة جرى بين أبى تراب حَيْدرة وحَسَن ، ولدَىْ الحافظ ، حربٌ شديدة ، وافترقت العساكر على فرقتين ، وهما الرَّيحانية والجيوشيه ، وكان بينهما وقعةٌ فى خامس شهر رَمضان ووقع الحرب بينهما بين القَصْرين ؛ وقُتل من الطّائفتين تقدير عشرة آلاف إنسان . وكان سبب ذلك أن الحافظ جَعل وَلَده حَيْدرة ولىَّ عهده من بعده ، فلم يرْضَ حسن بذلك ، فوقع الاختلاف والحرب بينهما . واستَظْهر حسن على أخيه حيدرة ، فهرب حيدرة إلى أبيه ، فأرسل الحافظ إلى ابنه حسن ليدخل إليه ، فامتنع وضايق القصر ، وطالبه بأخيه

(١) المنتقى من اخبار مصر ص ١١٧ ، وانظر أخبار الدول المنقطعة ص ٩٥ ، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

(٢) « لليلتين خلتا من ذى القعدة » فى أخبار الدول المنقطعة ص ٩٨ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٠٦ .

حيدرة ، فتلافاه الحافظ وجعلهُ وليّ عهده من بعده . وتمكّن حسَن من الدَّولة والتصرُّف فيها بحسَب رأيه ، ولم يبق للحافظ معه حكم [١] .

[٨٩] ذكر مقتل حسن بن الحافظ

كان مقتلُه فى يوم الثّلاثاء الثّالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسعٍ وعشرين وخمسمائة وذلك أنه لمّا استقَر فى ولاية العهْد والوزارة والتدبير واستبدَّ بالأمر ، قبض على جماعةٍ من الأمراء وقتلَهم ، بسبَب قيامهم مع أحمد بن الأفضل ، وأقام غيرهم ؛ فخافَهُ مَنْ بقى من الأمراء العُتْق ، وأجمعوا على خَلْع أبيه من الخلافة وولَده حسن من الوزارة فاجتمعوا بين القصرين ، وراَسَلُوا الحافظ ، وأعلموه بما أجمعوا عليه ، فاستعْطَفهم الحافظُ واعتذر إليهم ؛ وهرب حسَن إلى أبيه ، فقبَض عليه وقيَّده ، وذكر ذلك للأمراء ، فقالوا : لابُدّ من قَتْله ، فسقاهُ أبُوه سمًّا فمات ، وجعلَه على سرير ، وأمر الأمراء بمشاهدَته ، فدخلُوا عليه ووراَوْه فسكتوا . وقيل إن قيام الأمراء [٢] كان بتدبير الحافظ .

ذكر وزارة بهرام الأرمنى

وفى يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة ، وقيل لإحدى عشرةَ ليلةً خلَتْ منه ، استوزر الحافظُ بهرامَ الأرمنى النّصرانى ، ونعته بسيف الإسلام تاج الملُوك [٣] . وكان بهرامُ المذكور قد وصل إلى الدّيار المصريّة

---

(١) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١١٩ - ١٢٠ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٤٩ .

(٢) « الأمر » فى الأصل ، والتصحيح من سياق الكلام .

وانظر تفصيل ذلك فى المنتقى من أخبار مصر ص ١٢١ - ١٢٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٥٣ - ١٥٥ ، الكامل جـ ١١ ص ٢٢ - ٢٣ .

(٣) « تاج الخلافة » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٥٦ .

واجتمع بالحافظ ، فرأى منه عقلاً وافرًا وإقدامًا فى الحرب وحُسْن تدبير[١].

وكان سببُ وصوله من بلاده أنّ القائم بأمْر الأرمن مات ، وكان بهرام أحقَّ بمكانه من غيره فعَدَل الأرمنُ عنه وولَّوْا غيره ، فغضب لذلك وخرج من تلّ باشر[٢] وقدم مصر ؛ فعيّنه الحافظ للوزارة . واستشار بعض أهله وأكابر دَوْلته فيه ، فكلُّهم كره ذلك وأشار عليه ألا يفعل ، وقالوا : إنّه نصرانى لايَرْضاه المسلمون ، وإنّ من شروط الوزارة أنّ الوزير يَرْقى المنبر مع الإمام فى الأعياد ليزرّ عليه المزرة الحاجزَة بينه وبين الناس ؛ وأنّ القضاة هم نواب الوزراء ، من زمن أمير الجيوش . بدر الجمالى ، ويُذْكَرون فى النّيابة عنهمُ فى الكتب الحُكْمية النّافذة عنهم إلى الآفاق وكُتُب الأنكحة . فقال الحافظ : إذا رضيناهُ نحن فَمَنْ يخالِفُنا ، وهُو وزير السيف ؛ وأمّا صُعُود المنبر فيَسْتنيب عنه فيه قاضى القُضاة ، وأمّا ذكرُه فى الكتب الحكميّة فلا حاجة إلى ذلك . واسْتُوزِر وَالنّاس يُنكرون ذلك عليه[٣] .

وقال بعض المؤرخين : إن بهرام كان والىَ الغربيّة يومئذ وإنّه سارَ منها مجدًّا إلى أن وصل إلى القاهرة وحاصَرها يومًا واحدًا ودخلها . فلمّا ولى الوزارة وثبتَتْ بها قدمُه سأل الحافظ أن يَسْمح له بإحضار إخوته وأهله ، فأذن له فى ذلك . فأرسلَ إليهم وأحضرهم من تَلّ باشر ، فتواصَلُوا حتى كَمُل منهم ومِنْ غيرهم من الأرْمَن تقديُر ثلاثين ألف إنسان ؛ فاسْتَطالوا على المسلمين . وبُنيَت فى أيّامه كنائسُ كثيرة ودِيَرَة

---

(١) المنتقى من أخبار مصر ١٢٢ .

(٢) تل باشر : حصن وكورة شمالى حلب ، وأهلها من النصارى الأرمن — معجم البلدان .

(٣) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١٢٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٥٦ .

حتى إن كل رئيس من أهله بنى له كنيسة ؛ وخاف أهلُ مصر منهم أن يغيِّرُوا الملَّة الإسلاميّة . وكثُرت الشّكايات فيه . وكان أخوه المعروف بالباساك ، وإليه تُنسب المنية [١]التى بالقرب من إطفيح[٢] ، قد وَلى الأعمال القوصيّة فجار فيها جوْرًا عظيما واستباح الأموال ، فعظم ذلكَ على النّاس .

ذكر خروج بهرام [٣]من الوزارة ووزارة رضوان ابن الولخشى

قال : ولما ثقُلت وطأة بهرام على النّاس اجتمع الأُمراء وكاتبُوا رضوانَ بن الولخشى ، وذلك فى صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، وكان يوْمئذٍ متولى الغربيّة ولاه بهرام إيّاها إبعادًا له ، فلمّا أتتْه كتُب الأمراء نهضَ فى طَلبِ الوزارة ، ورَقى المنبَر ، وخطب خطبةً بليغةً حرّض النّاس فيها على الجهاد . فأجابوه . وحشد العُربان وقدِم إلى القاهرة . وكان الأمراء قد كاتبُوه وقالوا : إذا وَقع الوجْهُ فى الوجْهِ ارفَعْ المصاحف على الرِّماح فإنّا ننْحازُ إليك ؛ ففعَل ذلك . وخرج بَهرام إليه لمّا قرُب من القاهرة ؛ فلمّا عاين الأمراء [٩٠] والجندُ المصاحفَ التحقوا جميعُهم برضوان ، وبقى بَهرام فى الأرمن خاصّة . فراسَلَ الحافظ وقال : أنا ألقاهُم بمَنْ معى . فخاف الحافظ عاقبةَ ذلك ، فأمره أن يتوجّه إلى قوص ويُقيم عَند أخيه الباساك إلى حين يدبّر أمرًا . فعاد بَهرام إلى القاهرة ،

---

(١) منية الباساك : من القرى القديمة ، وتعرف حاليًا باسم المنيا ، وهى تابعة لمركز الصف بمحافظة الجيزة ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ٣١ .

(٢) أطفيح : من المدن المصرية القديمة ، من أعمال الجيزية ، وإليها تنسب الأعمال الأطفيحية ، وهى حالياً بلدة تابعة لمركز الصف بمحافظة الجيزة ، القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ٢٦ .

(٣) «رضوان» فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح مما يلى .

وأخذ ماخفَّ حمله ، وخرج من باب البرقيّة فى حادى عشر جمادى الأولى ؛ وتوجَّه إلى الأعمال القُوصيّة .

قال : ولما انفصل عن القاهرة أتت العوامّ منازل الأرمن ، وكانوا قد نَزلوا المُحَسْنيّة[1] وعمروها دورًا . ولمّا اتصل بأهل قوص انهزامُ بهرام ثارُوا بأخيه الباساك وقتَلوه ومثّلوا به ، وربَطُوا فى رجله كلبًا ميّتا ، ورَمَوه على مزبلة . فقَدِم بَهرامُ بعدَ ذلك بيومين ، ومعه طائفةٌ من أقاربه ، فرأى الباساك على هذه الحال ، فقَتَل جماعةً من أهل قوص بالسّيف ونَهبَها وسار إلى أسوان . ثمّ رجع ونزّل بالدُّيَرَة البيض[2] ، وهى من أعمال أخميم بالجانب الغربى .

قال : ولمّا فارق بَهرام القاهرة دخَلَها رضوان ووقَف بين القصرين ، واستأذَنَ الحافظ فيما يفعلُه ؛ فأمره بالنّزول بِدارِ الوزارة ، فنزلها ، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة ، ونعته بالأفضل . ونَدَب رضوان جماعةً من العسكر مع أخيه ناصر الدّين ، فتوجّهوا إلى بَهرام ، فاستقرّ الأمر بينهم أن يقيم بالدُّيَرَة البيض ؛ وعاد الجُند الّذين مع بَهرام إلى مصر . ودَبر رضوان الأمْرَ أحسن تدبير ، وصادرَ جماعةً من أصحاب بهرام وشدّد عليهم الطّلب ، وقتلهم بالسيف .

وفى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة أحضرت[3] من تنّيس امرأة بِغير يَدَيْن ، وموضع يديها مثل الحلَمتَين ، فجيء بها إلى مجلس الوزارة بين يدَيْ رضوان ، فعرَّفته أنّها تعمَلُ برجلَيْها ما يعملُه الناس باليدين من خطٍّ ورَقْم وغير ذلك . فأحضر لها دواةً ، فتناولت الأقلام

(١) الحسينية : خارج باب الفتوح ـ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٠ .

(٢) [illegible] بالأديرة البيض ، وهى أماكن حصينة فى غربى إخميم » ـ المنتقى من أخبار مصر ص ١٢٥ .

(٣) « أحضر » فى الأصل ، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر ص ١٢٩ . اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٦٧ .

برِجْلها اليسرى وتأمّلَتْها قلمًا قلمًا فلم تَرْضَ شيئًا منها ؛ فأخذت السّكين وبَرَتْ لنفسها قلمًا وشقَّته وقَطَّته ، واستدعت ورقةً فأمْسكتها برِجلها اليُمنى ، وكتبت باليُسرى بأحسن خطٍّ ما تكتُبُ النّساء بأيدِيهنَّ مثلَه ، وحمدت الله فى آخر الرُّقعة ، وناولَتْها للوزير . فتناوَلَها فوجدها قد سألتْه الزّيادة فى رَاتِبها ؛ فزادَها ، وأعادها إلى بلدها (١) .

وفيها بنى رضوان المدرسة المعروفة به بالإسكندريّة (٢) ، واستدعى الفقيه أبا طاهر بْنَ عوف (٣) إلى حضرته وأسْند إليه تدْرِيسَها .

ذكر خروج رضوان من الوزارة
وما كان من أمره إلى أن قتل

وفى شهر رمضان سنة ثلاثٍ وثلاثين وخمسمائة أحضر الحافظ بَهرام الأرمنى من الصَّعيد ، وأسكنه فى القُصور وأكرمه ، فعظُم ذلك على الأفضل رضوان ، فشغَب الحافظُ عليه الجند ، فقام بعضُهم عليه ، وجرت بينهم حربٌ بالقاهرة . وطلب رضوان أنْ يسكُن معِ الحافظ فى القُصور ، فلم يمكِّنه . فتزايَد الحالُ على الأفضل وضعُفَت قَدرته عَنْ لقاء العساكر ، فهرب إلى الشام ، وذلك فى منتصف شوال منها ، وقصد

---

(١) المنتقى من أخبار مصر ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٦٧ .

(٢) هى المدرسة الحافظية التى أنشأها رضوان بن ولخشى للفقيه المالكى أبى الطاهر بن عوض ــ تاريخ مدينة الإسكندرية ص ٤٨ .

(٣) هو إسماعيل بن مكى بن إسماعيل بن عيسى بن عوف الزهرى ، أبو الطاهر ، توفى سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م ــ العبر جـ ٤ ص ٢٤٢ ، أعلام الإسكندرية ص ١٠٥ ـ ١٢٧ .

كُمشْتكين والى صَرْخَد[١] فأقام عندَهُ فأكرمه [٢] . ثمّ عاد إلى مصر فى سَلْخِ المحرَّم سنةَ أربعٍ وثلاثين وقد جمع جمعًا صالحًا من الجند ، فخرج إليه العسكر وحاربُوه عند باب الفُتوح ، فمضى ونزل عند الرَّصد ، ثم مَضَى إلى الصَّعيد . فندب اليه الحافظُ الأمير سيفَ الدّولة أبا الفضل[٣] بن مَصَال بأمان ؛ فسار إليه وتلطَّف به ، إلى أن أحضره إلى القَصْر ، فى رابع شهر ربيع الآخر من السّنة ، فاعتقله فى بعض قاعات القصور . فأقام فى الاعتقال إلى سنة اثنتين وأربعين ، فخرج من نَقْبٍ نقبه فى القصر ، وذلك فى ليلة الثّلاثاء لسبعٍ بقِينَ من ذى القعدة منها . وركب وحَوْله جماعةٌ ممن كان يكاتبُه ، وتوجَّه إلى الجيزة ، ولقِىَ عسْكر الحافظ وقاتَلَهم عند جامع ابن طُولُونِ ، فهزمهم . ودَخَل القاهرة ، ونزَل بالجامع الأقمر[٤] ، وأغلق الحافظُ باب القصر فى وَجْهه ؛ فاستحضر رَضوان أربابَ الدّولة والدّواوين ، وأمَرَ ديوانَ الجيش بِعَرض الجُند ، فعرضهم ، وأخذ أموالاً كثيرة خارجةً عن القصر كانت فى الدّواوين ، وأنفق ؛ وأرسل إلى الحافظ فى طَلَب المال ، فأرسل إليه عشرين ألف دينار . وأمَر الحافظُ مقدَّمى السُّودان بالهُجوم على رضوان وقتله ، فهجمُوا عليه ، فهمَّ بالركوب ، فاعْجلُوه عن ذلك ، وضربه بعضُهم بسيفٍ فقتله . وقُتِل معه أخوه ، وأحضرت رأساهُما إلى الحافظ .

---

(١) صرخد : تلاصق بلدة حوران من أعمال دمشق ، وكانت من القلاع الحصينة ــ معجم البلدان .

(٢) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٩٩ ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٨ - ٤٩ .

(٣) هو سليم بن مصال ، نجم الدين أبو الفتح ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٧٣ ، وانظر ما يلى حيث يلقبه النويرى أيضًا « أبا الفتح » عندما ولى وزارة الظافر .

(٤) الجامع الأقمر : أنشأه الخليفة الآمر بأحكام الله ، وقام على إنشائه وزيره المأمون البطائحى ، وهو الآن بشارع المعز لدين الله (النحاسين) ـ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٩٠ .

وسكنت الفتنة ، وأرْسَل الحافظ الرأس [٩١] لزوجة رضوان فلمّا وقع في حِجْرِها قالت : هكذا تكُون الرجـال . فلم يكن في وقت رضوان أسمع [١] منه .

وكان مولده في سنة تسعٍ وثمانين وأربعمائة . وأوّل ولايةٍ وَلِيهَا الأعمـال القوصيّـة والأعمـال الإخميميـة في سنـة ثمـانٍ وعشـرين وخمسمائة .

ذكر وفاة بهرام الأرمني

كانت وفاته لستٍّ بقين من شهر ربيع الآخر سنةَ خمسٍ وثلاثين وخمسمائة بالقُصور ، وكان الحافظُ قد أسكنه بدَارٍ بها ولم يمكِّنْه من التصرف ، وكان يشاوره في تدْبير الدَّولة والأمور ويصدر عن رأيه . فلمّا هلك حزن عليه حزنًا شديدًا ، وأمر بغَلْق الدَّواوين ثلاثةَ أيام .

وأحضر الحافظ بِطرك الملكية بمصر ، وأمره بتجهيزه ، فجهَّزه . وأُخرج وقتَ صلاة الظُّهر في تابوتٍ عليه الدِّيباج ، وحولَه جماعةٌ من النّصارى يُبَخِّرون باللّبان والسّنـدُرُوس والعُود ؛ وخـرج النّاس كلُّهم مُشاةً ولم يتخلّف عن جنازته أحد من الأعيان . ثمّ خرج الحافظُ على بغلةٍ خلف التّابوت وعليه عمامةٌ خضراء وثوبٌ أخضر بغير طَيْلسان . ولم تزل النّاس مُشاةً والقَسُوس يُعلنون بقراءة الإنجيـل ، والحافظ على حالته إلى دَيْر الخندق [٢] بظاهر القاهرة ؛ وقيل بَلْ في بُستان الزّهرى

(١) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١٣٧ – ١٣٨ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٨٢ – ١٨٤ .

(٢) دير الخندق : ظاهر القاهرة من بحريها ، عمَّره جوهر الصقلي [illegible] بالقاهرة ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٥٠٧ .

فى الكنيسة المستجدة [١] . ونزل الحافظ عن بَغْلته ، وجلس على شَفِير القبر ، وبكى بكاء [٢] كثيرا .

وفى سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة طلع النّيل حتى بلغ تسعةَ عشر ذراعًا وأربع أصابع [٣] ، ووصل الماءُ إلى الباب الجديد [٤] أوّل الشارع الأعظم بالقاهرة ، وصار النّاس يتوجَّهُون من القاهرة إلى مِصر مِنْ جهة المقابر . ولمّا وصل الماءُ إلى الباب أَظْهر الحافظُ الحُزن والانقطاع ، فدخل عليه بعض خَواصِّه وسأله عن السَّبب ، فأخرج له كتابًا وقال له : انظُر هذا السّطر ؛ فقرأه ، فإذا فيه . إذا وصل الماءُ إلى الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد . وقال : هذا الكتاب الذى تُعْلَم منه أحوالُنا وأحوال الدّولة وما يأتى بعدها [٥] .

ذكر وفاة الحافظ لدين الله
وشىء من أخباره

كانت وفاته فى ليلة الخميس لخَمسٍ خلَوْن من جُمادى الآخِرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ومولدُه فى المحرّم سنة أربعٍ وستّين

(١) كنيسة الزهرى : كانت فى بر الخليج الغربى ، غربى اللوق ، فى الموضع الذى كانت فيه البركة الناصرية ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٥١٢ .

(٢) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١٣٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٧٥ .

(٣) « ثمانى عشرة ذراعًا وثلاث عشرة أصبعًا » فى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٨٤ .
ويذكر ابن مماتى أن النيل إذا وصل إلى ستة عشر ذراعًا فقد وجب الخراج ، وأن هذه الزيادة تبشر بمحصول جيد ، فإذا وصلت ثمانية عشر ذراعًا كان هذا نذيرًا بطغيان النيل وفساد المحصول ــ قوانين الدواوين ص ٧٦ .

(٤) الباب الجديد : أنشأه الحاكم بأمر الله ، على يسرة الخارج من باب زويلة .. المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٠ .

(٥) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٨٧ .

وأربعمائة ، وقيل فى المحرّم سنة ثمانٍ وستين[1] . فكانت مدّة عمره ستًا وسبعين سنة وشهورًا ، ومدّة ولايته منذ بويع البَيْعة العامّة الثانية ، بعد قتل أحمد بن الأفضل ، ثمانى عشرة سنةً وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما .

قال المؤرخ : وكان الحافظ موصُوفًا بالبطش والتيقُّظ ؛ وكان شديد المناقشة . وهو الذى عمل طبل القُولَنْج الذى كسَره الملكُ النّاصر صلاحُ الدّين يوسف ؛ وكان هذا الطّبل قد عُمِل من سبعةِ مَعَادن والكواكبُ السبعةُ فى إشراقها . وكان خاصّتُه أنه كلّما ضُرب به ضَربة خرج الرّيحُ من مَخْرج الضّارب[2] .

قال بعض المؤرخين : إنّ الحافظ خَطَر بباله أن ينقل رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم من المدينة إلى القاهرة ، وكانت المدينةُ إذ ذاك يُخطَب بها لِبَنى العبّاس ، لظُهور مُلوك الدّولة السَّلجقية ؛ فأرسل نحوًا من أربعين رجلاً من أهل النّجدة والقُدرة ، فتوجّهوا إلى المدينة وأقاموا بها مدّة ، وتحيّلوا بأن حَفَروا سَرَبًا من مكان بعيد ، وعملوا حساب الخرُوج فى المكان المقصود . فعصَم الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلّم من أن يُنْقل من المكان الذى اختارَه له ؛ فيُقال إن السَّرَبَ انهار عليهم فهلكوا ؛ وقيل بل سُعِى بهم فأُهلكوا .

وكان للحافظ من الأولاد : أبو علىّ حسن ؛ هلك كما ذكرنا ؛ وعبدُ الله ، هلك فى حياته أيضا ؛ وأبو المنصور إسماعيل ؛ وأبو الأمانه جبريل ؛ ويوسف .

---

(١) اختلف المؤرخون فى تاريخ ميلاده فهو سنة ٤٦٧ هـ أو ٤٦٨ هـ فى المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٠ ، أخبار الدول المنقطعة ص ٩٨ ، وسنة ٤٦٦ هـ فى كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٠٦ .

(٢) عن هذا الطبل انظر النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣٨ ، وفيات الأعيان ٣ ص ٢٣٧ .

ووزراؤه : تقدّم ذكرُهم . ولمّا قتل رضوان بن الولخشى لم يستوْزر بعده أحدا ، وإنما كانوا كتّابًا . فمِنْ أشهر كُتابه أبو على حسن الأنصارى كان [القاضى][1] الفاضل يقول : لم يَسْمح الزّمان بمثله .

ومن أشهر شُعرائه الشّريف أبو الحسن الأخفش المغربى ، فى جملة شعره فى قصيدة :

ذكر الدّوْح وشَاطى بَرَدَى	وحَبَابًا فيه يَحْكى بَرَدا
[٩٢] والصّبا يمرَحُ فى أرجائه	وتَحُوك الرّيحُ منه زَرَدا
يَنْثر الـدُّرُّ عليـه فضّـةً	وتُذيب الشّمْسُ فيه عَسْجدا
ورشأ لَوْ لمْ تكُن ريقَتُه	خمرةً صافيةً ماعَرْ بدا

قضاته : لمّا غلب أحمد بن الأفضل على الآمر ، أبقى محمدَ ابن هبة الله ابن ميسّر القَيْسَرانى على القضاء ، ثم صَرَفه الحافظ واستقْضَى أبا الفخر صالح بنَ عبد الله بن أبى رجاء ؛ ثم قَبَض عليه الوزيرُ يانس الرُّومى وقتَله ، فولّى سراجَ الدّين أبو الثُريّا نجمَ من جعفر ، مضافًا إلى الدّعوة ، إلى أن قُتل فى ذى القَعدة سنة ثمانٍ وعشرين ؛ فأعيد سناء الملك بن ميسّرَ ، فأقام إلى أن قبض عليه فى يوم الأحد لسبع خلَوْن من المحرم سنة إحدى وثلاثين ، وسيِّر إلى تنّيس فقتل بها . وولِّىَ بعده القاضى الأعزّ أبو المكارم أحمد بن عبد الرّحمن بن محمد بن أبى عقيل ، إلى أن تُوفى فى شعبان سنة ثلاثٍ

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح .
وهو عبد الرحيم بن على بن الحسن العسقلانى ، القاضى الفاضل ، توفى سنة ٥٩٦ هـ/ ١٢٠٠ م ـ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٥٨ رقم ٣٧٤ .

وثلاثين . وأقام الناس بغير قاض ثلاثة أشهر ، ثم ولى أبو الفضائل هبة الله بن عبد الوارث الأنصارى لإحدى عشرة ليلةً خلت من ذى القعدة منها . ثمّ جرت مفاوضةٌ بينـه وبين « النبيه » [١] أبى الحسن على بن « اسماعيل » [٢] ، قيل أدّت الى مصافَعَةٍ خرج فى أثنائها القاضى إلى القَصْر وهو مخرَّق الأثواب وقدْ تحلَّقت عمامته فى حَلْقِه ، فعظُم على الحافظ خروجُه على هذه الهيئة وغرَّمه مائتى دينار ؛ واستناب أباطاهر إسماعيل ابن سلامه الأنصارى ، فأقام فى النِّيابة إلى مُسْتهَلّ المحرّم سنة خمسٍ وثلاثين ، فوفَّر جَارِى القضاء ، وهو أربعون دينارا فى كل شهر ، وخدمٍ لجارى التَّقْدِمة فى الدّعـوة ، وهو ثـلاثون دينـارًا ، فى الوظيفتين ؛ فأُجيب إلى ذلك وأقام إلى أن صُرِف لسبعٍ خلون من صفر سنة ثلاث وأربعين ، وبقى على الدَّعوة . ووَلِى القضاءَ أبو الفضـائل يونس بن محمد بن الحسن المقدسى إلى آخر المدّة [٣] .

ذكر بيعة الظّافر بأعداء الله

هو أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله ، وهو الثّانى عشر من مُلوك الدّولة العُبَيديّة والتّاسع من ملُوك الدّيار المصريّة منهم . بُويع له بعد وفَاةِ أبيه لخَمْسٍ خلَوْن من جمادى الآخرة سنة أربعٍ وأربعين وخمسمائة . واستَوْزر الأمير نجم الدّين أبا الفتح سليم بن محمّد بن

---

(١) ، (٢) « » بياض فى الأصل ، والتكملة من أخبار الدول المنقطعة ص ١٠١ .
فعندما تولى هبة الله بن عبد الوارث القضاء « أضيفت إليه دار العلم وعزل عنها النبيه أبو الحسن على ابن اسماعيل ، ثم أعيدت إلى النبيه فحضرها أبو الفضائل هذا القاضى المذكور لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين ، وجرت بينهما مفاوضات أدت إلى مصافعة » ـــ أخبار الدول المنقطعة ص ١٠١ .

(٣) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٠ ـــ ١٠١ .

مصال ، ونَعتَه بالسيّد الأجل المفضّل أمير الجيوش ؛ وكان إذْ ذاك من أكابر أمراء الدّولة .

وفى الرابع من شعبان من السَّنة اجتمع السودان وجماعةٌ من المفسدين بالبَهْنَسَانية[1] فخرج إليهم الوزير فحاربهم وهزمهم .

ذكر قيام العادل بن السّلار ووزارته

ومقتل ابن مصال

فى هذه السنة ثار الأمير المظفّر أبو الحسن على[2] بن السّلار والى الإسكندرية وخرج وحشد وتقدّم بِمَنْ معه ، ودخل القاهرة فى يوم الأربعاء سابع شعبان ، ووقَفَ على باب القصر ، ورَاسَل الظافر والمدبِّر لـه من النساء ؛ فـراجَعَت فى ذلك وفـاء لابن مصال ، ثم أجيْبَ إلى ما سأله . وفُتِح بابُ القصر ، وخُلع على المظفَّر خِلَعُ الوزارة ولُقّب بالعادل . فلمّا اتصلَ ذلك بابن مصال جمع عُربان البلاد ، ووافقه بَدْر بنُ رافع مقدّم العربان بتلك البلاد ؛ وقصد ابن السّلار فندب إليـه ربيبَه عَبّاس بن يحيى بن تميم بن المعّز بن باديس بعسكرٍ معه . فعسكر ببركة الحبش . فندب ابن مصال لحربه الأمير الماجد فجَدّ فى السّير وكبس عسكر عباس ، فأثخنهم جراحًا وقتلا ؛ فانهَزَم عباس .

---

(١) البهنسا : مدينة بالصعيد غربى النيل ، وتتبع حاليًا مركز بنى مزار بمحافظة المنيا ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

(٢) انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٤١٦ رقم ٤٨٥ ، العبر جـ ٤ ص ١٣١ . وانظر أخباره فى المنتقى [illegible] ١٠٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٩٦ وما بعدها ، النجوم الزاهرة : جـ ٥ ص ٢٨٨ وما بعدها ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٥٢ وما بعدها .

واجمع ابن مصال رأيه على قَصْد بلاد الصّعيد ، فعاجَلَه ابن السّلار وأمدّ رَبيبه بالعَسَاكر وأمرَهُ بمُعاجلته قبل الجمع ، فأدركه بالقُرب من دَلاَص (١) . والتَقَوْا بينها وبين مهد ، وهى قرية هناك ، واقتتلُوا ؛ فانْجلَت الحرب عن قَتْل ابن مصال وبَدْر بن رافع . وكانت هذه الوقعة فى يوم الأحد تاسع عشر شوال . وحُملَ رأس ابن مصال إلى القاهرة ، وطيف به ، وخُلع على العَادل فى ذلك (٢) اليوم .

وفى السّادس والعشرين من شهر رمضان أغلق العادلُ أبوابَ القاهرة والقصُور ، وقَبَض على صِبيان الخاصّ وقتلهم ، وكانوا جمعا كثيرا وهُم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدّولة فكان الرجل إذا تُوفّى وخلَّف أولادًا حُملوا إلى حضرة الخلافة وأودِعوا فى أماكن مُفْردةٍ لهم ، ويؤخذ فى تعليمهم الفروسية وغير ذلك ؛ وتسمَّوْا صِبيان الخاص . وكان سبب إيقاع العادل بهم أنه بلغه أنهم تعاقَدُوا على قَتْله ، فبادر بهم ، وقَبَض عليهم ، وقَتَل أكثرهم ، وجعل مَنْ بقى منهم فى المراكز بالثغور (٣) .

وفى يومِ الجمعة لأربعٍ خلَوْن مِن شوّال من السّنة قَتَل العادل أبا المكرّم الموفّق محمّد بن معصوم التنّيسى ناظر الدّواوين ، وكان سبب ذلك أن العادل فى مبدأ أمره كان من صِبيان الحُجَر وكان يتكرر [دخوله] (٤) إلى الموفق برسائل ويكلّمه بكلامٍ غليظ ، فكرهه

(١) دلاص : من القرى المصرية القديمة ، على الضفة الغربية للنيل ، من أعمال البهنسا ، وهى حاليًّا تابعة لمركز بنى سويف بمحافظة بنى سويف ، القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٢) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ٤٢ ــ ١٤٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٩٦ ، كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٥٢ - ٥٥٣ ، الكامل جـ ١١ ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٣) المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٣ .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح من المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٩٩ .

الموفّق ، ثم كُتِب بعد ذَلك لابن السّلار منشورٌ بإقطاع ، فدخل به إليه ، فتغافَل عنه وأهمل أمره ؛ فقال له ابن السّلار : ما تسمع ؟ فقال : كلامُك ما يدخل فى أُذُنى أصْلاً . فأخذ ابن السّلار منشورَه وخرج مِنْ حيث أتى . فلمّا ولِىَ أمر الدّولة دخل عليه الموفّق وسلّم عليه ، فقال له : ما أظنّ كلامى يدْخُل فى أذنك . فتلجلج بين يديه وقال له : عفو السّلطان . فقال : قد استعملتُ للعفو مِنْ حين خروجى مِن عندك ، ما أتيتك به . وأشار لبَعض خدمه فأحضر مسمارًا من حَديد عظيم الهيئة[1] ، وقال : هذا والله أعدَدْته لك مِنْ ذلك الوقت . وضَرب المسمار فى أُذُنِه حتى نفذَ من الأخرى ، وحُمل إلى باب زويلة الأوسط ودُقّ المسمار فى خشبةٍ ، وعُلّق عليها وقد مات .

ذكر ما فعله الفرنج بالفرما
وما جهّزه العادل من الأسطول إلى بلادهم

وفى شهر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة أغار الفرنج على الفرما فنهبُوها وأحرقوها[2] وعادوا إلى بلادهم . فجهّز العادلُ المراكب الحربيّة وشحنَهَا بالرّجال وسَفَّرَها فى شهر ربيع الأول سنة ستّ وأربعين ، فمضت إلى يافا وقاتلوا مَنْ بها فى المراكب ، واستَوْلَوْا على عدَّةٍ كثيرةٍ من مراكب الفرنج ، وأحرقوا ما عجزُوا عن أَخْذه ، وقتلُوا خلقًا كثيرا . ثم امتدُّوا إلى ثغر عكّا وفعلوا فيه كَفِعْلِهم بيافا . وكذلك فعلُوا بصَيْدا وبَيْروت وطَرابلس . وأنكَوْا فى الفرنج نِكايةً عظيمة .

---

(١) « عظيم الحلقة » فى المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٣ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٠٠ .

(٢) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٤ .

ووجدُوا طائفةً كثيرة من حُجّاج الفرنج فقتلوهم عن آخرهم . وكان جملة ما أنفق فى هذا الأسطول ثلاثمائة ألف [١] دينار .

وفى سنة ستّ وأربعين قُطِعت جميعُ الكساوى المرتّبة لِـلأمراء والدّواوين عن أربابها ، وتوفّرت .

ذكر مقتل العَادل بن السّلار
وسَلطنة ربيبه عبّاس

كان مقتلُه فى السّادس من المحّرم سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة . وكان سببُ ذلك أن العادةً كانت جاريةً بتجريد عسكرٍ من مصر فى كلِّ سنة لِحفظ عَسقلان من الفرنج ، وكان الفرنج قد حاصُروها فى سنة سبعٍ وأربعين . فلمّا كان فى هذه السنة وقعت القُرْعة فى البَدَل على عبّاس رَبيب العادل ، وهو ابن يحيى بن تميم بن المعز بن بـاديس ، فجرّده العادل بالعساكر ، وقال له : هَذَا الثّغر قد نَازله الفرنج ، ولاغُنْيَة أن تتوجّه بالعساكر إليه لتدفَعَهم عنه . فخرج عباس من القاهرة ومعه جماعةٌ من أكابر الأمراء ، منهم أُسَامَةُ بن منقذ ، وكان خصيصا بعبّاس فلمّا وصلُوا إلى بلبيس تذَاكَر عبّاس وأسامة القاهرةَ وطِيب المُقام بها وماخرجا إليه ، وما يلْقَيَانِه من الشّدائد ولِقَاء العدوّ ؛ فتأوّه عبّاس لذلك ولام عمّه كونه جرَّده ، فقال له أسامة : لو أردت أنتَ كُنتَ سلطان مصر . قالَ : وكيف الحيلةُ فى ذلك ؟ فقال : هذا ولـدُك نَصر [٢]، بينَـه وبيْن الظّافر مودَّةٌ عظيمة ، فأرْسِله إليه وخاطِبْهُ على لِسَانـه أنْ تكونَ أنت

(١) المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٥ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٠٢ ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٥٤٤ ـ ٥٤٥ .

(٢)« ناصر الدين » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٠٤ .

السّلطان مكان عمّك ، فهو يختارُك ويكره العادل . فإن أجابك لذلك فاقتُل عمّك .

فجهّز عبّاس ابنَه وعرّفه ما تقرّر مع أسامة . فدَخل إلى القاهرة على حينِ غفلةٍ من العادل ؛ واجتمع بالظّافر وأعلمه الحال ؛ فأجاب لما طلب .

ثمّ مضى نصرٍ إلى عِند جدّته ، زوجةِ العادل (١) ، وأعلم العادل أنّ والدَه أعادهُ شفقـةً عليه من السّفـر . ومضى العادلُ إلى مصـر وجهّز المراكب الحربية ، وأنفق في رجالها ليلحق عبّاسًا ، وأقام طُول نهاره في العَرْض [٩٤] والنَّفقة على رجالها ، وعادَ إلى دارِه بالقاهرة وهُو على غايةٍ من التّعب . فلمّا نام على فراشه احتزّ نصْر بنُ عبّاس رأسه ، ومضى به إلى القصر ، ودخل إلى الظّافـر ، وجهّز إلى أبيـه ، فركب لوقته ؛ ودخل القاهرة صبيحَة نهارِ الأحد الثّاني عشر من المحّـرم ، فوجدَ جماعةً من الأتراك ، كان العادلُ قد اصْطَنعَهم لنفسه ، قد ثَارُوا لذَلك ، فلاطَفَهم وطمّنهم ؛ فلمْ يَطمئنوا . ومضَوْا إلى دمشق .

وكانت وزارةُ العادل ثلاث سنين ونصفَ سنة تقريبًا ؛ وكـان من الأكراد الزرزارية . ولمّا قُتل طِيف برأسه في القاهرة جميعًا . ونَصب الظّافر عبّاسًا في السّلطنة (٢) .

ذكر مقتل الظّافر بأعداء الله وأخويه

كـان مقتلُه في ليلة الخميس سلخ المحرّم سنـة تسـعٍ وأربعين وخمسمائة . وذلك أنه خرج ليلاً متنكّرًا ومعه خادمان وجاءَ إلى دار نَصْر

(١) هي السيدة بلارة بنت القاسم ـ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٠٥ .

(٢) المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٧ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ، اخبار الدول المنقطعة ص ١٠٣ .

ابن عبّاس ، وهى الدّار المعروفة قديمًا بدار جبر بن القاسم ثم عُرفت بسكن المأمون بن البطائحى ، وهى المدرسةُ المعروفة بالسُّيُوفيّة [١] فى وقتنا هذا ، المقابلة لحافر الدبابله . بخُط سُوق السُّيُوفيين بالقاهرة وهى لطائفة الفقهاء الحنفّية . فلمّا جاء الظّافر إليه قتله نصْرُ بن عبّاس ، وحَفَر له تحت لوحٍ رخامٍ ودفنه [٢] ، وقتل أحد الخادمين وهرب الآخر .

وكان سببُ ذلك أنّ الأمراء استوحشوا من أُسَامة بن منقد لمّا حَسَّن لعبّاسٍ قتل عمّه العادل ، وقَصَدُوا قَتْل أسامة . فلمّا علم بذلك اجتمع بعبّاسٍ وقال له : كيف تصبرُ على ما يقولُه النّاس فى ولدك واتّهامِهم أنّ الخليفة الظّافر يفعلُ به ما يفعلُه مع النساء ! فعظُم ذلك على عبّاس . وقيل بل كان الظّافر قد أنْعم على نصْر بن عبّاس بقليوب ، فجاء نَصرٌ إلى والدِه وأعلمه بذلك ، فقال له أُسَامَة : ما هى بمهرك غالية . فقال عبّاس لأُسَامة : كيف تكونُ الحِيلة على هذا الأمر ؟ فقال : إنّ الخليَفة فى كلّ وقتٍ يأتى لولدك فى هذه الدّار خِفْية ، فإذا أتاه فأْمُرْه بقَتْله . فأوصى عبّاسٌ ابنَه بذلك ؛ فلما جاءَه قتله نصر [٣] .

قال : ولمّا كان صبيحةَ يومِ قَتْلِه ركِب عبَّاسٌ وولدُه على العادَة وأتى إلى القصر ؛ فقال لِبعَض الخدم : أَعْلِم مولانا لِيجْلسَ للاجتماع معه .

(١) المدرسة السيوفية بالقاهرة : وقفها السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦ م ، وعرفت بالسيوفية لكون سوق السيوفيين كان على بابها ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) « ودفنه فى الباذهنج بدار المأمونى بالسيوفيين » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٦٤ .
« ورمى الكل فى جب عنده وغطى رأس الجب بقطعة رخام بيضاء ، فصارت من جملة رخام المجلس » ــ أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٥ .

(٣) انظر المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٧ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٠٨ ، المواعظ والاعتبار ص ٢٠ .

فدخل وأَعْلَم أهل القصر بما التمسهُ عبّـاس من الاجتماع بـالخليفة . فقالوا : قل له إنّه خرج البارِحَة ولم يَعُدْ . فجاء الخادمُ إليه وأعلَمه الخبرَ ؛ فشدَّدَ عبَّاسٌ فى طَلَب الظّافر ، ودخل إلى القاعات ومعه أكابرُ الخدم ، وقال : لا بُدَّ مِنْ مولانا . فقيل له عند دلك : أنْت أعلمُ بحاله . فأحضر أخويْه يوسف وجبريل وقال لهما : أنتما قتلتُما مَولانا . فأنكرَا ذلك وحَلَفا عليه الأَيمان المغلَّظة . وأَحْضر القاضى وجماعةً من الأعيان أهل الفتيـا وداعى الدّعاة وقال : قد صحَّ عندى أنّ أخَوَىْ الظّافر قتلاه . فأَفْتَوه بقتلهما ؛ فقُتلابين يديه وقيل إنّـه قَتَل معهـما أبا البقـاء ابن حسن بن الحافظ ، وصارم الدّولة ، مُصْلِح ، زمام القصر[١]

قال : وكان الظافرُ مِن أحسن خَلْق الله وجهًا . وكان مـولدُه يـوم الأحد ، النّصف من شهر ربيع الآخر[٢] سنة سبعٍ وعشرين وخمسمائة ؛ فكانت مدَّة عمره إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوما ؛ ومدّة ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وخمسة أيام[٣]

ولده : أبو القاسم عيسى .

وزراؤه : تقدّم ذكرهم .

قضاته : أبو الفضائل يونس ، إلى أن صرفه العادل بن السّلار فى سنة سبعٍ وأربعين ؛ ووَلَّى أبا المعالى مجلى[٤] بن نجا المخزومى ، فأقام إلى آخر الدّولة .

---

(١) المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٨ ، أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٦ .

(٢) « فى المحرم » كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٥٧ .

(٣) المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٩ ، أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٦ .

(٤) هو مجلى بن جميع بن نجا ، القرشى المخزومى ، القاضى أبو المعالى ، صاحب الذخائر ، المتوفى سنة ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م ــ وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٥٤ رقم ٥٥٦ .

ذكر بيعة الفائز بنصر الله

هو أبو القاسم عيسى بن الظّافر بأعداء الله ؛ وهو الثالث عشر من ملوك الدّولة العُبَيديّة والعاشر من ملوك الدّيار المصرية منهم . بُويع له بعْدَ مقتل والده فى يوم الخميس سلخ المحرّم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وعمرُه خمس سنين . وذلك أنّه لما قُتل الظّافر استدعى عبَّاسٌ ابنَه أبا القاسم عِيسى هذا وحَمله على كَتِفه ، ووقف فى القاعة ، وأمر أنْ تدخُل الأمراء ، فدخلوا ؛ فقال : هذا ولدُ موَلاكم وقد قتل أبُـوه وعَمّاهُ كـما تَرَوْن ، والواجبُ الطّاعَةُ لهذا الطفل . فقالُوا بأجمعهم : سمعنا وأطعنا ؛ وصاحوا صيحةً عظيمة زَلّ منها عقلُ الصّبى واختل . ثمّ سيَّره [٩٥] إلى إمّه ولُقّب بالفائز ؛ فأقام يُصْرع فى كلّ يوم[١] .

وانفرد عبّاسٌ بالوزارة وبتدبير الأمور ، ولم يَبْق على يدِهِ يَد ، وظنَّ أن الأمر استقام له .

ذكر خروج عبّاس من الوزارة وما آل إليه أمره

قال المؤرخ : لما قُتل الظّافرُ بأعداء الله أكثَر أهـلُ القصر النُّـوَاح عليه ، وشرعوا فى إعمال الحيلة على عبّاس ، ووافَقَ ذلك نُفور الأمراءِ منه لإقْدامِه على القَتْل : فاختلفَت الكلمةُ عليه ، وهـاجت العَساكـر . وتفرّقت الفرق ، ولبسُوا السِّلاح . فخرجَ إليهم عبَّاس فى يوم الاثنين عاشر شهر رَبيع الأول من السنة ، فقاتلهُم وهزمَهم ، وقتل جماعةً منهم .

---

(١) « وكان واليًا على الأشمونين والبهنسا » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢١٥ .

فأرْسلت عمّةُ الفائز أخت الظّافر شعورَ أهل القصرطيّ الكتُب إلى الأمير طلائع ابن رُزّيك ، وهو إذ ذاك متولّى الأعمال السُّيوطية ، وقيل كان متولّى مُنية بنى خَصيب[1] ، وسألوهُ الانْتصَار لمَوْلاه فجمع العُربان والأجناد ومُقْطعى البلاد ، وسار إلى القاهرة ، فوصل إليها فى تاسع عَشر شهْر ربيع الأول من السَّنة ، وخرج النَّاسُ للقائه .

فاستشار عبّاس أسامةَ بن مُنقد فأشار عليه باللّحاق بالشّام . فدخل إلى القَصر وأخذ فى [جَمْع][2] تُحفه وحَمْل أمواله ، وسار هُو وأسَامة بنُ منقذ إلى الشّام على طريق أيلة . فأرسلت عمّة الفائز إلى الفرنج بعَسْقلان رُسُلاً على البريد تُعْلِمُهم الحال وتَبذل لهم الأموال فى الخُروج عَلَى عبّاس وأخْذِ ما معه . فخرجُوا إليه وقاتَلوه ، فتخاذَلَ عنه أصحابُه ، ونهبُوا ما معه فأسره الفرنج وحملُوه إلى عسقلان ؛ ونَجَا أسامة إلى دمشق[3] .

وقيل إن الفرنج قتلوا عبَّاسًا وأسرُوا ابنَه نصرًا ففدَاه الصّالح بنُ رزّيك ، وأحضرَهُ إلى القاهرة وضرب عُنُقَه .

ذكر وزارة الصّالح أبى الغارات طلائع بن رُزيك

قال المؤرخ : لمّا توجَّه عبّاس نحو الشّام وافق ذلك قدومَ طلائع بن رزيك ، فخرج الأُمراء والعساكر إليه . فمن الأُمَراء مَنْ شَهر سلاحَهُ

---

(١) منية بنى خصيب : هى مدينة المنيا الحالية ، قاعدة محافظة المنيا وتنسب إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل هارون الرشيد ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح .

(٣) أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٩ ، وانظر ما جاء بكنز الدرر جـ ٦ ص ٥٦٧ ، وانظر المواعظ والاعتبار ص ٢٣ - ٢٧ .

وقاتَله ، ومنهُم من التَحق به ؛ ثم انْجَلى الأمرُ بعد ساعةٍ عن دُخُول طلائع إلى القاهرة والعساكرُ بين يَدَيه - وشقَّ القاهـرة وهو لابسُ السَّـواد ، وأعلامُه سُودٌ كذلك حُزْنًا على الظَّافر ، وشعورُ نساء القصر التى سُيِّرت إليه على الرِّماح[(١)].

ونَزَل طلائع دارَ المأُمون الّتى كان بها نَصْر بن عبّاس ، وأحضر الخادم الذى كان مَع الظَّافر لمّا قُتل وأعلمهم بمكانه ، فأُخْرِج وغُسِّل وكُفِّن ، وحُمِل فى تابُوتٍ على أعناق الأمراء والأُستاذين ، وابنُ رزّيك يمشى أمام التّابوت . وأَتَوْا به إلى القَصْرفصَلَّى عليه ابنُه الفـائز ودُفِن فى تُـربَتهم بالقَصر وجَلَس الفائز فى بقيَّة النَّهار ، وخَلَع على ابن رُزّيك بـالموشّـح والعِقد ، وعلى ولَده وإخوتِه وحاشيته ، وقُرِئ سجلُّه[(٢)] بالوزارة ، ونُعِت بالملك الصَّالح . وقَبَض على جماعةٍ من الأُمراء وقَتَلهم ، فى ثالث عِشْرى شهر ربيع الأول من السنة

وفى سنـة خمسين وخَمسمـائـة خـرج الأمـير تميم[(٣)] ، متـولِّى إخميم وأسيوط ، على الصّالِح ، وجمَع جمعًا صالحا[(٤)] ، فأخرج إليه الصّالـح عسكرًا ، فالتقَوْا واقتتلوا ، فقُتل تميم فى سَابع عشر رَجب .

وفى سنة اثنتين وخـمْسِين وخَمسمائة انفسَخت الـهُدنة بين الصَّالح بن رُزّيك والفرنج ، فجهّز الصَّالح الجيُـوش والسَّرايـا إلى بلاد الفـرنج . فوصَلَت سريَّةٌ إلى عسقلان وغَنِمَت وعادت سالمة . وجهَّز المـراكب فى

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ١٠٩ ، المنتقى من أخبار مصر ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢١٧ ــ ٢١٨ .

(٢) انظر نص هذا السجل فى حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٠٥ ــ ٢١٤ ، مجموعة الوثـائق الفاطمية ص ٣٣٧ ــ ٣٥٠ ، وجاءت مقتطفات منه فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢١٨ ــ ٢١٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣١١ .

(٣) « الأوحد بن تميم » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٢٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣١٢ .

(٤) « جمعا موفورا » فى المنتقى من أخبار مصر ١٥٤ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٢٤ .

البَحر إلى نحو بيروت ، فأوْقعَت بمراكب الفرنج . وجهَّز سريَّةً إلى جهة الشَّوْبَك(١) فعَاثُوا فى تلك النّواحى ، وعادُوا سالمين بالغنائم والأسرى .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى الحجَّة سنة اثنتين وخمسين قبض الصّالح ابن رُزّيك على الأمير ناصر الدَّوْلة ياقوت وأولاده واعتقلهم ؛ وسبَبُ ذلك أنّه بلغه أنّه كاتَب أختَ الظّافر وقصَد القيام على الصّالح ، وكان واليًا عاملاً على الأعمال القُوصيّة ، وهُوَ بالقاهرة . ولم يَزَل فى حبْسه إلى أنْ توفى فى شهْرِ رجب سَنَة ثلاث وخمسين .

وفى سنة أربعٍ وخمسين ثارَ على الصَّالح طَرْخانُ بن سَليط بن ظَريف ، متولّى الإسكَندريَّة ، وجمَع جُموعًا من العُربان وغيرها ؛ وتقدَّم بها لحربه ؛ فنَدَب الصَّالح إليه الأميرَ عزّ الدّين حُسَام بن فِضّة بعسكر ، فالتقَوْا واقتتلوا ، فهَزَم حُسام جيُوشَه وظَفِر به ؛ فاعتَقَله الصّالح .

فلمّا كان فى المحرَّم سنة خمس وخمسين ثارَ أخوه إسمَاعيل طلبًا لِثأره ، وتلقَّب بالْـمَلك الهادى ؛ فنَـدب الصَّالـح [٩٦] إليه الجيُـوش . فلمّا هجمت عليه هرب وأتَى الجيزة ، واستَتَر عنْد بَعْض العُربان . فلمّا كان فى يَوْم الثلاثاء رابع شهـر ربيع الآخـر هرب طَـرْخَان من الاعتقـال هُو والـمُوكلُ بِهِ ، فقُبض عليه فى السّادس من الشهر وصُلِب عـلى باب زَويلة ، ورُمِى بالنَشّاب ، ثم مُسِك أخوه إسماعيل وصُلِب إلى جانبه بعد ضَرْب عنقه(٢) .

وفى سنة أربعٍ وخمسين بنَى الصَّالـح حِصْنا من اللبن عـلى مدينـة بلبيس(٣) .

---

(١) الشوبك : قلعة حصينة جنوب البحر الميت ، على الطريق بين مصر والشام ـ معجم البلدان .

(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٣٦ ، ٢٣٨ .

(٣) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٣٦ .

ذكر وفاة الفائز بنَصْر الله

كانت وفاتُه فى لَيْلة الجُمُعَة السّابعِ عشـر من شهر رجب سنـة خمس وخمسين وخمسمائة ؛ وقيل للَيْلةٍ بقيت منه ؛ وكان مولدُه فى يـوم الجمعةً لِتسعٍ بقِينَ من المحرّم سنة أربعٍ وأربعين ، فكان عمره إحدى عشرة سنةً وستّةً أشهر وأيّامًا ، ومدّة ولايتِه ستّ سنين وخمسة أشهر وسبعة عشـر يوماً(١) .

وزراؤه : الأفضل عبّاس بن يحيى بن تميم ؛ ثم الصّالح طـلائع بن رُزّيك .

قضاته : أبو المَعالى مجلّى بن نجا القرشى المخزوميّ ؛ ثمّ صُرِف فى أوّل وزارة الصّالح ، وأعيد أبو الفضائل يونُس ؛ ثم صُرِف بالقاضى المفضَّل أبى القاسم هبة الله بن كامل .

ذكر بيعة العاضد لدين الله

هو أبو محمد عبد الله بن يُوسف ، بن الحافظ عبد المَجيد ، بن محمد ، ابن المستنصر بالله أبى تميم معدّ ، بن الظّاهر لإعزاز دين الله أبى هاشم على ، بن الحاكم بأمر الله أبى على المنصور [بن العزيز بالله](٢)نزار ، بن المعزّ لدين الله أبى تميم معدّ ، بن المنصُور بنصْر الله أبى طاهر إسماعيل ، ابن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد ، بن المهديّ عُبَيد الله . وهو الرابع عشر من ملوك الدولة العُبَيدية ، والحادى عشر من مُلوك الديار المصرية

(١) أخبار الدول المنقطعة ص ١٠٩ .

وورد أن مدة ولايته « ست سنين وستة أشهر وسبعة عشر يومًا » فى كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٦٦ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح .

منهم ؛ وعليه انقرضت دولتُهم . بُويعَ له بعد وَفاة الفائز بنصر الله فى يوم الجمعة السّابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وكان الملك الصّالح طلائع قَصَد أن يُبايع لِشخص من أقارب العاضد ، فقال له بعض أصحابه لا يكنْ عبّاس أحزمَ منكَ حيثُ اختار صغيرًا وتَرك من هو أسَنّ منه ، واستبَدَّ هو بالأمر . فعَدل الصّالح إلى العاضد ، وبايَع له وهُوَ مراهق البلوغ ؛ فكانت الخلافةُ للعاضِد اسمًا وللصّالح رسمًا[1] .

ويوسُف أبو العاضد هو أحد الأخوين[2] اللذين قَتَلها عبّاس بعد قتل الظافر .

وفى سنة ستٍّ وخمسين تزوَّج العاضدُ لِدين الله بابنة الملك الصّالح بن رُزِّيك ؛ وكان العاضِدُ توقَّف عن زواجها ، فجبَرَه الصّالح على ذلك واعتقله إلى أن تزوَّجها ؛ وقَصَد بذلك أن يُرْزَق العاضدُ منها ولدًا فتحصُلَ الخلافةُ والْـمُلْك لبنى رُزّيك ، فجاء بخلاف ما قصد[3] .

---

(١) « للعاضد رسمًا ولطلائع حسمًا » فى أخبار الدول المنقطعة ص ١١١ ، « وكانت خلافته اسمًا له ، وجسمًا ورسمًا للصالح بن رزيك » كنز الدرر جـ ٧ ص ١٣ .

(٢) « الأبوين » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والأحداث السابقة .

(٣) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٤٦ ، الكامل جـ ١١ ص ٢٥٥ .

ذكر مقتل الملك الصّالح طلائع بن رُزّيك وقيام ولده الملك العادل رُزّيك

كان مقتلُه فى السّابع عشَر من شهر رَمَضان سنة ستٍّ وخمسين وخمسمائة . وذلك أنّه ركب فى هذا اليوم مِنْ دار الوزارة إلى القصر ، وجَلَس على مرتَبته على عَادته ؛ فلمّا انقضى المجلس خَرج ؛ فبيَنْما هو فى دهاليز القَصْر وثبَ عليه جماعةٌ فضربُوه بالسّكاكين عِدّة ضربات مهلكة . وكان سببُ ذلك أنّه تحكَّم فى الدّولة لخلُوّها من الأمراء وصِغَر سِنّ العاضد ، وكان قد فرَّق الأمراءَ وقتَلَ بعضهُم ؛ فبعَثت ستّ القُصور عمَّة العاضد الأموالَ إلى بَعض الأمراء وأغرَتْهم به ، فرتبوا ذلك . قال : ولمَّا ضُرب بالسّكاكين ألقى ابن الزُّبد نفسه عليه وقَاتل دُونَه ودخَل بقيَّةُ الأمراء فخلَّصُوه فركِبَ وبه بَعْض رَمق . فلمّا رأتْه ستُّ القُصور وقَدْ ركب أيْقَنَت بالهلاك . قال : ولمَّا استقرّ فى منزله أرْسل إلى العَاضِد يعاتِبُه على مَا كانَ مِنْه ، فحَلَف وأنكر أن يكون اطَّلع [1] علَى هذا الأمر قبْل وُقوعه فأرسل إليه أن يَبْعثَ إليه عمَّته ستّ القُصور ، فتوقَّف العاضِدُ عن ذلك ، فأرسَل الصّالح إلى [ست][2] القصور وأخرجها ؛ فلَما جاءت إلى منزله أمر [٩٧] بخَنْقها ، فخُنِقَت بين يديه حتّى ماتت . ومات الصّالح فى بقيّةِ لَيْلته .

قال : وكان الصّالح شديد التَّشيُّع متُغَاليًا فى مذهب الإمَاميّة ؛ وكانَ يكره أهْلَ السُّنّة . وقيل إنَّه كان يَسبُّ الصّحابة ، رضى الله عنهم ،

---

(١) « أن يكون الخلع على هذا » فى الأصل ، وهوتحريف ، والتصحيح يتفق والسياق ، انظر الكامل جـ ١١ ص ٢٧٤ .

(٢) [ ] إضافة تتفق والسياق ، وانظر الكامل جـ ١١ ص ٢٧٤ .

وغضب على مَن يتنقَّصهم . وكان فيه بُخْلٌ وحَسَد . ومَنع فى أيّامِهِ من بَيْع الغلال حتى غَلَت الأسعار . وكان كثيرَ التَّطلُّع إلى ما فى أيدى النّاس ، وصادَرَ جماعةً ليس لهم تعلُّقٌ بالدَّولة وأفنى الأمراء قتلاً واعتقالا . وهو أوَّلُ من خُوطِب بالـمَلك فى الدِّيار المصْريّة [١] .

وقال ابن الحباب فى سيرته : إنّه من وَلَدِ جَبَلة بن الأيهم الغسّانى الذى ارْتَدَّ عن الإسْلام فى خِلافة عُمر بن الخطّاب رضى الله عنه . قال المؤرخ : وكان والدُ الصّالح يُسمى أسَد رُزّيك ، قَدِم مع أمير الجُيوش بدر الجمالى .

قال : وكان الصَّالح مع ذلك حازِمًا ضابطًا لأمُور دَوْلته شاعرًا أديبًا . قال القاضى الأرشد عُمارة اليمنى[٢] : دخَلْتُ على الصَّالح قبل وفاته بليلتين فَنَاوَلَنى رُقْعَةً وَقَال : قدْ عَمِلت هذين البيْتين فى هذه السّاعة ؛ فإذا فيها :

نحْنُ فى غَفْلَةٍ ونَومٍ ولِلْمَو ... تِ عُيُون يقْظَانَـةٌ لا تَنَــام

قَدْ رَحَلْنا إلى الحِمَامِ سنِينًا ... لَيْتَ شِعْرى ! متَى يكونُ الحِمَام !!

---

(١) يذكر المقريزى أن « أول من لقب بالملك منهم مضافًا إلى بقية الألقاب رضوان بن ولخشى عندما وزر للحافظ لدين الله ، فقيل له السيد الأجل الملك الأفضل ، وذلك فى سنة ثلاثين وخمسمائة » ـ المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٤٠ ، ثم أكد ذلك فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ١٦١ ، ثم عاد المقريزى وذكر فى حديثه عن الصالح طلائع بن رزيك « وهو أول من خوطب بالملك فى ديار مصر ونعت به » اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢١٨ ، ٢٥١ ،
ولم يرد فى السجل الخاص برضوان بن ولخشى لقب ملك ـــ انظر صبح الأعشى جـ ٨ ص ٣٤٢ ـ ٣٤٦ ، مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٣٢٦ ـ ٣٣٣ .

(٢) هو أبو الحسن نجم الدين عمارة اليمنى ، المتوفى سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م ، وصاحب كتاب النكت العصرية ص ٤٨ ـ ٤٩ .

فقلت : هما صَالِحان ، وقُمت ، فكان آخر عهدى به[١] .

قال المؤرخ : وكان الصَّالح يقطَعُ اللَّيل أثلاثا : فـالثُّلُث الأوّل مع أمراءِ دَوْلته ووجُوهِها ؛ والثُّلث الثّانى مع جُلَسائه ونُدَمائـه وشعرائـه ؛ والثُّلث الثالث مع خواصِّ نسائه . فكان يُسَمَّى : أبو العمرين قالوا : وكذلك كان أمير الجيوش بدر الجمالى :

ومن شعر الصّالح قوله :

يـا مريضَ القَلْب بـالذّنْـ ـبِ ، متى بـالعَفْـو تَبْـرَا
كلَّمـا جَـدَّدْت يـومًـا تـَـوْبـةً ضيَّعْت أُخْـرى
تشْتهى الأجْـرَ ولاَ تفْـ ـعـلُ مـا يُكسِبُ اجْـرا
أتــرى بَعْـد ذَهــاب الْـ ـعُمــر تَسْتـأنفُ عُمْــرا

وقوله :

يَـا ماشِيًـا فـوق الثَّـرى رِفْقًا ، فَسَوفَ تصيرُ تَحْتَه
إنْ قُلْتَ إنّى أعْـرِفُ الْـ ـمَوْلَى الْقَدير ، فَمَا عَرَفْتَه
أنْ كُنْت تَعْبُـد لِلمَــخَـا فةِ والرَّجاء ، فَمَا عَبَدْتَه[٢]

والصَّالح هُو الذى بنى الجامع[٣] خارِجَ بابِ زَويلة المعروف به . وكانَ يقول : نَدِمْتُ على ثلاثةٍ : أحدُها أننى بنيتَ الجامع بظَاهر القاهرة وجَعَلتُه عونًا على باب زَويلة فيضرّها وقت الحصار ؛ والأخرى تَوْلِيَتى شاوَر أعمال الصَّعيد ، والله لا كَانَ خرابُ دَوْلةِ بنى رُزّيك إلا على يديه ؛

---

(١) النكت العصرية ص ٤٨ ـ ٤٩ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٥٢ ، الكامل جـ ١١ ص ٢٧٦ .

(٢) انظر النكت العصرية ص ٤٨ .

(٣) عن جامع الصالح : انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٩٣ .

والثّالِثة أنّنى أنفَقت فى العسـاكر مـائتى ألْف دينار لِأجْـل فتْح بيت المقدس فتأخّرت عن ذلك [١] .

قال : ولمّا توفى دُفِن بدَار الوزارة ثمَّ نُقل إلى تربته الّتى بقَرافَة مصر .

قال : ولمّا حضَرته الوفاة أحْضَر ولدَه رُزّيك وأوْصاه بوَصايا كثيرة ، من جُمْلتها أنّه لا يَعْزل شاوَر ولا يغيّر عليه مُغيَّرا .

قال : ورثَاه الشّعراء بقصائدَ كثيرة ، فيها ما قاله القـاضى الأرشد عمارة اليمنى :

أفى أهْل ذَا النَّادى عليمٌ أُسَائِلُه ... فإنّى لِما بى ، ذاهبُ العَقْل ذَاهِلُه [٢]

سمعْتُ حديثًا أحْسُد الصُّمّ عِنده ... ويُذْهَل وَاعِيهِ ، ويَخرس قائِلُه

ومنها :

وقَد رَابَنى مِنْ شَاهِد الحْاَل أنّنى ... أرى الدَّسْت منصوبًا ومَا فِيه كافِلُه

وأنّى أرَى فوْقَ الوُجُوهِ كآبَةً ... تَدُلّ على أنّ النُّفُوسَ ثوَاكِلُه

دَعُونى . فمَا هَذَا أوَان بُكائه [٣] ... سيَاتِيكُمُ طَلّ البُكَاءِ وَوَابِلُه

وهى قصيدة طويلة أتى فيها بكل عجيب

قال : ولمّا مَاتَ الصَّالحُ خَرجَت الخِلَع من القصر لوَلَـدِه ، وتلَقَّب بالملك العَادل مجد الإسلام [٤]

---

(١) أخبار الدول المنقطعة ص ١١٢ .

(٢) « ذاهب اللب ذاهله » فى الروضتين جـ ١ ص ٣١٣ ، النكت العصرية ص ٥٠ ، كنز الدرر جـ ٧ ص ١٨ .

(٣) « فما هذا وقت بكائه » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٥٢ .

(٤) أخبار الدول المنقطعة ص ١١٢ .

[٩٨] ذكر ظهور حُسَين بن نزار وقتله

وفى شهر رَمضان سنةَ سبعٍ وخمسين وخمسمـائة وَرَد حُسين بن نزار ، بن المستنصر بالله ابن الظّاهر لإعزاز دين الله مِن بلاد المغرب ، وقد جَمَع جمعًا عظيمًا وتلقب بالْمُنْتَصر بالله ؛ فخرج إليه الأميـر عزّ الدين حُسام بن فضّة ابن رُزّيك على صورة الانضمام إليه واللّحاق به . فلمّا صار عنده فى خَيمَته غَدَر به وقَتَله ، وحَمَل رأسه إلى العَاضد لدين الله .

وفيها بنى الأمير أبو الأشبال ضـرغام البُـرج المعروف بـه بثَغْر الإسكندرية .

ذكر انقراض دولة بنى رزيك

قد ذكرنا أن الملك الصَّالح بن رُزّيك ، والدَ العادل ، لمَّا حَضَرتْـه الوفَاة أوصى ابنَه العادل بوصَايا كثيرةً منها أنّه لا يعزلُ شاوَر من عمله ولا يحرّكه ؛ وحذَّرَه من ذلك فلمّا كان فى سنة سبعٍ وخمسين اجتمع أَقَاربُ العادل وحسَّنُوا له عَزْل شاوَر عن ولاية الصعيد ، فذكَّرَهُم بوصيَّة أبيه ، فأصروا على عزله ، وكان أشدّهم فى ذلك الأمير عزّ الدّين حُسام ابن فضّة ، فألزم العادل إلى أن كتب كتابًا يسْتَدعى فيه شاوَر ويأمُره بالحضور إلى القاهرة فكتب إليه شاوَر يستعطِفُه ويُظْهر الطّاعة والإدْلال لِسَابق الخِدْمة لأبيه ، ومُنَاصَحته فى القيام بأُمور الدّولة ، ثمّ قال فيه إنْ كان القصدُ أن يلىَ الأعمال أحدُكم فلْيُرسل السّلطان من يتسلّمها غير عزّ الدين حسام ؛ وإن كان غيرُكم من الأمراء فأنا أحق به مِنْ سواكم ؛ وقد سمعتم وصيَّة أبيكم الصّالح فى حقّى وما كرَّره عليكم فى أمْرى

وإقرار أعمال الصّعيد فى يدى . وأرسل الكتاب إلى العَادل ، فوقَفَ عليه ، وأوقف عليه أقاربه وأهله . فقالُوا : إنْ أبْقَيته طَمع فى البلاد ولا يحملُ إليك مالاً . فقال العادل لهم : المصلحةُ تركُه . فصمَّموا على عزله .

فأحضر العادلُ نصير الدّين شيخ الدّولة ، وهو من أقاربه ، وخَلَع عليه وولاّه الأعمال القوصيَّة ، وكتب على يده إلى شاوَر بتسليم الأعمال إليه ووُصوله إلى القاهرة . وتوجَّه نصير الدّين . فلمّا وصل إلى إخميم أقام بها وأرسل الكتاب إلى شاوَر طَىَّ كتابه ؛ فلمّا وقف شاوَر على الكتاب أرْسل إلى نصير الدّين رسولاً من جهته برسالة يقولُ له : إنّ بينى وبينك صُحْبة ولا تغترّ بقَول حُسام ، وارجع من حيث أتيت فهو خير لك . فرجَع نصيرُ الدّين إلى القاهرة ولم يُعاوِدْه .

وأظهر شاوَر العصيان على الدّولة ، وأحضر جماعةً من العُربان من بنى شيْبان وغيرهم ، وتوجَّه من الأعمال القوصية ، وجَعَل طريقه على الواحات ، وخرج منها إلى تروجة ، وحشد العُربان وأنفق فيهم الأموال ؛ فوافقُوه وأنْطاعُوا له ؛ فسار بهم نحو القاهرة . فنَدَب العادلُ لحَرْبه سيف الدّين حُسَينًا ، صهره ، ومعه جماعةٌ من الأمراء . فَرَاسلَهم شاور واستمالَهم ، وبذل لهم الأموالَ الجمّة ، فمالُوا إليه فلمّا التقوْا انحازُوا إلى جماعَتِهِ وفارقوا مُقدَّمَهم ، فانْهزَم حُسَين واستجار بظَريف ابن مكْنُون أمير جذام فأجَارَه ، وحَملَه فى البحر ؛ فمضى إلى مدينة الرَّسُول ﷺ فمات هُناك فنَدب إليه العَادل عزّ الدّين حُسامًا ، فانْهزَم منه أيضا .

فعِنْد ذَلك خرج العَادِلُ من القَاهرة وتوجّه إلى إطْفِيح ، واستصحب أهله وذخائرهُ . واستجار بسُلَيمان بن الفَيض اللّخمى ، وكان من

أصحاب أبيه الصَّالح ، فأنزله عنده ؛ ومضى مِنْ وقته إلى شاوَر وأخبره بخبَر العادل ، فندَب إليه جماعةً فأخذُوه أسيرًا هو ومن معـه ، ونهَب أصحابُ ابن الفيض ما كان مَعَه . وحُمِل إلى شاوَر فوصل إليه فى لَيْلة الجمُعة لِثلاثٍ بقينَ من المحرَّم سنةَ ثمانٍ وخمسين وخمسمائة فأمَر شاوَر باعتقاله ؛ وقالَ لسليمان بن الفيض : لقَدْ خَبأك الصَّالح ذخيرةً لَولَده حين استجارَ بك فأسْلَمته لى ، وأنا أخْبئك ذخيرةً لولدى . ثمَّ أمَر به فشُنق . وسُمِّيت فرقة ابن الفيض غمازة من ذلك اليوم ، فهى تعرف الآن بهذا الاسم . فكانت أيام العادل سنةً واحدة وثلاثة أشْهر وأيَّامًا . وجَميعُ دَوْلَة بنى رُزِّيك تسعُ سنين تقريبا .

[٩٩] ذكر وزارة شاور الأولى وخروجه منها

كانت وزارتُه فى يـوم الأَحَد لثمـانٍ بقِينَ من المحرَّم سنـةَ ثمانٍ وخمسين وخمسمائة . وذلك أنَّه لما انْهزَمت جُيوش العَادل بن رُزِّيك وهرب هُوَ إلى إطْفِيح خَلَت القاهرة منهم ؛ فَدخَلها شاوَر ، وحضَر بين يَدَىْ الخليفة العَاضد لِدين الله ، فخَلع عليه خِلَع الوزارة ، وسَلْطَنَه ، ولقَّبه بأمير الجُيوش . وأطْلقَ شاور لِأهل القُصور الإِطْلاقاتِ الكثيرة ، وزادَهُم على مقرَّراتهم فى أيَّام بنى رُزِّيك واستدعى أمْوَالَ بنى رُزِّيك وودائِعَهُم . وبَسَط العَدْل أيَّامًا ، ثم شرع فى ظُلْم النَّاس ؛ وبَسَط يدَه ويدَ أوْلادِه فى الدَّولة ؛ وقَطَع أرزاق الأمراء وَالجُند واستخفَّ بهم وبالعَاضد . وعَتَا ولدُه الكَامل وتجبَّر ، ولبَس رداء الكِبْر ، وبذخ فى الأموال ، وصَرَفها فى غير وجُوه مصارفها [١] .

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٥٩ ، الكامل جـ ١١ ص ٢٩١ ، كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٥ .

وسَاءَتْ سيرتُه فى الأمراء فأجمعوا على إخراج العَادل من الاعْتقَال ونَصْبه فى الوزارة . فاتَّصل ذلك بالكَامل بن شَاور ؛ فأ شارَ على أبيه بقَتْل العادل ، فامْتنَع مِن ذلك وقَال : إنّه أوْلانى خيرًا فلا أقتُله ، فقَتَله الكاملُ من غير إذْنِ أبيه . فعظُم ذَلك على شَاوَر وعلى الأُمَراء ، وغَضب الأمراءُ لقَتْل العادِل ، وخرَجُوا عن شاوَر ، وافترقوا على فرقتين : فكان الضّرغام وإخوتُه وأهْلُه فرقة ، والظَّهير عزّ الدين مرتفع وعين الزّمان وابن الزّبْد فرقة .

وَكان الضّرغام ومَنْ معهُ أظهَر الفرقتين . فخرج على شاوَر وحَارَبه ، فجمع شاوَر أموالَه وذَخائِره وغِلْمَانه ، وخرجَ ليلاً من القاهرة ، فرَكِب الضّرغامُ فى إثْرِه فلَحِقَه عند باب النصر ؛ فقاتَله طىُّ بن شاوَر ، فقُتِل طىّ ، وأُسر أخوه الكَامِل ؛ ومضَى شاوَر إلى الشّام . وذلك فى صبيحة يوم الجمُعَة ، لثَلاثٍ بقِينَ من شَهر رمضان من السّنة . فكانت وزارته ثمانيَة أشهر وخمسةَ أيّام [١] . والله أعلم .

ذكر وزارة الضّرغام بن سوار

قال : ولمّا توجَّه شاوَر إلى الشَّام عاد الضّرغام إلى القَصر وأرسل إلى العاضد بما كان من أمر شاور ، ومضى إلى دَاره بقيَّة ليلَتِه . وجـاء إلى القُصور من بُكرة النَّهار ، فاستَدْعاه العاضِدُ لِدين الله ، وولّاه الوزارة ، ولقّبه بالملك المنصُور ، واستحلف له الأمراء .

---

(١) « فكانت وزارته تسعة أشهر » اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٦١ .

وأرسل علم المُلْك بن النحاس إلى الملك العَادل نُور الدّين محمود بن زَنكى ، صاحب الشّام ، يقبض على شاور . فأظهر نور الدّين الإجابَةَ لذلك ، وباطِنُه بخلاف ظاهِره (١) .

قال : ولَمّا ولى الضّرغام الوزارة خرجَ عليه الأمير على بن الحَوّاص ، فظَفِر به الضّرغام ، فأشهره بالقاهرة ، وصلبه . وأحْضر جماعةً من الأمراء إلى دَارِهِ لِدَعوةٍ عملها ، فلما حضَرُوا إليه قَبَض عليهم وقتلهم (٢) .

ذكر قدُوم شاوَر مِنَ الشّام وعوْدُه إلى الوزارة ثانيًا وقَتْل الضّرغام

كان قدومُه فى جُمادى الآخرة سنة تسعٍ وخمسين وخمسمائة .

وذلك أنّه لَمّا توجه إلى دمشق اجْتَمع بالمِلِك العادل نُور الدّين محمود بن زنكى ، وحسَّن له أن يُجهِّز معه جيشًا يفتح به مصر ؛ ووَصَفها له ورغَّبهُ فيها ، والتزم أنَّهُ يحمل خزائنَها (٣) إليه يستعينُ بها على قِتَال الفرنج . فمال إلَيه ، وجهَّز معه أسدَ الدّين شِيركُوه بعَسَاكر . فلمّا قاربُوا مصر ندب إليهم الضّرغام عسْكرًا وقدّم عليه أخاه نَاصر المسلمين ، فلقيَهُم على بلبيس ، فانْهزَم العسكر المِصرىّ وعاد إلى القاهرة .

---

(١) اتعاظ الحنفاجـ ٣ ص ٢٦٣ .

(٢) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٦٣ .

(٣) « ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٦٤ ، وانظر أيضًا الروضتين جـ ١ ص ٣٣٢ .

وسار شاوَر والعساكر الشّاميّة ، فنَزل بظَاهر القَاهِرة فى آخر الشّهر ، واجتَمعَ معَهُ خلقٌ كثيرٌ من العُربان . فعلم الضّرغامُ أنّه لا قِبَلَ لـهُ بما دَهَمَه ؛ فركب إلى القصر ، وطاف به ، وجَعَل يُنادى العَاضد ، وهُو يخاف أنْ ينزل إليه . فأرْسَل إليه العاضدُ يقول : أنْجُ بنفسك . فخَـرجَ من القاهرة يُريد مِصْر ، ودَخل شاوَر وشيركُوه إلى القاهرة ، ونَدَب جماعةً فى إثر الضرغام فأدركُوه عند مشهد السّيدة نفيسة ، فقتلُوه هناكَ فى يـوم الجُمُعة ، للَيْلتين بقيتا من جُمادى الآخرة . وطِيفَ برَأسه القاهرةَ [١٠٠] على رُمْح ، وبقيَتْ جُثّتُه مُلقاةً بين الآكام ثلاثةَ أيّام حتى أكلتها الكلاب . ودُفن ما بقىَ منه عند بِرْكَةِ الفيل ، وعُمِل عليه قُبّة . فكانت مدّة ملك الضرغام تسعة أشهر[١] .

وكان فارسًا بطلاً ، كريمًا ، عاقلا ، أديبًا ، يحبّ العلماء ويقرّبهم ؛ وله مجلسٌ يجتمع فيه أهلُ العلم والأدب دون غيرهم . وكان حسن الخَطّ . يُقال إنّه كانَ يُحاكى ابنَ البوّاب[٢] فى خَطّه .

قال : ودخل شاوَر إلى العَاضد لدين الله فى مُسْتَهـلِّ شهر رجَب ، فعاتبه على مَاكان منْهُ فى إحْضَار العسْكَر الشّامىّ ، وحذّره عاقبَةَ ذلك ؛ فوعده أنّـه يَصْرفهم إلى بـلادهم ، فقَبِل ذلـك منه ، وخَلَع عليـه خِلَع الوزارة .

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٦٧ ـ ٢٧٢ ، كنز الدرر جـ ٧ ص ٢٦ ، أخبار الدول المنقطعة ص ١١٤ .

(٢) هو على بن هلال ، صاحب الخط الجميل المنسوب ، وعرف بابن البواب لأن أباه كان بوابًا عند بنى بويه ـ وتوفى ابن البواب سنة ٤٢٣ هـ/١٠٣١ م ــ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٤٢ رقم ٤٥٧ .

« ويكتب كتابة ابن مقلة » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٧١ .

وهو محمد بن على بن الحسين بن مقلة ، الكاتب المشهور ، المتوفى سنة ٣٢٨ هـ/٩٣٩ م ــ وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١١٣ رقم ٦٩٨ .

ذكر غدر شاور بشيركوه

قال : ولما انْتَصب شاوَر فى الوزارة وتَمّ له ماأرَاد ، أخذ فى التّدبير على العَسْكر الشّامى ، وحلَّف الأمراء ، وتخاذل عن شيركوه ؛ وصارَ يخْرجُ إليه بوجْهٍ عليه آثار الغضب . ففَهِم أسدُ الدّين شيركوه عَنه ، وعلِمَ شاوَر أنّه لا قِبَل له بشيركوه ، فاستعانَ بالفرنج [١] واستَدْعـاهم من السّاحـل لنُصْرَته ، ووعَدَهم بالأموال . واتّصل ذلك بأسَد الدِّين فحاصَرَ الْقَاهرةَ .

واتّصل خبرُشاوَر بالملك العادل نُور الدّين ، فكتب إلى أسَد الدين وأعلمه بما بَلَغه من مُبَاطَنة الفرنج ، وأمَرَه بالخُروج عن الدِّيار المصريَّة . فأبَى ذَلك وتوجَّه إلى بلبيس ، واحْتَوى على بلاد الحوف ، وجَعَل مدينَة بلبيس ظهْره . فاجْتمعت العساكرُ المصـريّة ومَنْ أتـاهُم من الفرنـج ، ونَازَلُوا أسَدَ الدّين ، وحصرُوه ببلبيس ثلاثة أشهر ، وهو مْمتنع بها لم يبرز إليهم ، فبينما هُمْ كذلك إذْ وَرَد الخبر علَى الفرنج أنّ نورَ الـدّين مَلَك حَارِم[٢] وسار إلى بَانْياس ، فراَسَلُوا شيركوه يسْألُونه الصُّلح ؛ فأجابَهُم إلى ذلك ؛ وخَرج من مدينة بلبيس [٣] ، فلمّا صَار بظَاهِرها أشَار شاوَر على تلك الفرنج بمُهَاجَمته وقَبْضهِ فامْتَنَع مُرّى [٤] ، ملك الفـرنج ، وأبى إلاّ الَوفاءَ بيَمينه لشيركوه .

وسار أسَدُ الدّين إلى الشّام ، وعادَ شاوَر إلى القَاهرة ، ومعَهُ طائفةٌ من الفرنج يتقوَّى بهم . وكانَ قد بَذَل لهم على نُصْرته أربعمائة ألف دينار ، ويهادنهم خمسَ سنين .

---

(١) المقصـود بالملك عمـورى الأول Amalric I ملك مملكة بيت المقـدس الصليبية ١١٦٢ ـ ١١٧٤ م ٥٥٧ ـ ٥٦٩ هـ الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٨٤ .

(٢) حارم : حصن تجاه مدينة أنطاكية ـــ معجم البلدان .

(٣) « فى أول ذى الحجة » ـــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٧٧ .

(٤) المقصود عمورى الأول ـــ أملريك الأول .

وكان دُخول شاوَر إلى القاهرة لِستٍّ مضَيْن من ذى الحجة من السَّنة ؛ واستمرَّ بمصر مِنْ غير مُنازع ، إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

ذكر عَوْد أسد الدّين شيركوه إلى الدّيار المصرية بالعَسَاكر الشاميّة وانفصاله

قال المؤرخ : لمَّا انْفَصل أسدُ الدّين شيركوه عن الدِّيار المصريّة فى سنَة تسع وخمسين ، بقِىَ عندَه منها أمرٌ عظيم . وكان إذا خلاَ بنُور الدّين الشّهيد يرَغِّبه فيها . فجهّزَهُ بالعساكر والحُشُود ، فسارَ من الشّام فى شهر ربيع الأوّل سنَة اثنين وستّين وخمسمائة ، فاتّصل ذلك بشاوَر ، فرَاسَل الفرنج وانْتَصر بهم . فخَرج الفرنج ووقفوا على الطَّريق الّتى يسلُكها شيركوه إلى الدّيار المصريّة ، فعَدَل شيركوه عن تلْك الطّريق وجَعَلها عن يمينه ، وسَارحتى نزل إطفيح ، فى سادِس شهر رَبيع الآخر . وعَبَر النّيل إلى الجَانب الغَربِىّ ، ونزل الجيزة ، وأقام عليها إلى العشرين من جُمادى الأولى . واستَوْلَى على الغربية وغيرها . فأرسل شاور إلى الفرنج يَستحثهم ، فأتَوْه على الصَّعب والذُّلُول ، وقد طَمِعوا فى ملك الدّيار المصريّة [1] .

فلما تكامَلُوا بالقاهرة توجَّه أسد الدّين شيركوه نحو الصَّعيد ، وسارَ شاوَر وَالفرنج فى آثارهم . فجمع أسدُ الدّين الأُمَراء واستشَارَهُم [فى][2] العُبور إلى الجانب الشّرقى والعَوْد إلى الشّام ، فوافَقُوه على ذلك ؛ فنهض

(١) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٨٢ ، الروضتين جـ ١ ص ٣٦٤ ، الكامل جـ ١١ ص ٣٢٤ وما بعدها .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح .

شرف الدّين بُزغش ، أحد الأمراء المَماليك النُّوريّة ، وكان شُجاعًا مِقْدامًا ، وأنكر ذلك كلَّ الإنكار ، وامتنع من الموافقة ، وقال : مَنْ خاف من الأسر أو القَتْل فلا يخدُم المُلُوك [١] ويأكل رزقهم ، ويكون في بيته عند امرأته . وقال : والله لانَزال نُقَاتل إلى انْ نُقتل عن آخرنا أو نَنْتصر . فوافَقَه أسدُ الدّين ، وجَمَع عسكره ورتَّبهم ، وجَعَل أثْقَاله في القَلب ليكثُر بها السَّواد ولِئَلاَّ ينهَبها أهلُ البلاد .

فبينما هُم في التَّعبئة إذَا بشاوَر والفرنج قد أَقْبلُوا ، ورتَّبهم واقتتلوا ، فكانت الهزيمةُ على شاوَر والفرنج [٢] وتَوَالَت عليهم الحملاتُ من العَسْكر الشَّامي ، فتمادَتْ بهم الهزيمة إلى الجيزة ، وشِيركوه في آثارهم . وقُتِل منهم خَلْقٌ وغَرِق كثيرٌ منهم . وأسر أسدُ الدّين [١٠١] صاحبَ قيسارية [٣] .

ودخل شاوَر وَالفرنج إلى القَاهرة ، ومَلَك أسدُ الدّين البرَّ الغَربي بكَماله ؛ وقَصَد الإسكندريّة ليُحاصرها . فلمّا قرُب منْهَا خرج إلَيه أهلُها وسلَّمُوها إليه من غير مُمَانعة ؛ وكان والى الثّغريوم ذاك نجم الدّين بن مصال . فدخَل شيركُوه البلدَ ، وأقَام بها أيّامًا قلائل ، واستناب بها صَلاَح الدّين يوسُف بن ... نجم الدّين أيوب ، وتركه بها ومعه ألفُ فارس . وتوجَّه هو إلى الصَّعيد فاسْتَولى عليه ، واستخرج أمواله ؛ وصام شهرَ رمضان بمدينة قوص .

هذا وشَاوَر يتجهَّز للخُروج ويرتِّب أحْوالَه وأحوال الفرنج ويرمّ ماتلف لَهُم . فلمّا تكامَل ما يحتاجُ إليه قصد الإسكندريّة ، فأخْرج أهْلُها

---

(١) « الكرك » في الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من الروضتين جـ ١ ص ٣٦٥ .

(٢) « وكانت هذه الواقعة في موضع يعرف بالبابين بالقرب من الأشمونين ، في يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة » ــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٨٤ .

(٣) هو هيو Hugues ــ أخبار الدول المنقطعة ص ١١٥ .

الأموالَ وأنْفقُوها ، واستَعدُّوا للحصَار ؛ فكان فى جُملة ما أخرجوه للحصار أربعة وعشرون ألف قوس زُنْبُورك وما يناسبُ ذلك من الآلات .

وسَار شاوَر ومُرّى ملك الفرنج ، فنازلوا الإسكندريَّة . فلمّا رأوْا شدّةَ أهلِها واجتماعَهم على الحصار ، تقدَّم شاوَر إليهم وقال : سلِّموا إلىّ صلاحَ الدّين ومَن معه وأضَعُ عنكم المَكُوس ، وأعطيكم الأخْمَاس . فامتنعوا وقالوا : معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج والإسْمَاعيلية . فعْند ذلك وقَع الحصار واشْتَدّ على أهل الإسكندرية إلى أن قلَّت الأقوات .

وبلغ ذلك أسدَ الدّين فسار من الصّعيد وجدَّ فى السّير إلى الإسكندرية ، وكان شاور قد أفْسَد التّركمان الذين مع أسد الدين فصَارُوا معه ؛ واجتمع لشيركوه طائفةٌ كبيرةٌ من العُربان ، فلمّا علم شاور بقُربه خافَه وراسلَه فى طلب الصُّلْح ، وبذَلَ له خمسين ألف دينار ، سوى ما أخذهُ من خراج البلاد ، على أنْ يُفارق الدّيار المصريّة . فأجاب أسدَ الدّين إلى ذلك[1] ، وشرط عليهم أن يرجعَ هو إلى الشّام ويرجع الفرنج إلَى بلادهم . فا سَتقرّت هذه القاعدة ، وحلف الفرنج عليها .

ففَتِحت الإسكندريّة عند ذلك ، وخرج صلاحُ الدّين يوسفُ إلى مرِّى ملك الفرنج وجلسٍ إلى جانبه . فدَخل شاوَر عليهما ، فقال لمرّى : سَلِّمْهُ إلى وأعطيك فى كلِّ سنةٍ خمسين ألف دينار . فقال مُرّى : نحن إذا حلفنا

(١) « وأرسل شيركوه إلى صلاح الدين يأمره بتقرير الصلح ، ورحل عن مصر الى الشام » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٨٥ .
كما ورد « فصالحوا الملك الناصر على أن يسلم إليهم أسد الدين صاحب قيسارية » فى أخبار الدول المنقطعة ص ١١٥ .
وهذا يدل على أن الصلح تم أولا مع صلاح الدين فى الإسكندرية .

لا نَغْدِر ؛ ووَبَّخَه . وكان أسد الدِّين قد شَرط على شـاوَر أنّ الفرنـج يرحَلون ولايلتمسُون من البلاد دِرْهمًا ولا ضيعةً ولا غير ذلك .

قال : وارْتحل أسدُ الدِّين ، ودَخَل مصر بِرِضَاء أهْلِهـا ، وسارَ إلى بلبيس . وأرْسل إلى ابْن أخيه يوسُف أن يتوجَّه فى المراكب إلى عكَّا ، هُو ومَنْ معه من العسكر ، وما مَعهُ من الأثقال ؛ ففعَل ذلك ، وركب مِنْ عكّا إلى دمشق .

هكذا حكى ابنُ جلب راغب فى تاريخه . قال : وارْتحل أسدُ الدِّين من بلبيس فى نِصْف شوّال ، ودخل شاوَر إلى الإسكندريّة ، ثمّ خرجَ منها وعاد إلى القاهرة ، فدخَلَها فى مُستهلّ ذى القعدة ، وتلقّاه العاضد لدين الله .

وأمّا الفرنج ، فاستقرَّ بينهم وَبيْن شاوَر أنْ يكونَ لهم شِحْنةٌ[1] بالقاهرة وتكونَ أبوابُها بيد فرسانِهم ، ويكونَ لهم فى كلّ سنة مائة ألف دينار .

وفى سنة ثلاثٍ وستّين وخمسمائة خرج يحيى بن الخياط على شـاوَر وطَلَب الوزارة ؛ فندَبَ شاوَر عسكرًا لحَرْبه ، فـانهزمَ ومَضى إلى بلاد الفرنج [2] .

---

(١) شحنة : مصطلح يقصد به ما يوضع فى البلد من رجال الأمن لضبطها وحمايتها ــ القاموس .
(٢) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٩٠

ذكر وُصُول الفرنج إلى القاهرة وحصارها
وحريق مصر

قال المؤرخ : وفى سنة أربع وستّين وخمسمائة عَادَ الفرنج إلى القاهرة . وذلك أنهم لمّا توجّهوا فى سنة اثنتين وستّين رتّبوا فى القاهرة جماعةً من أبطالهم وشجعانهم وفرسانهم ليحمُوها من عَسكرٍ يأتى إليها من الشّام ؛ فلمّا رأوْا خُلُوّ مصر من الأجناد راسَلُوا ملِكَهم مرّى واستدعَوْه ، وكان مَن الشّجَاعة والمكر على أمرٍ عظيم . فامْتنع وقَال : الرّأىُ ألا نقصدها فإنّها طُعمةٌ لنا ، وأموالُها تُحمل إلينا نتقوّى بها على قتَال نور الدّين ؛ وإنْ قصَدْناها حَمَل أصحابَها الخوفُ على تَسْليمها لنُور الدّين ، وإن أخَذَها وجَعَل فيها مِثْل أسد الدّين شيركوه فهُو هلاكُ الفرنج وخروجُهم من الشام . فلمْ يقبلوا رأيه ، وقالُوا : ما يَصِلُ عسكرُ نور الدّين إلينا إلا وقدْ ملكناها . وغلَبُوا على رأيه .

فتجهّز الفرنج وسارُوا حتىّ وصلوا إلى مدينة بلبيس ونازَلُوها ؛ فوقع الإرجَافُ بمِصْر ؛ وشرعَ شاوَر فى إنشاء حصنٍ على مِصر واستعمل فيه النّاس ، فلم يبْقَ أحدٌ إلا وعمل فيه ؛ وحفر خَنْدقا . وملك الفرنج بلبيس عنوةً وسبَوْا وقتلُوا خلقًا كثيرًا[1]. وكان معهم بعضُ الأمراء المصريّين ممّن هرَب من شاور ، منهم يحيى بن الخياط .

ثمّ سارُوا [١٠٢] إلى القاهرة وأحاطوا بها ، وذلك فى العاشر من صَفر ، فخاف أهلُها إن أهْملوا القتال أن يحلّ بهم ما حَلّ بأهل بلبيس ، فجدُّوا فى القتال والاحتراز .

---

(١) أخبار الدول المنقطعة ص ١١٥ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٩٣ .

قال : ولمّا قرُب الفرنج من القاهرة أمر شاور بنهْب مصر وإحْراقها ، فأحرقت فى تاسع صفر ، ونهبت ؛ وأمر أهلَها بالانتقال إلى القاهـرة ، فانتقَل بعضُهم ، وتحصَّن البعض بالجزيرة ، وتوجَّه آخرُون فى المراكب إلى ثَغرى الإسكندريّة ودمياط ، وطائفةٌ إلى الوَجْه القبلى ؛ وتفرّقوا وذهبت أموالهم . كلُّ ذلك قبل نُزول الفرنج على القاهرة بيوم .

قال : وبَقيت النّار تعمل فيها أربعةً وخمسين يومًا ؛ إلى حَادى عشر شهر ربيع الآخر .

قال : ولمّا علم العاضدُ لدين الله عجْزَ أهل القاهرة عن مُقاوَمة الفرنج أرسل إلى الملك العادل نُور الدّين محمود بن زنكى يستغيثُ به ، وسيّر إليه شعورَ نسائه فى طىِّ الكتب .

وقيل إن شاوَرًا أرسل إلى نور الدّين أيضًا .

وأرسل شاوَر إلى مرّى ملك الفرنج يُذَكِّره بسابق الصحبة والعُهُود القديمة ، وقرّر أنْ يحمل إليه ألفَ ألف دينار ؛ فأجاب مرّى إلى ذلك وقال لأصحابه : نأخُذ المال ونتقوّى به ونَمْضى ثمّ نرجع فَلا نُبالى بعْدَ ذلك بنُور الدّين . فاستَوْثق شاوَر منه بالأَيمان وعجَّل له مائة ألف دينار ، وماطَله بالبقيَّة ؛ وشرع يجمعُ له من أهل القاهرة المال ، فلم يحصُل له من جِهَتهم غير خمسة آلاف دينار لِضَعْفهم .

هذا والرُّسُل تتَتابعُ إلى الملك العادل ويَسْتغيثُون به . وقرّر له ثلث الدّيار المصرية .

قال : ولما وصلت الكتب إليه طلَب أسدَ الدّين شيركُوه من حِمْص ، فسارَ منها إلى حَلَب فى ليلةٍ واحدة ، فجهّزه نُورُ الدّين وأعطاهُ مائتى ألف دينار سوَى الثّياب والسّلاح وغير ذلك . فاخْتار أسدُ الدّين من العَسكر ألفَى فارس من الأقوياء ، وستّةَ آلاف مِن بقيّة العسكر . وأنْفق نـورُ

الدّين لكلّ فارس عشرين دينارًا . ثمّ سار شيركوه ، فكان خروجُه من دمشق فى مُنتصف شهر ربيع الأول ؛ وأرْدفه نورُ الـدين بجماعـةٍ من الأمراء ، منهم مملوكُه عز الدين جُرْدَيك ، وشرف الدين بـزغش وعَين الدّولة اليارُوقى ، وناصح الدّين خُمارتَكين ، وقطب الدين يَنَال بن حسّان المنبجى ، وغيرهم [١] . والله أعلم .

ذكر قدوم أسد الدّين شيركوه إلى الدّيار المصرية ورحيل الفرنج عنها

قال : وقدِم أسد الدّين شيركُوه بالعَساكر ، فكان وُصوله إلى مصر فى يوم الثُلاثاء لليلَةٍ بقيت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستّين وخمسمائة . ولمّا بلغ الفرنج قربُه عادُوا عن القاهرة إلى بلادهم ، وكان رُجوعهم فى يوم السّبت ثالث شهر ربيع الآخر ، ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألف نفس . ودخل أسدُ الدّين القاهرة فى سَابعِ شهر ربيع الآخر ، وخرج إليه العاضدُ لدين الله وتلقّاه . وحَضَـر يوم الجمعـة التاسـع من الشّهر إلى الإيوان وجَلَس إلى جانب العَاضد ، وخلَع عَليه ؛ وفرح النّاس بقُدومه . وعادَ أهلُ مصر إليها ، وشرعُوا فى إطفاء النّيران وإصْلاح ما تشعّث . وكانت سقُوفُ جامع عمْرو بن العَاص بمصر قد احْتَرقت فجدّدهُ الملك النّاصرُ صلاح الدّين يوسُف .

قال : وأمَر العاضدُ أسدَ الدّين بالنُّزول على شاطىء النّيل بالمقس ، ورتّب له شاوَرولِمن معهالإقامات الوافرة ، وأظهرَ لهُ ودًّا كثيرا ، وصار يتردَّد إليه فى كلّ يوم . فطلب أسدُ الدّين من شاوَر ما لايُنْفقه فى عسكره ، فمطَلَه

---

(١) انظر الكامل جـ ١١ ص ٣٣٨ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص٢٩٤ .

فسيّر إليه شيركوه الفقيه عيسى الهكّارى يطالبه بالنّفقة ويقول له : إن العَسْكر قدْ طال مُقامُهم وطالبُوا بالنّفقة وتغيـرت قلوبهم عَليْك ، وإنّى أخشى عليك منهم . فلَمْ يكترث شاور بذلك ، وشرع فى المُماطلة فيا كان قرّره لنور الدّين .

وعزم شاور على أن يصْنَع دعوةً ويُحضر أسدَ الدّين وجماعةَ الأمراء الذين معه إلى داره ، ويقبض عليهم ، ويستخدم من معه من الجُند فيمتنع بهم من الفرنج . فنهاهُ عَن ذلك ولدُه الكَامل ، وحلفَ أنّه إنْ صمَّم على هذا الأمر عرَّف به شيركوه . فقالَ له أبوه : والله لئن لم تَفعل هذا قُتِلنا عن آخرِنا . فقال الكاملُ لأبيه : صدَقْت ، ولأنْ نُقتل ونحنُ مسلمون خيرٌ من أنْ نُقتل وقد ملكها الفرنج ، فإنّه ليس بيْنَك وبين [عود][1] الفرنج إلا أنْ يسمعوا أنّ أسد الدّين قد قُبض عليه ، وحينئذٍ لَوْ مشى العاضدُ إلى نور الدّين ما أغاثه ، ويملكُون البلاد . فتَرك ماعَزَم عليه[2] . واتّصَل ذلك بالعاضد فأعْلم شيركوه .

[١٠٣] ذكر مقتل شاور

كان مقتلُه فى يوم السّبت لثلاثَ عشرة ليلةً بقيت من شهر ربيع الآخر من السنة .

وذلك أنّ الأمراء النُّوريّة لمّا رأوْا مُماطلَته بالنّفقة وبَلَغهم أنّه قد عمل على القبض عليهم اتّفق صلاحُ الـدّين يوسُف وعـزّ الدين جُـرْدَيك ، وغيرهما ، على قَتلِه وأعلمُوا أسد الدّين بذلك ؛ فنهاهم عنه . واتّفق أنّ شيركوه خَرج لزِيارة قبر الإمام الشّافعى هذَا اليوم ، وحضر شاور لَهُ على عادته ، فقَيل إنّه توجَّه للزّيارة ؛ فقال : نتوجّه إليه . فتوجَّه ومعَهُ يوسُف

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح من اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠٠ ، الكامل جـ ١١ ص ٣٣٩ .
(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠٠ ، الكامل جـ ١١ ص ٣٣٩ .

وجُرْدَيك وهما يُسايرانه ، فأنْزَلاه عن فرسه ، وكتَّفاه ، فهرب عنه أصحابُه . فجعَلاه فى خَيْمةٍ ، وأحاط بها جماعةٌ ولم يُمْكِنْهم قتلُه بغير أمر أسد الدّين [١] . فحضر من القصر جماعةٌ من قِبَل العاضد ، يستحثّ على قَتله ، وحضر أسدُ الدّين إلى المخيَّم ورُسُل العاضد تَتَوَاتر لأسد الدّين يأمره بقتله . فقُتل ، وأُرسِل رأسهُ إلى العاضد عَلى [٢] رُمْح .

ومَضى أولادُه إلى القصور واستجارُوا بالعاضد ، فقُتِلوا بعد العقوبة الشّديدة ، فى يوم الاثنين لأربعٍ خلَوْن من جمادى الأولى منها . وهم : الكامل ، والمعظّم ، وركن الإسلام . وتأسّف شيركوه بَعْد ذلك على الكامِل لأنه بلغَهُ ما جرى بينه وبين أبيه .

قال : ولما قُتل شاوَر استدْعَى العاضدُ أسدَ الدّين شيركُوه ، فَدخَل إلى القاهرة فى السّاعة الّتى قُتل فيها شاوَر ، فرأى العَوامّ وقد اجتمعُوا ، فهالَهُ ذلك ، فقال لهم : إنّ موْلانا العاضد لدين الله أمير المؤمنين يأمرُكم أن تنْهَبوا دُورَ شاور . فتفرّق النّاس عنه ، ونهبوها . ودخل شيركوه إلى القصر ، فتلقّاه العاضد ، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة ، ولقّبه الملك المنصُور أمير الجيوش[٣] . ولم تطُلْ مدّته فى الوزارة حتّى تُوُفى إلى رحمة الله تعالى بعْدَ خمسةٍ وستّين يومًا ؛ وقام بالأمر بعدَه الملك النّاصر صلاحُ الدّين يوسف ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار الدّولة الأيُّوبيّة .

---

(١) « نور الدين » فى الأصل ، والتصحيح من الكامل جـ ١١ ص ٣٤٠

(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠١ .

(٣) انظر نص المنشور وما كتبه عليه العاضد بخطه فى صبح الأعشى جـ ٩ ص ٤٠٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠٢ ، الروضتين جـ ١ ص ٤٠٢ ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٦٥ .

ذكر انقراض الدّولة العُبَيديّة والخطبة للمستضيء بنُور الله العبّاسى

كان انقراضُ هذه الدّولة عند خَلْع العاضِد لدين الله ، وذلك فى يوم الجمعة لِسَبع مضَيْن من المحرّم سنة سبعٍ وستّين وخمسمائة .

وكان سببُ ذلك أنّ صلاحَ الدّين يوسف لمّا ثبَتَتْ قدمُه فى ملك الدّيار المصريّة واسْتمال النّاس بالأموال قَتَل مؤتَمن الخلافة جوهرًا ، زمام القصور ، ونصب مكانه قَراقوش الأسدىّ الخصىّ خادم عمه ، ثمّ كانت وقعةُ السّودان فأفناهم بالقَتل ، على ما نذكُره إن شاء الله مستوفًى فى أخباره . ثمّ أسْقط من الأذان قولَهم : « حىَّ على خَيْر العمل » ؛ وأبْطَل مجلسِ الدّعوة ؛ وضعُف أمْرُ العَاضد معه إلى الغاية فعند ذلك كتب الملكُ العادلُ نور الدّين إلى الملك النّاصر صلاح الدّين يأمُره بالقبض على العاضد وأقاربه ، والخُطْبة للخليفة المستضىء بنور الله[١] ، وكان المستضىء قد رَاسَله فى ذلك . فامْتَنع صلاحُ الدّين ، وكَرِه إزالَةَ هذه الدّولة . فكتب إلى الملك العادل يعتَذِرُ ، وقال : إنْ فعلنا هذَا الأمْر لانأمَن من قيام أهلِ مصر علينا لميلهِم إلى هذه الدّولة . وكان قَصْد صلاح الدّين أن يتقوّى بالعاضد على نور الدّين إن هو أرادَ الدُّخول إلى الديار المصريّة[٢] .

فلما وَرَد جوابُه على نُور الدّين بالاعتذار انْزعَج لذلك ، وَرادَف رُسُلَه إليه يأمُره بخَلْع العاضد والقَبْض عليه[٣] .

---

(١) هو أبو محمد الحسن المستضىء بنور الله . ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة من ٥٦٦ ــ ٥٧٥ هـ/ ١١٧٠ ــ ١١٨٠ م/ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٣ .

(٢) انظر الكامل جـ ١١ ص ٣٦٨ .

(٣) انظر الروضتين جـ ١ ص ٤٩٣ .

فاسْتَدعى الملك الناصر الأمراءَ واستشارهم فى ذلك ، فمِنُهم مَن حذَّره ، ومنهم مَن هَوَّنه عليه . فأحضر الفقيه اليَسع بن يحيى بن اليسع ، وعرَّفه الحال . فلمّا كان فى هذه الجمعة صعد إلى المنبر بجامعِ مصر قبل طُلوع الخطيب ، ودَعَا للمستضىء بنُور الله ؛ فلم يُنْكر عليه أحدٌ . فلمّا كان فى الجُمعة الثّانية أمر الملكُ النّاصر الخطباء بمصر والقاهرة أن يخطُبوا للمستضىء بنُور الله أبى محمد الحسن ، بن المستنجد بالله العباسى ؛ فخطبوا له .

ثمّ تُوفى العاضدُ لدين الله إثْر هذا الخُلْع ، فى يوم عاشوراء من السّنة ، بعد ثَلاثةِ أيّامٍ مِن خَلعه . وكانَ ضعيفًا لمّا قُطِعت خطبته . فقال صلاحُ الدّين : لا تُعْلِموه ، فإنْ عُوفى أعلمناه ، وإن تُوفى فلا نفجعُه بهذه الحادثة .

وقال [١٠٤] بعض المؤرخين : إنّ صلاح الدين لمّا قطع خُطبته دَخَل عليه وقَبض عليه واعتقله ، فلمّا رأى ذلك كان فى ذخائِره فصٌّ فى خاتم ، فمصَّه ، فمات لِوَقته . فكان صلاح الدّين يقولُ : ندمت [على] كَوْنى دخلتُ علَى العاضد وفعَلتُ به ما فعَلت ، وكان أجَلُه قدْ قرُب .

ولمّا ماتَ جلسَ الملكُ النّاصر للعَزاء به . فكانت مدّة ولايته إحْدَى عشرةَ سنة وخمسة أشهرٍ وتسعة عشر يوما ، ومولدُه فى يوم الثلاثاء لعشر بقِينَ من المحرّم سنةَ ستٍّ وأربعين وخمسمائة ؛ فعمرهُ على هذا إحدى وعشرون سنة إلاّ أحد عشر يومًا .

وكان له من الأولاد ثلاثة عشر وهم علىّ ؛ وموسى ؛ وعبد الكريم ؛ وأبو الحجّاج يوسف ؛ وأبو الفتوح ؛ وإبراهيم ؛ وجعفر ؛ ويحيى ؛ وعبد القوى ؛ وعبد الصّمد ؛ وأبو البشر ؛ وعيسى . فاعْتقلهم الملكُ النّاصر بأجمعهم ، واستمرُّوا فى الاعتقال إلى سنة اثنتين وستّمائة ، فكان من أمرهم ما نذكرُه فى أخبار الدّولة الأيوبية .

ووَزَرله مَن ذكرنا أخبارهم ، وهم : الصّالح أبو الغارات طلائع بن رُزّيك ؛ ثم ولدُه العادل رُزّيك ، ثمّ شاوَر ؛ ثمّ الضّرغام ؛ ثم عاد شاور ؛ ثمّ أسد الدّين شيركوه ؛ ثمّ الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف .

قضاته : أبو القاسم هبة الله بن كامل ؛ وأبو الفتح عبد الجبـار بن إسماعيل بن عبد القوى ؛ ثمّ الأعز أبو محّمد الحسن بن على بن سلامة ؛ ثم أعيد عبد الجبّار ؛ ثم أعيد ابن كامل ، ثمّ صرف على أيام الملك النّاصر بالقاضى صدر الدين أبى القاسم عبد الملك بن درباس[١] .

وكان العاضد شديدَ التشيُّع متغاليًا فى سبّ الصحابة ، رضـوان الله عليهم أجمعين . إذَا رأى سُنيًّا أستحلّ دمه .

جامع أخبار الدّولة العُبَيديّة ومدّتها ومَنْ ملك من ملوكها

كانت مدّة تغلُّب ملوك هذه الدّولَة على البلادِ منذ أخْرجَ أبو عبد الله الشيعىّ عُبيدَ الله ، المنعوت بالمهْدىّ ، من سجِلْماسة ، من سجن الْيَسَع ابن مدرار إلى أن مات العاضد هذا مائتى سنَة وسبعين سنَة وشهورا [٢] . منها ببلاد الغرب ، منذُ دخل عُبيد الله المهدى رَقّاده إلى أنْ وصل المعزّ لِدين الله إلى القاهرة أربعُ وستون سنة وعشرة أشهر وخمسة وعشرُون

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ١١٦ ــ ١١٧ .

(٢) « مائتين وتسعة وستين سنة وثمانية أشهر وأحد وعشرين يوما » ــ أخبار الدول المنقطعة ص ١١٧ .

يومًا[١] . وباقى هذه المدّة بمصر والشّام ، إلى أن انقطعت دعوتهم .
بخروج عسقلان عن يد المسلمين واستيلاء الفرنج عليها ، فى جُمادى الآخرة سنةَ ثمانٍ وأربعين وخمسمائة ، فى أيام الظافر بأعداء الله فى وزارة عبّاس بن يحيى بن تميم .

وعدّة من ملك منهم أربعة عشر ملكا تَسَمَّوْا كلُّهم بالخلافة ؛ وهم : عبد الله المنعوت بالمهدىّ ؛ ثم ابنُه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد ؛ ثمّ ابنُه المنصور بنَصر الله أبو الظاهر إسماعيل ؛ ثم ابنه المعزّ لِدين الله أبو تميم معدّ ، وهو أوّل من ملك الدّيار المصريّة والبلاد الشامية منهم ، وإليه تُنْسَب القاهرة المعزّيّة ؛ ثم ابنُه العزيزُ بالله أبو المنصُور نِزار ؛ ثمّ ابنه الحاكم بأمْر الله أبو على المنصور ؛ ثمّ ابنُه الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم ، وقيل أبو الحسن ، علىّ ؛ ثم ابنُه المستنصر بالله أبو تميم معدّ ؛ ثم ابنه المستعْلى بالله أبو القاسم أحمد ؛ ثم ابنُه الآمر بأحكام الله أبو على المنصُور ؛ ثم ابن عمّه الحافظُ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن محّمد بن المستنصر بالله ؛ ثم ابنُه الظّافر بأعداء الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ ؛ ثم ابنُه الفائز بنَصر الله أبو القاسم عيسَى بن الظافر ؛ ثم ابنُ عمّه العاضدُ لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسُف بن الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر ؛ وعليه انقرضت دولتُهم ، وانتهت أيّامُهم ، وباد مُلكهم ، فلم يَعُد إلى وقتنا هذا .

قال المؤرخ : ولما خُلِع العاضدُ ومات واعتَقَل الملكُ النّاصر صلاح الدّين يوسف أولادَه بالقُصور مرّ القاضى الأرشد عُمارة اليمنى الشّاعر بالقصور ، وهى مغَلَّقَة الأبواب ، مهجورة الجناب ، خاويةٌ على عروشها ، خاليةٌ من أنِيسها ؛ فأنشأ قصيدته المشهورة التى رَثَى بها القُصور وأهلها .

(١) « خمسة وستون سنة وأربعة أشهر ونصف » — أخبار الدول المنقطعة ص ١١٧ .

وهى من عيون المراثى [١٠٥] وأوّلها [١] :

رميتَ ياداهرُ كفَّ المجد بالشَّلَل
وجيدَه بعد حُسْن الحَلْى [٢] بالعطل

سعيت فى منهج الرّأى العثور، فإن
قدَرْت من عثرات الدهر [٣] فاستقل

هَدَمت قاعدة المعرُوف [٤] عن عَجل
سُقِيتَ مُهْلاً، أما تمشى على مَهَل!

لَهْفِى ولَهْفَ بنى الآمال قاطبةً
على فجيعَتِنا [٥] فى أكرَمِ الدُّوَل

قدِمتُ مِصرَ فأوْلتْنى خلائِفُها
من المكَارِم ما أرْبَى على الأمل

قَومٌ عرفتُ بهم كَسْب الأُلُوفِ ومن
جمالها [٦] أنّها جاءَت ولَمْ أسَل

منها :

ياعاذلى فى هوَى أبناءِ فاطمةٍ
لك الملامَةُ إن قَصَّرْتَ فى عَذلى

---

(١) انظر هذه القصيدة فى : الروضتين جـ ١ ص ٥٧٠ ـ ٥٧١ ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢١٢ ـ ٢١٦ ، صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٢٦ ـ ٥٢٨ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤ .

(٢) « بعد حلى الحسن » فى الروضتين .

(٣) « من عثرات البغى » فى الروضتين .

(٤) « قواعد المعروف » فى الأصل ، والتصحيح من الروضتين واتعاظ الحنفا .

(٥) « على فجيعتها » فى مفرج الكروب .

(٦) « كمالها » فى المصادر الأخرى .

بالله زُرْ ساحة القَصْرين ، وابْكِ معى
عليها ، لا عَلى صِفّينَ والجَمل

وقُل لأهْلها : والله ما الْتَحمَت
فيكُم جِرَاحى ، ولا قرْحى بمُنْدَمِل[1]

ماذَا تُرى[2] كانت الإفْرنجُ فاعلةً
فى نَسْل آل أمِير المؤْمنين على

هَلْ كان فى الأمْر شئٌ غير قِسْمَةِ ما
مُلّكتُمُ بين حُكم السَّبْى والنَّفل

وقد حَصَلتُم عليها واسمُ جدِّكُمُ
محمَّد ، وأبيكم غيرُ مُنْتقل

مرَرْتُ بالقَصْر ، والأبوابُ خالية
من الوُفُود ، وكانَتْ قِبْلة القبل

فَمِلتُ بوَجْهى خوفَ مُنتقِدٍ
من الأعادى ، ووَجْهُ الوُدّ لمْ يَمِل

أسَلْتُ من أسَفِى[3]دمعى غَداةَ خلَتْ
رحابُكم ، وغدت مهجُورَة السُّبل

أبْكى علَى مَا أُثراتٍ[4]من مَكارِمكم
حَالَ الزّمانُ عليها ، وهْىَ لم تَحُل

---

(١) « فيكم قروحى ولا جرحى مندمل » فى الروضتين ، « فيكم جروحى ولاقرحى بمندمل » فى مفرج الكروب وصبح الأعشى .

(٢) « ماذا عسى » فى اتعاظ الحنفا .

(٣) « أسبلت من أسف » فى المصادر الأخرى .

(٤) « أبكى على ما بدا لى » والتصحيح من المصادر الأخرى .

وهي قصيدة مشهورة مطوّلة .
ولمّا انقرضت هذه الدّولة قامت الدّولةُ الأيوبيةّ على مانذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار ملوكها والله أعلم .

ذكر أخبار الدولة الأيوبية

وهى دولَة السّلطان الْمَلك النّاصر صلاح الـدّين يوسف بن أيـوب وأولاده ، ودولةُ أخيه الملك العادل سيف الدّين أبو بكر وأولاده ، رحمهم الله تعالى .

ولْنَبدأ بذكر نَسَب نجم الدين أيّوب والد مُلُوك الدّولة الأيُّوبيّة وابتداءِ حالِه وحالِ أخيه أسد الدّين ، وكيف تنَقّلتْ بهم الحال إلى أن ملك أسدُ الدّين شيركوه الدّيارَ المصريّة ، وكيف انتقل المُلك مِن بعده إلى ابن أخيه الملك النّاصر صلاح الدّين يوسُف . ثمّ نذكر أخبار مَنْ ملك مِن أولاده وأخيه الملكِ العادل وأولاده فى حَرْبهم وسَلْمهم إلى حين انْقراض دولتهم . وبالله التوفيق

ذكر نسب الملك الأفضل نجم الدّين

هو [أبو][1] سعيد أيوب بن شادى بن مروان . هذا هو المقطوعُ به الذى لا نزاعَ فيه ، ولاخلاف بين أحد من المؤرخين ونَقَلة أخبارهم .

وقال الملكُ الأمجد مجدُ الدّين أبو محمد الحسَن ، ابن السلطان الملك النّاصر صلاح الدين أبى المفاخر داوُد ، ابن السلطان الملك المعظّم شرف الدّين أبى المظفر عيسى ، ابن السلطان الملك العادل سيف الدّين أبى بكر محمد ، ابن الملك الأفضل نجم الدّين أبى سعيد أيوب ، رحمهُم الله تعالى ، فى كتابه المتَرْجَم بالفوائد الجليّة فى الفَرائد النّاصريّة : سمعتُ مَن يقول : مروان بن محمد ؛ وقال بعضُ النّاس محمد بن يعقوب .

---

(١) [ ] إضافة تتفق مع ما يلى .
وانظر ترجمته فى : الروضتين جـ١ ص ٥٣٣ وما بعدها ، وورد « أبو الشكر » فى وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٥٥ رقم ١٠٧ .

وقال شهابُ الدّين أبو شامة عبد الرحمن فى كتابه المترجَم بالرّوضَتين فى أخبار الدّولتين سمعتُ مَن يقولُ : مروان بن يعقوب(١).

وقال [١٠٦] الملك الأمجد : وقد اختُلِف فى نَسبهم على ثلاثة أقوال :

القول الأول : ما قاله عز الدّين على بن الأثير الجزَرى المؤرخ أنّ نجم الدين أيوب من بلد دَوين(٢) من أذَربيجَـان ، وأصله من الأكراد الرَّوَادِيّة ؛ وهذا القَبيل هم أشرَف الأكراد (٣).

قال الملكُ الأمجد : وهذا شيءٌ يجرى على ألسنة كثير من النّاس ، ولمْ أرَ أحدًا ممّن أدركه من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النّسب ، لكنّهم لايُنكرون أنَ نجم الدّين كان بدَوين .

قال : والمشهور عند بَيْتنا أنّ جدنا نزل على الأكراد وتزوَّج منهم ، فصارت بيننا وبينهم خؤولة لا غيرُ . ويدلّ على ذلك أن السّلطان الملك النّاصر صلاحَ الدّين يوسف لمّا ملك البـلاد تقدّم فى دَوْلتـه جماعـةٌ من الأكراد ، فلم يبق أحدٌ منهم إلاجاء بنُوعمّه وأقاربُه ، حتى صار فى عُصْبةٍ من أهله ؛ والسّلطان رحمه الله لم يأتِ إليه من يمُتّ بقَرابة إلا من جهة النّساء فقط ؛ ولو كان من الرَّوَادِيّة لكان جميعُ القبيلة أولادَ عمه وإن لم يكُنْ له ابنُ عمّ قريب فيكون ابنَ عمٍّ بعيد قطعًا لأن القبيلة كلّها أولاد رجل واحد . ولا شكّ أنّ الدّواعى تتوفّر على الانتماء إلى الملك ما لاتتوفّر على الانتماء إلى الأمراء .

القول الثانى : أنهم من أولاد مروان بن محمد الأموى ، آخر خلفاء الدولة الأموية .

---

(١) انظر الروضتين جـ ١ ص ٥٣٤ .

(٢) دوِين : بفتح أوله وكسر ثانيه ، وياء مثناه من تحت ساكنه وآخره نون ، بلدة من نواحى أرّان فى آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس ــ معجم البلدان .

(٣) انظر الكامل جـ ١١ ص ٣٤١ .

قال الملكُ الأمجد : وهذا شئ ادَّعَاه الملك المعزّ فتحُ الدين أبو الفداء إسماعيل بن الملك العزيز ظهير الدين أبي الفوارس سيف الإسلام طغتكين ، ابن أيوب ، باليمن ، لما ملكه بعد أبيه ، وتلقّب بالإمام الهادى بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين . وقال يحيى بن حميد بن أبى طىّ : قد نقّبت عن ذلك فأجمع الجماعة من بنى أيوب على أنهم لا يعرفون جداً فوق شادى[1] .

القول الثالث : ما ذكره حسن بن عمران الجرشى فإنه جاء إلى الملك المعظم وعمل شجرةً لنسب بنى أيوب ، فوصله بعلىّ بن أحمد المرّى[2] ممدوح أبى الطيب المتنبى الذى يقول فيه :

شرق الجوُّ بالغُبار إذا سا ... ر على بن أحمد القمقام

وقال أيضا فى مدحه :

إنما بن عوف بن سعد ... جمرات لا تشتهيها النعام

ولم يُنْكر الملكُ المعظّم عليه ذلك بل قَبِل منه .

قال : وهذا سَردُ النّسب الذى عَمِله الجرشىّ ، وهو : أيّوب بن شادى ابن مروان بن أبى على .

قال الملك الأمجد : قلت : ويُحتمل أن يكون أبو على هذا هو محمد المقدم ذكره ـ وأبو على كنية له ـ ابن عنترة بن الحسن بن على بن أحمد ابن أبى على بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سفيان بن عمرو بن مرة بن شبة بن غيظ بن مُرَّة بن عوف بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النّضر بن كنانه بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وبقية النسب معروف . هذا ما قيل فى نسبه . وأما ابتداء حاله :

---

(١) انظر الروضتين جـ ١ ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥ .

(٢) « على بن محمد » فى الأصل ، والتصحيح من بيت الشعر التالى ، ومن كنز الدرر جـ ٧ ص ٧ .

ذكر ابتداء حال الملك الأفضل نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه

قال المؤرخ : قدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدّين شيركوه من بلد دَوِين إلى العراق فى خلافة المسترشد بالله[١] ، وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد . فرأى من نجم الدّين عقلاً ورأيا وحُسن سيرة ، وكان أسَنَّ من أخيه أسد الدّين ، فجعله مجاهدُ الدين دُزْدارًا [٢] بقلعة تَكْرِيت [٣] ، وكانت له ، فسار إليها ومعه أسد الدّين .

وقيل بل كان نجمُ الدّين قد خدم السّلطان محمد بن ملكشاه السّلجقى [٤] ، فرأى منه أمانةً وعقلا ، وسدادًا وشهامة ، فولاّه قلعة تَكريت ، فقام بها أحسن قيام . فلمّا وَلِى السّلطان مسعود [٥] أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدّين بهروز ، فأقرّ نجمَ الدّين فى الولاية . وكان أتابك عماد الدّين زنكى بن آق سنقر ، والد السّلطان الشّهيد نور الدّين لمّا انهزم من قراجا السّاقى فى سنة ستٍّ وعشرين وخمسمائة ، كما ذكرناه[٦] ، بلغت به الهزيمة إلى تكريت ، فقام نجم الدّين بخدمته أتمّ قيام ، وأقام له

---

(١) هو أبو منصور فضل المسترشد بالله ، ولى الخلافة العباسية فى بغداد فى الفترة من ٥١٢ - ٥٢٩ هـ/١١١٨ - ١١٣٥ م - تاريخ الدول الاسلامية ص ١٣ .

(٢) « فجعله مستحفظانا » فى الكامل جـ ١١ ص ٣٤١ .
ودزدار : كلمة فارسية بمعنى حاكم حصن .

(٣) تكريت : بفتح التاء ــ بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، ولها قلعة حصينة غربى دجلة ــ معجم البلدان .

(٤) توفى سنة ٥١١ هـ/١١١٧ م ــ انظر نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٣٧٠ وما بعدها .

(٥) عن السلطان مسعود وأخباره ، انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٢ وما بعدها .

(٦) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٤ .

السّفن إلى أنْ عَبَر دجلة ، فكان ذلك سبب وُصلته بالبَيت الأتابكى [١٠٧] وتقدّمه .

قال : ثمّ اتفق بين أسد الدّين وبين قوارص النّصرانى ، كاتب بهروز ، مشاجرةٌ فى بعض الأيام ، فكلّمه النّصرانى بكلمةٍ أمضّته ، فضربَ عُنُقَه بيده ، ورماه برجله [1] فلمّا اتصل الخبر ببهروز وحضر عنده مَنْ حذّره من جُرأة شيركوه وتمكين نجم الدّين واستِحْوازه على قُلوب الرّعايا خافَ عاقبةَ ذلك ، وكتب بالإنكار عليه بسبب ما كان من أخيه ، وعَزَله . فسار نجمُ الدّين أيوب وشيركوه إلى عماد الدين زنكى فى الموصل ، فلمّا وصلاَ إليه سُرَّ بهما وأحسن إليهما ، فأقطعهما الإقطاعات الجليلة ، وشهدَا معهُ حُروب الكفار وقتال الفرنج .

فلمّا ملَك زنكى قلعة بَعلبك ، فى سنة ثلاثٍ وثلاثين وخمسمائة جعل نجم الدّين دُزْدَارًا بها ؛ فأقام بها إلى أن قُتل عماد الدين زنكى ، فى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة . وحَاصَر معينُ الدّين أنر ، صاحب دمشق قلعةَ بعلبك ، حتّى ضاق الأمر على نجم الدّين ، فاضْطُر إلى تَسليمها إليه ، وتعوَّض عنها إقطاعًا وأملاكًا ؛ وكان عندَهُ من الأكابر الأمراء . واتّصل أسد الدين شيركوه بخدمَةِ الملك العادل نُور الدّين محمود بن زنكى ، فجعله مقدَّمًا على عسكره ، وجعل له حمص والرّحبة وغيرهما .

فلما تعلقت همّة نور الدّين بمُلك دمشق أمر أسدَ الدين بمكاتبة أخيه نجم الدّين أيوب فى ذلك ، فرَاسَله ، فأعان نورَ الدّين على فتح دمشق ؛ فعظُم محلُّهُمَا عند نور الدّين . فكان نجم الدين إذَا دخل عليه جلس من غير أنْ يُؤْذن له فى الجلُوس ، ولم تكن هذه الرُّتبةُ لغيره من سَائر الأمراء . فلمّا كان من أمر شاوَر ما قدّمناه وقصَد نورَ الدّين محمود أو استغاث به ،

(١) « فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصرانى . . . وأخذ النصرانى برجله فألقى من القلعة » فى الروضتين جـ ١ ص ٥٣٧ .

أرسل معهُ أسد الدّين بالعساكر ؛ وكان من أمره فى المرّة الأولى ، فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، والمرّة الثانية ، فى سنة اثنتين وستّين ، والمرّة الثالثة فى سنة أربع وستّين وخمسمائة [على] ما قدّمنا ذكره فى أخبار الدّولة العُبيْديّة فى أيّام العاضد لِدين الله .

ذكر وزارة الملك المنصور أسد الدّين شيركوه بالدّيار المصريّة ووفاته

كانت وزارتُه للعاضِد لدين الله فى يوم السّبت لثلاثَ عشْرةَ ليلةً بقيت من شهر ربيع الآخر سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة .

وذلك أنّه لما كان من أمر شاور ومقْتَلِه ما ذكرناه آنفا استَدْعى العاضدُ لدين الله أسدَ الدّين شيركوه ، فدخل إلى القَاهرة فى السّاعة التى قُتِل فيها شاوَر ، فرأى من اجتماعِ العوام ما هَالَهُ ، فخاف على نفسه ، فقال لهم : أميرُ المؤمنين يأمُركُم بنَهب دارِ شاور . فقصدَهَا النّاس ونهبُوها ، وتفرّقوا عنه . ولمّا نزل أسدَ الدّين بدَارِ شاوَر ، وهى دارُ الوزارة ، لم يجد فيها ما يجلس عليه[1] .

قال : ولمَّا تفرق الناس للنهب دخل أسد الدّين على العاضد لدين الله ، فتلقَّاه وخَلَع عليه خِلَع الوزارة ، ولقَّبه بالملك المنصُور أمير الجيوش ، وكتب له تقليدَ الوزارة ، وكتب عليه العاضد بخطه عهدًا : (عهدٌ لم يُعهد لوزير بمثله ، وتقليدُ أمرِ رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله . والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مَرَاشِد سُبُله . فخُذْ كتاب أميرِ المؤمنين بقُوّة ، واسحب ذَيْل الفخار بأن اعْتززت بخدمتك من

(١) انظر ما سبق تحت عنوان ذكر مقتل شاور .

النّبـوة[١] ؛ واتّخذ الفـوزَ سبيلا « وَلاَتَنْقُضُـوا الأَيْمَانَ بَعْـدَ تَوْكِيـدِهَا وَقَدْجَعَلْتُم اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً »[٢] .

وخرجَ من عند العَاضد وركب إلى دار الوزارة وسكنها ، واستقلّ بالأمر . واستعمل على الأعْمال من يثقُ به من كُفاةِ أصحابه ، وأقْطَع البلاد لعساكره . وأرْسَل إلى ديوان الإنشاء بالقصر يطلُب منْ يكتُب بين يديه ، فـأرْسل إليـه متولى الـديوان القـاضىَ الفاضـلَ عبدَ الـرَّحيم البَيْسَانى ؛ وظَن رؤساء ديوان المكاتبات أنّ هذا الأمر لا يتمّ ، وأن[٣] أسَد الدّين يُقْتَل عن قريب كمـا قُتِل غيـره ، فأرْسَلُوا إليـه القاضى الفاضل وقالوا لعلّه يُقتل معه . فكان من أمره ما كان .

ولم تُطلْ مدّة أسد الدّين فى الوزارة بل انقَضَتْ أيـامُه ، وفـاجأه حمامه ، فتوفّى فى يوم السّبت لثمـانٍ بقين من جُمادى الآخـرة من السّنة .

واخْتُلِفَ فى سبب وفاته ، فقِيل إنّه مات فجأةً ، وقيل بعلّة الخوانيق ، وقيل بل سُمَّ . فكانت مدّةُ وزارته خمسًا وستّين يومًا[٤] ؛ وعُمل عزاؤه ثلاثة أيام ، وحمل إلى المدينة النبوية ، على سـاكنها أفضـل الصّلاة

---

(١) « اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة » فى الروضتين جـ ١ ص ٤٠٢ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠٢ .

(٢) سورة النحل رقم ١٦ جزء من الآية رقم ٩١ .
وقارن نص المنشور وما كتب عليه الضد بخطه فى صبح الأعشى جـ ٩ ص ٤٠٦ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠٢ ، الروضتين جـ ١ ص ٤٠٢ ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٦٥ ، تاريخ ابن الفرات المجلد الرابع الجزء الأول ص ٣٤ ـ ٤٤

(٣) « فان » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق ، وما ورد فى الروضتين جـ ١ ص ٤٠٣ .

(٤) « ثلاثة وستين يومًا » فى اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٠٤ .

والسّلام ؛ ودُفن هناك برباط الوزير [١٠٨] جمال الدّين وزير الموصل [١] .

ولمّا مات أسد الدّين شيركوه استقرّ فى الوزارة بعْدَه الملك النّاصر صلاح الدّين يُوسف بن أيّوب .

ذكر أخبار الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف

ابن الملك الأفضل نجم الدّين أيّوب ووزارته بالدّيَار المصريّة

كانت وزارته بالدّيار المصرية عقب وفاة عمّه الملك المنصور أسد الدّين شيركوه وقد تطاول [٢] جماعةٌ من الأمراء النّورية للوزارة ؛ منهم عين الدولة اليَارُوقى ، وقطب الدّين قايماز ، وسيف الدّين المشطوب الهكّارى ، وشهاب الدّين محمُود الحَارِمى ، وهو خال صلاح الدّين ؛ وخطبها كلٌّ منهم لنفسه . فأشار جماعةٌ من المصريّين وخواصّ العاضِد لدين الله على العاضد أنْ يَولّىَ صلاحَ الدّين ، وقالُوا : إنه أصغر الجماعة سنًّا ولايخرُج من تَحْتِ أمرِ أمير المؤمنين . فإذا استقرّ وضَعْنا على العساكر مَن يَسْتميلُهُم [٣] إلينا ، فيبقى عندنَا من الجُند مَنْ نتقوى

(١) هو محمد بن على بن أبى منصور ، جمال الدين أبو جعفر ، وزير الموصل ، توفى سنة ٥٥٩ هـ/١١٦٣ م - الروضتين جـ ١ ص ٣٤٣ - ٣٥٦ ، الكامل جـ ١١ ص ٣٠٦ ـ ٣١٠ ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١٤٣ رقم ٧٠٤ .

(٢) « تطاوله » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٣) « تسليمهم » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

به ، ثم نأخذ يوسُف بعد ذَلك أو نخرجُه فإنّ أمرَه أسهـل من غيره ، فاستدعَاهُ العاضدُ لدين الله ، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة . ولقّبه بالملك النّاصر[1]، فلم يُطِعْه أحدٌ من الأمراء الذين كانـوا تطاوَلُـوا للوزارة ولاخَدَمُوه .

وكان الفقيه عيسَى الهكّاري[2] معه ، فسعَى مع الأمير سيف الدّين على بن أحمد المشطوب حتّى استماله إليه ، وقال له : إنّ هذا الأمرَ لا يصلُ إليك مع اليارُوقى والحارِمى وغيرهما . ثمّ اجتمع بالحَارِمى وقال له مثلَ ذلك ، وقال له : إن صلاحَ الدّين ولدُ أختك ، وعزُّه وملكُه لك ، وقد استقام لهُ الأمرَ ، فلا تكُنْ أوّلَ من سعى فى إخراج الأمر عنه . واجتمع بالأمراء واستمالَهمُ . فأطاعهُ بعضُهم وعصى بعضهم .

فأمّا اليارقى فإنه قال : لا أخـدُم يوسفَ أبـدًا ، وعاد إلى الملك العادل نور الدّين هو وجماعة من الأمراء . وصار صلاحُ الدّين نائبًا عن الملكِ العادلِ نور الدّين ، والخطبة لنور الدّين ولا يكاتبه إلا : « بالأمير الأسفهسلار[3]صلاح الدّين وكافة الأمراء بالدّيار المصرية . يفعَلُون كذَا وكَذَا » . ويفعل علامته فى الكُتُب ، عظمةً أن يكْتُبَ اسمه .

ولمّا وزَر صلاح الدين ثبتَ قدمهُ ، واستمالَ قُلوبَ الناس بالأموال فمالُوا إليه فقوِى أمره ، وضعف أمُر العاضد .

---

(١) انظر نص منشور تعيينه صلاح الدين وزيرًا فى صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٩١ ـ ٩٨ ، تاريخ ابن الفرات المجلد الرابع الجزء الأول ص ٥٧ ـ ٦٣ .

(٢) هو عيسى بن محمد بن عيسى ، الهكارى ، توفى سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م ــ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٤٩٧ رقم ٥١٦ .

(٣) الاسفهسلار : كلمة تركية مركبة بمعنى مقدم العسكر ، وصاحب هذه الوظيفة زمام كل زمام ، وإليه أمر الأجناد ، والتحدث فيهم ــ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٩ .

ذكر مقتل مؤتمن الخلافة جوهر ، زمام القصور وانتقال وظيفته إلى قراقوش الأسدى وحرب السّودان

كان مقتلُ مؤتمن الخلافة فى يـوم الأربعاء لخمسٍ بقِينَ من ذى القعدة ، من سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة .

وسبب ذلك أن الملك الناصر شرع فى نقض[1] إقطاع المصريين ، فاتفق هذا الخادمُ مع جماعةٍ من الأمراء المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى الديار المصرية ، والاعْتضَاد بهم على صلاح الدين ومَنْ معه ؛ وأرْسَل الكتب مع إنسان ، فجعلها فى نعلٍ ولَبِسه ، وسار على أنه فقير رثُّ الهيئة . فلما وصل إلى البَيْضَاء[2] وجده تُركُمَانى ، فأنكر حاله إذ هو رثُّ الهيئة جديدُ المَدَاس . فأخذ مَدَاسَه وفَتَقه ، فوجد الكتب فيه ، فحمله بها إلى الملك النّاصر ، فوقف عليها ، وكتم الأمر ، وقرَّر الرجل بالعُقوبة ، فأقَرّ أنّ الكتب بخط رجُلٍ يهودى ، فاستحضره ، فأقرّ بها . ثم قتل صلاح الدّين القاصد . واستشعر مؤتَمنُ الخلافة من الملك النّاصر ، فلزم القصُور واحترَزَ على نفسه ، فكان لا يخرج منها . فلمّا طال ذلك عليه خرَج فى هذا اليوم لِقصرٍ[3] له بالخرقانيّة ، فأرسل إليه الملكُ النّاصر جماعةً فقتلوُه ، وأتَوْه برأسِهِ ، فـرتّب حينئذٍ على أزمّـة

(١) « بعض » فى الأصل ، والتصحيح من الروضتين جـ ١ ص ٤٥٠ ، وانظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١١ .

(٢) « البئر البيضاء » فى الروضتين جـ ١ ص ٤٥٠ ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١٢ .
وهى موضع قرب بلبيس بينها وبين الخانكة على الطريق بين القاهرة وغزة ـــ معجم البلدان .

(٣) « وخرج إلى منظرة له على النيل ، بستان بناحية الخرقانية ، قريبًا من قليوب » ـــ اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١٢ .

القصور قراقوش الخصيّ ، وكان من مماليك عمّه أسد الدين ليطالعه بما يتجدّد بالقصور .

قال : ولما قُتل مؤتمن الخلافة ثار السّودان لذلك وأخذتهم الحميّة ، وعظُم عليهم قتلهُ ، لأنّه كان رأسهم ورئيسهم ، فحشَدُوا واجتمعوا ، فزادت عدّتهم على خمسين ألف عبد ؛ وكانوا أشدّ على الوزراء من العسكر . فندب الملك الناصر العسكر لقتالهم ، وقدّم على العسكر أبا الهيجاء السّمين ؛ فالتقَوْا بين القصْرَيْن واقتتلوا ، فقتِل من الفريقين جمع كثير . [١٠٩] فلمّا رأى الملكُ النّاصر قوّتهم وشدَة بأسِهم أرسل إلى محلّتهم المعروفة بالمنصورة[١] ، خارج باب زويلة ، فأحرقها ؛ فاتّصل ذلك بهم ، فضعُفَت نفُوسُهم ، فانهزموا إلى محلّتهم فوجدُوا النّيران تُضْرم فيها . واتّبعهم العسكر فمنعهم من إطفائها[٢] . ودام [القتال][٣] بينهم أربعة أيّام ، نهارًا وليلاً ، إلى يوم السّبت الثامن والعشرين من ذى القعدة ؛ فخرجُوا بأجمعهم إلى الجيزة وقد أيقنُوا بالهلاك ، وخرج إليهم تورانشاه أخو الملك النّاصر فقَتَلهم ، ولم يَنْجُ منهم إلا اليسير . وكتب الملك الناصر إلى وُلاة البلاد بقَتْل من يجدونه منهم ، فقُتلوا من عند آخرهم .

وبقى الملك النّاصر يخشى من أهل القصر لِمَا فعله بمؤتمن الخلافة جوهر ، فكان جوهر هذا سببَ زوال مُلك الدولة العُبَيديّة وجوهر القائد سببَ مُلك المعزّ للبلاد ؛ فَشتّان بين الجوهرين .

---

(١) المنصورة = الحارة المنصورية ، على يمنة من سلك فى الشارع خارجًا من باب زويلة ، وكانت حارة متسعة جدًا فيها مساكن السودانيين ، خربها الأمير خطاب بن موسى بأمر صلاح الدين ــ بعد هذه الوقعة ــ وصيرها بستانًا ـ المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) « الطفى » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح .

ذكر الحوادث فى الأيام النّاصريّة غير الفتوحات والغزوات

لم نقدِّم هذه الحوادث التى نذكرُها الآنِ على الغزوات والفتوحات إلا أنها سابقةٌ على ذلك فى التّاريخ ، ولِأنّـا أردنا أنْ نُفـرِدَ غزواتـهِ وفتوحاتِه ليأْتى الكلامُ عليها سياقةً يتلُو بعضُه بعضًا ، ولا ينقطع بغيره ، فكان ممّا نذكره :

ذكر وصول الملك الأفضل نجم الدّين أيّوب والد الملك النّاصر إلى الديار المصرية

كان الملك النّاصر قد كتب فى طلب والده ، رحمهما الله تعالى ، فوصل بأولاَده وأهله إلى القاهرة فى السّابع والعشرين من شهر رجب سنة خمسٍ وستين وخمسمائة ؛ ولمّا وصل تلقّاه الخليفةُ العاضد لدين الله بظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهليلج[1] ، ولم تجر بمثل ذلـك عادة ، فكان يومًا مشهودًا . وخَلَع العاضدُ عليه ، ولقّبه الملك الأفضل ، وحمل إليه من أنواع التحف والألطاف شيئًا كثيرًا ؛ وأقطعه الإسكندريّة ودمياط والبحيرة ، وأقطع ولده شمس الدولة ، أخـا النّاصـر ، قوص وأسوان وعيذاب ، وكانت عبرتها يوم ذاك مائتى ألف وستّةً وستّين ألف دينار[2] .

ذكر إبطال الأذان بحىّ على خير العمل

قـال المؤرخ : ولِعَشْرٍ مضيْنَ من ذى الحجّـة سنة خمسٍ وستّين وخمسمائة أمر الملك النّاصر أنْ يسقط من الأذان قولُهم « حَىّ على

---

(١) صحراء الإهليلج : شرقى الخندق فى الرمل ، وكانت تنتهى إليها عمارة الحسينية من جهة باب الفتوح ، وكان بها شجر الإهليلج الهندى فعرفت بذلك ، وهو من جملة بستان ريدان الذى يعرف بالريدانية ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٣٨ .

(٢) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١٧ ، الروضتين جـ ١ ص ٤٦٥ ، النوادر السلطانية ص ٣٤ ـ ٣٥ .

خير العمل ، محمّد وعلىّ خير البشر » . وكانت أوّل وصْمةٍ دخلت على الشّيعة والدّولة العُبيديّة ؛ ويئسوا بعْدها من خيرٍ يصلُ إليهم من الملك النّاصر . ثم أمر أنْ يُذكر فى الخطبة بكلام مُجْمَلٍ ، ليُلْبِس على الشّيعة والعامّة : اللّهم أصلِحْ العاضدَ لدينك [١] .

ذكر ما أنشأه الملك النّاصر صلاح الدّين بالقاهرة ومصر من المدارس والخوانق

قال المؤرخ : وفى أوّل سنة ستٍّ وستين وخمسمائة أمر الملك النّاصر بهَدْم دارِ المعونة [٢] المجاورة للجامع العتيق بمصر . ودارُ المعونة هى المكان الذى يعتقل فيه النّاس . وأمر ببنائها مدرسة لطائفة الفقهاء الشافعية ، وتعرف هذه المدرسة بابن زين التجّار [٣] . وإنّما عُرفت به لأنه درس بها .

ثم عمر دار الغزل المجاورة لباب الجامع المعروف بباب الزكخته مدرسةً للطائفة المالكيّة [٤] ودرس فيها ابن أبى المنصور .

وفيها اشترى تقىّ الدّين عُمر بن شاهنشاه ، ابن أخى صلاح الدّين ، الدّار المعروفة بمنازل العّز [٥] بمصر ، وبناها مدرسةً للطائفة الشافعيّة .

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٢) دار المعونة = حبس المعونة ، بالفسطاط ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٨٧ .

(٣) مدرسة ابن زين التجار = المدرسةالناصرية = المدرسة الشريفية : وهى أول مدرسة أنشئت بالفسطاط ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .
وابن زين التجار هو أحمد بن المظفر بن الحسين ، أحد أعيان الشافعية ، توفى سنة ٥١٩ هـ/١١٩٤ م ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٣ .

(٤) المدرسة القمحية بالفسطاط : بجوار الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٤ .

(٥) مدرسة منازل العز بالفسطاط : انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٤ .

وكانت هذه الدّار يسكنها الأمير ناصر الدولة بن حمدان فى الأيّام المستنصرية ؛ وقد تقدّم ذكر ذلك .

ثم أمر الملك النّاصر ببناء مدرسةِ الشافعىّ والبيمارستان ، وعمّر الخانقاه المعروفة بسعيد السعداء على ما يأتى ذكر ذلك .

وفى [هذه](١) السّنة أيضا أبطل الملك النّاصر مجلس الدّعوة من الجامع الأزهر وغيره ، وكان [١١٠] من سُنَّة الدّولة العُبيديّة أن يقيموا لهم دُعاةً كالخطباء والله أعلم .

ذكر تفويض القضاء بالدّيار المصريّة للقاضى صدر الدّين بن درباس

وفى سنة ستٍّ وستّين وخمسمائة فى ثامن عشرى جمادى الآخرة فوّض السّلطان الملك النّاصر القضاء بالدّيار المصريّة إلى القاضى صدْر الدّين أبى القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الماردَانى ، فاستمرّ إلى آخر الأيّام النّاصرية .

وفى سنة سبعٍ وستين وخمسمائة ، فى سابع المحرم قُطعت خُطبة العاضد لدين الله ، ومات فى يوم عاشوراء كما قدّمناه .

وفيها فى الثّالث عشر من جمادى الأولى كُشِفَ حاصلُ الخزائن بالقصور ، فوُجد فيها مايزيد على مائة صندوق ، ومن الذّخائر النّفيسَة ما لامزيد عليه .

وفيهـا فى صفر أَمَـرَ الملكُ النّاصـر بإبـطال المكُوس بـالقاهـرة والأعمال عن التّجار المتـردِّدين إليها وإلى سـاحل المقسم صـادرًا وواردًا ، فكان مبلغُ ذلك مائةَ ألف دينار عينا .

---

(١)[ ] إضافة يقتضيها السياق .

وفيها رُسم بتحويل سنة خمس وستّين الخراجية إلى سنة سبع وستين الهلاليّة ، وكانت قد حُوّلت فى سنة خمسمائة فى أيام الأفضل أمير الجيوش[١] .

ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب

كانت وفاتُه رحمه الله تعالى فى يوم الثّلاثاء السّابع والعشرين [٢] من ذى الحجة سنة ثمانٍ وستّين وخمسمائة . وذلك أنّه ركب من داره ، فلمّا انتهى إلى باب القصر فى وسط المحجة شبَّ به فرسُه فسقط عنه ، فحُمل إلى منزله ، فعاش ثمانيةَ أيّام ومات فدُفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدّين فى الدّار السّلطانية ، ثم نُقلا إلى المدينة النبويّة ، على ساكنها أفضل الصّلاة والسّلام ، وقُبرا فى تُربة الوزير جمال الدين الأصفهانى وزير الموصل رحمه الله .

وفى سنة تسع وستّين وخمسمائة أمر الملك النّاصر ببيع الكتب التى بخزانة القصر [٣] ، فكانت أكثر من مائة ألف كتاب من سائر المصنفات ، فأبيعت بأخَسِّ الأثمان .

ذكر عمارة قلعة الجبل والسّور

وفى سنة تسع وستين وخمسمائة أيضًا أمر الملك النّاصر بعمارة قلعة الجَبَل والسّور الدّائر على القاهرة ومصر ، وجعل مبدأه من شاطىء

(١) انظر ما سبق عن تحويل السنة الخراجية إلى السنة الهلالية .

(٢) « ثامن عشر ذى الحجة » كنز الدرر جـ ٧ ص ٥٠ .
ويذكر أبو شامة أن نجم الدين وقع من على فرسه فى ١٨ ذى الحجة ، وتوفى فى ٢٧ منه ـــ الروضتين جـ ١ ص ٥٣٣ .

(٣) عن خزانة الكتب التى كانت بالقصر انظر الروضتين جـ ١ ص ٥٠٧ ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٠٣ .

النّيل إلى شاطئه . فكان دَوْرُ السّور على القاهرة ومصر والقلعة تسعة وعشرين ألف ذراع ، وثلاثمائة ذراع وذراعين . من ذلك ما بين قلعة المقسم والبرج بالكوُم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع ؛ ومن القلعة بالمقسم إلى حائط قلعة الجبل ثمانية آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع واثنان وتسعون ذراعا ؛ ومن حائط قلعة الجبل إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع . ودائرُ قلعة الجبل ثلاثة آلاف ومائتا ذراع وعشرة أذرع ، كل ذلك بالذراع الهاشمى . وتولّى عمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، وحفر فى رأس الجبل بئرًا يُتوصل إلى مائها المعين من دَرَج منحوتةٍ من الجبل ؛ وتوفى الملك الناصر قبل أن تكمل عمارته[1] .

وفيها أمر ببناء المدرسة عند تربة الإمام الشّافعى رحمه الله ، وتولاها الفقيهُ الزاهد نجم الدين الخبُوشانى .

وأمر باتّخاذ دارٍ فى القصر بيمارستانًا للمرضى ، ووقَفَ على ذلك وقوفا . وهذا البيمارستان يُسمَّى فى وقتنا هذا البيمارستان العتيق[2] .

وفيها أسقط مكوس مكّة ، شرّفها الله تعالى ، المقررة على الحاج وعوض أميرها عن ذلك فى كل سنة ثمانيةَ آلاف إردب قمحًا تُحمل إلى ساحل جدة ، وعيَّنَ لذلك ضِياعًا بالدّيار المصرية وقرّر أيضا حَمْل غلاّتٍ إلى المجاورين بالحرمين الشريفين والفقراء ؛ فقال الشيخ أبو

---

(١) عن قلعة الجبل انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٠٣ ، وانظر أيضًا كريز ويل : وصف قلعة الجبل (ترجمة جمال محرز) ، كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة الجبل ، ترجمة أحمد دراج .

(٢) وذلك تمييزًا له عن البيمارستان المنصورى ــ انظر الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ١٥٥ ــ ١٥٦ .

وعن بيمارستان صلاح الدين انظر المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٠٧ ، صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٦٥ .

الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسى[1] فى ذلك من قصيدة يمدح بها الملك الناصر :

رفَعْت مكارم مَكْس الحجازِ بإنْعَامِك الشَّامِل الغَامر
وأمَّنتَ أكنَافَ تلك البِلادِ فهان السَّبيلُ عَلى العَابر
وسُمت أيَاديك فيَّاضَةً على وَاردٍ وعَلى صَادِر
فكَمْ لَكَ بالشَّرق من حَامِدٍ وكمْ لكَ بالغَرْب من شَاكر

ذكر قتل جماعةٍ من المصريين

وفى سنة تسع وستين وخمسمائة أيضا ، فى ثانى شهر رمضان صُلب جماعة مِمَّن أرادَ الوُثوب بمصر من أصحاب الخلفاء العُبيديّين . وسببُ ذلك أن جماعةً من شيعتهم ، منهم عمارة اليمنى الشاعر ، وعبد الصّمد الكاتب ، والقاضى الأعزّ سلامة المعروف بالعوريس[2] ، والقاضى ضياء الدّين نصر بن عبد الله بن كامل ، وداعى الدعاة ، وغيرهم من جند العُبَيديين ورجال السّودان وحاشية القَصْر ومَنْ وافقهم من الأمراء الصّلاَحية والجند — اتَّفق رأْيهم على استدعاء الفرنج من جزيرة صقليَّة ومن سواحل الشّام إلى الديار المصريّة على شىء بذلُوه لهم من المال والبلاد ، وقرّروا أنّ الملك الناصر إذَا خرج إليهم بنفسه ثار هؤُلاء بالقاهرة ومصر وأعادُوا الدولة العُبَيديّة ، العلوية بزعمهم ، ويعود مَنْ معه من العساكر الذين وافقُوهم عنْهُ فلا يَبْقى له مُقام بالبلاد . وإنْ أقام هو وأرسل العساكر إليهم ثارُوا به فأخذُوه باليد . وقال لهم عمارة : وأنا فقد أبْعَدْتُ أخاه إلى اليمن خوفًا أن يسدَّ مسدّه ، وتجتمع الكلمة عليه بعده . وأرسلوا إلى الفرنج وتقرّرت هذه القاعدة بينهم .

---

(١) توفى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م — انظر مقدمة رحلة ابن جبير ص ٥ وما بعدها .

(٢) « العويرسى » فى الكامل جـ ١١ ص ٣٩٨ .

قال : وكان ممن أدخلُوه معهم فى هذا الأمْر زَين الدّين علىّ[١] بنُ نجا الواعظ ، وهو القاضى ابنُ نجيّة ، ثمّ اختلفُوا فى وزارة الخليفة ؛ فقال بنو رُزّيك : يكون الوزير منّا . والقاضى ؛ وقال بنوشاور : بل يكُون الوزير منّا فحضر ابنُ نجا إلى الملك النّاصر وأعْلَمه بصُورة الحال ، فأمره بمُباطَنتهم وموافقتهم ، ومطالعته بأحوالهم . ففعل ذلك .

ثم وصل رسولٌ من مَلِك الفرنج إلى الملك النّاصر بهدَايا ، وهو فى الظّاهر لهُ وفى الباطن لهؤلاء ، فوضع الملكُ النّاصر عليه من النّصَارى من داخله وباطنه ؛ فذكر له الحال على جليّته ، فأعلم به الملك النّاصر . فلما تحقّقه قبض على هؤلاء وصَلَبهم ، فكان ممن صُلِب عمارة اليمنى ، وعبد الصّمد الكاتب ، والقاضى الأعز العوريس ، وغيرهم[٢] .

وجاء عمارة إلى باب القاضى الفاضل لمّا مُسك ، فاحتجب عنه ، فقال عمارة :

عبدُ الرّحيم قد احتَجبْ
إنّ الخَلاَص من العَجبْ[٣]

ونُودى فى أجناد المصريين بالرّحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصى الصّعيد ، واحتاط الملكُ النّاصر على مَنْ بالقصر من سُلالة العَاضد

(١) هو على بن إبراهيم بن نجا ، الفقيه الحنبلى ، المعروف بابن نجية ، زين الدين أبو الحسن ، المتوفى سنة ٥٩٩ هـ/١١٦٣ م ـ شذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٤٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٨٣ .

(٢) عن صلب عمارة الشاعر اليمنى وأصحابه انظر الروضتين جـ ١ ص ٥٦٠ ـ ٥٧٧ . وعن هذه المؤامرة انظر السلوك جـ ١ ص ٥٥ ـ ٥٧ ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٨٧ ، الكامل جـ ١١ ص ٣٩٨ ـ ٤٠١ ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٥٩ .

(٣) « هو العجب » فى الروضتين ، والكامل .

وأهله . وأمَّـا مَن كان قـد وَافَقهم من أصحابـه فلم يُخاطبهم فى ذلـك ولا أوْهمهم أنَّه عَلِم به . وبَلَغ ذلك فرنـج السّاحـل فلم يتحركـوا من أماكنهم ، وأما فرنج صقليّة فإنهم قصدُوا ثغر الإسكندريّة على ما نذكره .

وفى سنـة سبعين وخمسمـائة ، فى أوائلهـا ، خالف الكنـزُ[١] ، أمير العرب ، على الملك النّاصر بصعيد مصر ، واجتمع معه جماعةٌ كبيرة من رعَايا البلاد والعُربان والسّودان وغيرهم ، وقَتَل أخا الأمير أبى الهيجاء السّمين ، وكان قد توجّه لإقطاعه بالصّعيد . فعظُم قتلُه على أخيه ، وكان من أكابر الأمراء النّاصريّة ، فَسَار إلى قتال الكنز . ونَدَب معـه الملك الناصر جماعةً من الأمراء والعسكر ، فوصلُوا إلى مدينة طُود ، وهى على مسافةِ يوم من مدينة قوص إلى جهة الصّعيد ، فامْتنَع مَنْ بها عليهم ، فقاتلُوهم وظَفِرُوا بهم وقتلُوا كثيرًا منهم ، وأخْرَبوا البلدَ ، فهى إلى وقتنا هذا تُعرف بطُود الخراب ، وغيطانُها عامرة . ثمّ سار العسكـر منها إلى الكنز ، فقاتلُوه ، فقُتِل هو ومَن مَعَه من الأعراب ، وأمِنَت البلاد واستقرّ أهلها[٢].

وفى سنة سبعٍ وسبعين وخمسمائة ظهر بالدّيار المصرية فأرٌ كثير جدًّا . قال القاضى الفاضل عبْدُ الرحيم : حدّثنى مَنْ شاهد هذا الفأر وهو يرحَلُ من بقعة إلى أخرى فيغطّى الأرض بكمالها حتى لا يظهر منها شىءٌ ألبتّة

(١) كنز الدولة : لقب منحه لأول مرة الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله لحاكم النوبة فى عهده أبو المكارم هبة الله بن محمد بن على عندما قبض على الثائر أبى ركوة وأرسله إلى الحاكم ــ انظر ما سبق ــ وكان آخر من لقب منهم بهذا اللقب كنز الدولة المعاصر لصلاح الدين ، والذى قتل سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م ــ البيان والإعراب ص ٥٠ . وبنو كنز أو الكنوز هم سلالة العرب بعد اختلاطهم بالنوبيين ولا زالت قبيلة الكنوز تعيش حتى اليوم جنوبى أسوان ــ انظر تاريخ دولة الكنوز الإسلامية .

(٢) انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٦ وما بعدها ، الروضتين جـ ١ ص ٦٠٠ وما بعدها .

وأنه شاهده يمرُّ بأماكن فلا يُلِمُّ بها ولايخرجُ عليها والزُّروع بها محصورة ، ويمرّ بأُخرى فلا يلبثُ أن يُفسِد جميعَ ما فيها ولا يرتحلُ عنها وبها شيءٌ من الزّرع ولا المقات بالجملة .

وفى سنة تسع وسبعين وخمسمائة [١١٢] ظهر بأبوصير السدر(١) من أعمال الجيزة بيت أشاع النّاس أنّه بيت هرمس ، ففُتح بحضُور القاضى نظام الدّين بن الشّهْرزورى وأُخْرِجَ منه أشياء ، من جملتها صُور كِبَاش وضفادع بأزْهُر ، وقواريردهنج ، وفلوس من فضّـة ونحاس ، وأصنـامٌ نحاس وياقوت ، وغير ذلك من الذّهب والفضة والتّحف القديمة ووُجِد فيه خلقٌ كثير من الأموات .

وفى سنة ثمانين وخمسمائة فى يوم الاثنـين مستهلّ المحـرم دُرِّس فى المدرسَة الفاضلية(٢) الّتى أنشأها القاضى الفاضل عبدُ الرّحيم بالقاهرة بدرب مُلوخيّا ؛ ورُتِّب فيها لإقراء كتاب الله تعالى الشيخ الإمام العالمُ الزّكى أبو [محمد](٣) القاسم بن فيرُّه الرُّعَيْنى الشّاطبى ؛ وفى التّدريس على مذهبى الشّافعى ومالك الفقيه أبو القاسم عبد الرحيم بن سلامة الإسكندرى ، رحمهما الله تعالى .

وحيث ذكرنا هذه النّبْذة من الحوادث الّتى اتّفقت فى خلال دولته ، فلنذْكر ما استولى عليه من البلاد الإسلاميّة .

---

(١) أبو صير السدر : من القرى القديمة ، التابعة لمركز الجيزة بمحافظة الجيزة ــ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ٣ .

(٢) عن المدرسة الفاضلية بالقاهرة ، انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٦ .

(٣) [ ] إضافة لتصحيح الاسم .
وهو القاسم بن فيرة ، أبو محمد الشاطبى ، المتوفى سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٤ م ــ وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٧١ رقم ٥٣٧ .

ذكر ما استَوْلى عليه الملكُ الناصر من البلاد الإسلامية بنفسه وأتباعه

كان من البلاد التى خُطب بها للملك النّاصر صلاح الدّين يوسف طرابلس الغرب وبعض بلاد إفريقية ، منها مدينة قَابِس [١] .

وسبب ذلك أن شرف الدين قراقوش مملوكُ تقىّ الدين عمر [٢] ، ابن أخى الملك النّاصر ، توجّه فى سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة فى طائفةٍ من الأتراك إلى جبال نَفُوسَة [٣] ، واجتمع به مسعُود بن زِمام المعروف بالبَلاط ، وهو من أعيان أُمراء تلك النّاحية ، وكان خارجًا عن طاعة [ابن] [٤] عبد المؤمن . فاتّفقا وكثُر جمعها ، ونزَلاَ على طرابُلس الغرب ، فحاصراهَا مدّةً وضيّقا على أهلها ، ثمّ فتحاها ، فا ستَوْلى قراقوش عليها ، وأسْكنَ أهلَه بقصرها . ثمّ ملك كثيرا من بلاد أفريقية إلا المهديّة وسَفَاقُس وقَفْصَة وتُونس وما وَالاَها مِن القُرى والمواضع . وكَثُر جمعُ قراقوش ، فحكم علَى تلك البلاد ، وجمع أموالاً عظيمة وجعلها بمدينةقَابِس ، وقَوِيت نفسُه ، وطمع أنّه يستولى على جميع أفريقيّة لبعد ابن عبد المؤمن عنها واشتغاله بِجهاد الفرنج . ثم جاء نورابه مملوك تقىِّ الدين أيضًا ، بطائفة من التُّرك فزَاد بهم قوّةً إلى قوّته . ثم اجتمع الأتراكُ وعلىّ

---

(١) قابِس : بكسر الباء الموحدة ، مدينة بين طرابلس وسفاقس ، على ساحل البحر ، غربِى طرابلس الغرب ــ معجم البلدان .

(٢) هو عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، توفى سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م ــ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٤٥٦ رقم ٥٠١ .

(٣) جبال نفوسة : بالفتح ثم الضم والسكون وسين مهملة ، جبال فى المغرب بين مدينتى طرابلس والقيروان ــ معجم البلدان .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح ــ انظر ما يلى .
وهو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، الذى تولى زعامة الدولة الموحدية فى الفترة من ٥٥٨ ـ ٥٨٠ هـ/١١٦٣ ـ ١١٨٤ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ٥٤ .

ابن إسحاق الملثّم [المعروف بابن غانيـة][(١)] وملكوا بجـاية فى سنـة ثمانين ، وانقادُوا إلى الملثّم واستعانوا به ، لأنّه من بيت المملكة والرئاسة القديمة ، ولقّبوه بأمير المسلمين ؛ وقصدُوا بلاد أفريقية فملكوها شـرقًا وغربا إلا تونس والمهديّة فإنّ الموحّدين حفظوها .

ولمّا حصل استيلاؤهم على بلاد أفريقية قُطعت خطبة أولاد عبد المؤمن وخُطب للنّاصر لدين الله العبّاسى ؛ وقصدُوا مدينة قَفْصة فتسلّموها فى سنة اثنتين وثمانين ؛ وأقام بها طائفةٌ من الملثمين والأتراك .

فلمّا اتّصلت هذه الأخبار بالأمير يَعقوب بن يُوسف بن عبد المؤمن[(٢)] اختار مِن عسكره عشرين ألفَ فارس من الموحّدين ، وسار بهم فى صفر سنةَ ثلاثٍ وثمانين ، فوصل إلى مدينة تونس . وأرسل ستّة آلاف مع ابن أخيه فساروا إلى الملثم والأتراك بقَفْصة ، فهزمهم الملثم ومَنْ معه فى شهر ربيع الأول من السّنة . فجاء يعقوبُ بن يوسف بمَن معه فى نصف شهر رجب منها ، والتَقَوْا على مدينة قَابِس ، فانهزم الأتراك والملثم ، وقُتل كثير منهم . وفتح يعقوب قَابِس ، وأَخَذ أموال قَرَاقـوش وأهله وحَملهم عَلَى مراكش . وحَصَر مدينة قَفْصة ثلاثة أشهر وبها التُرك ، فطلبوا الأمانَ لهم ولأهلِ البلد ، فأمّنهم وسيّر الأتراكَ إلى الثغور لِمَا رأى من شجاعتهم .

هذا ما اتّفق لهذه الطائفة ، وإن كانت هذه الفتوحاتُ لا تختَصّ كلّها بالدّولة الأيوبية ، إلا أنهم كانوا سببًا ، وهم الّذين استولَوْا على البلاد كما ذكرنا فأوردنَاها فى أخبارهم .

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح من الكامل جـ ١١ ص ٥٠٧ .
وكان ملكهم بجاية بعد وفاة يوسف بن عبد المؤمن وتولية ابنه يعقوب ــ انظر وفيات الأعيان جـ ٧ ص ٤ .

(٢) ولى فى الفترة من ٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ/١١٨٤ ـ ١١٩٩ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٥٤ .

[١١٣] ذكر استيلائه على اليمن

وفى سنة تسع وستّين وخمسمائة جهَّز الملك النّاصرُ أخاه الملك المعظّم شمس الدّولة تورانشاه [١] إلى اليمن ، فسار فى مستهلّ شهر رجب . وكان عُمارة اليمنى الشّاعر يذكر له البلاد ويحسّنها له ويحثّه على قصدها ، ويعظّم مملكتها . فسار ووصل إلى مكة شرّفها الله تعالى ، ومنها إلى زَبيد [٢] وبها صاحبها عبد النبىّ المتغلب عليها [٣] . فلمّا قرُب منها ورأى أهلها انهزموا ، فوصل المصريون إلى سُور زَبيد فلم يجدُوا عليه مَنْ يمانع عنه ، فنصبوا السّلاليم وصعدُوا عليها إلى السّور فملكوا البلد عَنْوةً ونهبُوه ، وأسِر المتغلب عليها عبد النّبىّ وزوجتُه المدعوة بالحيرة ، وكانت امرأةً صالحةً كثيرة الصدقة . وسلّم شمسُ الدّولة عبدَ النّبى إلى سَيف الدّولة مبارك بن كامل بن منقذ ، وهو من أمرائه ، وأمره أن يستخرج منه الأموال ، فاستخرج منه شيئًا كثيرا وأظهر دفائن كانت له . ودلّتهم الحيّرة على ودائعَ لها كثيرة . ثم أصلح أمر زَبيد وخطب بها للنّاصر لدين الله [٤] .

ثم سار إلى ثغر عدن ، وهى فُرْضَة [٥] الهند والزّنج والحبشة وعُمان وكِرمان وكشّ وفارس وغير ذلك ؛ وهى من جهة البّر من أمنع البلاد

---

(١) توفى سنة ٥٧٦ هـ/١١٨٠ م ــ وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٠٦ رقم ١٢٧ .

(٢) زَبيد : بفتح أوله وكسر ثانيه ــ مدينة مشهورة باليمن فى مواجهة ساحل باب المندب ــ معجم البلدان .

(٣) هو عبد النبى بن على بن المهدى ، حكم زبيد فى الفترة من ٥٥٨ - ٥٦٩ هـ/١١٦٢ - ١١٧٣ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٠٢ .

(٤) هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ، الخليفة العباسى فى بغداد ، الذى ولى فى الفترة من ٥٧٥ - ٦٢٢ هـ/١١٨٠ ــ ١٢٢٥ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٣ .

(٥) فرضة = طريق ــ القاموس .

وأحْصَنها . وصاحُبها يومئذ رجلٍ اسمه يَاسر [١] ، فخرج إليه وقاتَلَه ، فانهزم هُو ومَنْ معه ؛ فسَبقَه بعضُ عسكر الدّولة فدخلوا البلد قبل أهله وملكوه ، وأسِر صاحبه . وقَصَد العسكرُ نَهْبَ البلدِ ، فمنعهم شمسُ الدّولة ، وقال : ما جئنا لنخرب البلاد ، وإنّما جئنا لنملكها ونعمّرها وننتفعِ بها . ثمّ عاد إلى زبيد وحصر ما فى الجبل من الحصون فملك قلعة تِعزّ واسمها الدّمولة ، وهى من أحصن القلاع ، وبها تكون خزائن صاحب اليمن . ومَلَك غيرها من الحصون والمعاقل ، واستناب بثغر عدن عزّ الدين عثمان الزّنجيلى ، وبزبيد سيف الدّين مبارك بن كامل بن منقذ . وجعل فى كلّ حصنٍ نائبًا من أصحابه .

وأحْسَن شمسُ الدّولة إلى أهل البلاد ؛ وعادت زَبِيدُ إلى أحسن ما كانت عليه من العمارة والأمن . ثمّ عاد شمس الدولة من اليمن ، وقدم إلى دمشق بعد أن ملكها الملك الناصر ، فوصل إليها فى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة .

ذكر ملكه مدينة دمشق

قال المؤرخ : لمّا توفى الملك العادلُ نور الدّين الشهيد محمُود[٢] ابن زنكى رحمه الله ، كما قدّمناه [٣] فى أخباره ، ووَلِىَ بعدَه ولدُه الملك الصّالح إسماعيل أقرّ الملكُ النّاصر الخطبةَ باسمه بعد أبيه ، ولم يخطُبْ لنفسه . ثم اتّفق ما ذكرناه من نُقْلَة الملك الصّالح من دمشق إلى حلب ، ولمِ يُستأذن الملكَ النّاصر فى ذلك ولا كتبَ لهُ فيه ؛ فسارَ

(١) فى عهد محمد بن عمران ، الذى حكم عدن فى الفترة من ٥٦٠ ـ ٥٦٩ هـ/١١٦٤ ـ ١١٧٣ م ، وكان صبيا ، فتحكم فى البلد الوزير ياسر بن بلال ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٠٤ .

(٢) عن وفاة نور الدين محمود وترجمته انظر الروضتين جـ ١ ص ٥٧٧ ـ ٥٨٥

(٣) لم يذكر النويرى فيما سبق وفاة نور الدين محمود ولا أخباره ، وإنما هو ينقل حرفيا عن غيره .

[الملك الناصر][1] من الدّيار المصريّة إلى الشام فى شهر ربيع الأول سنةَ سبعين وخمسمائة ، ووَصَل إلى دمشق فى يوم الاثنين سلخ الشهر — وقال ابن شدّاد فى سلخ شهر ربيع الآخر[2] — وتسلّم دمشق من الأمير شمس الدّين بن المقدّم ونزل بدار العَقِيقى ، وكانت سكن أبيه ، وأحْسَن إلى الأُمَراء وأكْرمَهم ، وأظهر أنّه إنّما حضر إلى الشّام نُصرةً للملك الصّالح ، وليُعيد عليه ماأخذه ابنُ عمه سيف الدّين غازى[3] من بلاده . وأقرّ خطبته ولم يَقْطعها ولاَخَطب لنفسه .

ذكر ملكه مدينة حمص وحماه

قال المؤرخ : ولمّا ملك دمشق استَخْلف بها أخاه سيف الإِسلام[4] طغرتكين بن أيوب ، وتوجّه إلى مدينة حمص فى مستهَلّ جمادى الأُولى ، فنازَلَها ، فملك المدينة ولم يشتغِلْ بالقَلعة ؛ وتَرَك بالمدينة من يحفَظُها ويمنعُ مَنْ [فى][5] القلعة من التصَرّف .

وسار منْها فوصل إلى مَدِينة حماة فى مستهلّ جُمادى الآخرة ؛ وكان بقَلْعتها الأمير عزّ الدّين جُرْدَيك ، وهو من المماليك النوريّة ، فامتنع مِنْ تسليمها . فأرْسَل إليه يعرّفه ما هُو عليه من الطّاعة للملك الصّالح ، فاستحْلفه جرديك على ذلك ، وخرج إليه ، وترك أخاه بالقلعة ليحْفَظَها . وتوجّه عزّ الدّين جُرديك إلى حلب ليكون سفيرًا [١١٤] بين الملك الناصر وبين كُمُشْتَكين فا عتقل بحلب فلما بلغ أخاه ذلك سلم القلعة إلى الملك الناصر فملكها .

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٢) انظر النوادر السلطانية ص ٥٠ . وانظر الروضتين جـ ١ ص ٦٠٢ وما بعدها .

(٣) هو سيف الدين غازى بن مودود الذى ولى حكم الموصل فى الفترة من ٥٦٥ — ٥٧٦ هـ/ ١١٧٠ - ١١٨٠ م — تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٤٦ .

(٤) « سيف الدين » فى الأصل ، والتصحيح من مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٠ ، ٢٢ .

(٥) [ ] إضافة تتفق مع السياق ، ومع ما ورد فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٢ .

ذكر حصره حلب وعوده عنها وملكه قلعة حمص وبعلبك

قال : ولمّا بلغ الملكَ النّاصر خبرُ عزّ الدين جُرْدَيك والقَبْض عليه ، توجّه إلى حلب وحَصَرها فى جُمادى الآخرة من السّنة ، فقاتله أهلُها ، وركب الملكُ الصّالح وهو صبىّ وعمره اثنتا عشرة سنة وجَمَع أهل حلب ، وذكّرَهم بإحسان والده إليهم ، واستنْصر بهم فى دَفْع صلاح الدّين ، فبكَوْا وحلَفُوا له على بَذل النفوس والأموال ، وقاتلوا أشدّ قتال . وأرسل سَعد الدّين كُمُشْتَكين إلى سنان ، مقدّم الإسماعلية ، مالاً كثيرا على قَتْل الملك النّاصر ؛ فسيَّر إليه جماعةً ، فظفر صلاحُ الدّين بهم وقتلهم . ورَحَل عن حلب فى مستهلّ شهر رجب من السنة .

وكان سبب رحيله أنّ كُمُشْتكين أرسل إلى القومص رِيمُنْد[1] الصّنجيلى ، صاحب طرابلس ، أن يجهّز إلى بلاد صلاح الدّين من الفرنج مَن يمنعُه من الوُصول إليها . فلمّا بلغهُ ذلك فارق حلب وعاد إلى حماة فى ثامن الشهر ، بعدَ نزول الفرنج على حمص بيوم . فلمّا سمع الفرنج بقُربه رحَلوا عن حمص ، ووَصل صلاح الدّين إلى حمص ، وملَك القلعة بعد حصار . وكان ملكه لها فى الحادى والعشرين من شعبان من السّنة .

ثمّ سار منها إلى بعلبك ، وكان بها يمن الخادم متوليها من أيّام نور الدّين ، فحصَرها الملكُ النّاصر ، فطلب يمن الأمان ، فأمّنه وتسلّم القلعة فى رابع شهر رمضان .

---

(١) هو ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبى ــ الحركة الصليبية جـ٢ ص ٧٤٤ ، الكامل جـ١١ ص ٤١٩ ، الروضتين جـ١ ص ٦١١ ، مفرج الكروب جـ٢ ص ٢٤ .

ذكر انهزام عسكر سيف الدين غازى من الملك الناصر وحصره حلب ثانيا

قال المؤرخ . كان الملك الصّالح كتب إلى عمه سيْف الدّين غازى يستنجدُه على قتال صلاح الدّين ودَفْعِه فجهَّز العسْكر صُحبةَ أخيه عزّ الدين مسعود ، وتأخّر هو لِمَا وقع بينه وبين أخيه عماد الدّين من الاختلاف الذى قدمناه فى أخبار الدولة الأتابكية (١) فسارت العساكرُ السَّيفيّة ، واجتَمع معهَا العسكرُ الحلبى ، وساُروا كلُّهم لقتال الملك النّاصر فأرسل إلى سيْف الدّين يبذل له تَسْليم حمص وحماة وأن يُقرّ بيده مدينة دمشق نيابةً عن الملك الصالح ؛ فلم يُجب إلى ذلك وقال : لابُدّ من تَسليم جميع ما أخذه من بلاد الشام ويعود إلى مصر .

فلما امتنع سيفُ الدّين من إجابته تجهّز عند ذلك للقاء عزّ الدين مسعُود ومَنْ معه وقِتالهم ، فالتقوْا فى تاسع عشر شهر رمضان بقرون حماة(٢) ، فلم تثبُت عساكر سيْف الدّين وانهزمُوا لايَلْوى بعضهم على بعض . وتبعهم الملكُ النّاصر وغنِم مُعَسكرهم ، ووصل إلى حلب وحاصَرها ، وقَطَع خُطبة الملك الصالح ، وأزَال اسْمه .

فلمّا طال الحصار على مَنْ بحلب راسَلُوه فى الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشّام ولهُمْ ما بأيْديهم منها ؛ فأجابهم إلى ذلك ، وانتَظم الصّلح . فرحل عن حلب فى العشر الأول من شوال ووَصل إلى حماة ، ووصلتْ إليه بهـا رُسل الخليفة المستضىء بنور الله ، ومعهم الخِلَع والأعلام السُّود وتوقيعٌ من الدّيوان العزيز بالسّلطنة ببلاد مصر والشام .

---

(١) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١٧٠ .

(٢) قرون حماة : منطقة جبلية تشرف على مدينة حماة ، وتتكون من قمتين متقابلتين ــ معجم البلدان .

وفيها ملك قَلْعَة بَعْرِين(١) فى العشر الأول من شوال من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزّعفرانى ، وكان من أكابر الأمَراء النُّورية ، فجاء إلى خدْمَة الملك النّاصر ، وظن أنّه يكرّمه ويقرّبه ، فلمْ يَرَ من ذلك شيئًا ، ففارَقَه وعاد إلى قلعته . فلما استقرّ الصُّلح بين المَلِكين النّاصر والصّالح نازَل [الناصر](٢) بعرين ونَصَب عليها المجَانِيق ومَلَكها .

ذكر الحرب بين الملك النّاصر وسيف الدين غازى وانهزام غازى

قد قدَّمنا انهزامَ عزّ الدين مسعُود بالعسكر السّيفى من الملك النّاصر فى سنَةِ سبعين وخمسمائة . فلمّا كان فى سنة إحدى وسبعين جَمع سيْف الدّين غازى جميَع عساكره وفرّق فيهم الأموال ، واستنجد بصاحب حصن كَيْفا(٣)وصاحب مَارِدين (٤) وغيرهما ، وسار إلى حلب ، واستَصْحَب سعدَ الدّين كُمُشْتكين مدبّر دوْلةِ الملك الصّالح والعسكرَ الحلبيّ .

وكان صلاح الدّين فى قِلَّةٍ من العسكر لأنّه جهَّز أكثر عساكره إلى الدّيار المصريّة فلمّا بلغه ذلك [١١٥] أرْسَل يستَدْعى عساكَره ، فلم تلْحَقْه ؛ وأعْجَلتْهُ الحركةُ ، فسَار من دمشق إلى حلب للقاء غازى ومَنْ معه ، فالتقى العسكران بتَلّ السّلْطان بـالقُرب من حَلب ، فى عـاشر شوال من السّنة .

---

(١) بعرين = بارين : مدينة وقلعة بين حماة وحلب ــ معجم البلدان .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح .

(٣) حصن كيفا : بلدة وقلعة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر ــ معجم البلدان .

(٤) ماردين : بكسر الراء والدال ، قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة ، تشرف على نصيبين ــ معجم البلدان .

وكان عزّ الدين زلفندار مقدّم العسكر الموصلى قليلَ المعْرفة بالحُروب ، فجعل أعْلام صاحِبه فى وَهدَةٍ من الأرض لايراها إلا مَن هو بالقُرب منها فلما لم يَرَها النّاس ظنّوا أن سَيف الدّين غازى قد انْهَزم ، وانهزموا لايَلْوى الأخُ على أخيه . ولم يُقْتل من العسكر على كَثرته غيرُ رجل واحدٍ . وانهزم سيف الدّولة إلى الموْصِل وترك أخاه عزّ الدّين بحلب[1] .

قال العماد الأصفهانى : إن سيف الدّين غازى كان فى عشرين ألف فارس ؛ وخطّأه ابنُ الأثير الجزرى فى ذلك وقال إن أخاه مجدَ الدّين أبا السّعادات المبارَك كان يتولّى كتابة الجيش ، وأنه وقَف على جريدة العَرْض فكانت ستّة آلاف[2] .

وإنْ جَمعْنا بين قوليْهما فنقول : إنّ الجريدة الّتى وقف عليها ابنُ الأثير كانت للجيش المختصّ بسَيْف الدّين غازى خاصّةً ، والّذى نقله العماد الأصفهانى عن جميع ماصَحِبه من سائر الجيوش الحلبيةّ والحِصْفِية ، والمَارِدِينيّة ، والله أعلم .

ذكر ما ملكه الملك الناصر من بلاد الملك الصالح بعد هذه الوقعة

قال المؤرّخ : لمّا استولى الملكُ النّاصر على أثْقَال العسكر الموصِلىّ وغنمها ، واتّسع هو وعسكره بها ، سارَ إلى بُزَاعَة[3] ، فحصَرها وملكَها[4] بعْد قتال مَنْ بقَلْعتها ، وجعل بها من يحفَظُها . ثمّ

(١) الكامل جـ ١١ ص ٤٢٧ - ٤٢٨ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) انظر الكامل جـ ١١ ص ٤٢٩ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠ - ٤١ .

(٣) بزاعة : بلدة من أعمال حلب ، فى وادى بطنان ، بين منبج وحلب ــ معجم البلدان .

(٤) وذلك « فى الثانى والعشرين من شوال » ــ الروضتين جـ ١ ص ٦٥٥ .

سار إلى مَنْبِج [١] فحصرها فى آخر شوّال ، وبها صاحبُها قطب الدّين يَنال بن حسّان المنبِجى ، وكان شديدَ الْعَداوَةِ للملك النّاصر والتَّحْريض عليه ؛ فملَك المدينَة وحاصَر القلعة وملكَها عنوةً ، وأسر صاحبَها يَنال ، ثم أطلقه ، فسارَ إلى الموصل ، فأقطعه سيْف الدّين غازى مدينة الرّقة .

ثم سار إلى قلعة عَزَاز [٢] فناز لها فى ثالث ذى القَعدَة ونصب عليها المجانيق ، ولازم الحصَار ثمانيةً وثلاثين يومًا وتسلّمها فى حادى عشَر ذى الحجّة من السّنة [٣] .

ووثب عليه فى مدّة الحِصار باطنىٌّ [٤] فضرب به بسكّينٍ فى رأسه ، فرَدَّ عنه المِغْفَرُ [٥] ، وضربَه عدَّةَ ضربات وقعت فى زيق كزاغنده [٦] .

---

(١) مَنْبج : بالفتح ثم السكون . بلد قديم ، بينها وبين حلب حوالى ٣٠ ميلا ــ معجم البلدان .

(٢) عزاز = أعزاز : بليدة وقلعة شمالى حلب ــ معجم البلدان .

(٣) انظر الروضتين جـ ١ ص٦٥٥ وما بعدها ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢ وما بعدها ، الكامل جـ ١١ ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ .

(٤) المقصود من إسماعيلية الشام المعروفين بالحشاشين أو الحشيشية ــ الروضتين جـ ١ ص ٦٥٨ .

(٥) المغفر : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة فى الحرب لحماية الرأس ــ انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٤ هامش ٣ .
« فلولا المغفر الزرد كان تحت القلنسوة لقتله » ــ الكامل جـ ١١ ص ٤٣٠ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٤ .

(٦) « طوق كزاغندة » فى الروضتين جـ ١ ص ٦٥٩ .
كزاغند = قزاغند : لفظ فارسى بمعنى المعطف القصير ، ويلبس فوق الزردية ــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٤ هامش ٥ .

ذكر حصره مدينة حلب والصلح عليها

قال : ثمّ رحل الملكُ النّاصر عن أعْزَاز ونَازل حلب فى نصْفِ ذى الحجة ، وحَصَرها إلى العشرين من المحرَّم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . وتردَّدَت الرّسائلُ بينهم فى الصّلح ، فاستقرّت القاعدةُ بينَ الملك النّاصر وسَيْف الدّين غازى والملكِ الصّالح وصاحب مَارِدِين وصـاحب حِصْن كَيْفَا ، وتحالفوا أن يكونُوا كلُّهم عونًا على النّاكثِ منهم . فتمّ الصّلح ، وأعاد الملكُ النّاصر إليهم قلعة أعْزَاز ، ورجع عن حلب .

ذكر نهبه بلاد الإسماعيلية

قال : لمّا عاد الملك النّاصرُ من حلب قصَد بلاد الإسماعيليّة فى شهر المحـرَّم سنة اثنتـين وسبعين لقتـالهم ، لأنّهم أرادُوا قتله ؛ فنهَب بلادَهم وخرَّبها ؛ ونازل قلعة مَصْيَاف [١] . فأرسل سنانٌ مقدّم الإسماعيليّة إلى الأمير شهاب الدّين الحارمى صاحب حماة ، وهو خال الملك النّـاصر ، يطلُب منه الدّخول بينهما فى الصّلح والشّفاعه ، وتَهدَّدَه بالقتل إن لم يفعل . ففعَل ذَلك ، وتمّ الصلح . وتوجَّه الملكُ النّاصر إلى دمشق ، ثم رحل منها إلى الدّيار المصـريّة لأربـعٍ خلَوْن من شهر ربيـع الأول ، ووصل إلى القاهرة لأربع بقين منه .

ذكر عبوره الفرات وملكه الديار الجزيرية

وفى سنـة ثمانٍ وسبعـين[٢] وخمسمائـة كان الملك النـاصر يحـاصر بيروت ، فأتَتْـه كتب مظفَّـر الدّين كـوكبرى بن زين الـدّين على بن

---

(١) مصياف = مصياب = مصياث : حصن مشهور للاسماعيلية بساحل الشام قرب طرابلس ــ معجم البلدان .

(٢) « ثمانين وسبعين » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من مفرج الكروب جـ٢ ص ١١٥ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٨٢ .

تكين[1] مُقْطَع حرّان يطلبـه إلى البلاد ويَعِده المساعـدة . فسارَ وَعبَـر الفرات ، وكاتَب ملوكَ الأطراف [١١٦] ووَعَدهم ، وبذَل لهم البُذول على نَصْرته فأجابه نورُ الدّين مُحمد صاحب حصن كيفـا . فسار الملكُ النّاصر إلى مدينة الرُّها فحصَرها فى جُمادى الأولى ، ودَاوَم الحصار ، فطلب صاحبُها فخر الدّين مسعُود الزّعفرانى الأمان ، فأمّنه وتسلّم البلد ، وصار صاحبُها فى خدمته ؛ وتسلّم القَلْعة . فلما ملكها سلّمها لمظَفّر الدّين صاحب حرّان . ثم سار عَنْها إلى الرّقّة وكان بها مُقْطَعُها قطبُ الدّين يَنال بن حسان المَنْبجى ، فملكها ، وسار صاحبُها إلى عز الدّين أتابك . وسار إلى الخابُور فملكَه . بكَمَاله . ثمّ سار إلى نَصيبين ، فملك المدينة لِوَقْتِه ، وحصَر القَلْعة عدَّة أيّام ، فملكها ؛ وأقْطَعها للأمير أبى الهيجاء السّمين ، وهو من أكابر الأمراء ، وسارَعنها ، ومعه نورُ الدّين صاحب الحصن ، فحاصر الموصل فلم يظفر منها بشىء لحصانتها وكثرة مَنْ بها .

ذكر ملكه مدينة سنجار

قال : ثم سار الملك النّاصر من الموصل إلى سِنْجار ، فسيّر مجاهدُ الدّين قايماز إليها نجدةً من العسكر ، فمنعهمُ الملك النّاصر الوصول إليها ، وأَوْقَع بهم وأخذَ سلاحَهم ودَوابَّهُم ، وسار إليها وَنازلها وبها شرفُ الدّين أمير أميران أخو عز الدّين صاحب الموصل ، فملكها بأمانٍ بعْدَ حصارٍ عظيم . وسار شرفُ الدّين ومَنْ معه إلى الموصل .

واستقرَّ لِلْمَلِك النّاصر جميعُ ما ملكَه فى هذه الوقعة بملك سنجار[2] واسْتَنَاب بها سعد الدّين بن معين الدّين أنر ، وهو من أكابر الأمَراء ،

(١) « على كوجك » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١٦ ، « على بن بكتكين » فى الكامل جـ ١١ ص ٤٨٢ .

(٢) « فلما ملك سنجار صارت على الجميع كالسور » ــ الكامل جـ ١١ ص ٤٨٨ .

وأحْسنِهم صورةً ومعنًى . وعاد إلى نصيبين ، فلِقيَه أهلُها وشكَوْا إليه من أبى الهيجاء السّمين فأنكر عليه وعزَلَه .

وسار إلى حرّان فوصلَ إليها فى أوائِل ذى القَعدة ، فكاتب عزُّ الدّين صاحبُ الموصل صاحبَ خلاط ، وهو شاه أرمن [١] ، واستنجد به على حَرْب الملك النّاصر . فلمّا بلغهُ اجتماعُهما سار إلى بَحْرزَم [٢] بالقرب من مارِدين .

ذكر ملكه مدينة آمد وتسليمها إلى صاحب حصن كيفا

قال : ثم سار من هذه الجهة الى آمد فوصل إليها فى سابع عشر ذى الحجة [٣] فنازَلَها وحاصَرَها ، و نصب عليها المجانيق . وهى من أحْصَن البلاد ، يُضرب المثل بحَصَانتها ، وكان صاحبها ابن نيسان فى غاية الشّح يبخل ببذل المال ، فملَّه أصحابهُ وتخاذَلُوا عنه . فأخرج نساءً إلى القاضى الفاضل [٤] وسأله أن يأخذ له الأمان ولأهله ، وأنْ يُؤخّر ثلاثة أيام حتى ينقل مالَهُ بالبلد من الأموال والذّخائر .

فأجابه الملكُ الناصر إلى ذلك ، وتسلّم البلدَ فى العشر الأول من المحرّم سنة تسعٍ وسبعين وخمسمائة . وانْقَضت الأيّام الثّلاثةُ قبل فراغه من نَقْل أمواله ، فمُنِع ممَا بقى . وسلّم الملكُ النّاصر البلَدَ بما فيه إلى نُور الدّين صاحبِ الحصن ، وكان فيه من الذخائر ماتزيد قيمته على ألف ألف دينار [٥] .

(١) « شاهرمن » فى الأصل ، والتصحيح من النوادر السلطانية ص ٥٨ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٨٨ .

(٢) بحرزم : بلدة فى واد بين ماردين ودنيسر من أعمال الجزيرة ـ معجم البلدان .

(٣) « لثلاث بقين من ذى الحجة » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٣٤ .

(٤) « الأفضل » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من الكامل جـ ١١ ص ٤٩٤ .

(٥) « ألف دينار » فى الأصل ، والتصحيح من مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٣٦ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٩٤ .

ذكر ملكه تل خالد وعين تاب

قال : ثمّ سار الملكُ النّاصر إلى تلّ خالد من أعمال حلب فحصرها ورمَاها بالمجانيق ، فطلب أهلُها الأمان ، فأمّنهم ، وتسلّمها فى المحرّم أيضًا .

وسار منها إلى عَيْن تاب ، وبها ناصرُ الدّين محمد [بن خمارتكين][1] من أيّام نور الدّين الشّهيد ، فحصَرها ، فَراسَلَهُ فى طلب الأمان على أن يكون الحصنُ بِيَدِه ويكون فى خِدْمته . فأجابهُ إلى ذلكَ وحلفَ لهُ عليه ، فنزل إليه واتصَل بخدمته[2] .

ذكر ملكه حلب

قال : ثمّ سار من عَيْن تاب إلى حَلب فى المحرّم أيضًا ونزل بالمَيْدان [الأخضر][3] عدّةَ أيّام ثم انتقل إلى جبل جَوْشَن[4] ؛ فنزل بأعلاه وأظهر أنّه يريد [أن][5] يبنىَ مساكِنَ لنفْسِه ولأصْحابِه وعَساكره ، وأقام أيّامًا والقتالُ بين العسكَرَيْن فى كلّ يوم .

وكان صاحبُها عماد الدّين زَنكى بن مَوْدُود بن زنكى مجدًّا فى القتال ، فطالبه بعضُ الجند بأَرْزَاقِهم ، [١١٧] فاعتذر بقلّة المال عنده ؛ وكان قد شحّ بإخْراجِه ، فقال له مَنْ يريدُ حِفْظ حَلَب يُخرج الأموال وَلَوْ باعَ حلىَّ نسائه . فجنحَ إلى تسليمها ، فرَاسَل الملكَ النّاصر فى طَلَب العِوَض عنها : سنجار ونصيبين والخابور والرَّقّة وسَرُوج .

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح من الروضتين جـ ٢ ص ٤٢

(٢) « وكان أيضًا فى المحرم من هذه السنة » ـ الكامل جـ ١١ ص ٤٩٥ .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح من مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٤١ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٩٦ .

(٤) جبل جوشن: يطل على حلب من غربيها ـ معجم البلدان .

(٥) [ ] إضافة تتفق والسياق .

فَسَلَّمَ [(١)] مثلَ حلب وأعمالهـا وتعوّض عنهـا قرًى ومـزارِعَ ، وجرت الأيمان على ذلك . وتسلّمها الملكُ النّاصر فى ثامن عشر صفر .

فسبَّ النّاس عمَاد الدّين زنكى وأسمعُوه المكرُوهَ على فعله .

واستقرَّت الحالُ بينهما أنّ عمادَ الدّين يحضُر إلى خدمة الملك النّاصِر متَى استدعاه بِنَفسه وعسكره ولا يحتجّ بحجة .

قال : ولما تسلّم الملك النّاصِر حلب امتدحه الْقَاضى محيى الدين ابن الزّكى ، قاضى دمشق ، بقصيدةٍ جاء منها :

وفتحُكُم حَلبًا بالسّيف فى صفـر   مبشّر بُفُتوح القُدْس فى رجب [(٢)]

فكان كذلك .

ونقل الملكُ النّاصر أخاه الملكَ العادل من نيابة الدّيار المصرية إلي حلَب ، في سنة تسع وسبعين ، وأعـطاه حَلب وقَلْعتها وأعمـالها ومَنْبِج وما يتعلّق بها ؛ وسيّره فى شهر رمضان .

ذكر فتح الملك النّاصر حارم

قال : ولمّا فتح الملكُ النّاصر حلب كان بقَلْعة حَارِم [(٣)] سرخك ، وهو من المماليك النّورية ، فامتنع من تَسْليمها ، فرَاسَله فى ذلك وخيّره فيما يُريد من القلاع ، ووَعَده الإحسان ؛ فاشْتطَّ فى الطّلب . فتردّدَت الرّسائل بينهم ، فراسل سَرْخَك الفرنج ليحتمى بهم ، فبلغ ذلك مَنْ معه من الأجنـاد فخافُـوا أن يسلّمها للفـرنج ، فقبضُـوا عليه واعتقلوه ، ورَاسَلُوا الملكَ النّاصر فى طلب الأمان ، فأجابهم وتسلّم الحِصْن ورتّب

(١) « فتسلم » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق ، وانظر الكامل جـ ١١ ص ٤٩٧ .

(٢) انظر الكامل جـ ١١ ص ٤٩٧ .

(٣) حارِم : بكسر الراء ، حصن وكورة جليلة تجاه أنطاكيـة ، وهى من أعمال حلب ـ معجم البلدان .

فيه دُزْدَارًا من بعض خوَاصّه[١] ، وأقام الملك النّاصر بحلبَ إلى أن قرّر قواعدَها وأقْطع أعمالَها .

ذكر حصار الموصل

وفى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة حاصر الملكُ النّاصر الموصل . وذلك أنّه سار من دمشق فى ذى القعدة سنة ثمانين لقَصْد حصَارها فلمّا وصلَ إلى مدينة بلد[٢] سيّر إليه عز الدّين صاحب الموصل والدته وا بنة عمه[٣] الملك العادل نور الدّين الشهيد وغيرهما من النّساء فى جماعةٍ من أعيان الدولة يسألُونه المصالحة ، وبذلُوا موافقَته وإنْجَاده بالعساكر مَتَى طَلَبها ، ليعُود عن قَصْد الموصل . وإنّما أرسلهنّ ظنًّا منه أنّه لوسيّر ابْنَة نُور الدّين إلى الملك النّاصر فى طلب الشّام أعطاه لأنّها ابنةُ مخدومه . فتلقّاهُنّ بالإكرام ، وأحسن إليهن ، واستشار أصحابَه فى ذلك ، فكلٌّ أشارَ عليه بمُوافَقَتِهنّ .

فقال له الفقيه عيسى الهكّارى وعلىّ المشطوب : مثل الموصل لاتترك لا مرأة ، وإنّ عزّ الدّين ما أرسلهُنّ إلاّ وقَدْ عجز عن الحرب . فوافَقَ ذلك هواه فردّهنّ خائباتٍ ، واعْتَذر بأعذارٍ غير مقبولة ، وقَصَد الموصل وحاصَرها ، وكان بينهم مناوشاتٌ فلم يتمكّن منها ، فندم حيثُ

---

(١) انظر الكامل جـ ١١ ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٤٦ ، شفاء القلوب ورقة ٢٨ ب ، المختصر جـ ٣ ص ٦٧ .

(٢) بلد : من أعمال بغداد ، على نهر دجلة ـ معجم البلدان .

(٣) .« والده وابن عمه » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق ، من الكامل جـ ١١ ص ٥١٢ .
وأورد ابن واصل هذا الخبر عند منازلة صلاح الدين للموصل للمرة الثالثة ــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٧٠ ــ ١٧١ .
وما أورده النويرى يتفق مع ما ورد فى الكامل .

لم يحبِسْ النّساء . ففى أثناء ذلك توفى شاه أرمن[١] صاحبُ خلاط ، فأشار عليه أصحابه بمُفَارقةِ الموصل وقَصْد خِلاط ، ففارقها .

ذكر ملكه ميّافارِقين

قال : ولمّا سار الملكُ النّاصر إلى خِلاَط جعل طريقه مَيَّافارِقِين[٢] وكان صاحبُها قطب الدّين صاحب مَارِدِين قد توفى[٣] وملك بعده ابنه وهو طفل وكان حكمُها إلى شاه أرمن وعسكرهُ بها ؛ فتوفى شاه أرمن أيضًا ، فطمِع فى أخذها ونَازَلها . فرآها مشحونةً بالرّجال ، وفيها زوجة قطب الدّين المتوفّى وبناته ، والمقدّم على جيشها أسد الدّين بُرتُقش[٤] ، وكان فيه شجاعةٌ وشهامة . فحصَرهَا الملكُ النّاصر من أوّل جُمادى الأولى ، ونصب عليها المجانيق والعَرّادات ؛ واشتدّ القتالُ فلم يظفَرْ منها بشىء ؛ فرجع عن القوّة إلى إعْمال الحيلة . فراسل امرأةَ قطب الدّين المقيمة بالبلد يقول إنّ أسد الدّين قدْ مَال إلينا فى تَسْليم البلد ، ونحن نَرْعى حقّ أخيك نور الدّين فيك بعد وفاته ، ونريد أن يكون لكِ نصيبٌ ، وأنا أزوِّج بناتك بأولادى ، وتكون مَيّافَارِقين وغيُرها لكِ وبِحُكْمِك ، [١١٨] ووَضع من أرْسل إلى أسد الدّين يعرّفه أنّ الخاتون قد مَالَتْ للانقياد إلى تَسْليمها ، وأنّ مَنْ بخلاط قد كاتَبُوه ليسلّموها إليه . فسُقِط فى يدَه ، وضعُفَت نفسُه ، وأرسل إلى الملك النّاصر يقترحُ إقطاعًا ومالاً ،فـأجيب إلى ذلك . وسلّم البلد فى سلْخ جُمادى الأولى ، وعقَد نِكاح بَعْض أولادِه على بَعْض البنات .

---

(١) « شاهرمن » فى الأصل ، والتصحيح من الكامل جـ ١١ ص ٥١١ ، ومفرج الكروب جـ ٢ ص ١٦٨ ، وسيجرى تصحيحها فى المواضع التالية .

(٢) ميافارقين : أهم مدن ديار بكر ، بإقليم الجزيرة ـــ معجم البلدان

(٣) هو قطب الدين إيلغازى بن ألبى ، المتوفى سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م ، وخلفه ابن حسام الدين يولق أرسلان ـــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٥٣ .

(٤) « يرنقش » فى الكامل جـ ١١ ص ٥١٥ .

ذكر عوده إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين صاحبها

قال : ولمّا تسلّم الملكُ الناصر مَيّافارقين وفرغ من أمرها وتدبير أحوالها ، عاد إلى الموصل لحصارها . فتردّدت الرّسائل بينه وبين عزّ الدين صاحبها ، ووقع الاتّفاق على أن يسلّم للملك النّاصر شَهْرَزُور وأعمالها ، وولاية القرابلي ، وجميع ما وراء الزّاب ، وأن يَخطُب له على منابر بلاده ، ويَضرب السِّكّة باسمه ؛ وتحالفا على ذلك . فتسلّم الملكُ النّاصر البلادَ ، وسكنت الدّهماء .

ورحل إلى حرّان فمرض بها وطال مرضه حتى أُيِس منه ؛ ثمّ عُوفي . وعاد إلى دمشق فى المحرّم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة .

قال : ولمّا كان الملكُ النّاصر مريضًا بحرّان كان عنده ابنُ عمه ناصرُ الدّين محمد [بن][1] شيركوه ، وله من الإقطاع حمص والرّحبة ، فسار إلى حمص واجتاز بحَلب ، وأحضر جماعة من أحْدَاثِها ، ووَعَدهم ، وأعطاهُم مالاً ؛ ثمّ وصل إلى حمص ورَاسَل جماعةً من الدّماشقة على تسليم البلد إذا مات الملكُ النّاصر . وأقام ينْتَظر مَوْته ؛ فتُوفّى ناصرُ الدّين ليلة عيد الأضحى سنة إحدى وثمانين ، وعوفى الملك الناصرُ .

[وكان الملك الناصر] [2]لما بلَغَهُ ما اعتمده ناصرُ الدّين بحلب ومُراسلتُه للدّماشقة ، وضَع عليه النّاصح بن العميد سقاهُ سُمًّا فمات ، وطُلب ابنُ العميد من الغَد فلم يُوجد ؛ وسَارَ من ليلته إلى الملك النّاصر ؛ فقَوِيت الظِّنّة [3]بذلك .

---

(١) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٧٤ .

(٢) [ ] إضافة تتفق مع السياق ، وانظر شفاء القلوب ورقة ١١ ، الكامل جـ ١١ ص ٥١٨ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٧٤ .

(٣) انظر الكامل جـ ١١ ص ٥١٨ .

ولمّا تُوفى أعْطى الملكُ النّاصر إقطاعَه لولده شيركوه ، وعمره اثنتا عشرة سنة . وخَلَّف ناصُر الدّين من الأموال والخيول والآلات شيئًا كثيرا ، فحضر الملك النّاصر إلى حمص وعرض تركته ، وأخذ أكثرَها ، واستعان به على الجهاد ، ولم يُترك إلاّ مالاخير فيه .

وحضر شيركُوه عند الملك النّاصر [بعد موت أبيـه بسنة][1] ، فأجلسه فى حجره وسأله إلى أين انتهى من القرآن ، فقال إلى قوله تعـالى : ﴿ إنّ الذينَ يَـأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَـامَى ظُلْمًا إِنَّمـا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [2] ، فاضطرب الملكُ النّاصر لذلـك وظنّ أنّه عرّض بفعله ، وطَلَب مُؤَدِّبَه ولَوّحه فوجده كذلك .

فعوّضه عمّا أخذه من مال أبيه الضّياعَ الخرابَ بـالشّام فى ذلـك الوقت ، وهو الذى يُعرف إلى زَمَانِنا هذا بالخراب الأسدىّ : وورثتُه إلى هذا التّاريخ يبيعُون خرابَ ضياع الشّام والسّواد والبلْقاء وغير ذلك . واستولَوْا من الخراب على مَا ليس فى كِتابِهم ، وأباعُوا مالاً هُو لَهُمْ ، فإنّه قيل إن الذى اشتمل عليه كتابُ المبايعة أربعمائة ضيعة ، وهى الّتى كانَتْ قد استَوْلى عليها الخرابُ فى ذلك الوقت ، فأباع ورثتُه جميعَ ماخَرِب بعد ذلك مِمّا لم يتضمّنه كتابُهم وأعانهم على ذلك أنّهم يبيعُونه لأربابِ الجاهات بأحسن الأثمان . وأعرف بلدا يسمّى رمدان من بلاد البلقاء بالقرب من الرّقيم والجادِية وسنجاب[3] اشتراها الملك المنْصُور حسام الدين لاجين المنصورى[4] لمّا كانَ ينُوب عن السّلطنة بالشام ،

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح من الكامل جـ ١١ ص ٥١٨ .

(٢) سورة النساء رقم ٤ آية رقم ١٠ .

(٣) قرى فى منطقة البلقاء بالقرب من عمان شرقى نهر الأردن ــ معجم البلدان .

(٤) هـو الملك المنصور حسـام الدين لاجـين ، ولى سلطنة المـاليك فى الفترة من ٦٩٦ ـ ٦٩٨ هـ/١٢٩٧ ـ ١٢٩٩ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٦٢ .

من الورثة الأسديّة بسبعمائة درهم ؛ فلمّا مات وانتقل بعضُ ميراثه إلى السلطان الملك النّاصر[1] بالولاء الشّرعى . وكنتُ أباشر ديوانه بالشام ، حَصَّلْتُ من مُغَلّ هذه البلدة فى سنة إحدى وسبعمائة ما أبيع بنيّف وعشرين ألف درهم . فانظُر إلى هذا التّفاوُت العظيم .

ذكر غزوات الملك النّاصر وما افتتحه من بلاد الفرنج

وقد رأيت أنْ أُفْرِد غَزَوات الملك النّاصر وفتوحاته ونِكَايَاته فى الفرنج ، ولا أضمّ ذلك إلى غيْره من أخباره ، لأنّ فيه ما يدُلّ على قوّة الإسلام ، وأنّ الله تعالى لمْ يزل يؤيّد هذا الدّين مِن عباده بمَنْ يُناضل عنه ، ويَحْمى حَوْزته ، ويذُب عن أهله ، ويستأصل شأفَةَ عدوهم .

ونذكر ذلك على التّرتيب .

فكان أول ذلك وصولُ الفرنج إلى ثَغْر دمياط ورُجُوعهم عنه .

كان وصُول الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، إلى ثغر دمياط فى صفر سنة خمس وستين وخمسمائة ، [١١٩] فحاصرُوا الثّغر . وكان سببُ ذلك أنّ أسدَ الدّين شيركوه لمّا وَلِى الوزارة للخَليفة العَاضد لِدين الله خافَهُ فرنج السّاحل ، فكاتبوا أهْلَ صقليّة والأندلس من الفرنج يستمدُّونهم ويخبُرونهم أن أسد الدّين قد مَلَك الدّيار المصرية ، وأنهم لا يأمنونه على البيت المقدّس . فأمدُّوهم بالمال والرّجال والسّلاح ، فنازلوا دمياط وضيّقوا على أهلها . فأرسل الملك النّاصر إليهم العساكر برًّا وبحرًا ، وكتب إلى الملك العادل نُور الدّين الشّهيد بذلك ، ويُعرّفه[2]

---

(١) هو الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ولى عرش السلطة المملوكية ثلاث مرات ، وتوفى سنة ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٦٢ .

(٢) « ويعرفه إلا أنه لا يمكنه » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق ، وانظر الكامل جـ ١١ ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ .

أنّه لا يمكنُه الخروج من القاهرة لأنه لايأمنُ أمر الشّيعة وأنّهم يثورون بعده ، فيبقى الفرنج أمامه والمصريُّون خلفه . فأمدّه نُور الدّين بعسكر ، وخرج نورُ الدّين بنفسه إلى بلاد الفرنج للإغارة عليها ؛ فـاسْتَباح أمْوَالها لخلُوّ البلاد السّاحلية منهم فلمّا بلَغَهم ذلك رجعُوا إلى بلادهم بسَاحْل الشام بعد مُقامهم على دمياط نيّفًا وخمسين يومًا ، ولم يظفرُوا منها بشيء . وأخرج العاضدُ للملك النّاصر فى هذه الغَزَاة ألف ألف دينار مصريّة ، سوى الثّياب والأسْلحة .

ذكر غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة

وفى سنَة ستّ وستّين وخمسمائة سار الملكُ النّاصر عن القاهرة وأغار على أعمال عسقلان والرّملة ، وهجم على رَبَض غزّة فنهبه . وأتاه ملك الفرنج[1] فى قلّةٍ من العسكر ليردَّه ، فهزمهُ الملك النّاصر بعد أنْ أشرف على أسْره ، وعاد إلى القاهرة ، وعمل مراكبَ مفصَّلةً ونقلها على الجمال إلى البحر ، فجمع قِطَعها وشدَّها ، وألقاها فى الماء . وحصر أيلة برًّا وبحرًا ، وفتحها فى العشر الأول من شهر ربيع الآخر ، واستباح أهلها وما فيها ؛ وعاد إلى الدّيار المصريّة [2] .

ذكر محاصرة الشوبك وعوده عنها

قال المؤرخ : وفى صفر سنة سبع[3] وستين توجّه الملكُ النّاصر إلى حصن الشَّوْبَك ونازله ، وحَصَره ، وضيّق على مَنْ به من الفرنج . ودام القتال ، فطلب أهله الأمان ، واستمهلُوه إلى عشرة أيّام فأجابهم

---

(١) المقصود هو الملك عمورى الأول (أملريك الأول) ملك مملكة بيت المقدس الصليبية .

(٢) انظر الكامل جـ ١١ ص ٣٦٥ .

(٣) « ست » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسير الأحداث ، ويتفق مع ما ورد فى الروضتين جـ ١ ص ٥١٨ ، الكامل جـ ١١ ص ٣٧١ .

إلى ذلك . ثمّ بلغه أنّ الملك العادل نورَ الدّين جاء من دمشق إلى الشوبك من الجانب الآخر ، فخاف أنّ نور الدّين مَتَى ملك الشوبك قَبَض عليه ، فعاد إلى الدّيار المصريّة ، وكتب إلى نور الدّين يعتذرُ بمرض أبيه بمصر ، فقبل عُذره ظاهرًا ، ووقعت الوحشة بينهما باطنا

ذكر وصول [أسطول] [1] صقلية إلى ثغر الإسكندرية وانهزامه

كانت هذه الحادثة فى سنة سبعين وخمسمائة ، ولم يكُن للملك النّاصر بها غزاةٌ بنفسه ولا مباشرةٌ للحرب . وكان سببُ وصول هذا الأسطول إلى الثّغر ما قدَّمناه من مُكاتبة المصريِّين الذين صلبهم صلاحُ الدّين الفرنجَ . فوصل من صقلية مائتا شينى تحمل الرجال ، وستّ وثلاثون طريدةً[2] تحمل الخيل ، وستّ مراكبَ تحمل آلة الحرب ، وأربُعون مركبًا تحمل الأزواد . وفى المراكب من الرجال : خمسُون ألفًا ومن الفُرسان ألف فارس وخمسمائة فارس . وكان المقدَّمُ عليهم ابنُ عمّ صاحب صِقليّة . فوصلُوا إلى الثّغر فى السّادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستّين على حين غفلة ، فخرجَ إليهم أهْلُ الثّغر بعُدَدهم وأسلحتهم ، فمنَعهم المتولّى عليهم ، وأمرهُم أنْ يقاتلُوا مِنْ وراء السّور . وطلع الفرنج إلى البرّ ونصَبُوا الدبّابات [3] وقارَبُوا السّور ؛ وقاتَلَهم أهلُ البلد قتالاً شديدًا . وجاء إلى الإسكندرية مَنْ كان إقطاعُه بالقُرب منها .

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح من الكامل جـ ١١ ص ٤١٢ .

(٢) طريدة : سفينة حربية مخصصة لحمل الخيول ـــ معجم السفن الإسلامية .

(٣) الدبابات : ابراج متحركة تستخدم فى مهاجمة الأسوار والحصون ـــ السلوك جـ ١ ص ٥٦ هامش ١ . وانظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٤ .

وكتب إلى الملك النّاصر بذلك ؛ فتجهّز بنَفْسه ؛ وقدّم من يُعْلِم أهل الثّغر بُوصوله ، وكان أهل الثّغر قد أنْكَوْا فى الفرنج ، وقتلوا وجَرحوا كثيرًا منهم ، وحرقوا الدّبابَات .

ولمّا علم الفرنج بَمقْدَم الملِك النّاصر جنَحوا إلى الهرب ، وأخذتهم سُيوف أهل الثّغر ، وحرَقُوا بعضَ مراكبِهم ، ونهبُوا خيامَهم ، وأخذوا سلاحهم ؛ وكثُر القتلُ فيهم ، وهرَب مَنْ بَقِى ؛ واحتَمى ثلاثمائة من الفرسان على تلّ ، فقاتَلَهم المسلمُون طوال الليل إلى ضُحى الغد ، فأُخِذُوا بين أسيرٍ وقتيل .

[١٢٠] ذكر مسيره إلى عسقلان وغيرها وانهزام عسكره وعوده

وفى سَنة ثلاثٍ وسبعين وخمسمائة خرَج الملكُ النّاصر إلى غزّة وعسقلان .

وكان رحيله من القاهرة بعد صلاَة الجمُعة لثلاثِ ليالٍ خلَوْن من جُمادى الأولى من السّنة ، فوصَل إلى عسْقَلان فى يوم الأَرْبعاء للَيْلَةٍ بقيت من الشهر ، فسَبَى وسَلب ، وضرب أعناقَ الأسرى ؛ وتفرَّق عسكرُه للإغَارة على الأعمال .

ثمّ سار إلى الرَّملة فى يوم الجمُعة مستهلَّ جُمادى الآخرة ، فاعترضَه الفرنج وقد جمعُوا جُموعًا كثيرة ؛ فكانَ بينهما وقعَةٌ عظيمة استُشْهد فيها أحمد ولدُ الملك المظفّر تقى الدين [عمر][1] ، وأسِر ولدُه الثّانى شاهنشاه ، وأقام فى الأسرسبع سنين حتى افْتَكّه السّلطان بمالٍ كثير . وأُسِر الفقيه عيسى الهكّارى .

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

ثم كـانت على المسلمين . وذلك أنّ العسـاكر كـانَت قد تعبَت للحَرْب ، فلما قارَبَهم العدُوّ أراد بعضُ الأمراء أن ينقل الميْمَنـة إلى الميسَرة والميْسرة إلى القَلب ، فلمّا اشتغلوا بهذه التّعبئة هجَم عليهم الفرنج ، فانكسروا وطلبُوا الدّيار المصرية ، وضلُّوا فى الطّريق . وعادَ السّلطان ومَنْ معهُ إلى القاهرة فى يوم الخميس منْتصف الشهر [١] .

ذكر وقعة مرج عيون وانهزام الفرنج وأسر ملوكهم

كانت هذه الوقعةُ فى يوم الأحد لثمانٍ خلَوْن من شهر المحّرم سنة خمس وسَبْعين وخمسمائة ؛ وكان الفرنج فى عشرة آلاف مقاتل . فلّمّا التقَوْا مع المسلمين انهزم ملكُهم [٢] مجروحا عند اللقـاء وأُسِر منهم جماعةٌ ، منهم : مقدَّم الدَّاوية [٣] . ومقدَّم الأسْبِتَارية ، وصاحب طبريّة ، وأخو صاحب جبيل [٤] ، وابن القومصيّة [٥] ، وابن بارزان [٦] صاحب الرّملة ، وصاحب جِينين ، وقَسْطِلان يافا ، وابن صاحب مرَقِيّة وعدّة من خيّالة القدس وعكّا وغيرهم من المقدَّمين الأكابر زادت عدّتُهم على مائتَين وسَبْعين ، سوى غيرهم ، فنقلهم السّلطان إلى دمشق .

فأمّا ابنُ بارزان فإنَّه بذَل فى نفسه مائةَ ألف دينار وخمسين ألف دينار صوريّة ، وإطلاق ألف أسير من المسْلمين ، والْتَزم بفكاك الفقيه عيسى الهكّارى . وأما ابنُ القومصية فافتكّتْه أمُّه بخمسة وخمسين ألف

---

(١) نظر الكامل جـ ١١ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٥٨ وما بعدها .

(٢) هو بلدوين الرابع ملك مملكة بيت المقدس الصليبية ـ الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٦٠ .

(٣) هو أودو سانت أماند ـ تاريخ الحروب الصليبية ـ ٢ ص ٦٧٨ .

(٤) « وأخوه صاحب جبيل » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٧٦ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٥٥ .

(٥) المقصود هيو ابن كونتيسة طرابلس ـ تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٦٧٨ .

(٦) هو بلدوين إبلين .

دينارٍ صُوريّة . وأما مقدّم الداويّة فإنّه هلَك ، فطُلِبت جُثته بإطلاق ألف أسيرٍ من مقدَّمى المسلمين (١) .

قال : وفى هذا اليوم ظَفِر الأسطول المِصرىّ ببَـطْشَةٍ(٢) كبيـرة للفرنج ، فاستَوْلى عليها وعلى أُخرى ، وعاد إلى الثّغر بألف أسير . والله أعلم .

ذكر هدم بيت الأحزان

كان الفرنج قد عمـروا حصن بيت الأحزان فى مـدّة مُقام الملك النّاصر على بعلبك واشتغاله بأمرها ؛ فبنَوْه على مخاضة بيت الأحزان ، وبينه وبين صَفَد وطبريّة نصفُ يوم .

وكـان فى بنائـه ضررٌ عـظيمٌ على المسلمين ، فبذلَ لهُم الملك النّاصر فى هَدْمه مائة ألف دينار ، فأَبَوْا ذلك . فجهَّزَ إليه الجيش ، فوصل إلى المخاضة يَوم السّبت لإحدَى عشرةَ ليلةً بقِيَت من شهر ربيع الأول سنة خمس وسَبْعين ، والحِصْنُ مبنىٌّ دُونَها من الغرب . فنَصَبُوا عليه المجانيق بعْدَ العصر من يَوْم الأحد ، فما جَاءَ اللّيل إلاّ وقد استَوْلَوْا على البَاشُورة(٣) . ثم أدارحَوله النُّقُوب ، فاستمرَّت إلى يوم الخميس ، لِستّ بقين من الشهر ، فهُدِم الجدار ، ودَخَل العسكر الحِصْن وغَنِمُوا ما فيه ؛ فكان ما غنِمُوه من أنواع السّلاح الجديدة مائَةَ ألف قطعـة ؛ وأسروا سبعمائة أسير ، ومن أسْرى المسلمين مائة . ثم هُدِم الحصن إلى الأَسَاس ، وكان سمكُه عشرة أذرع (٤) .

---

(١) انظر مضمار الحقائق ص ١٦ ـ ١٨ ، وانظر تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٦٧٦ ـ ٦٧٩ ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٨٠٤ ـ ٨٠٥ .

(٢) بطسة = بطشة : مركب حربية كبيرة ـ معجم السفن الإسلامية .

(٣) الباشورة : الحائط الخارجى للحصن ـ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٨١ هامش ١ .

(٤) انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ٨٠ ـ ٨٦ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٨ ، مضمار الحقائق ص ٢٤ ـ ٢٦ .

قال : ولمّا عمر الفرنج بيت الأحزان قال النشو أحمد الدّمَشقى :

هـلاكُ الـفـرنـج أتـى عـاجـلا
وقـد آن تـكـسـيـر صُـلْبـانـهـا
ولـو لـم يـكـن قـدْ دنَا حـتـفُـهـا
لـمـا عَـمَـرت بـيـت أحْـزَانـهـا[1]

ذكر مسير الملك الناصر إلى بلاد الأرمن

[١٢١]وفى سنة ستّ وسبعين وخمسمائة ، توجّه الملكُ النّاصر إلى بلاد الأرمن . وذلك أن ابن لاوون [2]ملك الأرمن كان قد اسْتَمال قومًا من التُّركمان ، فلمّا أتوه وهم آمنون أَسَرهم . فدخل الملكُ النَّاصر إلى بـلاده واستَوْلى على قلعةٍ تُعرف بـالمانقير [3] ، وهَـدَمهـا إلى الأساس ، وأخذ مـا فيها من الآلات . ووَجَـد المسلمون فى أرْضهـا صهريجًا مملوءا من الآلات الذّهب والفضّة والنحّاس . فبذل ابنُ لاوون جُملةً من المال ، وأنّه يُطلق الأسرى ، ويشترى خَمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويطلقهم . فأجابه السّلطان إلى ذلك ، وأخذ رهينةً عليه . ثمّ عاد إلى الدّيار المصريّة ، وأقام بها إلى سنةِ ثمانٍ وسبعين وخمسمائة [4] .

ذكر مسيره إلى الشام والإغارة على طبرية وبيسان وما كان من الظفر بمراكب الفرنج ببحر عيذاب

وفى سنة ثمانٍ وسَبعين وخمسمائة تـوجّة السّلطان الملكُ النّـاصر لقَصد الشام عند وفاة الملك الصّالح بن الملك العَادل نور الدّين . فأغار

---

(١) الكامل جـ ١١ ص ٤٥٧ .

(٢) هو روبين الثالث ــ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٧٧٨ .

(٣) « المناقير » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٩٩ .

(٤) انظر الكامل جـ ١١ ص ٤٦٦ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٩٨ ـ ٩٩ ، النوادر السلطانية ص ٥٤ .

على طبريّة وبَيْسان فى العشر الأوْسَط من شهر ربيع الأوّل ، فانتصَر بعْدَ قتال .

وفيها كان الظفر بالفرنج ببحر عَيْذَاب[١] . وذلك أنّ البرنس صاحب الكرك[٢] عمل أسْطُولاً بالكرك ، ونَقَل قِطَعه إلى بحر أَيْلة ، وجمعها وألْقَاها فى البحر ، وشحَنَها بالمُقاتلة ، فسارُوا فى البحر وافْتَرقُوا فرقَتَين : فرقة حصلت أيلة ، وفرقة توجَّهت إلى عيذاب . وأفْسَدوا السّواحل ، ونهبوا ، وأخذوا ما وجَدُوه من المراكب الإسلامية ومَنْ فيها من التُّجار . وجاءُوا على حِين غَفْلة ، فرأى النّاس مالم يعهدُوه ، فإنّ هذا البحر لم يَرَ النّاسُ فيه فرنجيًّا قطُّ ، لا تاجرًا ولا مقاتلاً قبل هذا الوقت .

وكان الملكُ العَادِل ينوب عن أخيه الملك النّاصر بالدّيار المصريّة ، فعمر أسطولاً وجَهّز فيه جماعَةً من المسْلمين ، ومقدَّمُهُم حُسَام الدّين لؤلؤ الخاص ، فسار فى طلبهم . وابْتَدأ بالمركب التى على أيلة ، فظفِر بهَا ، وقَتَل بَعْضَ من فيها وأَسَر بعضهم . وتوجَّه لوقته بعد ظَفَره بهم إلى الذين توجَّهوا إلى عيذاب ، وكانوا قد عَزَموا على الدّخول إلى الحجَاز وأَخْذِ الحاج ، والدُّخول بعد ذلك إلى اليمن ، فوصل لؤلؤ إلى عيذاب فوجَدَهم قد نهبوا ما وجدُوه بها وتوجَّهوا ، فسَار فى أثرهم ، فبلغ رَابغ والحوراء فأدركهم بها ، وأوقع بهم . فلمّا تحقّقوا العَطَب خرجُوا إلى البرّ واعتصَمُوا ببَعْض تلك الشّعاب ، فنزَلَ من مراكبه وقاتَلهم فى البرّ أشدّ قتال ، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هُناك فركبها ، وقاتلهم ، فظَفِر بهم وقَتَل أكثرهم ؛ وأَسَر مَنْ بقى ، وأرسل

(١) المقصود ميناء عيذاب على البحر الأحمر .

(٢) هو المعروف فى المصادر العربية باسم أرناط ، وفى المصادر والمراجع الأوربية باسم ريجنالد شاتيون ــ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٧٨٠ .

بَعْضهم إلى مِنًى ليُنْحرُوا بها عُقوبةً لهم على قَصْدِهم البيْتَ الحرام . وعاد إلى مصر ببقية الأسرى ، فقُتلوا [١] .

ذكر الإغارة على الغور

قال : ولمَّا ملك الملكُ النَّاصر حلب وعاد إلى دِمَشق ثم رحل منْها فى ثامن جُمادى الآخرة سنةَ تسعٍ وسبعين وخمسمائة نزل على بَيْسان فوجد أَهْلَها قد ارتَحلُوا عنها ، فنهبهَا العسكر النَّاصرى وتقوَّوْا بما فيها ، وحرَقُوا ما لم يمكنهم أخذُه . وسار بهم حتى أتى الْجَالوت ، وهى قريةٌ عامِرَةٌ وعندها عينٌ جارية ، فعبَّأ أصحابَه عندها للقتال ، ورحَل إلى الفُولة[٢] ، ووقع القتال بينه وبين الفرنج ، وَكان الظُّفر له . ثمّ عاد إلى دمشق ، فوصل إليها فى يوم الخميس الرَّابع والعشرين من جُمادى الآخرة من السّنة .

وتوجّه إلى الكرك فى هذه السَّنة ، وعاد .

ثمّ جمع العساكر المصريّة والحلبيّة وغيرها وقَصد الكرك فى سَنَة ثمانين وخمسمائة ، وهى الدَّفعة الثانية ؛ فجمع الفرنجُ فارِسَهم وراجِلَهم للذَّبِّ عنها ، ففارقَها السلْطان ، وجهَّز طائفةً إلى نابلس فنهبوها وعادوا إليه[٣] .

ذكر غزوة الكرك والشوبك
وفتح طبرية ومجدل يابا ويافا

قال العمادُ الأصفهانى فى البرْقِ الشامى : وفى سنةِ ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة بَرَز الملك النَّاصر من دمَشْق فى أوّل المحرّم ، فى العسكر

(١) انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٢٧ ـ ١٣٢ ، الكامل جـ ١١ ص ٤٩٠ ـ ٤٩١ .

(٢) الفولة : قرية معروفة بالقرب من عين جالوت ــ معجم البلدان ، النوادر السلطانية ص ٦٢ .

(٣) انظر النوادر السلطانية ص ٦١ ـ ٦٣ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٤٨ ـ ١٥١ ، الكامل جـ ١١ ص ٥٠٢ .

العرمرم ، ومضى بأهل الجنّة لجهَاد أهل جهنم . فلمّا وصل إلى رأس الماء (١) أمَر ولَده الأفضل بالمُقَام عندَها ليَجْتمع عندَه الأُمراء الواصلون من الجهات . وسار السّلطان [١٢٢] إلى بُصرى ، ثمّ منها إلى الكرك ، ورَعَى الزُّروع وقَطَع الأشجار . ثمّ سار إلى الشّوبك وفَعَل مثلَ ذلك . ووصل إليه العسكر المصريّ ففرَّقه على قلْعَتَى الكرك والشّوبك . وأقام إلى أنْ انْقضى من السّنة شهران ، والملكُ الأفضل مقيمٌ برأس الماء ، وقد اجتمعت عنده العساكر ، فتقدّم إلى سريّة منهم بالغارة على أعمال طبريّة ، فانتَهوْا إلى صَفّوريّة (٢) فخرج إليهم الفرنج فقاتلُوهم ، فكان الظّفر للمسلمين ، وهلك مقدّم الأسْبتار ؛ وعادُوا إليه فكانت مقدّمة النّصر المبين .

وانتهت البشائر إلى الملك النّاصر وهو بنَواحى الكرك والشوّبك ، فسار بمن معَه فى يوم الجمُعة سابع عشَر ربيع الأوّل ، وعَرَضهم فى اثْنَى عشر ألف فارس . وعَزم على دُخول السّاحل ، فانْتهى إلى ثَغْر الأُقْحُوَانة (٣) فاجتمعت الفرنج فى زُهاء خمسين ألفًا ، ونزلُوا على مَرْج صَفُّوريّة بأرض عكّا ، فلم يتقدّموا عنها . فتقدّم السُّلطان إلى الأمراءِ أن يُقيموا فى مُقَابلتهم ، ونزل هو بمَنْ معَه من خوَاصّه على طبريّة وشرع فى نَقْب سُورها ، فهدَمُوه فى ساعةٍ من نهار ، وامْتنعت القلعة بمَن فيها .

فلمّا اتّصل بالفرنج فتحُ طبريّة تقدّمُوا ، وذلك فى يوم الخميس ثالث شهر ربيع الآخر ، فتركَ السّلطان على طبَريّة من يحفظُ قلعتَها ، وتقدّم بالعسكَر ، فالْتَقيا على سَطْح جَبل طبريّة الغربّى منهـا . وحالَ

---

(١) رأس الماء : موضع فى حوران ، على مسافة ٢٠ ميلاً شمالى درعا — معجم البلدان .

(٢) صفورية : قرب طبرية — معجم البلدان .

(٣) ثغر الأقحوانة : على شاطىء بحيرة طبرية — معجم البلدان .

بينهُما اللّيل ، فباتَا إلى صبيحة يَوم الجمُعة ، فتصادَمَا بأرض قرية اللّوبيا ؛ واستمرّت الحرب بينهما إلى الليل فكانت من أعظم الحرُوب . ثمّ باتا إلى صبيحَة يوْم السّبت ، فالْتقَيَا .

فلّما عاين القومص[1] أنّ الدائرة تكونُ على طائفتِه هربَ فى أوائل الأمر قبل اشتداده ، وسار نحوصُور ، فتبعَهُ جماعةٌ من المسلمين ، فنجا بمفرده . ثمّ انهزَمت طائفةٌ أخرى فتبعها أبطالُ المسلمين ، فلم ينجُ منها واحد . واعتصَمت الطّائفة الأخرى بتل حطّين ، فضايقهم المسلمون وأشْعَلُوا حولَهم النّيران ، فقتَلَهم العطش ، فأُسِر مقدَّمُهم ، وقُتل الباقون وأُسِروا ، وألقى الله عليهم الخِذلان .

قال القاضى أبو المحاسن ابن شداد : لقَد حكى لى مَن أثِق به أنّه لقى بحَوْرَان شخصًا واحدًا ومعه طُنُبُ خيمة فيه نَيِّفٌ وثلاثون أسيرا[2].

وأمّا القومص الذى هرب فإنّه وصل إلى طرابلس ، وأصابه ذات الجنب ، فأهلكه الله .

قال : وبَات السُّلطان بالمنزلة ، ونَزل يوم الأحدِ على طبريّة وتسلّم قلعتهَا فى بقيّة يوْمه ، وأقام بها إلى يوم الثّلاثاء .

قال : ولمّا يسر الله هذا الفتح كتب السّلطان إلى أخيه الملك العادل سيْف الدّين بمصر يُبشّره به ، وأمَره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جِهَة مصر بمَنْ بقىَ عنده من العساكر ، ومحاصَرَةِ ما يليه منها ؛ فسارع إلى ذلك ، وسار ونازل حِصْن مجدليابة[3] وفتحه ، وغنم ما فيه ، ثم سار إلى يافا وفتحها عنوةً ، وقتل وسبى ، وأَسَر وغنم ..

---

(١) المقصود ريوند صاحب طرابلس .

(٢) النوادر السلطانية ص ٧٧ .

(٣) « يافا » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وعنوان هذه الفقرة ، وما ورد فى الكامل جـ ١١ ص ٥٤٠ ـ ٥٤١ .

ذكر فتح عكا ونابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والنّاصرة ومعليا والفولة والطور والشّقيف وغير ذلك

قال ابن شدّاد : ثمّ رحل السّلطان طالبًا عكّا . وكان نزولُه عليها فى يوم الأربعاء سَلْخَ شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين ، وقاتلها بُكرةَ الخميس مستهلّ جُمادى الأولى ، فأخذها ، واستَنْقذ من كان فيها من الأسارى ، وكانوا زهاء أربعة آلاف ؛ واستوْلَى على ما فيها من الأموال والذّخائر .

ثم تفرّقت العساكر فى بلاد السّاحل فأخذُوا نابلس ، وحَيفا ، وقيْسَاريّة ، وصفُّورِيّة ، والنَّاصِرة ، ومَعْلَيَا ، والفُولَة ، والطُّور ، والشّقيف وقلاعًا تَلى هذه كثيرة ؛ وكان ذلك لخلُوّها من الرّجال فإنّهم عمّهم القتل والأسر[1] .

ذكر فتح تبنين وصيدا وصرفند وبيروت وجبيل

قال : ثم أرسل السلطان[ابن][2] أخيه تقى الدين إلى تِبْنِين ، فضايقها ، وكتب إلى السلطان أنْ يأتيَه بنفسه ، فوصَل إليها ونازَلها يوم الأحد الحادى عشر من جُمادى الأولى ، فسأل مَنْ بها الأمَان واستُمهلُوا خَمسة أيام لينزلوا بأموالهم ، وأطلقوا الأسارى ، فخرجوا إليه ، فسُرَّ بهم وكَساهُم . وخلص فى تلك السنة [١٢٣] من الأسرى أكثر من عشرين ألف أسير ، ووقع فى أسْره من الكفار مائة ألف .

قال : ثم رحل السّلطان من تبنين إلى صَيْدا ، فاجتاز فى طَريقه بصَرَفَنْد فأخذَها بَعْد قتال .

---

(١) النوادر السلطانية ص ٧٩ . وانظر الكامل جـ ١١ ص ٥٣٩ وما بعدها .

(٢) [ ] إضافة من الكامل جـ ١١ ص ٥٤١ .

ثم سار إلى صَيْدا ، ففارقَها صاحبُها وتركَها خالية ، فتسلَّمها ساعة وصُوله إليها لِتْسعٍ بقينَ من جُمادى الأولى سنةَ ثلاثٍ وثمانين

وسارَ من يَوْمه نحو بيروت فقاتل أهلَها على سُورها وظنُّوا أنهم قد قَدَروا على حفظه ، فدخَلها المسلمون من الجانب الآخر . فسألوا الأمان فأمَّنهم على أنفُسهم وأمْوالهم ، وتسلَّمها فى التاسع والعشرين من الشهر .

وأمّا جُبَيْل فكان صاحبُها فى جملة الأسرى الذين نُقِلوا إلى دمشق ، فسأل إطلاقه وتَسْليمها ، فأحضره مقيَّدًا ، فسلَّم البلد وأطلق أسرى المسلمين ، وأطلقه السّلطان .

ذكر فتح عسقلان وما يجاورها

قال : وسَار السّلطان إلى عَسْقلان والرملة وغزة والدّارُوم وغير ذلك .

فنَزَل على عَسْقلان فى يوم الأحد سادسَ عشر جُمادى الآخرة ، ونصبَ عليها المجانيق ، فسلَّمُوها على خروجهم بأموالهم سالمين ؛ وذلك فى يوم السبت سلخ جمادى الآخرة (١) .

ثم تسلَّم حصُون الدَّاوِيّة وهى غزّة ، والدّارُوم ، والرّملة ، وتُبْنَى ، وبيت لحم ، ومشهد الخليل ، ولدّ ، وبيت جبريل (٢) .

قال : وكان بين فَتْح عسقلان وأخْذ الفرنج لَها من المسلمين خمسٌ وثلاثون سنة ، فإنّ العدُوّ استولى عليها فى السّابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة .

---

(١) انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ ، الكامل جـ ١١ ص ٥٤٥ ، النوادر السلطانية ص ٨٠ .

(٢) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢١٠ ، الكامل جـ ١١ ص ٥٤٦ .

قال العماد : وفوّض السّلطان القضاء والحُكم والخَطابة وجميعَ المناصب الدينيّة بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدّين عبْد الله بن عمر الدّمشقى ، وهو المعروف بقاضى اليمن .

ذكر فتح البيت المقدس

قال المؤرخ : لمّا فرغ السّلطان الملك النّاصر من أمْر عسْقلان وما يجاورُها سَار إلى البيت المقدّس ، فكان وصوله إليه فى يوم الأَحد الخامس عشر من شهر رجب سنةَ ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة . وكان به البَطْرك المعظّم عندَهم ، وهو أعظم شأناً من مَلِكهم ، وبه أيضًا باليان بن بارزان صاحب الـرّملة ومَنْ خلص من فرسـان الفرنـج من حطّين ، واجتمع به أهلُ عَسْقلان وغيرها ، كلُّهم يَرى الموْت عليه أهون من أن يُملك البيتُ المقدّس .

فنزل السّلطان بالجانب الغربىّ وأقام خمسة أيّام يطُوف حوْلَ البلد لينظُر مِن أين يقاتلُه . ثمّ انتقل إلى الجانب الشّمـالىّ يوم الجمعـة ، العشرين من الشّهر ، وكانت عدّة من به من المقاتلة ستّين ألفًا غير النّسـاء والصّبيان فنصَب السّلطان المجـانيق فى تلك اللّيلة ، ونصب الفرنج على السُّور مجانيق أيضًا ، وقاتلُوا أشد قتالٍ رآهُ النّاس لأنّ كلاًّ من الفريقين يرى ذلك عليه من الواجبات لايُحتاج فيه إلى سُلطان . وكانت خيّالة الفرنج يخرجُون فى كلّ يوم إلى ظاهِـر البلد فيقاتلون ويُبارزُون . وتوالَى الـزّحف ، ونقب المسلمون السّـور مما يلى وادى جهَنّم .

فلما رأى الفرنج ذلك أخلَدُوا إلى طلَب الأمان ، وبعثوا جماعةً من أكابرهم فى ذلك ؛ فامْتَنع الملكُ النّاصر من ذلك وقال : لا أفعلُ بكم إلاّ كما فعلتُم بأهله حينَ ملكتُموه فى سنة إحدَى وسَبْعين وأربعمائة من

القَتْل والسَّبى . فلما رجع الرُّسُل إليهم ، أرسل باليان بن بارزان يطلب الأمان لنفسه ليحضُر إلى الملك النَّاصر ، فأمَّنه ، فحضر إليه وسَأله الأمان ، فلم يُجِبْه ، واستعطَفَه فلم يتعطَّف ، واسترحَمَه فلم يرحمه . فلمَّا أيِسَ منه قال لهُ ما معناه : أيها السّلطان ، اعْلَم أنَّنا فى هذه المدينة فى خَلْق كثير لا يعلمهم إلاّ الله تعالى ، وإنما يفترون عن القتال رجاءَ الأمان ، وهم يكرهون الموت ويرغبُون فى الحياة ؛ فإذا رأينا أنّ الموت لابُدّ منه والله لنقتُلَنّ أبناءنَا ونساءنا ، ونُحرق أمْوالنَا وأمتِعتَنا ، فلا نتركُكم تغنَمون منها دينارًا واحدًا ولا درهمًا ، ولا تَسْبُون ولا تأسِرُون رجلاً ولا امرأة .[١٢٤] فإذا فرَغْنا من ذلك أخْرَبنا الصّخرةَ والمسجد الأقصى ؛ وغير ذلك من المواضع الشّريفة ؛ ثم نقتل مَنْ عِندنا من أسرى المسلمين ، وهم خمسة آلاف ، ولا نترك لنا دابَّةً ولا حيوانًا إلا قتلناه . ثمّ نخرج إليكم ، كلُّنا ، فنقاتلكم قتالَ مَنْ يريد يحمِى دمَه ونفْسَه ، فلا يُقْتَل الرّجلُ منا حتى يَقْتُل ؛ فإمّا أن نموتَ أعزاء أو نظْفَر كرامًا .

فلمّا سمع الملكُ النّاصر كلامه استشار عنْد ذلك أصحابه ، فأشاروا عليه بمُوَافقتهم .

ووقع الصّلح على أن يسلّموا أسْرَى المسلمين ، ويبْذُلوا عن كلّ رجل من الفرنج عشرة دنانير ، وعن كلّ امرأة خمسة ، وعن كلّ طفل وطفلةٍ دينارين ، يستوى فى ذلك الغنىّ والفقير . وبذَل ابن بارزان فى الفُقَراء ثلاثين ألف دينار من مَاله ، وعلى أنْ تكون المدّة أربعين يومًا ، فمن أدّى ذلك قبل المدّة خلص ومن تأخّر استُرِقّ .

وتسلّم السّلطانُ المدينةَ فى يوم الجُمُعة السّابع والعشرين من شهر

رجب . وكان يومًا مشهودًا ، ورُفعت الأعلام الإسْلامية على الأسوار[١] ، ورتّب السّلطان على أبواب البلد أُمناء من الأمراء يأخـذون من أهله ما استقرّ عليهم ، فخانُوا ، ولوأدّوْا الأمانة لامتلأت الخزائن .

قال : وصلّى الملكُ النّاصر الجمعة الثّانية فى رَابع شعْبان فى قبّة الصّخرة ، وكان الخطيبُ والإمَامُ القاضى محيى الدّين ابن الزّكى قاضى دمشق [٢] .

ثم رتّب له خطيبًا وإمامًا ونقل إليه المِنْبر الذى كان عَمِله الملكُ العادل نورُ الدّين بحلب برَسْم البَيْت المقدّس إذا فتحه . وكان بين عَمَله وفَتْح البيت المقدّس مايزيدُ على عشرينَ سنة .

ثمّ تقدّم أمر السّلطان بعمارة المسجد الأقصى ومَحْو ما كان الفرنج صنَعُوه من الصُّوَر على عادتهم ، ونقل إليـه المصَاحِف ، وطهّـره من أدْنَاس الكُفر ، رحمه الله تعالى ، وتقدّم بعمل الرُّبُط والمدَارس ، وجَعَل دار الأسْبتار مدرسةً للشّافعيّة [٣] .

ذكر رحيله ومحاصرة صور

قال المؤرّخ : وأقام السّلطان الملك النّاصر بالبيت المقدّس إلى الخامس والعشرين من شعْبَان من السّنة ، ثمّ سار لقَصْد محاصرة صُور وقد اجتمع فيها خلقٌ كثير من الفرنج . وقدِم إليها المَـرْكِيس [٤] فى

---

(١) انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢١١ ـ ٢١٧ ، الكامل جـ ١١ ص ٥٤٦ ـ ٥٥٣ ، النوادر السلطانية ص ٨١ ـ ٨٢ .

(٢) هو محمد بن على بن محمد ، محيى الدين بن الزكى ، توفى ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م ــ وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٢٩ رقم ٥٩٤ .

(٣) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٣٠ .

(٤) هو كنراد ابن ماركيز مونتيفرات ــ تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٧٦٢ ـ ٧٦٣ .

البحر بأموال عظيمة ؛ وكانت عـادتُه أن يحضـر إلى البَيْت المقدّس بأموالٍ يفرّقُها ، فلمّا حضر فى هذا الوقت وَوَصل عكّا فرآها قدْ خرجَت عن أيدى الفرنج سار إلى صُور فملكها ، وأنْفَق ما مَعُه على مَنْ بها ، فقَوِى أمرُه وانحاز إليه جميعُ مَنْ خلص بالأمان من سائِر البلاد . فأنفق على سور صُور وخَنَادقِها ، وعمَّقهـا ، فصَارت كـالجزيـرة فى البحر لا يُمْكنُ الوصول إليها .

فوصَل الملكُ النّاصر إلى عكّا فى مستهل شهر رمضان ، فأصْلَح من شأنها ، ثم رحل عنها ونَازَل صورٍ فى تاسع شهر رمضان ونزل على نهر بالقرب من البلد ؛ ثمّ نزل على تلّ يقاربُ صور فى الثّانى والعشرين من الشّهر ، وقسّم القتال على العسْكَر لكلّ جَمْعٍ منهم وقتٌ معلوم . واستدعى الأسطول المِصرىّ ، وكان بعكّا ، فجاءته عشر شوانٍ ، وكان للفرنج فى البحر مراكب فيها رماة الجروخ (١) والزنبوركات (٢) يرمُون مَنْ دنا من البحر . فاسْتَطال الأسطول عليها ، وأحاط بهم المسلمونٍ وقاتلُوا برًّا وبحرًا ؛ ثمّ أغفَلوا أمْرَهم فملك الفرنج من الشوانى خمسةً وأسرُوا مقدَّمها (٣) .

ثمّ كانت حروبٌ كثيرة ووقائع .

ثمّ رحل السّلطان عنها فى آخر شوّال ، وهو أول كانون (٤) ، وسار إلى عكّا ، وأذِن للعساكر بالعَوْد إلى أوطانهم للرّاحة فى الشتاء والعَوْد فى الربيع ، فعادت عساكرُ الشّرق والمَـوْصِل والشّـام ومِصر ، وبقى

(١) الجرخ ـ الجروخ : أنواع من السهام ــ انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٤٢ هامش ٤ .
(٢) الزنبورك ــ الزنبوركات : نوع سميك من السهام ــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٤٤ هامش

(٣) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ ، الكامل جـ ١١ ص ٥٥٣ ـ ٥٥٥ .
(٤) ديسمبر ١١٨٧ م .

السّلطان فى عكّا فى حَلْقَته وخاصّته ، وردّ أمرها إلى الأمير عز الدّين جُرْدَيك [١] .

ذكر فتح هُونين

قال المؤرخ : كان السّلطان لمّا فتح تِبْنين امتنع مَنْ بهُونين من تسليمها ، وهى من أحْصَن القلاع وأمْنَعها ، فرتّب عليها من يَحْصُرها ؛ فطلَب مَنْ بها الأمان لمّا كان السُّلطان يحاصر صُور ، فأمَّنهم ، ونزلُوا منها وتسلّمها [٢] .

[واتفق أن فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة إلى سرمينية ، مع كثرتها ، كان فى ست جمع مع أنها فى أيدى أشجع الناس] [٣] [١٢٥] وأشدهم عداوة للمسلمين ، فيسر الله فتحها فى أيسر مدة .

---

(١) انظر الكامل جـ ١١ ص ٥٥٥ ـ ٥٥٧ .

(٢) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٤٧ .

(٣) رغم تتابع أرقام أوراق المخطوط ، فإن الكلام غير متصل فيما بين ورقم ١٢٤ وورقة ١٢٥ ، والفقرة المضافة من الكامل جـ ١٢ ص ١٣ ـ ١٤ لمواصلة تتابع الأحداث ، وتتفق مع السياق الذى أورده النويرى فى بداية الورقة ١٢٥ ، أما المدن والحصون التى تشير إليها هذه الفقرة فهى :

- ذكر فتح جبلة ــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٥٨ ، الكامل جـ ١٢ ص ٧ .
- ذكر فتح بكسرائيل ــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٥٩ ، الكامل جـ ١٢ ص ٨ .
- ذكر فتح اللاذقية ــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٥٩ ، الكامل جـ ١٢ ص ٩ .
- ذكر فتح صهيون ــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦١ ، الكامل جـ ١٢ ص ١٠ .
- ذكر فتح الشغر وبكاس ــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦٤ ، الكامل جـ ١٢ ص ١٢ .
- ذكر فتح سرمانية ــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦٤ ، الكامل جـ ١٢ ص ١٣ .

ذكر فتح حصن برزية

قال : ولما رحل السلطان من قلعة الثغر سار إلى قلعة برزية [١] ، وبحصانتها يضرب المثل ، وهى تقابل حصن أفامية [٢] وتناصفها فى أعمالها ، وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصى ، ومن عيون تنفجر من جبل برزية وغيره .

وكان أهلها أضر شىء على المسلمين يقطعون الطّريق ويبلُغُون فى الأذى .

فنزَل السّلطان شرقيّها فى رابع عِشْرِى الشّهر [٣] ، وركب من الغَد وطاف عليها لينظُر موضعًا يقاتِلُها منه ، فلم يجده إلا من جهة الغرب . وهذه القلعة لا يمكن أنْ تُقاتَل من جهتى الجنوب والشّمال ألبتَّة ، فإنّ جبلَها لا يُصعد إليه من هاتين الجهتين ؛ وأمّا الجانب الشرقىّ فيمكن الصُّعود منه لِغَير مقاتِل لِصُعوبته وارتفاعه ؛ وأما جهةُ الغرب فإنّ الوادى المُطِيف بجَبَلها قد ارْتَفع هناك ارتفاعًا كثيرًا حتّى قارَب القلعة بحيث يصلُ منه حجر المنجنيق والسّهام . فنَزَله المسلمُون ونصبُوا المجانيق ، ونصبَ أهلُ القلعة منجنيقًا ، فرأى السُّلطان المجانيق لا تُفيدُ ، فتركها وعزم على الزَّحف ومُكَاثَرتها بالرِّجال ؛ فقسَّم العسكر ثلاثةَ أقسامٍ ، يزحفون بالنَّوبة . فطالَ ذلك على أهْلِها وعجزُوا عن مُقَاتلتهم فملكَها المسلمون عنْوةً ونهبُوا وأسرُوا وسبَوْا ، وأخذوا صاحبها وأهْلَه ، وأمْسَتْ خاليةً خاوية . وألقى المسلمُون النّار فى بعْض البيُوت فاحترقت [٤] .

---

(١) برزية = برزويه : حصن قرب الساحل على سن جبل شاهق ـــ معجم البلدان .

(٢) أفامية : حصن على سواحل حمص ، يقابل برزية ـــ معجم البلدان .

(٣) هو شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٤ هـ ـــ الكامل جـ ١٢ ص ١٤ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) الكامل جـ ١٢ ص ١٤ ـ ١٧ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧ . النوادر السلطانية ص ٩٢ ـ ٩٣ .

ذكر فتح قلعة دَرْبَسَاك

قال : ثمّ رحَل السّلطان بعد فتُوح بـرزيّة من الغَـد فأتى جسـر الحديد ، وهو على العاصى بالقرب من أنطاكيّة ، فأقام هناك حتّى وافاهُ من تخلّف عنْه من عسكره ثمّ سار إلى قلعة دَرْبَسَاك ، فنَزَل عليها فى ثامن شهر رجب سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وهى من أحْصَن معاقل الدّاويّة وقلاعهم التى يدّخرُونها عند نُزول الشدائد بهم . فنصَب عليها المجانيق ، وتابَع الرّمْىَ بالحجارة ، فهدم قطعةً يسيرة من سُورها ؛ ثمّ أمَرَ بالزّحْف عليها ومُهَاجمتها ؛ فتوالى الزّحفُ والقتال ، وتقدَّم النَّقّابون فنقبوا منها بُرْجًا وعلقوه فسقَط ، وطلَب أهله الأمان فأمَّنهم على ألا يخرجُوا منها بغير ثيابهم خاصّـةً ، فخرجـوا كذلـك ، وتوجهـوا إلى أنطاكيّة ، وتسلّمه فى تاسع عشر شهر رجب [(١)] .

ذكر فتح قلعة بَغْرَاس

قال : ثمّ سار عن دَرْبَسَاك إلى قلعة بَغْرَاس ، فحَصَرهـا بعد أن اختلف أصحابُهُ فى حَصْرها ، فمنهم مَن أشار به ، ومنهم من نهى عنه وقال هُو حِصْنٌ حصينٌ ، وقلعةٌ منيعةٌ ، وهو بالقرب من أنطاكية . فسار إليها وجَعَل أكثر عَسْكره مُقابِل أنطاكية يُغيرون على ضِيَاعِها ، وبقى هو فى بَعْض أصحابه على القَلْعة ونصب عليها المجانيق فلم يؤثّر فيها ، فغلَب على الظُّنون تعذُّر فَتْحها . فبينما هُم فى ذلك إذ جاءَ رجلٌ من القلعة يطلب الأمان لرسُولٍ ، فأعْـطِيَه ، وجـاء رسولٌ يـطلب الأمان لأهلها ، وسلّموها على قاعدة دربساك ، فأجَابهم إلى ما طلبوا . وعاد

---

(١) الكامل جـ ١٢ ص ١٧ ــ ١٨ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ ، النوادر السلطانية ص ٩٣ .

الرَّسُول ومعه الأعلام السُّلطانيّة فرُفِعَت على رأس القلعة ، وتسلّمها السّلطان وأمَرَ بتخريبها فخربت[(١)] .

ذكر الهدنة بين المسلمين وبين صاحب أنطاكية

قال : ولمّا فتح السّلطان بغراس قصد حصار أنطاكيّة فجاءته رسُل بيمند تسأله الهدنة ثمانيةَ أشهر بحيث يُطْلِق جميع مَن عنده من أسْرى المسلمين . فاستشار السلّطان أصحابه ، فأشار أكثرُهم بذلك ليستريحَ العسكرُ ويجدِّدوا [١٢٦] ما يحتاجون إليه ، فأجاب إلى ذلك ووُقّعت الهدنة ثمانيةَ أشهر أولها تشرين الأول [(٢)] .

وتوجَّه السّلطان إلى حلب فوصل إليها فى ثالث شعبان ، وفرَّق العساكر الشّرقية : عمادَ الدّين زنكى بن مودُود صاحب سنجار ، وعَسْكرَ الموصل ، وغيرَهما . ثمّ رحل إلى دمشق فدخلها فى أول شهر رمضان من السّنة .

ذكر فتح الكرك والشوبك وما يجاورهما

قد ذكرْنا أنّ السّلطان كان قد جَعَل على الكرك من يحصُره ، وهو سعدُ الدّين كمشبه [(٣)] ، فى أوّل سنةِ أربع وثمانين ؛ فلازَمَ الحصار هذه المدَّة الطويلة حتى نفذَت ذَخائرُ الفرنج ، وأكلوا دوابَّهم . فراسَلوا الملكَ العادلَ أخا السّلطان ، وكان السّلطان قد جعله بتلك النّواحى فى جَمْعٍ من العسكر ، وسألُوه الأمان ، فأجابهم إلى ذلك ، وأرسل إلى سَعْد الدّين مقدّم العسكر فتسلّم القلعة منهم وأمَّنهم .

---

(١) الكامل جـ ١٢ ص ١٨ - ١٩ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، النوادر السلطانية ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢) شهر أكتوبر ١١٨٨ م = شعبان ٥٨٤ هـ - الكامل جـ ١٢ ص ١٩ - ٢٠ .

(٣) « كمشبا » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٧١ .

وتسلّم أيضًا ما قَارَب هذا الحصن من الحُصَون وهو الشـوبك ، وهرمز ، والوعيرة ، والسلع فأمِنت القُلوبُ من تلك الجهة[١] .

ذكر فتح قلعة صفد

قال : ولمَّا وصل السّلطان إلى دمشق أُشير عليه أن يفرّق العساكر ، فقال : إنّ العمر قصير والأجل غير مأمون ، وقدْ بقِىَ بيد الفرنج هذه الحصون : صفد والكو كب ، ولابدّ من الفَرَاغ من ذلك فإنّهما فى وَسَط بلاد الإسلام . وأقامَ بدمشق إلى مُنْتَصَف شهر رمضان من السّنة ، وسار إلى قلعة صفد ، فحصَرها ونصب عليها المجانيق ، وداوَم الـرَّمْىَ ليلاً ونهارًا ، فسألوا الأمان ، فأمّنهم وتسلّمها ، وخرج أهلها إلى صور[٢] .

ذكر فتح كوكب

قد قدّمنا [٣] أنّ السلطان كان قد جعل على كوكب الأمير قايماز النّجْمى[٤] . فلمّا حصر السّلطان صَفَد أرسل منْ بصُور مِنْ الفرنج نجدةً من جِهاتهم إلى كوكب ، وهم مائتا رجُـل من الشُجعان ، فـظَفِر بهم قَايماز فقتلهم عن آخرهم ، وأرْسل إلى السلْطان المقدَّمَيْن عليهم ، وهما رجلان من فرسان الأسْبتار ، فأمر بقتلهما ، فقال أُحدُهما ما أظن أننّا ينالُنا سوءٌ بعد أنْ رأينا وجهَك الصّبيح . فعفَا عنهُما واعتقلهما .

ولما ملَك صَفَد سار عنها إلى كوكب وشدّد الحصار ووَالَى الزّحف ، وأشْرف على أخذها ، فسأل الفرنجُ الأمـان فأمّنهم وأطلقهم ، وتسلّم

---

(١) الكامل جـ ١٢ ص ٢٠ ـ ٢١ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

(٢) وذلك فى رابع عشر شهر شوال ٥٨٤ هـ ــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٧٢ .

(٣) لم يذكر النويرى ذلك من قبل ، ولكنه ينقل عن غيره ، وقد تكرر ذلك فى أكثر من موضع .

(٤) هو قايماز بن عبدالله النجمى ، صارم الدين ، تـوفى سنة ٥٩٦ هـ/١١٩٩ م ــ البـداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣ ، الدارس جـ ١ ص ٥٧٢ وما بعدها .

الحِصْن فى منتصف ذى القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

فالتحق مَنْ كان به بصُور فقويت شوكتهم وكثُروا ، لأنه اجتمع عندَهُم شُجعان الفرنج وكُمَاتُهم . وتابَعُوا الرّسـل إلى ملُوك الفرنـج بالأندلُس وصِقِلّيَة والجزائر يستغيثُون بهم ويسألون الأمداد ، فكان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى .

قال : ثمّ سار السّلطان إلى البيت المقدّس فعيَّد فيه عِيدَ الأضحى . ثمّ سار منه إلى عكّا وأقام بها إلى أن انسلخت السنة[١] .

وفى سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثارَ بالقاهرة اثنا عشَر رجلاً من الشّيعة ، ونادوا بشعار العلويّين ، وصاحوا : يا لَعَلِىّ[٢] وسلكوا الدُّرُوب يُنادون ، ظنًّا منهم أن أهـل البلد يُلبُّون دعـوتهم ويخرجـون معهم ، فيعيدون الدولة العُبَيديّـة ويملكون البلد ويُخْرِجونَ مَن بـالقصر من العلويين ؛ فلم يُجبهم أحد من الناس .

فلمّا خاب سعيُهم تفرّقُوا فأُخِذوا . وكُتب بذلك إلى السّلطان فأهمّه وأزعجه .

فقال له القاضى الفاضل عبْد الرّحيم : ينبغى أن يَفْرح السّلطان بذلك ولا يحزن ، حيث عَلِم مِن بَوَاطن رعيّته المحبّةَ لـه والنّصيحة ، وتَرْك المَيْل إلى عدُوّه . ولو وَضَع السُّلطانَ جماعةً يفعلُون مثلَ هـذه الحالة ليَعْلم بوَاطن أصحابه ورعيّته وخَسر الأموالَ[٣] الجلية لكانَ قليلاً فسُرِّىَ عنه .

---

(١) الكامل جـ ١٢ ص ٢٢ ـ ٢٣ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٦ ، النوادر السلطانية ص ٩٦ .

(٢) « يال على » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٧٦ ، الكامل جـ ١٢ ص ٢٤ .

(٣) « وخبر الأموال » فى الأصل ، والتصحيح من الكامل جـ ١٢ ص ٢٤ .

[١٢٧] ذكر فتح شقيف ارنوم

وفى شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وخمسمائة سارَ السُّلطان إلى شقيف أرنوم[١] ، وهو من أمْنَع الحصون ، ليحصره ، ونزل بمرج عُيون فنزل صاحبُ الشّقيف ، وهو أرناط[٢] صاحب صَيْدا ، إلى السّلطان ؛ وكان من أكثر النّاس دَهاء ومكرًا فقال : أنَا محبٌ لك ولدَوْلتك ، ومعترف بإحسانك ، وأخاف أن يطَّلِع المركيس على ما بَيْني وبَيْنَك فينال أوْلادى وأهلى منْه أذًى ، فإنّهم عنده بصُور ؛ وأحبّ أنْ تمهلَنى حتى أتوصّل إلى تخليصهم من عنده ، وحينئذٍ أحضر أنا وهم إلى عندك ونسلّم الحصن إليك ، ونكون فى خدمتك ، نقنع بما تعطينا من الإقطاع . فأجابه السلطان إلى ذلك وظنّ صدقه ، واستقرَّ الأمر بينهما أن يسلّمَ الشّقيف فى جمادى الآخرة .

وأقام السّلطان بمَرْج عُيون ينتظر الأجل وهو قلقٌ مفكرٌ لقُرب انقضاء الهدنة بينه وبين صَاحب أنطاكية فأمر تقى الدّين ابن أخيه أن يسير فيمن مَعَهُ من عساكره ومَنْ يأتيه من بلاد الشّرق ويكون مقابل أنطاكيّة لئلاَ يُغِير صاحبُها على ما يجاوِرُه من بلاد الإسْلاَم عنْد انقضَاءِ الأجل .

وكان السّلطان أيضًا منزعِجَ الخاطر لِمَا بلغَه من اجْتماع الفرنج بصُور وَمَا يصلُ إليهم من الأمداد ، وأنّهم اجتمعوا فى خلْق كثير وخرجُوا من مدينة صُور إلى ظاهِرها ؛ فخَاف أنْ يترُك الشّقيفَ وراءَ ظَهره . وكان أرْناط فى هذه المدّة يشترى الأقوات من سُوق العسكر ، والسّلاح ، وغيرَ ذلك مما يحصّن به شقيفه ، فيبلُغ السّلطان فلا يُنكره بحسُن ظنّه . وكان قصْدُ أرناط المطَاولةَ إلى أن يظهر الفرنج من صور .

(١) شقيف أرنوم = شقيف أرنون : قلعة حصينة بين بانياس والساحل ـ معجم البلدان .

(٢) واسمه رينالد ، ويعرف بريجنالد صاحب صيدا ــ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ٨٧٠ .

فلما قاربَ الأجلُ تقدّم السلطان إلى الشَّقيف ، واستدعى أرناط وقد بقى من الأجل ثلاثة أيّام ، فجاءه ، فتحدّث معه فى تَسْليم الحصن ، فاعتذر بأولاده وأهله وأنّ المركيس لم يمكّنهم من المجىء إليه ، وطلَب المهلة مدّةً أخرى . فحينئذٍ تحقق السّلطان مُكْرَه وخداعه ، فأخَذه وحَبَسه ، وأمره بتَسْليم الشَقيف فطَلَب قسّيسًا وحمَّله رسالةً سرًّا ، وأظهر أنّه أمره بتَسْليمه ؛ فامْتنع مَنْ بالحصن من تَسْليمه : فسيَّر أرناط إلى دمشق وسَجَنه ، وتقدّم إلى الشّقيف وضَيَّق على مَنْ به ، وتَرَك عليه من يحفظُه ويمنعُ مِن الوصول إليه . فتسلّمه فى يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول سنة ستّ وثمانين ، وأطلق صاحبه[1] .

ذكر مسير السلطان من مرج عيون إلى صور وما كان عليها من الوقائع

قال : وجاءت السُّلطانَ كتبُ أصحابه الذين جعلهم يَزَكًا[2] فى مقابَلَة الفرنج على مدينة صُور يخبرونه أنّ الفرنج قد اجتمعُوا على عُبور الجسر الذى لصُور ، وعزَمُوا على حصار صَيْدا . فسار جريدةً فى شجعان أصحابه ، فوَصَل إليهم بعد أنْ كانت الوقعَةُ بين الفرنج وبين اليَزَك .

وذلك أنَ الفرنج خرجُوا من مدينة صُور ، فلقيَهم اليزكُ على مضيق وقاتلُوهم ومنعُوهم ، وكانت حربًا شديدةً ، وأُسِر من الفرنج جماعةٌ ، منهم سبعةُ رجال من فرسانهم المشهورين ، وقُتل من المسلمين

(١) الكامل جـ ١٢ ص ٢٧ ـ ٢٨ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٤ ، النوادر السلطانية ص ٩٧ .

(٢) اليزك : طلائع الجيش ــ صبح الأعشى جـ ١٠ ص ١١٠ .

جماعةٌ . ثم عجز الفرنج عن الوصول إلى صَيْدا فعادوا إلى صُور والله أعلم(١) .

ثم كانت لهم وقعة ثانية بعد وصول السّلطان مع المتطوّعة .

وذلك أنّ السّلطان لما جاء إلى صور أقام مع اليَزَك فى خَيْمةٍ صغيرة ينتظِرُ عودة الفرنج للخُروج ؛ فرَكِب في بعض الأيام فى عدَّةٍ يسيرة لينظُر إلى مخيّم الفرنج من الجبل ، فظَنَّ مَنْ هُناك من المتطوّعة أنّه قصد الغَزَاة ، فسارُوا مجدِّين وأَوْغَلُوا فى أرض العدوّ وبَعُدُوا [١٢٨] عن العسكر ، وخلّفوا السّلطان وراءَ ظُهـورهم ؛ فبَعث مَنْ يردُّهم فلم يَرْجعوا . وظنّ الفرنج أنّ وَراءَهم مَنْ يحميهم فأحجموا عنهم ؛ فلمّا علمُوا بانفرَادهِم حملوا عليهم حمْلةَ رَجل واحد ، فقُتل منْهُم جماعةٌ من المعروفين ؛ فشقّ ذلك على السُّلطان والمسلمين . وكانت هذه الوقعة فى تاسع جُمادى الأولى .

فلمّا رأى السّلطان ذلك انحدر من الجَبَل بمَن معه ، وحمل على الفرنج فردَّهم إلى الجسر ، فرمَوْا بأنفسهم فى الماء ، فغَرِق منهم مائة دَارِع سوى مَنْ قُتِل . وعادُوا إلى مدينة صُور ، فعادا السّلطان إلى تِبْنِين ثم إلى عكا .

ثم كانت وقعةٌ ثالثة فى يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة صبر فيها الفريقان(٢) .

ذكر مسير الفرنج إلى عكّا ومحاصَرَتها

قال المؤرخ : لما كثُر جمع الفرنج بصُور ، على ما ذكرناه مِنْ أنّ السّلطان كان كلّما فتح حصناً أو مدينةً بالأمان سـار أهلُها إلى صُـور

(١) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ، الكامل جـ ١٢ ص ٢٩ .

(٢) انظر تفصيل هذه الوقعة الثالثة فى الكامل جـ ١٢ ص ٣٠ ـ ٣١ .

بأموالهم وأهليهم ، اجتمع بها منهم عـالَمٌ كثير لا يُحْصَـوْن ، وأموالٌ كثيرة ، ثمّ إنّ الرُّهبان والقُسُوس لبسوا السواد وأظهرُوا الحزن على خـروج البَيت المقدّس عنهم ، وتـابَعَهم جمـاعـةٌ من المشهـورين . فأخذهم البطرك[1] ودخَل بهم إلى بلاد الفرنج يطُوفُها بهم ويستَنْجِدُون أهْلَها ويستجيرُون بهم ، ويحثّونهم على الأخذ بثأر البيت المقدّس .

وصوَّرُوا صُورَة المسيح عليه السّلام وصُورة رجل أعرابى والعَربىّ يضربُهُ بين جَماعةٍ ، وقالوا : هذا المسيحُ يضربُه محمّد نبى المسلمين ، وقد جَرَحه وقتَله[2] .

فعظُم ذلك على الفرنج وحشدُوا ، حتّى النساء ،فإنّهم كانَ معهم على عكّا عدَّةٌ من النسَاء يبارِزْن الأقران . ومَنْ لم يستطع أن يَخرج استأجَر عنه أو يعطيهم مالاً . فاجتمع لهم من الرّجال والأموال مالا . يُحصى كثرة .

واجتمعـوا بصُور والبَحْـر يُمِدُّهم بـالأمـوال والأقـوات والعُـدد والذّخائر ، فضاقت عليهم مدينة صُور ، باطنُها وظاهرها ؛ فأرادُوا قَصْد صَيْدا ، فكان من ردِّهم ما ذكرناه .

فاتّفقُوا على قَصْـدِ عكّا ومُحَـاصَرتهـا ؛ فسارُوا إليهـا بفَارِسهم ورَاجِلهم ، ولزِمُوا البحْر فى مسيرهم ، لا يفارقونه فى السَّهل والوعر ، ومراكبِهُم تُسايِرُهم وفيها السّلاح والذّخائر . فكان رحيلُهم من مدينـة صُور فى ثانى شهر رجب سنةَ خمس وثمانين وخمسمائـة ، ونُزُولهم

---

(١) « البترك » فى الأصل .
والمقصود رئيس أساقفة صور وهو جوسيوس Goscius الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٨٨٣ .

(٢) انظر مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٨٨ ، الكامل جـ ١٢ ص ٣٢ ، الروضتين جـ ٢ ص ١٤١ .

على عكّا فى مُنْتَصف الشّهر . فتخطَّف المسلمون مِنْهم فى مسيرهم وأخذوا مَن انفرد .

وجاء الخبر إلى السُّلطان برحيلهم ، فَسار حتى قارَبَهم . ثمّ نزلوا على عكّا قبل وُصُوله إليها ، ونازَلُوها من سَائرجهاتِها برًّا وبحرًا ، فلم يَبْق للمسلمين إليها طريق . ونَزَل السُّلطان عليهم وضرب خَيْمته على تلِّ كيسان[1] وامتدّت ميمنته إلى تـلّ العياضِيَّة وميسرَتُه إلى النّهر الجارى[2] ، ونزلت الأثقـال بصَفُورِيّة . وسيّر الكتب إلى الأطـراف يستدعى العساكر ، فأتاه عسكر المَوْصل ، ودِيـار بكر ، وسِنْجـار ، وغيرها من بلاد الجزيرة . وأتاه تقىّ الدّين ابنُ أخيه ، ومظفّر الدّين بن زين الدين صاحب حَرَّان والرّها . فكانت الأمداد تأتى المسلمين فى البرّ وتأتى الفرنج فى البحر .

وكان بين الفريقين مدّةَ مُقامهم على عكّا حروبٌ كثيرة .

نحن نذكر المشهورَ منها على سبيل الاختصار ؛ وأمّـا الحرُوب التى تكون بيْن بعْض هؤلاء وبعْض هؤلاء ، والمناوشات ، فلو شَرَحْنَاها لطَالَ بها الكتاب لأن مُدّة هذا الحصار كانَتْ ثلاث سنين وشهرًا .

وكان ابتداءُ القتال فى مُسْتَهَل شعبان من السّنة . فقاتَلَهم السّلطان فى ذلك اليوم ولم يَبْلُغ منهم غرضًا ؛ ثم باكَرَهم القتَال واسْتَدار عليهم من سائر جهاتهم إلى أنْ انتصف النّهار ، وصَبَر الفريقان أعظم صبر . فحَمل تقىّ الدّين من الميمنة على مَنْ يَلِيه مِنهم وأزاحهُم عن مَوَاقفهم ، فركِبَ بعضُهم بعضًا لا يُلوِى الأخ على أخيه ، والتجـأوا إلى مَنْ يَليهم من أصحابهم . وانْكَشف نصفُ البَلَد ، وملَك تقىّ الدّين مكـانَهم ، ودَخَل

---

[1] تل كَيْسان : بفتح الكاف وياء ساكنة : موضع فى مرج عكا من سواحل الشام ــ معجم البلدان .

[2] هو نهر بالس .

...ون البلد وخرجُوا منه ، واتصَلت الطريق وزال الحصار . وأدخل السّلطان إلى البلد [١٢٩] مَنْ أراد من الرّجال ، وما أرَاد من الذّخائر ، والأموال ، والسّلاح ؛ فكان مِنْ جُملة من أمره السلطان بالدّخول إليها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السّمين . وقُتِل من الفرنج فى هَذا اليَوْم خلقٌ كثير .

ثم كانت بينهم وقعات فى ثامن شعبان ، وتاسِعِه ، وعَاشِره ، وحادِى عَشَره . ثمّ كانت وقْعَةٌ فى تاسع عشر شعبان بين أهْل عكّا والعدُوّ فقُتِل مَن فى الطّائفتين وجُرح .

ثم كانت الوقعة الكبرى فى الحَادى والعشرينَ من شعبانَ وذلك أن الفرنج اجتمعُوا وتشاوَروا ، وقالوا إن العسكر المصرىّ إلى الآن ما قَدِم وهذا فِعْلُ السّلطان ، فكيْفَ إذَا قدِمت عساكِرُه فأجْمعُوا رأيَهم على مُناجَزَة الحرب . وكانت عساكِرُ السّلطان متفرّقةً : منها طائفةٌ فى مُقَابلَة أنطاكية تمنعُ صاحبَها من الإغارة على الأعمال الحلبيّة ؛ وطائفةٌ على حمص فى مُقَابلَة طرابلس ؛ وطائفةٌ تقاتِل مَنْ بقى بصُور ؛ وطائفةٌ بالدّيار المصرية لحمايَة ثغْرَىْ الإسكندرية ودمياط ، ومَنْ بقِىَ من العسكر المصرى إلى الآن لم يَصلْ ؛ وهذاَ ممّا أطَمع الفرنج فى الظّهور .

قال : وأصبح المسلمونَ فى هذا اليوم على عادتِهم ، منهُم من يتقدَّم إلى القتال ومنهم مَنْ هو فى خَيْمته ، ومنهم من قَدْ توجه فى حاجته . فخرجِ الفرنج مِنْ معَسْكَرهم كالجراد المنْتَشِر قد ملأوا الأرض ، فكانَت وقعةٌ عظيمة ابتداؤها على المسلمين ، ثم أنزل الله نصره علَيهم ، فهزَموا الفرنج أقْبحَ هزيمة ، وقُتل منهم من رؤسائِهم عشرة آلاف ، وقتل من المسلمين فى هَذِه الموقعَة من الغِلْمَان ومَنْ لم يعرف مائةٌ وخمسون ، ومن المعْروفين الأمير مجلى بن مروان ،

والظّهير أخو الفقيه عيسى [الهكارى][(١)] ، وكانَ وَالى البيت المقدّس ، جَمَعَ العِلْم والدّين والشجاعة ، والحاجب خليل الهكّارى ، وجمال الدّين بن رَوَاحة الحمَوىّ ، ولم يكن بالمصافّ . وأسِر منَ الفرنج مقدّم الدَّاويّة ؛ وكان السّلطان قد أسَره فيما تقدّم وأطلقه ، فقتله الآن .

قال : وأمر السّلطان بجَمْع القَتلى وإلْقَائهم فى النّهر الذى يشرَب منه الفرنج .

قال العمادُ الأصفهانى رحمه الله : ومن العَجب أنّ الذين ثبَتُوا فى هذه الوقعة لم يبلغوا ألفًا ، ردُّوا مائة ألف ، وآتاهم الله قوةً بعد ضعف .

قال ابن الأثير : وأُخِذ فى جُملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيّات كنّ يقاتِلْن على الخيل ، فلما أُسِرن وأُلقِى عنهنّ السلاح عُرِفن[(٢)] .

ذكر رَحيل السّلطان عَن مَنزلته وتمكّن الفرنج من حصار عكّا

كان رحيلُه فى رابع شهْر رمضان من السّنة . وسبَب ذلك أنه لما قُتِل من الفرنج هذه المقتَلَةُ العظيمة جافَت الأرض منهم وتغيَّر الهواء ، وحدث لِلأمزجة فسادٌ ، وحصَل للسّلطان مرض القُولَنْج ، وكان يَعْتريه ، فأشار عليه الأمراء والأطباء بالانتقال ، وقالوا لو أراد الفرنج أن ينصرفوا لما قدَرُوا فإنّا قدْ ضيقنا عليهم ؛ والرأى أنْ يَنْتقل عن هذه المنْزلة ، فإن رحَلوا فقد كُفِينا شرَّهم ، وإن أقاموا عُدْنا إلى القتال ، فوافَقَهم . وكان بئْس الرّأى .

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٢) الكامل جـ ١٢ ص ٣٩ .

ورحل السّلطان إلى منزلة الخرُّوبَة(١) ، وكتب إلى أهل عكّا يُعْلِمهُم بسبَب رحيله ويحثّهم على حِفظ البلد وغَلْق أبوابها .

قال : ولما رحَل السلطان بعسَاكره عن تلك المنْزلة أمِن الفرنج وانبسَطُوا ، وانْبَثُوا ، وعادُوا إلى حصار عكّا فى البّر والبحر ، وشرعوا فى حَفْر خندقٍ عليهم يكونُ بينهم وبين المسلمين إن قَصَدُوهم وعَمِلُوا سُورًا من تُراب ، وجاءوا بما لم يكن فى الحُسْبان . هذا والسّلطان قد اشتدَّ به المرض فلم يستَقِل منه إلى أن تكامَل حَفْر الْخَنـدق وعمل السّور من ترابه .

ذكر وصول العسكر المصرىّ فى البر[١٣٠] والأسطول فى البحر

قال : وفى مُنْتصف شوال سنـة خمس وثمانين وصلت العسَـاكر المصرية ومقدَّمُها الملك العادل سَيْف الدّين . فلما وصلت قويتَ قلوبُ النّاس ، وأحضر من آلات الحصار شيئًا كثيرًا . ثم وصل بعْدَه الأسطول المصرى فى خَمسين قطعة ومقدَّمهم الأمير حُسَام الدّين لؤلؤ ، وكان شهْمًا شجاعًا ، مِقْدامًا ميمونَ النقيبة ، خبيرًا بقتال البحر ؛ فوصل بغتةً ، فوقع على بَطْشَةٍ كبيرة للفرنـج ، فغَنِمها وأخـذَ ما فيهـا من الأموال الكثيرة والمِيرة ، وعَبَر بذلك إلى عكّا ؛ فسكنت نفُوس النّاس بذلك . وقال العماد : إنه ظفر ببطشتين(٢).

---

(١) الخروبة : تل فى الطريق بين صفورية وعكا ، فى منطقة الجبال التى تشرف على السهل بهذه المنطقة ــ معجم البلدان .

(٢) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٠٥ .

ذكر خبر ملك الألمان وما كان من أمره إلى نهايته

قال العماد الأصفهانى : ونُمِى الخبر بوُصول ملك الألمان[١] إلى قسطنطينية فى ثلاثمائة ألف مقاتل على قَصْد العُبور إلى بلاد الإسلام . فاستَنْفر الملكُ الناصر الجيوشَ والعساكر من كلّ جهة ، وجهَّز القاضى بهاءَ الدّين شدّاد وأمره بالمسير إلى الدّيوان العزيز ببغداد[٢] وأن يمُرَّ على صاحب سنجار[٣] ، وصاحب الموصل[٤] ، وصاحب إربل[٥] ، ويستدعِيهُم بأنفُسِهم وعساكِرهم .

قال ابن شدّاد : فَسرتُ فى حَادى عشر شهر رمضان سنَة خمس وثمانين وخمسمائة ، وأبلغت الرّسائل ، فأجابوا إلى ذلك ، فعُدْت فى خامس شهر ربيع الأول سنة ستّ وثمانين ، وسبقت العساكر[٦] .

ثم وصلت العساكر عند انقضَاء الشتاء فى شهر ربيع الأول وأمده الخليفة بحِمْل من النَّفْط الطَّيَّار وحِمْلين من القنا ، وتَوْقيعٍ بعشرين ألف دينار يُقْبَض على الدّيوان العزيز من التجار ، وخمسةٍ من الزَّرَّاقين .

---

(١) هو الامبراطور فردريك بربروسا ـــ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٨٨٦ .

(٢) كان الخليفةِ فى ذلك الوقت الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء ، الذى ولى الخلافة العباسية فى الفترة من ٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ/١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م ـــ تاريخ الدول الاسلامية ص ١٣ .

(٣) هو عماد الدين زنكى بن مودود ، الذى ولى سنجار فى الفترة من ٥٦٦ ـ ٥٩٤ هـ/ ١١٧٠ ـــ ١١٩٧ م ـــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٤٧ .

(٤) هو عز الدين مسعود بن غازى ، الذى ولى حكم الموصل فى الفترة من ٥٧٦ ـ ٥٨٩ هـ ١١٨٠ ـ ١١٩٣ م ـــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٤٦ .

(٥) هو زين الدين يوسف بن على الذى حكم إربل فى الفترة من ٥٦٣ ـ ٥٨٦ هـ/١١٦٨ ـ ١١٩٠ م ـــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٤٩ .

(٦) النوادر السلطانية ص ١١٥ .

وكان العدُوُّ قد اصْطَنع ثلاثة أبرجَة من الخشَبَ والحديد كالجبال وألبسَهـا الجلود المسْقَاة بـالخل ، فيسّـر الله تعـالى على المسلمين إحْراقها ، وذلك فى الثّامن والعشرين من شهر ربيع الأول .

قال : وكان السّلطان قد كتَب إلى مصْر بعمارة الأسطول وإحضْاره إلى عكّا ، فوصل فى يوم الخميس ثامن الشهر ، فكانت الحرْبُ فى هذا اليوم فى ثلاثة مواضع فى البحر ، والحصار فى البر ، وكان النّصر بحَمد الله للمسلمين .

هذا ما كان من أمْر السّلطان لَمَّا بلغه خبرُ ملك الألمان .

وأما ملك الألمان فقال ابنُ الأثير فى تاريخه الكامل :

وفى سنة ست وثمانين وخمسمائة خرج ملك الألمان من بلاده ، وهم طائفةٌ من الفرنج من أكثرهم عدَدًا وأشدّهم بأسًا ، وكان قد أزعَجَهُ ملك المسلمين البيْت المقدّس ، فجمعَ عسَاكِره وسارَ بهم ، وطريقُه فى مسيره على القسطَنْطينيّة . فأرْسل ملكُ الرّوم[1] بخبره إلى السّلطان ، ووعده أنّه لا يمكّنُه من العبُور إلى بلاده . فلمّا وصل ملك الألمان إلى القسطنْطينيّة عجَزَ ملكُها عن مَنْعه من العُبور لكثرة جُموعه ، لكنّه منَعَ عنهم المِيرة ، فقلَّت أزْوادُه ؛ وسارُوا حَتّى عبرُوا خليج القسطنطينية ، وصارُوا على أرض بلاد الإسلام ، وهى مملكةُ الملك قِلِج أرسلان بن مسْعُـود السلجقى[2] . فلمّا وصلُوا إلى أوائلهـا ثارَ عليهم التـرْكمـان [فمازالوا][3] يسايِرُونَهم ، فيقتلون من انْفَرد منهم ويَسْرقون ماقدَروا

---

(١) هو إسحاق الثانى أنجليوس ، الذى ولى عرش الدولة البيزنطية فى الفترة من ١١٨٥ ـ ١١٩٥ م ــ تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٨٥١ .

(٢) هو قليج أرسلان بن مسعود ، عز الدين ، الذى ولى سلاجقة الروم فى الفترة من ٥٥١ ـ ٥٨٨ هـ/١١٥٦ ـ ١١٩٢ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٢١ .

(٣) [ ] إضافة تتفق والسياق ــ من الكامل جـ ١٢ ص ٤٨ .

عليه ؛ فنالهم لذلك مشقّةٌ عظيمة ، وهلك كثير منهم من الجُوع والبَرْد وكثرة الثلوج .

فلمّا قارَبُوا مدينة قُونْيَة خرج إليهم الملك قُطْب الدين ملِكشَاه بن قِلج أرسلان [ليمنعهم](١) فعَجَز عن ذلك ، فعاد إلى قُونيَةَ ، فأسرعُوا السّير فى أثره فنَازَلُوا قونية وأرسلوا إليه هدية وطلبوا منه أنْ يأذَن للرّعيّة فى بَيْع الأقوات عليهم ، فأذِن فى ذلك .

وطلَبُوا من الملك قطب الدّين أنْ يأمُر رعيَّتَه بالكَفّ عنهم وأنْ يجهِّز معَهُم جماعةً من أمرائه رهائنَ ، فخافهم ، وسلَّم إليهم نيِّفًا وعشرين أميرًا كان يكرهُهم . فسارُوا بهم معَهُم ، ولم يَمْتنع اللّصُوص وغيرُهم من أذاهم ؛ فقَبَضَ ملكُ الألمان على مَنْ معه من الأمراء وقيَّدَهم ، فمنهم مَنْ مات فى أسره ومنهم من فَدَى نفسه(٢) .

قال ابنُ شدّاد : وأعْوَزَهم الزّاد وعَرَاهم جُوعٌ عظيم ، وعجَزوا عن حمل أقْمِشَتهم ، فجمعوا عُـدَدًا كثيرةً وسِلاحًا[١٣١] وجَعَلُوا ذلك بَيْدرًا(٣) وأضْرمُوا فيه النّار ، لعجزهم عن حَمْله ، ولئلاّ ينتفع به غيرهم .

قال : وبقيت بَعْد ذلك رابيةٌ من حديد(٤) .

قال ابن الأثير : ثمّ سار إلى أن أتى إلى بلاد الأرمن ، وصاحبها يومئذ لافون(٥) بن اصطفانه بن ليون الأرمنى ، فأمدّهم بالأقوات والعُلوفات ، وحَكّمهُم فى بلاده ، وأظْهر الطّاعة لهم . ثمّ سار إلى

(١) [ ] إضافة من الكامل جـ ١٢ ص ٤٨ .
(٢) انظر الكامل جـ ١٢ ص ٤٨ ـ ٤٩ .
(٣) البيدر : الجرن أو المخزن ــ القاموس .
(٤) النوادر السلطانية ص ١٢٣ .
(٥) هو ليو الثانى بن سديفانى بن ليو الأول ــ تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٣٨ ــ ٨٣٩ .

أنطاكيّة ، وكان فى طَريقهم نهرٌ[١] فنزلوا عنْده ، وعَبَر ملكُهم إليه ليغْتَسِل فيه ، فغرق فى مكان لا يَبْلُغ الماءُ وسطَ الرّجل فيه . وكفَى الله شرّه[٢] .

وقال ابنُ شدّاد : إنه لمَّا وصل إلى طرسوس سَبَح فى النّهر فمرِض من شدّة بَرْد الماء فمات ؛ ولمَّا مات سَلَقُوه فى خلٍّ وجمَعُوا عِظامَه فى كيس ليحملوها إلى القُدْس ويدفنوها به[٣] .

قال ابن الأثير : وكان معه ولدٌ كبير فملك بعْدَه وسار إلى أنطاكية ، فاختلف أصحابُه عليه ؛ وأحبّ بعضُهم العَوْد إلى بلادِه فتخلّف عنه ، ومال بعضُهم إلى تمليك أخٍ له فعاد أيضا ، وسارَ هُو فيمَنْ بَقِى معَهُ ، فعرَضهُم ، وكانوا نيِّفًا وأربعين ألفًا وقع فيهم الوباء والموت ، فوصَلُوا إلى أنطاكيّة وكأنّهم قد نُبِشوا من القبور فتبرّم بهم صاحبُها وحسَّن لهم المسير إلى عكّا . فساروا على اللاذقية وجَبَلة وغيرهما من البلاد التى ملكها المسلمون ؛ وخرج أهل حلب وغيرها إليهم وأَسَرُوا منهم خلقًا كثيرًا ، ومات أكثر مِمّن أسر[٤] .

قال : وبلغوا إلى طرابلس وأقاموا بها أيّامًا فكثُر فيهم الموتُ ، فلم يَبْق منهم إلاّ نحو ألف رجل ، فركبوا فى البحر إلى الفرنج الذين على عكّا .

ولمَّا وصلُوا ورَأَوْا ما نالهم فى طريقِهِمْ وماهُمْ فيه من الاخْتلاف عادوا إلى بلادهم ، فغَرِقت بهم المرَاكب ، فلم ينْجُ منهم أحد[٥] .

---

(١) هو نهر سالف .

(٢) الكامل جـ ١٢ ص ٤٩ .

(٣) النوادر السلطانية ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٤) الكامل جـ ١٢ ص ٤٩ .

(٥) الكامل جـ ١٢ ص ٤٩ ـ ٥٠ .

وقال ابن شدّاد : إنّهم لمَّا وصلوا إلى أنطاكية طلب ابنُ ملكِهم من صاحبِها قَلْعتها لينقل إليها أموالَه وخزائنَه وأثقاله ، فسلَّمها إليه طمعًا فى ماله ، وكانَ كذلك ، فإنّه لم يعُدْ إليه واستَولى الإبرنس على مافيها (١) .

قال : وجاءت فرقةٌ منهم إلى حصن بغراس وظنُّوا أنّه للفرنج ، ففتح لهم وَالِى الحِصْن الباب وتسلّم منهم الأموال ، وأَسَرَ جماعةً منهم وقتل . وخرج إليهم العسْكر الحلبىّ فقَتَل منهم وأسر . ثمّ أخَذَ مَنْ بقى منهم على طَرِيق طرابلس فخرج عليهم مَنْ بالـلاذقية وجبلة ، فقتلوا منهم وأسروا .

ثم ركب ملك الألمان فى البحر من طرابلس بمَنْ بقى معه لِقَصْد عكّا ، فى أواخر شعبان ، فثارت عليهم ريحٌ كسرت منهم ثلاثَ مراكبٍ ، ووصل الباقون إلى صُور ثمّ إلى عكا فى سادس شهر رمضان سنة ست وثمانين ؛ وكان لِقدُومهم وقْعٌ عظيم (٢) .

وسيأتى ذكرُ ما تجدّد بعد وصولهم إلى عكّا إن شاء الله تعالى . فلنذكر ما كان قبل وُصُولهم من الوقائِع .

ذكر الوقْعَة العادليّة على عكّا

كانت هذه الوقعة فى يَوْم الأربعاء العشرين من جُمادى الأولى سنةَ ستٍّ وثمانين .

قال ابن شدّاد : لمَّا بلغ السّلطانَ وُصُول ملك الألمـان إلى بلاد الأرْمن جهَّز بعض العساكر إلى البلاد المُتَاخمة لطريق عَسْكر العدوّ ،

---

(١) النوادر السلطانية ص ١٣٦ .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

وتقدَّم أَمْرُه بهَدْم سورطبريّة وهدْم يَافا وأَرْسُوف وقيْسارِيّة ، وهَدْم سور صَيْدا وجُبَيل ونَقْل أهلها إلى بيروت . فلمّا علِم الفرنج أنّ العساكر قد تفرَّقت نهضُوا للْقِتال بغتةً وهجموا على الميمَنَة وفيها مخيَّم الملك العادل ، فلما بَصُرَ بهم ركب فيمن معه ، وتلاحَقَت به العَساكر ، واقْتَتلوا ، فكانت من أَعْظم الوقَائِع ، قُتل فيها خلقٌ كثير من الفرنج .

قال : ولقد خُضْت فى الدّماء بدابّتى واجتهدت أن أعدّهم فما قدرت على ذلك لكَثْرتهم وتفرُّقهم ؛ وشاهدتُ منهم امرأتين مقتولتين . وكانت هذه الوقْعَة فيما بين الظّهر والعصر فى الميمنة وبَعْض القلب ، ولم نفقد من المسلمين فيها غير عشرة غير معروفين [(١)] .

قال : ولمَّا أخبر من بعكّا من المسلمين بهذه الوقعة خرجوا إلى مخيَّم العدوّ من البلد ، وجَرَى بينهم مقتَلَةٌ عظيمة انتصرَ فيها المسلمون ، ونهبُوا ما كان بخيام الفرنج من الأقمشة وغيرها ، حتى الطّعام الذى فى القُدُور ، وسبَوْا النّساء .

قال : واختلف النّاس فى عَدَد من قُتِل من الفرنج فى هذه الوَقْعة ، فقيل ثمانية آلاف ، وقيل سبعة آلاف ، ولم ينقصهم حَازِرٌ عن خمسة آلاف [(٢)]

[١٣٢] ذكر وصول الكندهرى إلى عكّا نجدة للفرنج وماجدّده من آلة الحصار

قال : ثمّ وصل الكندهرى [(٣)] فى البحر نجدةً للفرنج فى عدَدٍ كثير أضعاف ما نقص منهم ، ففرّق الأموال واستخدم ؛ ونَصَب المجانيق على

(١) النوادر السلطانية ص ١٢٩ ـ ١٣١ .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٣٠ ــ ١٣١ .

(٣) هو هنرى تروى كونت شامبانيا ، وهو ابن أخى ملك فرنسا من جهة أبيه ، وابن أخى ملك انجلترا لأمه ــ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٩١٢ .

عكا فحرّقها المسلمون ؛ ثمّ نصب منجنيقين فأُحْرِقا فى أوّل شعبان ، وكان قد أُنْفِق عليهما ألفُ دينار وخَمسمائة دينار ، وأسِر من الفرنج سبعون فى هذا اليوم ومن جُمْلتهم فارس كبير عندهم فقتله المسلمون[١]

ثمّ جهّز الفرنج بُطَشًا لمحاصرة بُرْج الذبان[٢] ، وهو برجٌ فى وسَطِ البحر على باب ميناء عكّا ، فعمدُوا إلى بَطْشة من البُطش وعملوا بُرجًا على صَارِيها ومـلأوه حطَبًا ونَفْطا على أنهم يُلْحقـون البطشـة ببُرج الذّبان ، ثمّ يُحرقون البرج الذى على الصّارى . وجعلوا فى البطشة وَقُودًا كثيرًا حتّى يُلْقوهُ في البرج إذا اشْتعَلت فيه النّيران . وعبئوا بطشةً ثانيةً وملأوها حطبًا على أنّها تدخُل بين المراكب الإسلاميّة ثم يلهبونها فتحترق هى والبطش الإسلاميّة وجعلوا فى بطشةٍ ثـالثة جمـاعةً من المُقاتلة . وقدّموا البطشة نحو البرج ، وكان الهواء مُسْعدًا لهم ، فلمّا أحرقوا البطشة والبُرج الّذى قصدوا بهما إحراق بُطش المسلمين وبُرج الذّبان انعكس الهواء عليهم بإذن الله تعالى ، فاحترقت البَطْشتـان ، وانقلبت الثالثة بِمَنْ فيها من المقاتِلة . والله أعلم[٣] .

ذكر ما كان من أمر الفرنج بعد وُصُول ابن ملك الألمان إلى عكّا وما اتّخذوه من آلات الحصار

قال : ولمَّا وصَل ابنُ ملك الألمان القائمُ فى الملك بعد أبيه إلى عكّا كان وصـولُه إليهـا فى سادس شهـر رَمضان سنـةَ ستّ وثمانين

(١) النوادر السلطانية ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٥ .

(٢) برج الذبان : برج فى وسط البحر مبنى على الصخر على باب ميناء عكا ، يحرس الميناء ، ومنى عبره المركب أمن غائلة العدو ـــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٥ .

(٣) النوادر السلطانية ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٥ ـــ ٣٣٦ .

وخمسمائة . فكان أول ما بدأ به أنَّه خرج إلى يَزَكِيَّةِ السّلطان وقاتَلهم ، فقُتل من أصحابه وجُرح خلقٌ كثير ، وانكسَروا ورَجعُوا إلى المخيَّم غروبَ الشّمس من ذلك اليوم ؛ وقُتل من المسلمين اثنان وجُرِح جماعة . فلمّا عايَنَ ذلك رجع إلى قتال مَنْ فى البلد ، واتَّخذ من آلات الحصار ما لم يُرَ قبل ذلك مثله ، فكان ممَّا أحدثه آلة عظيمة تسمّى دبّابة يَدْخُل من تحتها المقاتِلة ، وهى من الخشب الملبَّس بصفائِح الحديد ، ولها مِنْ تحتها عجلٌ يحرَّكُ من داخلها حتى تَنْطَح السُّور بشدّةٍ عظيمة فتهدمه بتكْرَار نَطْحها ، وآلة أخرى وهى قبو فيه رجالٌ تسحَبُه وفيه كَبْشٌ ، ورأس تلك الآلة ممدة شبه سكّة المحراث ، ورأس الكبش مدَوَّر ، هذا يهدِم بثِقَله ، وتِلك تهدِم بحدَّتها وثِقَلها ، وهى تسمَّى سفودا[١] ، وأعد السّتائِر[٢] والسّلاليم وغير ذلك ؛ وأعدّ فى البحر بَطشةً عظيمةً وصنع فيها بُرْجا بخُرطوم إذا أرادُوا قلبه على السّور بحرَكَةٍ انقلب بحَركات ويُبْقى طريقًا إلى المكان الذى ينقلبُ عليه تَمْشى عليها المُقَاتلة ، ونصب المجانيق وحكّمها على السّور ، وتوالت حِجارَتُها حتى أثّرت فيها أثرًا بَيِّنًا فأخذ المسلمون سهْمَيْن عظيمين من سِهام الجرُوحْ وأحْرَقُوا نِصَالهما حتَّى بقيَا كالشُّعلة من النّار ثم رُمِيا فى منجنيق الفرنج فاحترق ، واتّصل لهبهُ بالآخر فأحْرَقه[٣] .

ثمّ زحف العدوّ على البلد فى شهر رَمَضان فى خلْق كثير ، فأمهلهم أهل البلد حتى سحبوا آلتهم المذكُورة وقارَبُوا أنْ يُلصقُوها بالسّور ويَحصُل منهم فى الخَندق جماعةٌ كثيرة ، فأطلقوا عليهم الجرُوخ

(١) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) ستارة : ستائر : وتتخذ من الجلود واللباد ، وتبلل بالخل والشب والنطرون لوقاية الأبراج والدبابات الخشبية والسفن من قذائف النفط ــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٠٣ هامش ٥ .

(٣) انظر النوادر السلطانية ص ١٤٠ ـ ١٤١ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٦ .

والمجانيق والسِّهام والنيران ، وفتحوا الأبواب وهجموا على العدوّ من كل مكان ، وكبسُوهم فى الخَنْدق ، فانْهزَموا ؛ ووقَع السَّيف فيمَن بَقِى فى الخَنْدق منهُم . ثم أَلْقَوْا النّار فى كَبْشهِم ، فاحترق ، وسَرَت نارُه إلى السَّقُود فاحترق أيضًا ، وعلَّق المسلمُون فى الكَبْش الكَلاَلِيب الحديد فسحبُوه وهو يَشْتعِل ، فحصل عندهم ، فأطفأوه بالماء . ووُزِن ما كان عليه من الحديد فكان مائةَ قنطار بالشّامى [١٣٣] فكانَ هذا اليومُ من أحْسَن أيام الإسلام(١) .

قال : واستأنَف الفرنج عَمَل دبابة أخرى وفى رأسِها شكْلٌ عظيم يُقال له الكَبْش ، وله قَرْنَان فى طُول الرُّمح كالعُمُد الغلاظ ، وسُقوفها هي والكبش بـأعمدة الحـديد ، ولَبَّسُـوا رأس الكَبْش بعد الحَـدِيـد بالنّحاس ، فلم يَبْق للنار عليها سبيل ؛ وشحنُوهـا بالـرِّجال . فنصَب المسلمون عليها المجَانيق ورمَوْها بالحجارة ، فأبعـدت الرِّجـال من حولها ، ثمَّ رمَوْها بحُزَم الحَطب فأحرَقـوا ما بَين القـرْنَين ، وخَسَفها المنجنيق ، وخرج أهل عكّا فقطعُوا رأس الكبشين .

قال : وفى العشر الأوسَط من شهر رَمَضان ألقَت الرِّيح بَطْشَتين فيهـمَـا رجَـالٌ ونسـاءٌ وصبيـانٌ ، وميـرَةٌ عـظيمـة وأغنـام ، فغنِمهمـا المسْلمون(٢) .

وكان فى إحداهما امرأةٌ محتَشِمة كثيرةُ الأموال ؛ واجْتَهد الفرنج فى اسْتِنْقَاذها فلم يُجَابُوا لِذلك .

وكان بينهُم فى بقيَّة السّنة عدّةُ وقائع يطول شرحها .

---

(١) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٧ .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٧ .

وفى سابع ذى الحجَّة هُدِمَت قطعةٌ عظيمةٌ من سُور عكّا فسدَّها المسلمون وقاتلُوا عليها قتالاً شديدًا حتى أحْكَموا بناءَها .

وفى ثانى ذى الحجّة هلك ابنُ ملك الألمان وكند كبيرٌ ، ومرض الكندهرى ، ووقع فيهم فناءٌ عظيم . والله أعلم .

ذكر وصول ملك افرنسيس

كان وصولُه فى ثانى عشر شهر ربيع الأوّل سنةَ سبع وثمانين وخمسمائة فى ستّ بُطَش عظام مشحُونة بالمقاتلة[1] ؛ وكَان مَلِكاً مُطَاعًا فيهم ، ووعَدَهم بالأمداد خلفه . وكان معه بَاز عظيمُ الخَلق أبيضُ اللّون ، فطَار منْ يَده وسَقَط على سُور عكّا ، فأخذَه المسلمون وأنْفذُوه إلى السّلطان ؛ فبَذَل الفرنج فيه ألفَ دينار فلم يُجَابوا لذلك .

قال : وزحف الفرنج على عكّا فى يوم الخميس الرّابع من جُمادى الأولى سنةَ سبع وثمانين ، ونصبُوا عليها سبْعَةَ مجانيق . وبلغ من مُضَايقتهم لها أنّهم كانوا يُلْقُون فى خنْدَقِها ما يموت من دوابّهم ومايُؤْيَس منه ممّن أثخنَتْه الجراح . وانْقسَم أهلُ البلد أقسامًا : قسم يَنْزلون إلى الخَندق ويقطعُون الدّواب ليسهُل نقلُها ، وقسمٌ ينقلون ذلك إلى البحر ، وقسم يذبُّون عنهم ، وقسمٌ فى المنجنيقَات وحراسَة الأسوار .

قال : وكانوا قد صنَعوا دبَّابَةً عظيمةً أربع طبقات ، الأولى من الخَشب ، والثّانية من الرّصاص ، والثّالثة من الحديد ، والرّابعة من

(1) هبط الملك فيلب أغسطس ملك فرنسا إلى المعسكر الصليبى أمام عكا فى ٢٠ إبريل سنة ١١٩١ م ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٩٢٢ .

النّحاس ؛ فكانت تعلُو على السُّور وتركَبُ فيها المقاتلَةُ ؛ وقرَّبُوها من السّور فكَادَ أهلُ البلد يطلُبون الأمان ؛ فأعَان الله على حرْقها[١] .

وكان فى جُمادى الأولى عدَّة وقعَات .

قال : ولمَّا حُرقت دبَّابات الفرنـج وكِبَاشُهم وأبـرجَتهم الخشب وستائرُهم أقامُوا أمَام خيامهم ممّـا يلى عكّا تـلاً مُستطيـلاً عاليًـا من التُّراب ، فكانُوا يقفون وراءَه ويحوّلونه ليقرّبُوه من السّور ؛ إلى أنْ صَارَ بينه وبين السُّور مقدارُ نصف غلْوَة سهم . فلَمْ تعْمَل فيه النّار .

ذكر وصول ملك الإنكلتير

كان وصولُه إلى عكّا فى ثالث عشَر جمادى الأولى من السّنة [٢] بعد أن ملك فى مسيره قبرص عنوةً ؛ ووَصَل فى أربعين قطعة . ولمَّا قدِم توالَى الزّحفُ والقتال . ثمّ مَرِض مرضًا شديدًا وجُرح الإفرنسيس ، وهم مع ذلك لا يَدَعُـون القتال . هـذَا واللُّصوصُ يـدَخلون عليهم فى خِيامهم ويَسْرقون أقمشتهم ويخطَفونهم ، فكانُوا يَدْخلون على الرَّجُل من الفرنج وهو نائم فيُوقظونه ، ويُشيرون إليـه بالسِّـلاح : إنْ تكلّمت ذبحناك ، ويحملُونه [١٣٤] ويخرجُون به إلى عسكر المسلمين . فعلُوا ذلك مراراً كثيرةً .

قال : ثمّ تردَّدت الرّسائل من الفرنج إلى السُّلطان مدافعةً بسبب مَرَض الإنكلتير ؛ ثم استأذن فى إهْداءِ جوارح ، وقال إنّها قـد ضعُفَت وتغيَّرت من البحر ، وطلب أن يُسيَّر لها دجاجٌ وطيرٌ تأكله لتقْوَى به ثمّ

---

(١) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ .

(٢) وصل الملك رتشارد قلب الأسد ، ملك انجلترا فى ٧ يونية ١١٩١ م ــ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٩٢٢ .

بهدى للسّلطان . ففَهم السُّلطان أنّه يحتاجُ ذَلك لنفسه لأنّه حديثُ عَهدٍ بمَرَض ، فسيّر إليه ذلك . ثمّ أرسل فى طَلَب فاكهةٍ وثَلج ، فأُرسل إليه . وهم مع ذَلك يُحاصرون البَلَد أشدّ حصار [١] .

ذكر استيلاء الفرنج على عكّا

قال : ثمّ اشتدّ الحصارُ فى سابع جُمادى الآخرة ، فركب السّلطان بالعَسْكر وجرَى قتالٌ عظيم إلى اللّيل ، ولم يَطْعَم فى ذلك اليوم ؛ ولمَّا حَالَ بينهُما اللّيل عادَ إلى خيامه . ثمّ بَاكَر القِتال ، فوصَلت مُطالَعةُ مَنْ بالبلد يذكُرون أنّ العَجز قد بلَغ بهم الغاية ، وأنّهم فى الغد مَتَى لم يُعْمَل ما يمنعُ العدوَّ طلبُوا الأمان وسلّموا البلد . فرأى السّلطان مهاجمة العدُوّ ، فلم يساعِدْهُ العسكر . فضعُفَت نفوسُ أهل البلد ، وتمكّن العدوُّ من الخنادق فملكوها ، ونقَبوا السّور وأحْرقُوه ، فوقعت بدَنَةٌ من البَاشـورة ودخلَ العدوّ إليها ، فقتل منها زهاء مائةٍ وخمسين نفسًـا ؛ وكان منهُم ستّـة من أكابرهم ، فقال أحدُهم : لاتقتلونى حتى أرحِّل الفرنج عنكم . فقُتل رجلٌ من الأكراد وقُتل الخمسة ، فناداهُم الفرنج من الغَد احْفظُوا السّتّة فإنّا نطلقُكم كلّكم بهم . فقالوا : قدْ قتلناهم . فقَوِى عزمُ الفرنج على عَدم المصَالحة وأنّهم لايُطلقون مَنْ فى البلد إلا بإطْلاق جميع الأسرى الذين فى أيدى المسلمين ، وتُعادُ إليهم البلاد السّاحليّة .

فصالحهم مَنْ بالبلد على أنّهم يسلّمون إليهم البلد وجميعَ ما فيه من الآلات والعُدَد والمراكب ، ومائتى ألف دينار ، وألف وخمسمـائة أسـير

---

(١) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٥٥ .

مَجَاهيل الأحوال ، ومائة أسير مُعَيَّنين ، وصليب الصَّلَبُوت ؛ على أنهم يخرجون بأنفسهم ونسائهم وذَرَاريهم ، ومَامَعهم من أموالهم وأقمشتهم .

فكتبوا فى ذلك إلى السُّلطان ، فأنكر هذا الأمْر واستَعْظمه ؛ وعزم على أنْ يكتُب بالإنكار عَلى مَنْ بعكّا . وجمع أمراءه وأصحاب المشُورة ، فما شعَر المسلمون إلا وقدْ ارتفعت أعلامُ الكُفر وصُلبانُه على أسوار البلد ؛ وذلك ظُهر نَهار الجمعة السّابع عشرَ من جُمادى الآخرة ، سنة سبعٍ وثمانين وخمسمائة .

فعظُمت المصيبةُ على المسلمين وتحيَّز المسلمون إلى بعض أطراف البلد . ثم تردّدت الرّسائل بينهُما على تقرير القاعدة فى خَلاصِ مَنْ بعكّا من المسلمين ، فاستقرّت الحالُ علَى مائة ألف دينار وستّمائة أسيرٍ وصَليب الصّلبوت . وأنْفذُوا ثقاتِهم وعاينُوا الصّليب فى ثامن عشر شهر رجَب ؛ ثم طلبوا أن يسلِّم ذلك إليهم فإذا صار عنْدَهم أطلقوا الأسرى ؛ فامتنع السّلطانُ من ذلك إلا بعد تسْليم الأسْرى .

فلمّا رأوْه قد امتنع منهُ أخرجُوا خيامَهم إلى ظاهر الخنَادق فى الحادى والعشرين منَ الشّهر ؛ ثمّ ركبُوا فى وَقت العَصْر فى اليوم السّابع والعشرين من شهر رجَب سَنَة سبعٍ وثمانين ، وجمعُوا الأسْرى ، وحملُوا عليهم حَمْلة الرّجل الواحد ، فقتلُوهم صبْرًا ، طعنًا بالرّمح وضربًا بالسّيف ، رحمة الله عليهم ؛ ولم يُبْقوا من المسلمين إلاّ أكابرهم . فلمّا اتصل الخبر بالسّلطان حَمل المسلمُون عليهم ، وجَرَت بينهم حربٌ عظيمةٌ دام القتالُ فيها طول النّهار . وتصرّف السّلطان فيما كان قد حصَّله من المال ، وأعاد الأسرى إلى أماكنهم ، وردّصَليب الصَّلبُوت إلى مكانه [١] .

---

(١) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٥٥ ـ ٣٦٤ ، النوادر السلطانية ص ١٦٦ ـ ١٧٢ ، الكامل جـ ١٢ ص ٦٦ ـ ٦٨ ، وانظر المختصر جـ ٣ ص ٧٩ ـ ٨٠ .

ذكر ماكان بعد أخْذِهم عكّا

قال : ثمّ سار الفرنج إلى صَوْب عسقلان فى مستهل شعبان ، وسار السّلطان فى عراضهم ، والمسلمون يتخطّفونهم ويقتلون منهم ويأسرون ؛ وكلّ أسيرجىءَ به إلى السّلطان أمر بقتله . ثمّ كانت وقعةٌ عظيمة فى تاسع شعبان عند رَحيلهم من قيْسَاريّة ، انتصر فيها المسلمون . ثمّ رحل السّلطان فنزل شعراء أرْسُوف . وطلب ملكُ الإنكلتير الاجتماع بالَملك العَادل خلوةً ، فاجتمعا ، فأشار بالصُّلح . وكان حاصلُ كلامه [١٣٥] أنّه قد طال بيننا القتال ونحن فى نُصرة فرنج السّاحل ، ورأيى الصّلح ، ويرجعُ كلٌ منا إلى مكانه . فقال له الملكُ العادل : على ماذا يكون الصُّلح ؟ قال : على أن تسلّموا لأهل السّاحل ما أُخِذ منهم من البلاد . فأبى الملكُ العادل (١) .

ثم كانت وقعة أرْسُوف فى يوم السّبت رابع عشر شعبان ؛ وكانت الدائرة فيها على الفرنج (٢) .

ذكر هدم عسقلان

قال : ثمّ رحل السّلطان بعد وَقْعة أرسُوف فى تاسع عشر شعبان ، ونزل بالرّملة ، واستشار أصحابه فى أمْر عسقَلان ، فأشاروا عليه بتَخْريبها خشْيَة أنْ يستولىَ العدوُّ عليها وهى عامرة ، فتكونَ سببًا لأخْذ البيْت

---

(١) انظر النوادر السلطانية ص ١٨٢ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٦٧ .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٨٣ ـ ١٨٤ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨ .

المقدّس وقَطْعِ طريق مصر . فعَلِم السّلطان عجْزَ المسلمين عن حِفْظها لِقُرب عهدِهِم بقتال عكّا ؛ فسارَ حتَى أتى عَسْقلان ، وأمر بتخريبهـا ، وكان هُووَوَلدُه الملك الأفضل يستعملان النّاس فى الخَـراب خشية من حُضور العدّو فيتعذّر هدمُها ، ثمّ حَرَقها بالنّار ؛ والأخبار تَتَواتَرُ من جهة العدوِّ بعمارة يَافا . واستمرّ الخرابُ والحريقُ إلى سَلْخ شعبان [١] .

ثمّ رحل السّلطان عنها يومَ الثّلاثاء ، ثانى شهر رمضان فنزل على الرَّملة يوم الأربعاء ، وأَمَرَ بتخريب حِصْنها وتخريب كنيسة لدّ . وركَب جريدةً إلى القُدس الشريف ، فوصل إليه فى يَوْم الخميس .

وفى يوم الجمعة ثانى عشر شهر رمَضان من السّنة كانت بينَهُم وقعةٌ انتصر فيها المسلمُون .

قال : ثمّ سار السّلطان إلى الرّملة فى سابع شوّال وأقام بها عشرين يومًا ، فجرت وقعاتٌ ؛ منها وقْعَةٌ فى ثامن شوّال ، وفى سادس عشره ، والدّائرة فيها على العدو .

وفى ثامن عشر شوّال اجتمَع الملكُ العادل والإنكلتير على طعامٍ ، وانْفَصلاَ [٢] على توادُد ، وسأله الاجتماعَ بالسّلطان فامْتَنع السّلطان من ذلك .

ثمّ رحل الفرنج فى ثالث ذى القَعدة إلى الرَّملة ، وأظهرُوا قَصْد بيت المقْـدِس والحربُ مستمـرّةٌ بين المسلمـين وبينهم . ورَحَل السّلطان إلى القُدس فى الثّالث والعشرين من ذى القَعدة بنيّة المقام بـه ، وشرع فى تحصينه .

---

(١) النوادر السلطانية ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ .

(٢) « وانفصلوا » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

ذكر وقوع الصُّلح والهُدْنة العامّة بين المسلمين والفرنج

قال : ولم تزل الحربُ قائمةً والمراسلاتُ متّصلةً بينهُم على طلب الصُّلح ، والسّلطان لايرضى بما يختارُونه ، وهم لايُوافِقون على مايريدُه السّلطان ، إلى الحَادى والعشرين من شَعبان سنةَ ثمانٍ وثمانين وخمسمائة ، فوُقِّعت هدنةٌ عامّة فى البرّ والبحر ، وجُعِل لهم من يَافا إلى قيْسَارية إلى عكّا إلى صُور ، وأدخَلوا فى الصُّلح طرابلس وأنطاكية . وأُخْرِج من عمل يافا الرَّملة ومَجْدَل يَابَا[1] ومن عَمل عكَّا الناصرة وصفُّوريّة واشْتُرِط خرابُ عسقلان . ووقعت المصالحة مدَّةَ ثلاثِ سنين وثلاثةِ أشهر[2] ، أوّلها مُبتدأ أيلُول الموافق لهذا التّاريخ ، وذَلك بعد سؤال ملك الإنكلتير وتكرار رَسَائله .

قال : ثمّ أمر السُّلطان أنْ يُنادَيِ فى الطُّرقات والأَسْواق : ألاَ إنّ الصّلح قد أنتظَم ، فمَن شاء مِنْ بلادنا يدخُل بلادَهم ومَن شاء من بلادِهم يدخل بلادَنا فليفعل .

ووَقَع له عزمُ الحجّ فى ذلك المجلس [3] .

ثمّ أَمَر بإرْسَال مائة نقَّاب لتخريب سُور عسْقَلان وإخْرَاج الفرنج منها ، فخرّبت . وكان يومُ الصُّلح يومًا مشهودًا واختلَط العسكران .

ثمّ اشتَدّ المرضُ بالإنكلتير فرحل ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعْبَان وسار معه الكندهرى إلى جهَة عكّا ، ولم يبْق بيافا [١٣٦]

---

(١) مجد ليابة : قرية قرب الرملة ــ معجم البلدان .

(٢) « وثمانية أشهر » فى الكامل جـ ١٢ ص ٨٥ .

(٣) انظر النوادر السلطانية ص ٢٣٥ .

إلا مريضٌ أو عاجز . ثم أذِن السّلطان للنّاس فى الرُّجوع إلى أوطانهم ، فسار عسكرُ إرْبل والموْصِل وسِنجَار ؛ وقوى عزمُه على الحج .

ثم عاد السّلطان إلى القُدْس ورتّب أحواله وعَيَّن الكنيسة التى فى شارع قُمامة للبيمارِسْتان ونقل إليـه العقاقـير والأدوية ؛ وأدار سُـور القدس . وأقام بالقُدس إلى يَوم الأربعاء رابع شوال ، وخـرجَ فى يوم الخميس خامس الشهر قاصدًا دمشق . فلمّا انتهى إلى طبريَّة وصل إليه بهاءُ الدين قراقوش الأسدى وقَدْ خلص من الأسْر ، فاستصْحَبـه معه وكَشَف القلاعَ والحصُون ، ودخل إلى دمشق فى يوم الاثنين السادس عشر من شوَّال سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة : وجَلَس النّاس يوم الخميس ؛ وأنشده الشّعراء ؛ وكان مجلسًا عامًّا ، وعمّ النّاس فيه بعَدْله . ولم يَـزَلْ كذلك إلى أن مات ، رحمه الله تعالى .

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب

كانت وفاتُه رحمه الله تعالى بعدَ صلاة الصُّبح يومَ الأربعاء لثلاثٍ بقِين من صَفَر سنة تسعٍ وثمانين وخمسمائة .

وكان مولدُه بقلعة تكريت فى شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ؛ فكان عمرُه سبعًا وخمسين سنةً تقريبا . ومدّةُ ملكه منذ وَلِىَ وَزارة العاضد لِدين الله ولُقّب بالملك النّاصر لثمانٍ بقِين من جُمادى الآخرة سنة أربعٍ وستين وخمسمائة وإلى هذا التّاريخ أربعًا وعشرين سنة وثمانيـةَ أشهر وخمسة أيام ؛ ومنذُ خُلع العاضِدُ فى سابع المحرّم سنة سبعٍ وستّين وخمسمائة اثنتين وعشرين سنةً وشهرًا واحدًا وعشرين يومًا .

وكان ابتداءُ مرضه يومَ السّبت سادس عشر صفر ؛ ونالَ المسلمون لوفاته من الألم مالا يُعبِّر عنه . ولمَّا مات دُفن بقَلْعة دمشق فى منزلـه ؛ ومازال ابنُه الأفضل يتروَّى فى مَوضع ينقلُه إليه ، فشرع فى بناء تربته عند مسجد القَدَم[1] وبنى عنْدَها مدرسةً للشّافعيّة . وأمر ببناء التّربَة فى سنةِ تسعين وخمسمائة ؛ فاتّفقَ وصُولُ ابنه العزيز تلك السّنة من الدّيار المصريّة للحصار ، فخرب ما كان قد ارتفع من البناء . ثمّ أمر بعمارة القبّة فى حَدّ جامع دمشق ، فعمِّرت ونُقل إليها يومَ عاشوراء سنةَ اثنتين وتسعين وخمسمائة ؛ ومشى الأفضلُ أمام تابوته وأخرج مِنْ باب القلعة على دَار الحديث إلى بَاب البرَيد ،[2] وأدخل منه إلى الجَامع ، وصُلّى عليه قُدّام باب السر ، صلّى عليه القاضى محيى الدّين محمّد بن على بإذن الأفضل . ثم حمل إلى لَحْدِه ، وألحدَه الأفضلُ وجلَس فى الجامع ثلاثةَ أيام .

وكان الملكُ النّاصر رحمهُ الله كريمًا جوادًا شجاعًا ، حسن الأخلاق ، مضت أكثر أيّامه فى الجهاد فى سَبيل الله تعالى .

قال ابن شدّاد : لمّا مات السُّلطان لم يُخَلِّف فى خزائنه من الذّهب والفضّة إلاسبعةً وأربعين درهمًا ناصريًّة وجرامًا[3] واحدًا ذهبًا صوريًّا ، ولم يخلِّف ملكًا فى سائر أنواع الأملاك . وحُسِب ما وهَبَه من الخيل فى مُدَّة مُقامه على عكّا فكان تقديرُه اثنى عشر ألف رأس ؛ ولم يكُنْ لهُ فرسٌ يركبه إلا وهو مَوْهُوب أو موعودٌ به ، وصاحبُه يلازمُه فى طلبه ؛ وما حضَر

---

(١) مسجد القدم ، جنوبى الحصباء بدمشق

(٢) باب البريد : أحد أبواب الجامع الأموى بدمشق . الدارس جـ ٢ ص ٣٧١ وما بعدها .

(٣) « جرما واحدا » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٦ . وانظر أيضا الفتح القسى ص ٦٢٩ ، حيث ذكر « ولم يخلف فى خزائنه سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما »

اللقاء إلا اسْتَعار فرسًا فركبه . وكان لا يلْبسُ إلا مايحلّ كالكِتان والقُطن والصّوف . وكان له ركعاتٌ يصلّيها من الليل[(١)] .

وخلف رحمه الله من الأولاد ، على ما نقله العماد الأصفهانى وغيرُه سبعةَ عشر ولدا : الملك الأفضل نورُ الدّين أبو الحسن [على][(٢)] ، وهو أكبرهم ؛ والملك العزيز عمادُ الدين أبُو الفتح عثمان ؛ والملك الظاهر غياث الدّين ، وقيل شهاب الدّين ، أبو منصور غازى ؛ والملك الظّافر مظفّر الدّين أبو العباس خضر ؛ والملك المعز فتح الدّين أبو يعقوب يوسف [(٣)] ؛ والملك الأعز شرف الدّين أبو يوسف[(٤)] يعقوب [١٣٧] والملك المؤيّد نجم الدين أبو الفتح مسعُود ؛ والملك الزّاهر مجير الدين أبو سليمان داود[(٥)] ؛ والملك المفضل قطب الدّين أبو محمد موسى[(٦)] ؛ والملك الأشرف عزّ الدّين محمد[(٧)] ؛ والملك المحسن شهاب الدّين[(٨)] أبو العباس أحمد ؛ والملك الجواد ركن الدّين أبو سعيد أيوب ؛ والملك المظفّر[(٩)] فخر الدّين أبو منصور تُورَانشاه ؛ والملك العادل نور الدّين أبو المظفّر

---

(١) النوادر السلطانية ص ٧ وما بعدها .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٣ .

(٣) « إسحاق » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٥ ، الروضتين جـ ١ ص ٧١٠ .

(٤) « أبو سيف » مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٤ .

(٥) « والملك الزاهر محيى الدين أبو الفتح سليمان مسعود » فى الأصل ، والتصحيح من مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٤ ، الروضتين جـ ١ ص ٧١٠ .

(٦) « أبو موسى قطب الدين » فى الروضتين جـ ١ ص ٧١٠ .

(٧) « عزيز الدين » فى الروضتين جـ ١ ص ٧١٠ ، و« نصير الدين » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٥ .

(٨) « يمين الدين » فى مفرج الكروب ، و« ظهير الدين » فى الروضتين ، و« زين الدين » فى شفاء القلوب ورقة ٥٤ أ .

(٩) « المعظم » فى مفرج الكروب ، والروضتين ، وشفاء القلوب .

ملكشاه[١] ؛ والملك المنصُور نُصرة الدّين مروان [٢] ؛ والملك الصالح معين الدين إسماعيل[٣] ؛ وعماد الدين شادى ، ويسمى عمر ؛ وابنة صغيرة [٤] .

ذكر من ملك الممالك التى كانت جارية فى ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمه الله تعالى من أولاده وإخوته وأقاربه وألزامه بعد وفاته

استقَرّ ملكُ دمشق وما مَعها للملك الأفضل نور الدّين أبى الحسن على ، وهو أكبر أولاده وولىّ عهده ، وعنده أخواه شقيقاه الملك الظّافر خضر والملكُ المُفضّل[٥] موسى .

واستقرّ ملكُ الدّيار المصريّة للملك العزيز عماد الدّين أبى الفتح عثمان .

واستقرّ ملكُ حلب وما يَليها للملك الظّاهر غياث الدّين غَازى ، وعنده أخوه الملك الزاهر داوود ، فجعله من قِبَله على البيرة .

واستقرّ ملك حمص والرّحبة [وتدمر][٦] للملك المجاهد أسَد الدّين شيرُكوه بن محمّد بن شيركوه ، وهو ولد ابن عمّ السّلطان الملك النّاصر .

---

(١) « الملك الغالب أبو الفتح ملكشاه » فى مفرج الكروب ، والروضتين ، وشفاء القلوب .

(٢) « الملك المنصور أبو بكر » فى مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٥ ، و « نصرة الدين مروان » فى الروضتين جـ ١ ص ٧١١ .

(٣) لم يرد ذكره فى مفرج الكروب والروضتين .

(٤) « وأما البنت فهى مؤنسة خاتون ، تزوجها الملك الكامل محمد » الروضتين جـ ١ ص ٧١١ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٢٦ ، شفاء القلوب ورقة ٧٤ أ .

(٥) « الأفضل » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع ما سبق .

(٦) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٣ ص ٤ .

واستقر ملك حماة وسَلَمْية والمعرّة ومَنْبج للملك المَنْصُور ناصر الدّين محمّد بن تقىّ الدين عُمر بن شاهنشاه بن أيّوب .

واستقرّ ملك حرَّان والرُّها ومَيَّافَارِقين والرّقة وقلعة جعبر والكرك والشّوبك للملك العـادل سيف الدّين أبى بكـر بن أيوب ، وهـو أخو السّلطان .

واستقرّ ملك بعلبك للملك الأمجد [بَهْرَامشاه](1) بن فَرُّخْشاه بن شاهنشاه بن أيوب .

واستقر ببعْرين وأفاميه وكَفَرْطَاب عزّ الدّين [إبراهيم](2) بن شمس الدّين بن المقدّم .

واستقرّ بصِهْيَوْن ناصر الدّين [منكورس بن خمارتكين](3) غلام أبى قبيس .

واستقرّ بتلّ باشر بدر الدّين دُلْدُرم بن ياروق .

واستقرّ بَعَيْنْتاب ناصر الدّين شحنة حلب .

هذه الممالك التى كانت جاريةً فى ملك السّلطان الملك النّاصر رحمه الله .

فلنذكر الآن أخبار الدّيار المصريّة ومَنْ ملكها بعْدَ وَفاة السّلطان الملك النّاصر ، ونجعل ما يقع لهؤلاء المُلوك ، أوْ فى ممالكهم ، من الحَوادث فى ضِمنْ أخبار ملُوك الدّيار المصرية ؛ وننبّه عليها بالتراجم ، على مانقفُ عليه إن شاء الله تعالى .

---

(1) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٣ ص ٤ .

(2) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٣ ص ٤ .

(3) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٣ ص ٤ .

ذكر أخبار الملك العزيز عماد الدين أبى الفتح عثمان ابن الملك النّاصر صلاح الدّين يوسُف بن أيوب

وهو الثانى من ملوك الدّولة الأيوبية بالدّيار المصرية [١] ملك الدّيار المصريّة عندما وصل إليه الخبرُ بوَفاة والده السّلطان الملك النّاصر، رحمه الله تعالى، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

ولما ملك أحْسَن السيرة وأطلق جميع ما كان يُؤْخذ من التُّجار وغيرهم من المكوس على اسْم الزّكاة. وجهّز إلى البيْت المقدّس عشرة آلاف دينار لتُصْرف فى مَصَالحه؛ وأكرمَ أصحابَ أبيه وعامَلَهُم الأفضَل أخوه صاحبُ دمشق بخلاَف ذلك، فمالَت القُلوب إلى الملك العزيز ونَفَرت عن الملك الأفضل. فاستَشْعَر الأفضَلُ من أمرائه، وعَزَم على القَبْض عليهم؛ فبلَغهُم الخبرُ ففارقُوه، واتّصلُوا بخدمة أخيه الملك العزيز بالدّيَار المصريّة فى بقيّة السّنة فأكرمهم وقرّبهم [٢] وكان منه ما نذكُرُه إن شاءَ الله تعالى.

ذكر استيلاء الفرنج على جبيل

[١٣٨] كان استيلاؤهم على حصن جُبَيل فى مستَهلّ صَفَر سنة تِسْعين وخمسمائة بمُواطَأة ممّنْ كان فيه. وذلك أنّ الحصن كانَ عدّةُ مَن فيه خمسةَ عشَر رجلاً، فندب متولّى البلد منهُم عشرةً لجباية الجزْيَة، وخرج متولّى الحصن إلى الحمام، فاستصحب أحد الخمْسَة الذين تأخّروا

(١) ولد الملك العزيز عثمان بدمشق فى ٨ جمادى الأولى سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١م – السلوك جـ١ ص ١١٤.

(٢) عن أسباب الوحشة بين الأخوين – انظر مفرج الكروب جـ٣ ص ١٤ - ١٥.

بالحصْن معه ، وبقى به أربعةٌ من الأكراد ، فأغلقُوا بابَ الحصْن . وتوجّه أحدُهم إلى الفرنج الذين بالتّيرون فأخبرهم بخلُو الحِصْن ، وكان به حدَّادٌ نَصرانى ، فصعِد هو والثلاثة إلى أعلى الحصن . فلمّا عادَ الوالى منعُوه من الدّخول ورَمَوْه بالحِجارة ، فكسَرُوا يده ، وقالُوا هذه القلعة قد صارت للقُومَص . وجاء أهل التيرون بالليل فطرَدُوا من كان بالباشُورة من المسلمين .

ووصل ابن ريون أخو صاحب جُبَيل وتحدَّثُوا مع الأكراد ، فنزل أحدهم إليهم وقرّر معهم أن يُعطَوْا نِصفَ ما بالحصن من سائر الحَواصل وغيرها ، وأن تكونَ لهم ثلاثة ضياع من عَمَل طرابُلس ؛ واستحلفهم على ذلك . وتسلّموا الحصْنَ ، فرَتّب الفرنج فيه من الجَرْخِيّة[1] ألفاً وخمسين جرخيا[2] .

فلما اتّصل الخبرُ بالسّلطان الملك العزيز عظُم عليه ، وأخرَجَ خيامه فى يوم الأحد العشرين من شهر ربيع الأول ، وأمر بالاستعداد للخروج إلى الشام لاستنقاذ جُبَيل من الفرنج ، وأرسل شمس الخلافة رسولاً إلى الفرنج بسبب إعادة جبيل فتوجّه فى سادس عشر شهر ربيع الآخر .

وفى سنة تسعين وخمسمائة ، لسبعٍ بقينَ من شهر ربيع الأول ، عُزل القاضى صدر الدّين بن دِرْبَاس وفُوّضَ القَضاء بالدّيار المصرية للقاضى زين الدّين أبى الحسن على بن يُوسف بن عبد الله بن رمضان الدّمشقى ؛ فوَلِىَ سنةً وعُزل فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ، وأعيد القاضى صدر الدّين . وقيل بل وَلِى القاضى محيى الدّين محمّد بن عبد الله بن أبى عصرون ، وعُزل فى يوم الأحد سادس عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين

---

(١) المقصود رماة السهام الجرخية .

(٢) انظر تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ١٧٠ ، ص ١٧٧ .

وخمسمائة . وأعيد القاضى زين الدّين الدّمشقى فولى سنَةً ، ثم عزل ، وأعيد القاضى صدر الدّين إلى أن توفى فى سنة خمس وستمائة والله أعلم .

ذكر مسير الملك العزيز إلى الشام والصّلح بينه وبين أخيه الملك الأفضل وعوده إلى القاهرة

قال : وفى تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنةَ تسعين وخمسمائة توجَّه الملكُ العزيز إلى الشام وترك بالقاهرة من الأمراء بَهاء الدّين قراقوش وصيرم ، وجَهّز ثلاثة عشر لواءً إلى ثغرَىْ الإسكندرّية ودمياط ومعهُم سبعمائة فارس . واستصْحَب معه من الأمراء سبعةً وعشرين أميرا عدتهم تقدير ألفى فارس ، ومن الحَلْقة ألف فارس . فلمّا اتصل بالأفضل خروجُه استعَدّ وأنفق النّفقات الوافرة ، وخرج إلى رأس الماء فى سبعمائة فارس ، ولمّا وصَل الملكُ العزيز إلى الغَوْر احْتاط على الخَاصِّ الأفضلى به ، وشَرَع فى إقْطاع أعمال الشام . وجهّز من أمرائه : قايْماز ، وعشرين أميرًا ، منهم ، جهارْكس ، وميمون القَصْرى ، وسُنْقُر الكبير ، والشجاع الخادم ، والجناح ، وجُرْدَيك . فتقدّمُوا ووقعُوا على أطراف العسْكَر الشّامى ، فرجعَ الأفضل إلى دِمشْق وغُلّقت أبوابُ البلد لمّا قرّب العسكر المصرىّ منها .

وتقدّم العزيز وترك ثِقَله بمسجد القصب بظاهر دمشق ، ونزل هو بالكُسْوة [١] ؛ فاستَنجْد الأفضل بعمه الملك العادل فحضر إلى دِمَشق ، وحضَر الظّاهر من حَلب ، وناصرُ الدّين صاحبُ حماة ، وأسد الدّين

[١] الكُسْوَة : قرية هى أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر .

صاحب حمص ، وعسكرُ الموصل وغيره . فلمّا رأى العزيز اجتماعهم علم أنْ لا قُدْرَةَ له بهذا الجمع ، وكَتب إلى عمّه العادل يقُول : أنا ما خرَجْتُ من الدّيار المِصريّة إلا لاِسْتنقاذ جُبَيل من الفرنج ، فبلغنى أنّ الملك الأفضل حالف الفرنج علىَّ ، واستنْصَر بهم ، ووعَدَهم أن يُعيد البلاد إليهم ، فاقْتضى ذلك سَوْقَنَا إليه . [١٣٩] وَبَلَغنا أنك تدخل بيْننا وبيْنَه ، وحُوشِيتَ من ذلك ، وأَنَا خيرٌ لكَ منْ غيرى . وإنْ أَرَدْت أنْ تكُونَ السّلطان ورئيسَ الجماعة فأنَا راضٍ بذَلك .

وكتب لأخيه الملك الظّاهر وغيره من[حكام][1]الممالك وتردّدت الرّسائل بَيْنهم .

وتقرَّرت الحال على أن يكُون للملك العزيز البيْتُ المقدّس وما جاوَرَه من أعمال فلسطين ؛ وأن تكون دمشق وطبريّة وأعمال الغور للملك الأفضل ؛ وأن يُعْطِى الأفضلُ لأخيه الملك الظّاهر جَبَلة واللاذقيّة ؛ وأن يكون للملك العادل بالدِّيار المصريّة إقطاعُه الأوّل ، وأنْ يُخْطَب للملك العزيز ببلاده وتُنْقَش السِّكّة باسمه ؛ وأنّ الملك العزيز يُمِدُّه بألف فارسٍ إعانةً له على فتح خِلاط .

واجتمع الملكُ العادلُ بالملك العزيز ، وتزوَّج العزيزُ ابنْتَه ، وجاء الملكُ الظّاهر صاحبُ حلب إلى أخيه الملك العزيز . وتقرّرت قواعد الصلح .

وتأخّر الملكُ العزيز إلى الكُسْوة ثم إلى مَرْج الصُّفَّر[2] ، ومرض به ثمّ أفاق .

ولمّا عزم على العَوْد إلى الدّيار المصريّة خرج لوَدَاعه سائرُ الملوك الذين حضَرُوا لنُصْرة الأفضل ، ثم خرج إليه الأفضلُ فى سابع شعبان

---

(١) [ ] إضافة تتفق والسياق .

(٢) « مرج الصفر » من نواحى دمشق ، إلى الجنوب الغربى منها — معجم البلدان .

وأدركه بنيق ، وهى أعلى الغور ، فأكرمه الملك العزيز ، وبالَغ فى احْترامه وساله الأفضل أنْ يرجع إلى دمشق ليزُورَ قبر أبيه ، فأجاب إلى ذلك ؛ ثم أشارَ عليه أصحابُه ألا يفعل ، فامتنع . وعاد الأفضل ، وسار العزَيزُ إلى الدّيار المصريّة فدخلها فى أواخر شعبان .

وفى مستهلّ جماد سنة تسعين وخمسمائة هبّت رياحٌ عاصفةٌ بالقاهرة مِن وَقْت العَصْر ، وسقَطَ فى ثالث الشهر بَرَدٌ كثير أكْبَرُه قدر البيض وأصغَرُه قدر النّبق ، وصار على جبل المقطم منه شىء كثيرٌ كالجبل الثّانى : ونقَل النّاس منه مدّةَ أربعة أيام ؛ ثم سَالَ حتّى ملأ الخندق ، ودخل الماءُ من المرامى الّتى فى السّور إلى القاهرة ، وعَلاَ ، حتّى خِيف على البلد .

ذكر خروج الملك العَزيز لقَصْد الشّام ثانيا ورجوعه وقصْد العادل والأفضل الدّيار المصريّة وما تقرر من القواعد

كان سبب ذلك أن الملك الأفضل قلّد وزارة دمشق لِضياء الدّين ابنِ][1] الأثير الجزَرى وحكّمه فى البلاد ، فقَصَد الأُمراء بالأذى والإِطْراح ، وتشاغَل الأفضَلُ عنهم . ففَارَقَ خدمة الأفضل [فارس الدين] [2]ميمون القصرى [وشمس الدين][3] وسنقر الكبير وعز الدّين سامة ، وغيرهم . وحضر بعضُ هؤلاء إلى الدّيار المصْريّة وانضموا إلى الملك العَزيز ، وقالوا له : إنّ الأفضل مسلُوب الاختيارِ ؛ وحَرَّضُوه على قَصْد دمشق ؛ فخرَج إليها فى سَنَة إحْدَى وتسْعين وخمسمائة .

(١) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٠، السلوك جـ ١ ص ١٢٣ .
(٢) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٣ ص ١١ .
(٣) [ ] إضافة من مفرج الكروب جـ ٣ ص ١١ .

فلمّا اتّصل خبرُ خُروجِه بالأفضل ركبَ من دمَشق فى رابع جُمادى الأولى وتوجّه إلى عمّه الملك العادل ، وهو بقلعة جَعْبَر ، واستنجد به ، وسار إلى أخيه الملك الظّاهر بحلب واستَنجـد به أيضًـا ، فركبَ الملكُ العادلُ وجَدّ فى السّير إلى دمشق خوْفا أنْ يسبقَه العزيز إليها . وكاتَب الملكُ العادل الأمراءَ الذين صُحْبة العزيز ، وكان العزيز قد نَزَل بمنزلة الفَوّار على مرحلتيْن من دِمَشق ، واستمالَهُم وحذّرَهم من العزيز ، فمالُوا إليه ، واستمالوا أبا الهَيْجاء السّمين ، وفارقُوا العزيز وقَصَـدُوا دمشق ؛ وذلك فى يوم الاثنين رابعِ شوال من السّنة .

فلمّا وَصلُوا إلى دمَشق اتّفقَ العادلُ والأفضل ، وتحالَفَا عـلى قَصْد العزيز وانْتزاع الدّيار المصريّة منه ، على أن يكونَ ثُلُثُ الدّيار المصرية للملِك العادل إقطاعاً والثُّلُثان للملك الأفضل . وساروا فى طلب الْعزيز ، فرَجَع إلى الدّيار المصريّةوجَدّ فى السّيْر ودخلَ القاهرة [1] .

قال : ولمَّا وصَـلَ العادل والأفضـلُ إلى القُدس سلَّمـاه وأعمالـه وما يجاوِرُه من أعْمَال السّاحل لأبى الهيجاء السّمين ، فرتّب فيه نُوّابه ، وسار معهُما إلى الدّيَار المصريّة . فنَزَل الملكُ العادل على بلبيس ، وكان السعر ما شيا [2] فاستظهر العزيز عليهم .

[١٤٠] قال : ولم يكن غرضُ العادل قَصْدَ مِصْر وإنما خَشِى على الملك العزيز من الأمَـراء أنْ يقتُلوه ويستَوْلُـوا على الـدّيار المصـريّة ، فقصدها لهذا السبب .

ولمَّا ضاقَت الميرَةُ على العسكر الشّامى وقلَّت أزوادُهم ندِمُوا على وصُولهم إلى الدّيار المصريّة ؛ فأرْسَل الملك العادل إلى القَاضى الفاضل

(١) انظر تفصيل ذلك فى مفرج الكروب جـ ٣ ص ٤٦ ـ ٤٩ .

(٢) « وكانت أيام زيادة النيل ، والأسعار غالية ، والعلف متعذر » فى السلوك جـ ١ ص ١٢٦ .

عبْد الرَّحيم فى الاجتماع به ، فأذِنَ له العزيزُ فى ذلك ؛ فخرج إليـه ، فاستَبْشر النَّاس بخرُوجه رَجَاء وقُوع الصّلح . ورَكِب العادلُ وتلقّاه على فَرَاسِخ [(١)] ، فاجتمعا ، واستقرّت القواعدُ على أن يكون إقْطاعُ العادل بمصر على عادَته ، وأن تكونَ إقامتهُ عِنْد الملك العزيز بالقاهرة ، وأن يعفُو [العزيز][(٢)] عن الأسَديّة والأكراد .

واجتَمعَ العادلُ بالأفضل وأمَرهُ بالرُّجوع إلى دمشق . ثمّ اجتمع الأفضَلُ بالعزيز ، واستقرّ الصلح بينهما ، وأهدى العزيز إليه هدايًا جليلةَ المقدار . ورَجَع الأفضل إلى دمشق ومعه أبو الهَيْجَاء السَّمين ، فدَخلها فى المحرّم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

ولم تَطُل المدّة إلى أن بلغ الملك العادل عن الأفضل ما استوغَـرَ خاطرَه ، فعنْد ذلك قرَّر ، مَعَ الملك العزيز ، أن يُجهّز العساكر لتمهّد قواعدَ المُلك بالشّام وسائر البلاد ، واتّفقَا على أن يكونَ العزيزُ بدمشق والعادل ينوبُ عنه بالدّيَار المصريّة .

ذكر ملك الملك العزيز دمشق
وخروج الأفضل إلى صرخد

قال : ولمَّا اتفقَ الملكُ العادل والملكُ العزيز على ماقرَّراه تجهَّز [الملك العادل][(٣)] للمسير إلى دمشق وبرز بخيَامِه من القاهرة فى يوم السّبت

---

(١) المقصود أنه سار عدة أميال لاستقباله .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح ، وانظر مفرج الكروب جـ ٣ ص ٥٢ ، السلوك جـ ١ ص ١٢٨ .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح ــ انظر ما يلى عند الحديث عن خروج العزيز .

مستهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة [فى] [1] ثلاثة آلاف فارس . ثمّ بَرَز الملكُ العزيز فى يوم الثّلاثاء ، رابع الشهر ، وظاهرُ خُروجِه وداعُه لعمّه الملك العادل ، وحث العساكر المجرَّدَة على الخروج . وأقام ببركة الجُبّ .

فلمّا كان فى العشرين من الشّهر اتّصَل بالملك العادل عن الملك الأفضل أنّه كاتَب الأسَدِيّة ، وأنّه قبض على أموالٍ كانَتْ للعادِل بدمَشق ، وأطلَقَ رهائن كانت عند نُوّابه ، وأنّه وافق الظّاهرَ صاحبَ حلب ؛ فقرّر مع الملك العزيز أنْ يتوجَّهَا جميعًا ويأْخُذَا دمَشْق من الأفضل وحَلَب من الظّاهر ، فاتَّفقَا على ذلك وعقَدَا بينهُما يمِينًا .

وشرع الملكُ العزيزُ فى تجهيز رِجَال الحلقة والأعيان ، ورَحَل هو وعمُّه الملك العادل من البركة فى يَوم الثّلاثاء ثامن جُمادى الأولى ، فحَصَل لِلْعَادل ضعفٌ فى هذا النّهار منَعَهُ عن الحركة . وكان وُصُولهما إلى بلبيس فى سَابعِ عشَر الشهر ، وكمُلَت صحّة العَادل فى العشرين من الشهر ، وسَارَ إلى الشام علَى مَهَلٍ ورفق .

فلمّا تحقَّق الملكُ الأفضل قَصْدَهما لبلاده اسْتَشار شيوخ دولته ، فأشارُوا عليه أنْ يستقْبل أخاه وعمه ويسلِّم لهُمَا الأمر ؛ وأشار وزيرُه ضياءُ الدّين ابن الأثير الجزَرى بالتَّصميم والمخَالَفة ، فرَجع إلى رأيه ، وحصَّنَ البلد ، وفرّق الأمراء على الأسوار . فلمّا رأى شيوخ الدولة وأكابرُها أنّه لم يرجع إليهم واعتمد على رأى وزيره راسلُوا الملكَ العزيز والملكَ العادل فى انْتهاز الفُرصة ؛ فركبَا بعساكرهما وتأهّبَا فى يوم الأربعاء السادِسِ والعشرين من شهر رجب وخَرَج أهلُ دمشق لِقتالهم ؛ والْتَقَوْا فى السّابع والعشرين من الشّهر . فلم يكُن بأسْرع من انهزام العَسْكر

(١) [ ] إضافة تتفق والسياق .

الشامى . وتبعَهُم العزيز والعادل حتى ألجأوهم إلى سُور البلد ، ودخلوا دمشق [١] ، وتبعَهم العسكر ، فملُكت البلد .

فعندها ركبَ الملكُ الأفضل إلى خَيمة أخيه الملك العَزيز ، واجتمع به بظاهر دمشق .

قالَ : ودخل الملكُ العادل ومَنْ معه باب تُوما والباب الشّرقى ، ونَزَل بالدّار الأسدية . ودَخَل الملكُ العزيز من باب الفَرج وبات فى دار عمّته الحساميّة[٢] . ومَلَك العزيز دمشق وأقيمت لهُ الخُطْبة فى يوم الجمعة الثّامن والعشرين من الشهر .

قال : ولمَّا ملك الملكُ العزيز دِمَشق ندم على ما كان قرر من إقامَته بالشام وتَمْكِين عمه الملك العادل من الدّيَار المصريّة واعْتَذر [١٤١] إلى أخيه الملك الأفضل فى السّر . فأظْهَر الأفْضَل سِرَّهُ لمن مَعه فظَنّوا أن هذه خديعَة . فأرسل إلى العَادل وأعْلَمه بُرسَلة العزيز ، فعتَبه العادل ، فأنكر الحال[٣] . وخَرَج الأفضل إلى صَرْخد [٤] وقُرِّر لَهُ فى كلّ سنة مائتى ألف درهم من صرخد وغيرها ، وهو كارهٌ لـذلك . وسـألَ أن يكون بمكّـة ؛ وينقَطع إلى الله تعالى ، وينزل عن المُلك ، فلم يُجِبْه العزيز .

وكان خروج الأفضل من دمشق إلى صَرْخـد يوم الاثنـين ، ثانى شعبان سنة اثنتين وتسعين ، فكانت مدّة ملكه لدمشق ، منذ وفاة والده إلى أن ملكها العزيز ، ثلاثَ سنين وخمسة أشهر .

---

(١) « من دمشق » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

(٢) « وبات عند عمته ست الشام بنت أيوب ــ المعروفة بالحسامية ــ والدة حسام الدين بن لاجين ، وإليها تنسب مدرسة ست الشام بدمشق » ــ مفرج الكروب جـ ٣ ص ٦٣ ـ ٦٤ .

(٣) انظر مفرج الكروب جـ ٣ ص ٦٦ ــ ٦٧ .

(٤) صرخد : قلعة حصينة ، من أعمال دمشق ، ملاصقة لبلاد حوران ــ معجم البلدان .

ودَخل الملكُ العزيز قلعَةَ دمشق واستقرّ بها فى يوم الأربعاء رابع شَعْبان من السّنة المذكورة ، وجَلَس يوم الجمعة بدَار العَدْل وأسقط مِن المُكوس بدمشق ماهو مقَـرّرٌ على سُـوق الرّقيق وسُـوق الدوّاب ودَار البـطّيخ ، والمـلاهى ، والعصير ، والفَحْم ، والحـديد ، وسَبْكَى الفـولاذ والزّجاج .

قال : وهرب ضياءُ الدّين ابن الأثير ونُهبت داره .

ونُودِى فى دمشق أن يلْبَس أهل الذّمَّة العمائم الغيار ليُعرفوا من المسلمين وكان سببُ ذلك أنّ الملك العزيز لمّا جَلَس بدَار العَدْل دخلَ عليه رجلٌ له هيئَةٌ حسنة ، فما شكّ العزيز أنه من الأشْراف ، فلمّا علم أنّه ذمّىٌّ أمر بذلك .

قال : ولاطَف الملكُ العزيز عمَّه الملك العادل إلى أن قام بدمشق فى النّيابة ، فأجاب إلى ذلك بَعْد امتناع . وسلّم ديوان دمشق لصفىّ الدّين ابن شُكر [١] كاتب العادل .

وفارقَ الملكُ العزيزُ دمشق فى العَشْر الأوسط من شعبان ، وعادَ إلى الدّيار المصريّة بعد أنْ استخْلَف الملك العادل وسلّم إليه دمشق وما هو مضافٌ إليها من القلاع والحصُون والأعمال ؛ والخُطْبة والسّكّة باسم الملك العزيز .

ودخل العزيز إلى القاهرة جريدةً فى رابع شهر رمضان ؛ وفَوّض شدّ الأمْوال والخطاب عليها للأمـير فخر الـدّين إيَاز جهـارَكس ؛ وضمّن الخُمور فى كلّ سنة بسبعَة عشر ألف دينار ، فتجاهَر النّاسُ بها وظهـر

---

(١) هو عبد الله بن على ، صفى الدين ابن شكر ، وزير الملك العادل الأيوبى ، ثم وزير الملك الكامل الأيوبى ، وتوفى سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٥ م ـــ السلوك جـ ١ ص ٢٢٠ .

الفَساد وفشا فى النّاس ؛ واجتمع الرِّجال والنِّساء فى شهر رمضان من غَيْر اسْتِتَار ، سيّما فى الخَليج وساحِل مصر ؛ ورتّب ضمان الخمر فى النَّفَقَة على طعام السّلطان ؛ وهذه من البَلايا التى لم يُسْمع بمثلها ، فإنّ عادَة الملوك والأكابر [أن][1] يجتهدوا أن يكون مأكَلُهم من أجَلّ الجهات كالجَوالى[2]وما يُنَاسِبُها . وبسبب إطلاق الخُمور كَثُر القتل بالقاهرة والجراحَات ، وخَطْف العمائم والأمتعة والمآكل من الأسواق .

قال المؤرخ : وغَلَت الأسعار فى هذه السّنة بالدّيَار المصريّة ، واشتَدَّ الأمرُ على النّاس ، وكثُر الوباء ، وبلغ القمح كلّ أردبّ بدينارَين ، وأظُن الدّينار ثلاثَة عشردرهما وثُلُث درهم ، وهذا كان نهايَة الغَلاء فى ذلك العَصر .

ولقد وصف [3]الفَاضل من عظم ماحَلّ بالنّاس غلوّ السّعر أمرًا عظيًما فكيف لوأدرَك الفاضل الديار المصريَّة فى سنَة خمس وتسعين وستّمائة وقد أبيع القَمح سعر الأردب ثلاثَة عشر دينارًا ونصفَ دينار وأبيع الفرُّوج بخمسين درهمًا ، ورطل البطِّيخ الأخضر بأربعة دراهم ، والسَّفَرْجلة بثلاثين درهما [4] .

قال المؤرخ : وفى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة كانت وفاة الشيخ السّيد الشريف عبد الرّحيم [5] ، قدّس الله رُوحه ونوَّر ضريحه ، بقنا من أعمال قُوص ودُفن بجبّانتها ، وضريحُه معروفٌ هناك من أعظم مزارات

---

(١) [ ] إضافة يقتضيها السياق .

(٢) الجوالى : مصطلح بمعنى الجزية المفروضة على أهل الذمة .

(٣) « وصل » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٤) يقارن النويرى بالفترة التى عاصرها .

(٥) هو عبد الرحيم بن أحمد بن حجون القنائى ، المتوفى سنة ٥٩٢ هـ/١١٩٦ م ـــ الطالع السعيد ص ٢٩٧ رقم ٢٣٠ .

أهل الصَّلاح بالدُّنيا .

ومِمَّا نُقِل من كلامه ، قدسّ الله روحه ، وقَدْ سمِع المؤذِّن يقول : أشهد أن لا إلـه إلا الله ، فقال الشيـخ شهدنـا بما شَـاهَدْنـا . ومِن كلامـه : لا يستطيع العارِفُ أن يوصِّل إلى منْ لا يعرِفُ حقيقـةَ ما عَـرف ، كما لا يستطيع البصيرُ أن يوصل إلى الأكْمَهِ [١] حقيقة الألوان . وعُرض هذا الكلامُ على الشَّيخ عزّ الدّين عَبْد العزيز [٢] بن عبد السّلام ، رحمه الله ونفع به ، فقالَ هَذَا كَلامُ مَنْ غرِق فى الحقيقة .

[١٤٢] ذكر استيلاء الفرنج على بيروت

وفى يوم الجمعة عاشر ذى الحجّة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة مَلَك الفرنج مدينة بَيروت من المسلمين وسببُ ذلك أنّ فرنج السّاحل راسَلُوا مَلِك الألمان [٣] فى سنة اثنتين وتِسْعين وخمسمائة ، وكان قد مَلَك جزيرة صقلية ، وعرَّفُوه أنّ المسلمين قد اشْتَغَلُوا بحرب بعضِهم بعضًا ؛ فأقبل فى مراكبه [٤] إلى عكَّا . وصادَفَ ذلك سقُوط الكُندهرى [٥] ملك عكا من

---

(١) الأكمه : الذى يولد أعمى ــ اللسان .

(٢) هو عبد العزيز بن عبد السلام الشافعى ، شيخ الإسلام عز الدين أبو محمد ، توفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦١ م ــ طبقات الشافعية الكبرى جـ ٨ ص ٢٠٩ رقم ١١٨٣ .

(٣) هو الامبراطور هنرى السادس ، الذى عمل على استعادة مكانة الألمان فى الأرض المقدسة ، فأرسل حملة ألمانية عاجلة على رأسها أدولف وكنراد ــ انظر تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ١٦٩ .

(٤) انظر الهامش السابق .

(٥) هو هنرى كونت ــ شامبانيا . ولقى مصرعه فى ١٠ سبتمبر ١١٩٧ م ــ تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ١٧٢ .

شُبَّاكٍ فهَلك ، فملَك مِلكُ قبرص [١] عكّا ، وخرج إلى بيرُوت فملَكها من المسلمين ، وكان بها عزّ الدين أسَامة . فعمّرها الفرنج ولَمْ تزل بأيْديهم إلى أنْ فتحها الملك الأشْرفُ [٢] في سنة تسعين وستّمائة ، على ما نذكرهُ إن شاء الله تعالى فى أخبار دولة التّرك .

وفيها خرَجَت المراكبُ الحربية لقَصْد بلاد الفرنج ، فوجَدُوا بُطَشًا للفرنج فملكوها ، فوجد المسْلمون فيها أموالاً جليلة .

وفيها أنشأ الأمير فخر الدين إيازجهارَكس النّاصرى القيْسَاريّـة المعروفة به بالقَاهرة المحروسة ، وجاءت من أحسن الأبنية [٣] .

ذكر وفاة سيف الإسلام بن أيّوب
ملك اليمن وملك ولده شمس الملوك

وفى يوم الأربعاء الثالث من شوّال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة توفى الملك العزيز سيف الإسلام طُغْتكين بن أيّـوب ، أخو السّلطان الملك النّاصر [صلاح الدين][٤] بالمنصُورة التى أنشأها باليمن . وكان قد طرَدَ ولَدَه شمس الملوك[إسماعيل][٥] إلى الحجاز . فلمّا سمِع بوفاة والده سار إلى اليمَن وملَكَ بعْدَه .

---

(١) « ملك الألمان » فى الأصل ، والتصحيح من تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ١٧٤ .

(٢) هو الأشرف خليل بن قلاوون .

(٣) قيسارية جهاركس بالقاهرة : انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٨٧ .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح .

(٥) [ ] إضافة للتوضيح ، وانظر مفرج الكروب حيث ورد به أن أباه أبعده إلى الشام ـــ جـ ٣ ص ٧٣ .

وإلى سيْفَ الإسلام هذا يُنْسَب البستان [١] الذى كان بظاهر القاهِرة ، وهو الآن عمائر تُعْرفُ أرضها بحِكر سَيْف الإسلام .

ذكر وفاة الملك العزيز وشيء من أخباره

كانت وفاتُه فى ليلة الأحد العشرينَ [٢] من المحرّم سنة خمس وتسْعين وخمسمائة بداره بالقاهرة .

وكانَ قد خرَج إلى الفيُّوم لقَصْد الصَّيد إلى ذات الصّفا ، فحُمَّ ، فعاد إلى القاهرة واشْتدّ مرضُه ، فمات . وقيل إنّه ساق خَلْف الصّيد فكَبا به فرسُه مرّةً بعد أخرى ، فماتَ بعد ثلاثٍ . ودُفن بداره بالقاهرة [وكان مولده بالقاهرة][٣] فى ثامن جُمادى الأولى سنةَ سبع وستّين ، وقال الفَاضل فى جُمادى الآخرة . فكانت مدّة عمره سبْعًا وعشرين سنةً وثمانية أشهر واثنى عشر يوما ؛ ومدة ملكه خمس سنين وعشرة أشهر وعشرين يَومًا .

وكان رحمهُ الله عادلاً كريمًا بالمال ، بخيلاً على طعامه شجاعًا حسَن الأخلاق .

وخَلَّفَ من الأولاد أحد عشر ولدًا ، وهم الملكُ المنصُور محّمد ، القائمُ بعْده ؛ وعلى ، وعمر ، وإبراهيم ؛ وعيسى ؛ ومحمود ؛ ورعاه ، ويوسف ؛

---

(١) بستان سيف الإسلام : شرقى بركة الفيل فيما بين البركة والجبل الذى عليه قلعة الجبل — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٣٣ ، الانتصار ق ٥ ص ٤٥ .

(٢) « السابع والعشرين » فى مفرج الكروب جـ ٣ ص ٨٣ ، السلوك جـ ١ ص ١٤٤ .

(٣) [ ] إضافة تتفق مع السياق من الروضتين جـ ١ ص ٧٠٩ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص

ويونس ؛ وولدان صغيران . ولم يخلّف فى خزانته ذهباً ولا دراهم إلاّ بعض قماش ليْسَ بالطّائل .

ذكر سلطنة الملك المنصُور محمد بن الملك العزيز ابن الملك الناصر وهو الثالث من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصريّة

[١٤٣] ملَك الدّيار المصريّة بعدَ وفاة أبيه فى يَوم الأحد العشرين[١] من المحرّم سنَةَ خمس وتسعين وخمسائة بوصية منه . ولمَّا مَات الملكُ العزيز كان عَمُّه الملك العادل يُحاصِر مَارِدين فاجتمعت الأمراء الصَّلاحية وعَقَدُوا الأمر لِولده ولقَّبُوه بالملك المنصور ، وكانَ قبل ذلك يُلقَّب بالنَّاصر وإنما تركُوا النّاصر لموَافَقته لَقَب الخليفة[٢] وركبَ فى يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من المحرّم ، وشقّ القاهرة من باب زَويلة إلى باب النَّصر ، والأمراء فى خِدمته . وكتب الأمراء إلى الملك العَادل يعزُّونه فى ابنْ أخِيه الملك العزيز ، ويدكُرون اتفاقهم على تنصيب[٣] ولَده فى السَّلطنه بعْده ، وأنهم على طَاعة الملك العادل .

ثم اجتمع الأُمراء الأسَدية والصَّلاحية بظَاهرِ القَاهرة وقالوا : إن الذى فعلنَاه من حِفظ الملك العَزيز فى وَلَدِه هو نِعْم الرأى ، وإنما هُو صَغير السِّن لا يفهم ما يُقال له ، ولا يقُوم بأعباء المُلك ، ولا بد لنا من كبير منْ

---

(١) « حادى عشر المحرم » فى السلوك جـ ١ ص ١٤٦ ، وهو يتناقض مع ما سبق وروده فى السلوك من أن وفاة العزيز كانت فى ٢٧ محرم ــ انظر السلوك جـ ١ ص ١٤٤ ، ١٤٦ .

(٢) هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ، الذى ولى الخلافة العباسية فى الفترة من ٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م ـ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٣ .

(٣) « نصب » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

هَذا البيت يُربِّيه ويكْفُلُه ويدبّر أحوال الدَّولة ، ولَيسْ لها مثلُ الملك العادل ، وهو الآن مشغول ببلاد الشَّرق.وقصَدُوا أن يكْتُبوا إليه ويَستدعوه فكرِهَ بعضُهم شِدةَ أخلاقه ومُماقَتَتُه[1] للجند فَعدلوا عنه واتفقوا علَى استِدعاء الملك الأفضل من صَرخَد .

وأن يتولَّى أتابكيَّة الملك المنصور وأن ينوب عن الأفضل إلى حين وصوله ، أخوه الملكُ الظافر خِضْر ، فاستَقرَّ ذلك[2] .

وكتبوا إلى الأفضل وذَلك فى يوم الخميس سَادس عشَر صفَر من السّنة ونزل الملك الظّافر بدَارِ الوّسلَطَنة فى القاعة العزيزيَّة ، وقام بنيابة السلطنة .

قال : ولمَّا وصل كِتابُ الأمراء إلى الأفضل خرج من صَرْخَد فى ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر ، وسلك البرِّيَّة إلى البيت المقدَّس .

ذكر وصول الملك الأفضل إلى القاهرة واستقراره فى تدبير دولة المنصور

كان وصولُه إلى القاهرة فى يوم الخميس السَّابع من شَهر ربيع الأول سنةَ خمس وتسعين وخمسمائة ؛ فبرزَ الناس لِلقائه ، وزُيِّنت المدينةُ ، لقُدومه . ولَّما دخل أقرَّ الخُطبة باسم الملك المنصُور ابن أخيه ، ونَقَش السّكة باسمه ، وكان الأفضل يُذكر بعده . وكَتَب إلى عمّه الملك العادِل يبذُل له الطَّاعة والانْقِياد إلى أمره

---

(١) ماقت الرجل : أبغضه أشد البغض ، والمماقتة من المشاركة : أى أن البغض متبادل بين العادل والجند من الصلاحية ـــ القاموس .

(٢) « وأقيم الملك الظافر مظفر الدين خضر بن السلطان صلاح الدين مباشر نيابة السلطنة حتى يقدم الأفضل » ـــ السلوك جـ ١ ص ١٤٦ .

قال : ولمَّا وصَل الملكُ الأفضل إلى بلبيس خرج فخر الدّين إيازجهارَكس وزين الدين قراجا على أنهما يلتقيَانه ، فتوجها إلى الملك العادل . ثم خرج فى يَوْم وصُوله الأمير شمس الدّين [١] سراسُنْقر بمماليكه وجماعة من أصحابه والتحق بالملك العادل ، وسَار إليه ، إلى مَارِدين .

ذكر مسير الملك الأفضل إلى الشام وحصَار دمشق وعوده عنها وخروجه عن الديار المصريّة

قال : ولما استَقَرَّ الأفضل فى تدْبير الدّولة بالدِّيار المصريَّة ، ولم يَبْقَ للملك المنصُور معه إلا الشّركة فى الخُطْبة ، حمَله أصحابُه على قَصد دمشق وحَصْرها ، وقالوا : هى لك بوصِيّة أبيك الملك النّاصر .فعَزم على المسير اليها ، وأمر العَسَاكر بالاسْتعداد لذلك . وبَرَز إلى المخيّم ببركة الجُبِّ ، هو وابن أخيه الملك المنصُور ، فى يوم السّبت العشرين من جُمادى الأولى من السّنة واستَحثَّ العسكر على الخروج .

ووصل إليه فى يوم الأربعاء ، السّادس من جمادى الآخرة ، رسولٌ من أخيه الملك الظّاهر صَاحب حَلب وهو يَلُومُه على إنْفَاذ الرُّسل بالطّاعة للعادل ، ويقول : إن أكثر الناس كانوا منْصَرفين عنه فانصَرفوا إليه ، وحثّه على سُرعة قَصْد دِمشق ؛ ويقول : اغْتَنم الفُرصة مادام العَادِلُ فى حصَار ما رِدين ؛ ووَعَده بالوصُول إليه فأكَّد ذلك ما عنده ، وأقام ببركة الجُبّ وهو يحثُّ العسْكر على سُرعة الحركة ، إلى ثانى شهر رجَب ، فرحل عنها .

---

(١) « أسد الدين » فى السلوك جـ ١ ص ١٤٧ ، ومفرج الكروب جـ٣ ص ٩٢ .

وفى مدّة مقامه ببركة الجُبّ أحضر قاضي القضاة والشُّهود، وأشهدهم على نفسه [١٤٤] أنه وقف المطريّة[١] ومُنْية الباسل[٢] والرّباع المسوّغة والمستمرّة بيد الدّيوان على عِمارة سُور القاهرة ومِصْر والبيمارِستان بالقاهرة.

قال: ولمّا وصل الأفضل إلى بلبيس احْتاطَ على ما كان باسْم العَادل وألْزامه بالدّيار المصريّه؛ وأقْطعه، ثم قَبَض على أخيه الملك المؤيّد وقَيّده وأعاده إلى القاهرة، فاعتُقل بالقَلْعة. وتَمادى الملك الأفضل فى سَيْره إلى دمشق. هذا ما كان منه.

وأمَّا الملك العادل فإنَ سراسُنقر النَّاصرى وصَل إليه بما رِدين واستحثّه على العَوْد إلى دمشق، فأوصى ولدَه الملكَ الكامل بمُحاصَرتها. وفارقَها العادلُ لخمْسٍ بقينَ من شهر رجب، ووصل إلى دمَشْق فى يوم الاثنين حادى عشر شعبان، وأخذ فى تحْصين البلد. ووصلت العساكرُ المصرية فى يوم الخميس، ورتّب الأطْلاَب وسارَ الملكُ المنصُور بنُ الملك العزيز فى القَلْب وزحَفَ على البَلَد فأخَذ قصْر حَجَّاج والشَّاغور. وكان العادلُ لما شاهدَ إقبال العَساكر أمر بإحْراق قصْر حجّاج، فأُحرق، واحترق فيه عدَّة مساجد وأطفال. وأحاطت العَساكر المصريَّة بدمشق، ودَخَلها جماعة منهم من باب السَّلامة، وانتهَوْا إلى السُّوق الكبير، وخرجُوا من باب الفرَاديس. وقدم الأفضل الميدانِ الأخضر[٣] ثم تأخّر إلى مَيدان الحصى؛ واستقر بهذه المنْزلة أكثر من ستَّة أشْهُر.

---

(١) المطرية: من ضواحى القاهرة ـ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ١ ص ١١.

(٢) منية الباسل = المنيا = منية الباسك = من إقليم الاطفيحية، وهى حاليا تابعة لمركز الصف بمحافظة الجيزة ـ القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٣ ص ٣١.

(٣) «وسير الأفضل بالديوان الأخضر» فى الأصل، والتصحيح من مفرج الكروب جـ ٣ ص ٩٥، السلوك جـ ١ ص ١٤٨.

وكاتب الملكُ العادل جماعةً من الأمراء المصريّين ، ففارَقُوه ودَخَلُوا إلى دمشق فأكرمهم .

ثم وصل الملكُ الظّاهر صاحبُ حلب ومعه أخواه الـظّافر والمعزّ وجاءهُم الملكُ المجاهدُ صاحب حمص ، وعسكر حماة دُونَ سُلطانها[٢] ، وحسام الدّين بشارة صاحب حمص بانياس ، وكان من أكابر الدّولة ، فأشار بالصلح .

قال : ولمّا حاصَر الملكُ الأفضل دمشق مَنَع مَنْ يدخُل إليها بشيء من الميرة ، وقطع عنها الأنهار ؛ فاشتدَّ الأمر على أهل دِمَشق ، واستغـاثت الرَّعايا على العادل ، وتسلَّطوا عليه ، وحملوه على تَسْليم البلَد . وانْتَقل أكثر مَنْ فى البلد إلى العَسْكر ، ونصبوا به أخْصَاصًا ومساكن ؛ وأُقيمت الأسواقُ به .

فلمّا اشتدَّ الأمر على العَادل كتب إلى الظّاهر يَستميلُه وقـال : أنا أسلّم البلَد إليك دَونَ غيرك ، فنُمِى الخبرُ إلى الأفضل ، فاضطَرب رأيُهما ، وقيل بل كتب إليهما يقول : أنا أسلم البلَد إليكُما بعد سَبْعَة أشهر فأَجَابَاهُ إلى ذلك . وقيل إنه كان يكتب إلى الأفضل يقولُ الظّاهر قد صَالَحنى ، وإلى الظّاهر بمثل ذلك .

واتَفقَ فى فَسَـادِ حال الأفضـل أن جماعـة الأمراء كـان بأيـديهم إقطاعاتٌ بالدّيَار المصريَّـة جليلَةُ المقدار ، فحسَـدَهم آخرون عليهـا ، فكانوا يأتُون إلى الملك الأفْضل ويقولُون : إنَّ فلانًا قد عزَم على قَصْد عَمّكَ العَادل والانضمام إليه ، ويأتون لذلك الأمير فيقولون : إنّ الأفضل قَدْ عَزم القَبضَ عليك ، ويأتى ذلك الأمير إلى الأفضل فيَرى فى وجْهه أثر التغيُّر لِمَا نُقل عنه ، فلا يشكّ ذلك الأميرُ فى صِدْق النَّاقل فالْتحق بـه جماعةٌ من الأمراء

فبينما الأفضل كذلك إذ قَدِم الملكُ الكامل بن الملِك العَادل من الشَّرق ، فى تاسع عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة ، بالعساكر والتُّركمان فاشْتدّ به عضُد أبيه . وتأخر الأفضل بمن معه إلى سَفح جَبل العَقَبة ، ثم انتقل إلى مَرْج الصُّفَّر فى يوم الاثنين ثانى عشرى صفر ؛ وعَادَ الظّاهر والمجاهد[١] .

واشتد البرْد على العَسْكر المِصرى فعاد الأفضلُ إلى الدّيار المصريّة ، وسَاقَ العَادل بعسَاكره فى أثره . فكان وُصُول الأفضل إلى بلبيس فى حَادى عشرى شهر ربيع الأول فأشار عليه أصحابه بالإقامة بها .

قال : ولَمَّا وصَلَ الملكُ العادِل إلى تلّ العجُول[٢] أقام به حتى اجتمع إليه أصحابه ، ورَاسَل الأفضل ، فعاد جوابه أنه لا يصالحُه حتّى يفارق الأمراء الصلاحية .

فلما اتصل ذلك بالصلاحية غضبوا وعزموا على المسير إليه .

هذا والأفضل على بلبيس ، وقد تفرق معظم أصحابه إلى إقطاعاتهم وجماعة منهم باطنوا الملك [العادل][٣] .

---

(١) كان يتولى حماة وتوابعها المنصور محمد بن تقى الدين عمر ، وذلك فى الفترة من ٥٨٧ ـ ٦١٧ هـ/١١٩١ ـ ١٢٢٠ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ١٤٧ .

(٢) تل العجول : بالقرب من غزة ــ معجم البلدان .

(٣) [ ] إضافة يقتضيها السياق ، انظر مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٠٨ ، السلوك جـ ١ ص ١٥٠ .

وعند هذا الموضع تنتهى اللوحة ١٤٤ وهى آخر ما وجد من جـ ٢٦ من مخطوط نهاية الأرب . ومن الأرجح أن هناك ورقة أخرى مفقودة فيها ذكر للأحداث التى تربط بين ما جاء فى هذه الورقة وبداية الجزء التالى من المخطوط والذى يبدأ بالكلام عن أخبار الملك العادل ودخوله القاهرة فى ٢٢ ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ ، وذلك تحت عنوان : « ذكر أخبار السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب وسلطنته » .

[ومضى الملك العادل يطوى المراحل إلى أن دخل الرمل وبلغ الملك الأفضل ذلك ، فرام جمع عساكره ، فتعذر ذلك عليه لتفرقهم فى أخبارهم ، وتشتتهم فى الأماكن التى يربعون فيها خيلهم ، فخرج فى جمع قليل ، ونزل السانح .

ووصل الملك العادل ، وضرب معه مصافا ، فانكسر عسكر الملك الأفضل ، وولوا منهزمين لا يلوون على شيء .

ثم سار الملك العادل بالعساكر ، ونزل بركة الجب ، وسير إلى الملك الأفضل يقول له : « أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة ، لأنها أعظم معاقل الإسلام ، ولا تحوجنى إلى أخذها بالسيف ، واذهب الى صرخد وأنت آمن على نفسك » .

فاستشار الملك الأفضل الأمراء فرأى منهم تخاذلا ، فأرسل إلى عمه يطلب منه أن يعوضه عن الديار المصرية بالشام ، فامتنع من ذلك ، فطلب أن يعوضه حران والرها فامتنع ، فطلب منه جانى وجبل جور وميافارقين وسميساط ، فأجابه إلى ذلك ، وتسلم القاهرة منه .][1]

* * *

[انتهى الجزء السادس والعشرون من كتاب : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع والعشرون ، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل][2] .

---

(١) [ ] إضافة لربط أحداث نهاية هذا الجزء بالأحداث التالية فى بداية الجزء التالى ـ مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٢) خاتمة للجزء تتفق وسياق خاتمة الجزء السابق من كتاب نهاية الأرب .

مختصرات مصادر ومراجع التحقيق

تحتوى القائمة التالية على أسماء المصادر والمراجع الإضافية ومختصراتها التى استلزمها تحقيق الجزء الثامن والعشرين من كتاب نهاية الأرب للنويرى .[1]

أولا : القرآن الكريم .

ثانيا : المصادر والمراجع :

(١) اتعاظ الحنفا = المقريزى (أحمد بن على ، ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٢ م) :
ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا .
٣ أجزاء ـ تحقيق جمال الدين الشيال ـ محمد حلمى محمد أحمد ـ القاهرة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ .

(٢) أخبار الدول المنقطعة = ابن ظافر (جمال الدين بن على ت ٥٩٧ هـ/١٢٠١ م) :
أخبار الدول المنقطعة ـ دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين ـ تحقيق أندريه فريه .
المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٧٢ .

(٣) أخبار مصر = المسبحى (محمد بن عبيد الله بن أحمد ، ت ٤٢٠ هـ/١٠٢٩ م) :
ـ الجزء الأربعون من أخبار مصر .
تحقيق أيمن فؤاد سيد ، وتيارى بيانكى ـ القسم التاريخى .
المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٧٨ .

---

(١) تخفيفًا لهوامش التحقيق استخدمنا مختصرات فى الإشارة إلى المصادر والمراجع ، وفى هذه القائمة أثبتنا المختصرات ـ كما وردت فى الهوامش ـ مرتبة ترتيبا أبجديا . وأمام كل مختصر اسم المصدر أو المرجع المقصود .

(٤) الإشارة = ابن الصيرفى (على بن منجب بن سليمان ت ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م) :
ــ الإشارة إلى من نال الوزارة .
تحقيق عبد الله مخلص .
المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٢٤ .

(٥) الاعتبار = أسامة بن منقذ ، ت ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م) :
ــ كتاب الاعتبار .
نشره فيليب حتى .
جامعة برنستون ــ الولايات المتحدة ١٩٣٠ .

(٦) أعلام الإسكندرية = جمال الدين الشيال :
ــ أعلام الإسكندرية ــ القاهرة ١٩٦٧ .

(٧) افتتاح الدعوة = القاضى النعمان (النعمان بن محمد بن منصور بن حيون ، ت ٣٦٣ هـ/٩٧٣ م) :
ــ كتاب افتتاح الدعوة .
تحقيق فرحات الدشراوى ــ تونس ١٩٧٥ .

(٨) الانتصار = ابن دقماق (إبراهيم بن محمد ، ت ٨٠٩ هـ/١٤٠٦ م) :
ــ الانتصار لواسطة عقد الأمصار .
نشر فولرز ــ بولاق ١٣٠٩ هـ/١٨٩٣ م .

(٩) البداية والنهاية = ابن كثير (إسماعيل بن عمر ، ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٣م) :
ــ البداية والنهاية ــ ١٤ جزء ــ بيروت ١٩٦٦ .

(١٠) تاريخ الحروب الصليبية = رنسمان :
ــ تاريخ الحروب الصليبية ــ ترجمة السيد الباز العرينى .
٣ أجزاء ــ بيروت ١٩٦٧ ــ ١٩٦٩

(١١) تاريخ الدول الإسلامية = أحمد السعيد سليمان
ــ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ــ
جزءان ــ دار المعارف ــ القاهرة ١٩٦٩ .

(١٢) تاريخ دولة الكنوز الإسلامية = عطية القوصى
ــ تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ــ القاهرة ١٩٧٦ .

(١٣) تاريخ ابن الفرات = ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم المصرى ، ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤ م) :
ــ تاريخ الدول والملوك .
المجلد الرابع ــ البصرة ١٩٦٧ .
المجلد ٧ ــ ٩ ــ بيروت ١٩٣٦ ــ ١٩٤٢ .

(١٤) تاريخ مدينة الإسكندرية = جمال الدين الشيال
ــ تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ــ
القاهرة ١٩٦٧ .

(١٥) تاريخ ووصف قلعة القاهرة = كازانوفا :
ــ تاريخ ووصف قلعة القاهرة ــ ترجمة أحمد دراج ــ القاهرة ١٩٧٤ .

(١٦) تكملة تاريخ ابن البطريق = يحيى بن سعيد الأنطاكى .
ــ تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى
نشر كراتشكوفسكى ــ ١٩٢٤ .

(١٧) الحركة الصليبية = سعيد عبد الفتاح عاشور
ــ الحركة الصليبية ــ جزءان ــ
القاهرة ١٩٦٢ .

(١٨) حسن المحاضرة = السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١ هـ/١٥٠٥م) :
ــ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ــ
جزءان ــ القاهرة ١٩٦٧ .

(١٩) خزانة السلاح = مجهول
خزانة السلاح ، مع دراسة عن خزائن السلاح ومحتوياتها ــ نشر نبيل محمد عبد العزيز
القاهرة ١٩٧٨ .

(٢٠) ذيل تاريخ دمشق = ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى ، ت ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م) :
ــ ذيل تاريخ دمشق ــ نشر أمدروز ــ
بيروت ١٩٠٨ .

(٢١) رحلة ابن جبير = محمد بن أحمد بن جبير ، ت ٦١٤ هـ/١٢١٧ م) :
ــ رحلة ابن جبير ــ بيروت ١٩٦٤ .

(٢٢) الروضتين = أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل ، ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٨ م) :
ــ الروضتين فى أخبار الدولتين .
الجزء الأول تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ــ
القاهرة ١٩٥٦ ــ ١٩٦٢ .

(٢٣) السلوك = المقريزى (أحمد بن على ، ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٢ م) :
ــ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .
حـ ١ ــ ٢ تحقيق د . محمد مصطفى زيادة ــ
القاهرة ١٩٣٤ ــ ١٩٥٨ .

(٢٤) سيرة ابن طولون = البلوى (عبد الله بن محمد بن عمير ، ت بعد ٣٣٠ هـ/٩٤١ م :
ــ سيرة أحمد بن طولون ــ تحقيق محمد كرد على ــ
دمشق ١٣٥٨ هـ .

(٢٥) شذرات الذهب = ابن العماد الحنبلى (عبد الحى بن أحمد بن محمد ، ت ١٠٨٩ هـ ــ ١٦٧٨ م) :
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ــ ٨ أجزاء ــ بيروت .

(٢٦) الشرق الأوسط والحروب الصليبية = السيد الباز العرينى
ــ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ــ القاهرة ١٩٦٣ .

(٢٧) شفاء القلوب = الحنبلى :
ــ شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب .
مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٣١ .

(٢٨) صبح الأعشى = القلقشندى (أحمد بن على ، ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م) :
صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ــ ١٤ جزء ــ
القاهرة ١٩١٩ ــ ١٩٢٢ .

(٢٩) الطالع السعيد = الادفوى (جعفر بن ثعلب ، ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م) :
ــ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ــ
تحقيق سعد محمد حسن ــ القاهرة ١٩٦٦ .

(٣٠) طبقات الشافعية الكبرى = السبكى (عبد الوهاب بن على ، ت ٧٧١ هـ/ ١٣٧٠ م) :
ــ طبقات الشافعية الكبرى ــ ١٠ أجزاء ــ القاهرة ١٩٧٦ .

(٣١) **العبر = الذهبى (محمد بن أحمد ، ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م) :**
ــ العبر فى خبر من غبر ، نشر صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد ــ ٥ أجزاء ــ الكويت ١٩٦٠ ــ ١٩٦٦ .

(٣٢) **العقد الثمين = الفاسى (محمد بن أحمد الحسنى المكى ، ت ٨٣٢ هـ/١٤٢٨م) :**
ــ العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين .
تحقيق فؤاد السيد ــ ٨ أجزاء ــ القاهرة ١٩٥٩ ــ ١٩٦٩ .

(٣٣) **عقد الجمان = العينى (محمد بن أحمد ، بدر الدين ، ت ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م) :**
ــ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ .

(٣٤) **القاموس الجغرافى = محمد رمزى :**
ــ القاموس الجغرافى للبلاد المصرية .
قسمان فى ٥ أجزاء ــ القاهرة ١٩٥٣ ــ ١٩٦٣ .

(٣٥) **القاموس المحيط = الفيروز آبادى (محمد بن يعقوب الشيرازى ، ت ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م) :**
٤ أجزاء ــ القاهرة ١٩٥٢ .

(٣٦) **قوانين الدواوين = ابن مماتى (الأسعد شرف الدين أبو المكارم ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩ م) :**
ــ كتاب قوانين الدواوين ــ تحقيق عزيز سوريال عطية ــ مصر ١٩٤٣ .

(٣٧) **الكامل = ابن الأثير (على بن أبى الكرم ، ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٣ م) :**
ــ الكامل فى التاريخ .
١٣ جزء ــ بيروت ١٩٨٣ .

(٣٨) كنز الدرر = ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله ، ت بعد ٧٣٦ هـ/ ١٣٣٥ م) :

ــ كنز الدرر وجامع الغرر .

الجزء السادس : الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية .

ــ تحقيق صلاح الدين المنجد ــ القاهرة ١٩٦١ .

الجزء السابع : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب .

ــ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ــ القاهرة ١٩٧٢ .

(٣٩) الكواكب السيارة = ابن الزيات (محمد الأنصارى ت ٨١٤ هـ/١٤١١ م) :

ــ الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة .

بولاق ١٣٢٥ هـ .

(٤٠) لسان العرب = ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ، ت ٧١١ هـ/١٣١١ م) :

ــ لسان العرب ــ ٢٠ جزء ــ بولاق ١٣٠٠ ــ ١٣٠٨ هـ .

(٤١) المختصر = أبو الفدا (إسماعيل بن على ، ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م) :

ــ المختصر فى أخبار البشر ــ ٤ أجزاء ــ استانبول ١٩٣٨ .

(٤٢) المسلمون والبيزنطيون = أحمد عبد الكريم سليمان .

ــ المسلمون والبيزنطيون فى شرقى البحر المتوسط .

الجزء الأول ــ القاهرة ١٩٨٢ .

(٤٣) مصر فى عصر الإخشيديين = سيدة إسماعيل كاشف .

ــ مصر فى عصر الإخشيديين ــ القاهرة ١٩٧٠ .

(٤٤) مضمار الحقائق = محمد بن عمر بن شاهنشاه الأيوبى ، ت ٦١٧ هـ/١٢٢٠ م) :

ــ مضمار الحقائق وسر الخلائق ــ تحقيق حسن حبشى ــ القاهرة ١٩٦٨ .

(٤٥) معجم البلدان = ياقوت (ياقوت الحموى ، ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م) :
ــ معجم البلدان ــ ٥ مجلدات ــ بيروت .

(٤٦) معجم البلدان الليبية = الطاهر أحمد الزاوى .
ــ معجم البلدان الليبية .
طرابلس ــ ١٩٦٨ .

(٤٧) معجم السفن الإسلامية = درويش النخيلى .
ــ السفن الإسلامية على حروف المعجم .
القاهرة ١٩٧٩ .

(٤٨) المغرب = البكرى (أبو عبيد ، ت ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م) :
ــ المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ــ نشر دى سلان ــ الجزائر ١٨٥٧ .

(٤٩) مفرج الكروب = ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م) :
ــ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .
جـ ١ ــ ٣ نشر جمال الدين الشيال ــ القاهرة ١٩٥٣ ــ ١٩٦٠ .

(٥٠) الملل والنحل = الشهرستانى (محمد عبد الكريم) :
ــ الملل والنحل ــ تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ــ ٣ أجزاء ــ القاهرة ١٩٦٨ .

(٥١) المنتقى من أخبار مصر = ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف جلب راغب ، ت ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م) :
ــ المنتقى من أخبار مصر .
تحقيق أيمن فؤاد سيد .
المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٨١ .

(٥٢) المواعظ والاعتبار =المقريزى (أحمدبن على ، ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٢ م) :
ـــ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـــ
جزءان ـــ بولاق ١٢٧٠ هـ/١٨٥٤ م .

(٥٣) النجوم الزاهرة = ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ، ت ٨٧٤ هـ/١٤٧٠ م) :
ـــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
١٦ جزء ـــ القاهرة ١٩٢٩ ـــ ١٩٧٢ .

(٥٤) نصوص من أخبارمصر = ابن المأمون (موسى بن المأمون البطائحى ، ت ٥٨٨ هـ/١١٩٢ م) :
ـــ نصوص من أخبار مصر .
تحقيق أيمن فؤاد سيد .
المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٨٣ .

(٥٥) النكت العصرية = عمارة اليمنى (أبو الحسن نجم الدين ، ت ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م) :
ـــ كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ـــ باريس ١٨٩٧ م .

(٥٦) نهاية الأرب = النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، ت ٧٣٢ هـ/١٣٣٢ م) :
ـــ نهاية الأرب فى فنون الأدب .
٢٧ جزء ـــ مطبوع بالقاهرة ١٩٢٣ ـــ ١٩٨٥ .

(٥٧) النوادر السلطانية = ابن شداد (يوسف بن رافع ، بهاء الدين ، ت ٦٣٢ هـ/١٢٣٤ م) :
ـــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـــ
تحقيق جمال الدين الشيال ـــ القاهرة ١٩٦٤ .

(٥٨) **وصف قلعة الجبل = كريزويل :**

ـــ وصف قلعة الجبل ـــ ترجمة جمال محمد محرز ـــ القاهرة ١٩٧٤ .

(٥٩) **وفيات الأعيان = ابن خلكان (أحمد بن محمد ، ت ٦٨١ هـ/١٢٨٢ م) :**

ـــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـــ

٨ أجزاء ـــ تحقيق إحسان عباس ـــ بيروت ١٩٦٨ ـــ ١٩٧٢ .

(٦٠) **الولاة والقضاة = الكندى (محمد بن يوسف ، ت ٣٥٠ هـ/٩٦١ م) :**

ـــ كتاب الولاة وكتاب القضاة ، صححه رفن كست ـــ بيروت ١٩٠٨ .

* * * *

محتويات الكتاب
الباب الثانى عشر من القسم الخامس
من الفن الخامس
أخبار ملوك الديار المصرية
الدولة الطولونية

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
ذكر ولاية أبى المسك كافور الخصى الإخشيدى واستقلاله بملك مصر دون شريك ولا منازع	٥٤
ذكر أخبار الدولة العبيدية التى انتسب ملوكها إلى الشرف وألحقوا نسبهم بالحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما	٦٣
ذكر ابتداء أمرهم وأول من قام منهم	٦٦
ذكر أخبار أبى عبد الله الشيعى داعى المغرب وما كان من أمره ، وكيف ظهر وما فتحه من بلاد المغرب	٧٧
ذكر انتقال أبى عبد الله الشيعى عن بنى سكتان إلى بنى عصمة بتازرارت	٨٥
ذكر تغلب أبى عبد الله الشيعى على مدينة مِيلة	٩١
ذكر الحرب بين أبى عبد الله الشيعى وبين أبى حوال محمد بن أبى العباسى	٩٢
ذكر تغلب أبى عبد الله الشيعى على مدينة سَطِيف	٩٣
ذكر خروج إبراهيم بن حنبش إلى بلد كتامة	٩٤
ذكر هرب زيادة الله إلى المشرق	٩٦
ذكر رجوع أبى عبد الله الشيعى إلى أفريقية	٩٧
ذكر خروج أبى عبد الله الشيعى إلى سجلماسة	٩٨
ذكر ابتداء الدولة العبيدية وأخبار المهدى عبيد الله وما كان من أمره منذ خرج من الشام إلى أن ملك البلاد وتسلم الأمر من أبى عبد الله الشيعى	١٠٠
ذكر رحيل عبيد الله من الشام ووصوله إلى سجلماسة	١٠٠
ذكر أخبار أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس وما كان من أمرهما بعد قيام عبيد الله المهدى إلى أن قتلهما	١٠٦
ذكر أخبار من خالف على عُبَيْد الله وما كان من أمرهم	١١٠
ذكر بناء مدينة المهدية	١١١

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

انتهى بحمد الله الجزء الثامن والعشرون ـ من تجزئة المطبوع ـ من كتاب نهاية الأرب ، ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء التاسع والعشرون .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٧٩/١٩٩٢
ISBN 977-01-2945-3